D
3A

سياسة حمودة باشا في تونس :
١٧٨٢ ـ ١٨١٤

رشاد الامام

رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
وهي من متطلبات الحصول على درجة دكتوراه في الفلسفة

The Policy Of Hammuda Pasha In Tunisia

1782 - 1814

By

Rashad al-Imam

Submitted to the Department of History of the American University of Beirut in partial fulfillment of the requirements of the degree of Doctor of Philosophy.

Abstract

This dissertation is a study of the rule of Hammuda Pasha, Bey of Tunis from 1782 to 1814. This period in the history of Tunisia is still largely obscure as it has not been adequately studied by modern scholars. The aim of this study is to bring to light the main activities of Hammuda Pasha, to deduce the policies which lay behind these activities and to evaluate the role which the Bey played in the modern history of Tunisia.

This study is divided into six chapters. Chapter one is an evaluation of the sources used in this work. Chapter two is a historical survey of Tunisia prior to the reign of Hammuda Pasha. Chapter three is a biography of this Bey. Chapter four discusses the factors which affected the formation of his policy: his personality, his cultural background, the influence of the statesmen and high ranking officials in his entourage, and the internal Tunisian political situation which reflected, on the one hand, the decline of Ottoman power and, on the other, the interests and conflicts of the rival European powers in the Mediterranean. Chapter five discusses Hammuda Pasha's internal policy in regard to government and administration, military organization, internal security, economic activity, public health, and religious and intellectual life. From this discussion one may note the serious and continuous efforts of the Bey to improve the situation of his country by ensuring internal stability and security and laying the foundations of public order, economic welfare and social improvement. Chapter six is devoted to the external policy of Hammuda Pasha, in particular to the Bey's relations with the various European and Muslim nations and his efforts to liberate Tunisia from foreign interference and domination in order to make that country a sovereign and autonomous state.

Finally, in the Conclusion, the achievements and accomplishments of Hammuda Pasha, in both the external and internal fields, are evaluated. It is concluded that the reform movement which took place in nineteenth century Tunisia had, to a certain extent, its roots in Hammuda Pasha's policy, that his rule was, in many respects, a period during which the basis of the modern Tunisian state was established, and which, from this point of view, may be considered as the forerunner of the movement of modernization in which Ahmad Bey (1837 - 1855) was later to play a great part. Certain aspects of the rule of Hammuda Pasha, however, remain obscure. For example, there is no evidence that the Bey attempted to initiate scientific progress into Tunisia, by such means as sending student missions to Europe, or of bringing teachers and experts to work in Tunisia (as Hammuda Pasha's contemporary Muhamad Ali did in Egypt). Another point which needs clarification is the extent to which the state, under Hammuda Pasha and his advisers, tried to monopolize the external commerce of Tunisia.

This dissertation relies primarily upon primary sources located in the National Archives of Tunisia, the French Consular Archives in Tunis, the Public Record Office of London, the National Archives of Paris, the archives of the Quai d'Orsay, and, finally, the National Archives of Turkey in Istanbul. In addition to these official government documents, use was made of manuscript material in the National Library of Tunis, the British Museum and the Bibliotheque Nationale in Paris. These and other libraries also provided printed original primary sources, chief among which were the contemporary accounts of European travellers and residents in Tunisia.

The author of this work is grateful to Dr. C. Zurayk, for his guidance and help and to Dr. J. Malone, for his assistance in facilitating this research.

فهرس المحتويـــــــــات

	الصفحة
مقدمـــــة	أ ـ ٢
الفصــل الاول : وصــف المصادر والمراجع وتقييمهــا	٣ ـ ٤٣
الفصــل الثانــي : تونــس قبيــل عهد حمودة باشــا	٤٤ ـ ٦٦
الفصــل الثالــث : ســيرة حمودة باشــا	٦٧ ـ ٧٧
الفصــل الرابــع : العوامل المؤثرة في تكوين ســياسة حمودة باشــا	٧٨ ـ ١٦٣
أ • شــخصيتــه	٧٨ ـ ٩٨
١ • ثقافتـــه	
٢ • صفاتــه ، أهليتــه	
ب • رجاله وأثرهم ومدى اعتماده عليهــم	٩٨ ـ ١٣٩
١ • وزراؤه الاول	
٢ • مســتشــاروه	
ج • الأوضــاع الدوليـــة	١٤٨ ـ ١٦٣
١ • ضعف الدولة العثمانيـــة	
٢ • اختلاف الدول الاوروبيـــة وتضارب ســياساتها	
الفصــل الخامس : مظاهر ســياسة حمودة باشا في الداخــل	١٦٤ ـ ٣٦٤
أ • في مجــال الحكم والادارة	١٦٤ ـ ١٧١
١ • حســم الخلافات بينه وبين افراد العائلة الحاكمة	
(أ) محاولاته لارضائهــم	
(ب) شدته وبطشــه للمخالف منهم	
٢ • تطهير الادارة واصلاحهــا	١٧١ ـ ١٩١
(أ) ابعاد الاتراك عن المراكز الحساسة في الدولة	
(ب) تعيين التونسيين والمماليك والاوروبيين واليهود في تلك الوظائف	
(جـ) اصلاحات ادارية أخرى مختلفــة	

الصفحـــة

ب • في المجال العســكرى : تدعيم الامكانات الحربيــة ••••• ١٩١ ـ ٢٥٢

١ • اهتمامه البالغ بالجيش

٢ • ضربه على يد جند الترك

٣ • تعزيز الجيش بعناصر معظم افراد ها تونسيون

٤ • تســليح الجيش بآحدث العتاد الحربي الاوروبي

٥ • انشـاء مصانع حربية عصرية في تونس

(أ) صناعة البـارود

(ب) صناعة المدافع وقذ ائفها

(جـ) صناعة الســفن الحربيــة

٦ • اصلاح الموانيء وبناؤها على اسس عصرية

٧ • بناء الابراج والاســوار والقشــل

ج • في مجال الامن والاســتقرار •••••••••••••••• ٢٥٢ ـ ٢٩٧

١ • وضــع حد لفوضى جند الترك وجرائمهم المخلة بالأمن

٢ • ايقاف نشــاطات الســودان المسيئة للامن والاخلاق في تونس

٣ • تعزيز قوة الشــرطة

٤ • اصداره لاوامر واحكام تحد من الجرائم

(أ) أوامر تنظم عمل باعة اليهود المتجولين وتحميهم من اغتيال الأهالي لهم

(ب) تشـــدده في عقاب المجرمين والســراق

٥ • اجراءات اخرى خاصة بالاجانب

٦ • قيام حمودة باشا بتفقد أحوال أمن عاصمته بنفسه ليلا

د • في المجال الاقتصادى : تعزيز امكانات البلاد الاقتصادية •••• ٢٦٧ ـ ٣٢٨

١ • في المجال الزراعي : تشـجيع زيادة الانتاج وتحسينه• ٢٧٤ ـ ٢٨٢

(أ) حثه على العمل ونبذ البطالة

(ب) تحســين الانتــاج

الصفحـــة

(جـ) تأمين اسعار مربحة وأسواق خارجية للانتاج الزراعي التونسـي

(د) اصدار قوانين جديدة لوضع حد للفوضى التي كانت سائدة في مجال الضرائب والاداءات المرسومة على الزراعـة

٢• في المجال الصناعـي ٢٨٢ـ ٢٩١

(أ) حثه على تشـجيع الصناعات المحليـة

(ب) أهم الصناعات التي ازدهرت في ذلك العهـد

(١) صناعة الشـاشـية

(٢) صناعة النسـيج

(٣) صناعة الحلـي

(٤) صناعة العطـور

٣• في المجال التجـاري ٢٩٢ـ ٣٢٧

(أ) سـياسته التجارية في الداخل

اهتمامه بتنشيط التجارة في الداخل

(ب) سـياسته التجارية مع الخارج

(١) تشـجيعه التونسيين تولي شؤون التجارة الخارجية

(٢) سـياسته التجارية مع أوروبا

(٣) سـياسته التجارية مع الدول الاسلامية

(٤) سـياسته التجارية مع افريقيا السـوداء

(جـ) وصـف الازدهار الاقتصـادي

هـ• في المجال الاجتماعي والصحي والديني والفكـري ٣٢٨ـ ٣٦٤

١• الاجتماعي : عمله على تطهير المجتمع من الرذائل ٣٢٨ـ ٣٣٠

(أ) تشـدده من أجل الحد من شرب الخمر والزناء

(ب) ضربه على بعض العادات الباليـة

الصفحة

٢• في المجال الصحي : عمله على حفظ الصحة بالطرق الحديثة ٣٣١ـ٣٤١

(أ) جلبه لاطباء من اوروبا وعمله على احترامهم وتبجيلهم

(ب) تشدده في استعمال الطرق الحديثة للوقاية من عدوى الوباء

٣• في المجال الديني ٣٤١ـ٣٥١

(أ) تحبيذه الاجتهاد في الشؤون الدينية

(ب) ابطاله لبعض العادات والبدع الدينية

(جـ) حرية المعتقد لغير المسلمين بتونس

٤• في المجال الفكري ٣٥١ـ٣٦٤

(أ) احترامه للعلماء

(ب) استحداث طرق تعليمية ومواد حديثة للتعليم في عهده

(جـ) اطلاعه على الحضارة الغربية وبداية تأثر التونسيين بها

الفصل السادس : مظاهر سياسة حمودة باشا الخارجية ٣٦٥ـ٤٥٨

أ• توخيه طريق الكفاح لبلوغ أهدافه ٣٧٢ـ٤٣٧

١• حرب البندقية

٢• محاولاته الحد من تبعيته للدولة العثمانية

٣• حرب طرابلس الغرب

٤• حروبه ضد الجزائر

ب• تنمية الصداقات ٤٣٨ـ٤٥٨

١• المعاهدات التي أبرمها مع الدول التي تهمه

٢• الاعتماد على سياسة الاتصال المباشر مع الدول بتبادل الممثلين

خاتمة ٤٥٩ـ٤٦٧

ملاحق ٤٦٨ـ٤٧٨

ثبت بالمصادر والمراجع ٤٧٩ـ٤٩٦

مفتـــاح الرمـــوز العربيـــة

(ت . ...) ـ توفـي سـنة

(حـ . ...) ـ حكـم ...

(حو. ...) ـ حوالي ...

(ت.حو. ...) ـ توفي حوالـي

(ط. ...) ـ طبــع

(لاط .) ـ مكان الطبــع غير مذكور

(لات .) ـ تاريخ الطبــع غير مذكور

مفتـــاح رمـوز المجلات الاجنبيـــة

كراريس تونس ـ (C. T.) Cahiers de Tunisie

تصدر في تونس منذ سنة ١٩٤٨ .

ابـــــــلا ـ (I. B. L. A.) Institut des Belles Letres Arabes

تصدر في تونس منذ سنة ١٩٣٨ .

المجلة الافريقيةـ (R. A.) Revue Africaine

صدرت في الجزائر منذ سـنة ١٨٥٦ .

المجلة التونسية ـ(R. T.) Revue Tunisienne

صدرت في تونس من سنة ١٨٩٤ الى سـنة ١٩٤٨

مفتاح رموز بعض المسؤولين والقناصل والمبعوثين الأجانب الى تونس

الفرنســـيون :

دى روشــى J. B. Du Rocher قنصل فرنسا بتونس السنوات ١٧٧٩ـ١٧٨٣ .

ديسـبارون A. D'Esparron نائب القنصل وقائم بالاعمال السنوات ١٧٨٤ـ أوائل ١٧٨٧ .

دى شـــاتوناف P. Dechateauneuf قنصل السنوات ١٧٨٧ ـ ١٧٩٢ ·

دوفـــواز J. Devoize قنصل السنوات ١٧٩٢ ـ ١٧٩٦ ، ١٧٩٨ـ ١٨٠٨، ١٨١٥ ـ ١٨١٨ ·

هيركولـــي L. Herculais مبعوث فرنسا فوق العادة بتونس سنة ١٧٩٥ ·

جيـــرو L. Guiraud نائب القنصل السنوات ١٧٩٦ ـ أوائل ١٧٩٨ ·

بيلـــون J. Billon نائب القنصل وقائم بالاعمال ١٨٠٩ ـ ١٨١٤ ·

ســـيالف A. Sielve موظف بالقنصلية الفرنسية ١٨٠٧ ـ أوائل ١٨١٤ ثم قائم بالاعمال بالنيابة سنة ١٨١٤ ·

البريطانيون :

ج · تريـــل J. Traill قنصل بريطانيا بتونس السنوات ١٧٦٦ ـ ١٧٨٧ ·

ر · تريـــل R. Traill مكلف بأعمال القنصلية أواخر اكتوبر/ تشرين الاول ١٧٨٧ـ مارس/ اذار ١٧٩٠ ·

ماجـــــرا P. Magra قنصل الســـنوات مارس/ اذار ١٧٩٠ ـ ١٨٠٤ ·

هايجريفس L. Haigreaves قائم بأعمال القنصلية ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ ·

كـــلارك H. Clark قائم بأعمال القنصلية ١٨٠٢ ·

آوغلانـــدر R. Oglander قنصل الســـنوات ١٨٠٤ ـ ١٨٢٤ ·

مفتاح رموز ترقيـــم الوثائق والملفات بخزائن الوثائـــق

خزينة وثائق الدولة التونسية	Les archives nationales tunisiennes
خزينة الوثائق الفرنسية بباريس	Les archives nationales françaises
خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية	Les archives du Quai d'Orsay
خزينة وثائق القنصلية الفرنسية بتونس	Les archives de la Résidence générale à Tunis
خزينة الوثائق البريطانية	The Public Record Office (London)
خزينة الوثائق العثمانية	خزينة وثائق رئاسة الحكومة التركية

وقد عربت كلمة dossier الفرنسية و folder الانجليزية الى كلمة ملف . اما الوثائق المجموعة في أسفار مجلدة فقد اشرت اليها بكلمة دفتر أو مجلد ، وأبقيت كلمة carton المستعملة بخزينة وثائق الدولة التونسية على حسب لفظها الفرنسي وأشرت اليها بكلمة كرتون . وحولت الارقام العربية الى أرقام هندية تسهيلا للطباعة .

ملاحظة : التواريخ المذكورة في هذه الدراسة جميعها ميلادية .

مقدمـــــــــــة

جرت العادة لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ شمال افريقيا أن يعتبروا حركة التجديد ، في العهد الحسيني ، الرامية الى جعل تونس دولة متقدمـة وذات سيادة ، ترجع في منشئها الى عهد أحمد باشا باي (حـ. ١٨٣٧ ـ ١٨٥٥) . غير أن هذا الموقف على كثرة أصحابه قد لا يثبت للنقد ولا يسلم للبحث العلمي المعتمد على تحليل الوثائق والمصادر . ولذلك حاولـت أن أرى ما اذا كان هذا الموقف هو موقف صحيح ونهائي . ومن أجل هـــذا درست عهد حمودة باشا . فتبين لي في نهاية هذا الدرس أن تلك الحركة بدأت في عهد حمودة باشا (١٧٨٢ ـ ١٨١٤) وارتكزت على أسس متينـــة وثابته . وقد شملت تلك الحركة بعض ميادين الحياة التونسية وسياسة الدولـة في الداخل والخارج .

ان عهد حمودة باشا ، الذى يقارب ثلث القرن من تاريخ تونس الحديث لم يتناوله المؤرخون ، لا التونسيون ولا الأجانب ، بالبحث والدراسة الجديـــة المتعمقة ، في حال أنه ، لدى التحقيق يكوّن فترة من أهم ما احتواه العهـد الحسيني وأخصبه بما تميزت به من نشاط ورغبة في التغيير ، وبما كان لهـــا من تأثير قوي بارز في مجرى تاريخ تونس في ما تلا تلك الفترة من عهـــود ، بما فيها عهد أحمد باي المشهور في هذا المجال .

في هذه الدراسة التي موضوعها " سياسة حمودة باشا " ، بحثت مقومات تلك السياسة ومظاهرها من نواح مختلفة . ذكرت أولا اهم المصادر والمراجـع التي رجعت اليها في كتابة هذه الدراسة ووصفتها وحاولت تقييمها ، مع الاعتماد اكثر ما يمكن على المصادر والوثائق الأصلية . ثم ذكرت لمحة تاريخية عن تونس قبيل عهد حمودة باشا وهو الفصل الثاني . وفي الفصل الثالث عرفت بهذا الباى وأوجزت سيرته ، وفي الفصل الرابع بحثت العوامل المؤثرة في تكوين سياسته .

لها هي الاخرى تأثير ملحوظ في تكوين سياسة ذلك الباى • وذلك سواء بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت تعاني الضعف والتقهقر ،أو بالنسبة للدول الاوروبية التي لم تتحد لاتخاذ اجراء موحد ضد القرصنة التونسية في البحر المتوسط •

بعد ذلك قسمت صميم الموضوع قسمين رئيسيين يندرج القسم الاول في الفصل الخامس من هذه الدراسة ،وهو الفصل الذى بحثت فيه مظاهر سياسة حمودة باشا في الداخل • وتشمل هذه المظاهر سياسة ذلك الباى في مجال الحكم والادارة ، وفي المجال العسكرى ، وفي مجال الامن والاستقرار ، وفي المجال الاقتصادى ، وفي المجال التجارى ،وفي المجال الاجتماعي والصحي والديني والفكرى • ونلاحظ في هذا الفصل سعي حمودة باشا الجاد المتواصل في العمل على النهوض بتونس في مختلف تلك المجالات حتى ظهر استقرار ورخاء لم يسبق ان رأت تونس مثلهما • أما القسم الثاني ،وهو القسم الذى بحثت فيه مظاهر سياسة حمودة باشا في الخارج ، فهو مادة الفصل السادس • وفيه يظهر كيف ان ذلك الباى أقام سياسته الخارجية على تحرير تونس من التسلط الخارجي ، وابراز سيادة تونس بتوخيه طريقين بارزين : طريق الكفاح والحرب ،وطريق تنمية الصداقات مع الدول التي تهمه • أما فيما يتعلق بتقييم اعمال حمودة باشا وانجازاته في السياسة الداخلية والخارجية فقد جاء في خاتمة هذه الأطروحة التي اظهرت فيها أهمية عهد حمودة باشا في تاريخ تونس الحديث وتأثير سياسة ذلك الباى سواء منها الداخلية أو الخارجية في تكوين دولة ذات منعة وسيادة من ناحية، وفي نشوء حركة ترمي الى تغيير الاوضاع الى ما هو افضل ،في تونس في القرن التاسع عشر من ناحية أخرى •

الفصـــــل الأوّل

وصـف للمصادر والمراجع وتقييمهـا

فيما يلي وصف للمصادر والمراجع ومحاولة لتقييمهـا • وسأتبع في ذلك التقسيم التالي :

أ • الوثائق

١ • خزائن الوثائق في كل من تونس وباريس ولندن واسطنبول

٢ • مجموعات وثائقيـة منشـورة

ب • كتب ودراسات اوليـة

١ • مخطوطـة

٢ • مطبوعـة

(أ) الرحـلات

(ب) كتب تاريـخ عامـة

ج • المراجـع الثانويـة

١ • العربيـة

٢ • الاجنبيـة

أ • الوثائـق

١ • خزائن الوثائق : خزائن الوثائق في كل من تونس وباريس ولندن واسطنبول أمدتنا بأهم المعلومات في هذه الدراسة • وفيما يلي وصف كل منها وتقييمها علـى حدة •

أولا • في مدينة تونس

أ • خزينة الدولة التونسية • هي أغنى خزينة وثائق فيما يتعلق بتاريخ تونس الحديث عامة • غير أن هذه الخزينة ليست بمثل هذا الغنى في العهد الذى ندرسه نظـرا لكونه متقدما نوعا ما عن الوثائق التي تحتويها الخزينة بذلك الغنى • فاذا علمنـا ان خير الدين باشا (ت• ١٨٨٩) الوزير الاول لتونس من سنة ١٨٧٣الى سنة١٨٧٧ ، هو الـذى أمـر بحفـظ وثائق الدولـة التونسـية في خزينـة خاصـة ، امكننـا ان نتصـور وثائـق العهـد الـذى يهمنا وهي سـائبة

غير محفوظة مدة تزيد على ستين سنة • هذا بالاضافة الى ما فقد من الوثائق ، واحيانا من الملفات الكاملة ، ~~التي فقدت من الخزينة~~ في عهد الحماية الفرنسية (١٨٨١ـ١٩٥٦)[١].

والوثائق المتعلقة بموضوعنا في هذه الخزينة مرتبة على أسس لا تنسيق ولا اطراد فيها • تجد بعضها مرتبا حسب موضوعاتها ، وبعضها على اساس عهود بعض البايات ، والبعض الآخر تحت اسماء رجالات أو قضايا معينة • غير أنه بالصبر والأناة وجدت الكثير من المعلومات الاولية الأصلية الهامة • وجميعها مخطوط باليد سواء منه ما كان باللغة العربية والتركية [٢] أو ما كان منه باللغات الاجنبية • [٣] وهي وثائق خصبة لكثرة الموضوعات التي تطرقت اليها ، وفريدة لكونها حفظت لنا معلومات لا توجد في مكان آخر • وذلك يصدق بصفة خاصة على الملفات التي تضم المراسلات والمعاهدات والبيانات والأوامر العلية ؛[٤] وعلى الدفاتر التي تشتمل على ما له علاقة بالحياة المالية في البلاد : وأهمها تلك التي تشرح مداخيل الدولة ومصاريفها ، مع اثباتات مفصلة ودقيقة لأوجه تلك الحسابات ، تثبت في كثير من تلك الدفاتر على أساس مجاميع وحواصل يومية •[٥]

١ـ أخبرني بذلك نائب مدير الخزينة •

٢ـ كانت اللغة العربية في عهد حمودة باشا هي لغة الشؤون الداخلية للبلاد • اما اللغة التركية فهي لغة المراسلات مع الدولة العثمانية، ولغة المعاهدات الرسمية مع الدول الأجنبية ؛ انظر ادناه ، ص ٣٩ ٤ •

٣ـ كانت اللغة الايطالية هي لغة المراسلات الرسمية بين الباى والحكومة من جهة ، ومعظم القناصل الاجانب المعتمدين لدى الحكومة التونسية من جهة ثانية ؛ انظر خاصة خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦١٢، كرتون رقم ٢٤٦ ، وملف رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ •

٤ـ نورد على سبيل المثال الملفات الاتية عن علاقات تونس الخارجية في العهد الذى ندرسه : ملف رقم ٧٣ ، كرتون رقم ٢٠٥ ؛ ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ ؛ ملف رقم ١٢٧ ، كرتون رقم ٢٠٨ ؛ ملف رقم ٦٣٣ ، كرتون رقم ٢٤٦ ؛ ملف رقم ٧٠٧ ، كرتون رقم ٢٥٤ •

٥ـ نورد على سبيل المثال الدفاتر المرقمة بالاعداد رقم: ٢٢١، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٤٨ •

وتجدر الملاحظة هنا الى أن المعلومات التي استقيتها من تلك الخزينة أغلبها أصلية ، وبعيدة عن التأويلات والتخمينات والمفاهيم الاجتهادية التي نجدها في مراسلات القناصل في خزائن باريس ولندن مثلا .

ب. خزينة القنصلية الفرنسية بتونس : رتبت الوثائق فيها على طريقة الترتيب السابق في خزينة الدولة . وهي أوراق مخطوطة تراكمت في القنصلية الفرنسية بتونس يعود تاريخ بعضها الى منتصف القرن السابع عشر الميلادى. اكثر المعلومات الموجودة فيها ، والتي تهمنا في دراستنا ، تتعلق بنشاط موظفي القنصلية اليومي ، والمراسلات المتبادلة بينهم وبين المسوءولين في تونس والمراسلات الواردة من باريس ، ومشاكل الجالية الفرنسية هناك . وكذلك نجد عددا من اللوائح تتعلق بالتبادل التجارى بين الدولتين ، وبنشاط القرصنة التونسية .[1] هذا ومما تجدر ملاحظته هنا أن كثيرا من الوثائق الهامة بتلك القنصلية نشرها البحاثة المستشرق الفرنسي المشهور P. Grandchamp [2] الذى كان يشغل منصب رئيس مصلحة " بالاقامة العامة لفرنسا بتونس" ،[3] حيث توجد خزينة وثائق القنصلية .

١ــ توجد تلك الملفات في مجموعة تحت عبارة : "Actes de la chancellerie"
وكذلك في الدفاتر الجامعة للوثائق ، والمرتبة حسب السنوات .

٢ــ من ذلك وفي الفترة التي ندرسها :
<u>La mission de Plèville-Le-Pelley à Tunis (1793 - 1794)</u>, (documents inédits publiés sous les auspices de la Résidence générale de France à Tunis), Tunis, Imprimerie Rapide, 1921.
سنشير الى هذا الموءلف فيما بعد بـ <u>مهمة بللي في تونس</u>.
وكذلك
<u>Documents relatif aux corsaires tunisiens (2 Octobre 1777 - 4 Mai 1824)</u>, Tunis, Imprimerie Générale, 1925;
سنشير الى هذا الموءلف فيما بعد بـ <u>وثائق تتعلق بالقرصنة التونسية</u> .
"Notables français à Tunis de 1592 à 1881", <u>R. T.</u> , nos. 49, 50 et 51 (1942), pp. 201 - 241; و
سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ "غرانشان" وجهاء فرنسيون في تونس" .

٣ــ الاقامة العامة " هي مقر ادارة المقيم العام الفرنسي بتونس، وهي ترجمة عن الفرنسية: "La Résidence générale de France à Tunis".

ثانيا : في باريس

توجد الوثائق المتعلقة بعهد حمودة باشا هناك في مكانين مختلفين . فما عاد منها الى ما قبل سنة ١٧٨٩ يوجد في خزينة الوثائق الوطنية الفرنسية .(١) والتي ترجع الى ما بعد تلك السنة حتى اليوم توجد في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية .(٢)

بعض ملفات هذه الخزينة وخاصة منها التي تشتمل على تقارير تتعلق بمواضيع معينة وأغلبها كتبها غير القناصل هي مرتبة على اساس المواضيع عامة . اما التقارير والمراسلات السياسية من القناصل فهي مجموعة في مجلدات متتابعة مرتبة على حسب تواريخ وصولها الى وزارة الخارجية .

وجميع تلك الوثائق أصلية مخطوطة بيد القناصل او نوابهم أو المبعوثين في تونس . وقد أفدت منها كثيرا لما تحتويه من المعلومات الاولية الغزيرة . وهي تشمل ملاحظات كاتبيها واقتراحاتهم وخواطرهم مبينة ومشروحة بدقة . هذا بالاضافة الى كون هذه المراسلات ابرزت لنا وجهة النظر الفرنسية في مختلف الحوادث والمواقف طوال الفترة التي تعنينا . وهي فترة تميزت بكثرة الاحداث التي حصلت في تونس وفرنسا وأثرت على العلاقات بين البلدين تأثيرا كبيرا . فقد تطورت من الصداقة والود وازدهار التبادل التجارى ، الى الخلاف والقطيعة عند مقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا (١٧٩٣) ، ثم الى اعلان الحرب والقتال عند غزو نابليون لمصر (١٧٩٨) ، وبعدها رجعت العلاقات ثانية الى ما كانت عليه بل الى اكثر مما كانت عليه من التعاون والتقارب والود .

١— Les Archives nationales françaises: Rue des Francs bourgeois ; سنشير الى هذه الخزينة فيما بعد ب خزينة الوثائق الفرنسية بباريس .

٢— Les archives du quai d'Orsay ; سنشير الى هذه الخزينة فيما بعد بـخزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية .

ومما تجب ملاحظته هنا أنه يتعذر على الدارس كتابة بحث علمي عميق ودقيق في الموضوع ، دون الرجوع الى هذه الوثائق والاعتماد عليها.[١] وحتى الكتب الوثائقية التي صدرت ونشرت فيها وثائق كثيرة مما هو موجود في خزائن الوثائق بفرنسا [٢] فانها مختصرة مبتورة ولا يمكن الباحث الاكتفاء بها دون الرجوع الى الأصول .

ثالثا . في لندن

The Public Record Office [٣] هو اسم المؤسسة الضخمة التي توجد فيها معظم الوثائق البريطانية ، ومنها تلك المتعلقة بتونس في الفترة التي ادرسها . وهي في معظمها مراسلات سياسية متبادلة بين قناصل بريطانيا أو نوابهم في تونس وبين وزارة الخارجية في لندن .

هذه الوثائق ، كوثائق الخزائن السابقة الذكر ، كلها أصلية ومخطوطة بيد كاتبيها . وهي تمثل عنصرا هاما بالنسبة لاى بحث يكتب عن تاريخ تونس الحديث . وذلك لأن معظم تلك الوثائق ما زالت بكرا لم تر النور بعد ، عكس مثيلاتها بالنسبة لخزائن فرنسا . ليس هذا فقط ، بل ان البريطانيين المهتمين بتاريخ تونس قليلون جدا ، والتونسيون والفرنسيون على وجه العموم ، لقلة معرفتهم باللغة الانجليزية أو لمجرد عدم الاهتمام ، تغاضوا عن الرجوع اليها . حتى أني وجدت بعض الملفات هناك لم يطلبها احد ولم تفتح ربطاتها منذ اكثر من ثلاثين سنة .[٤] وقد شملت المادة الاصلية التي جمعتها من خزينة الوثائق البريطانية معلومات هامة تتعلق بمعظم فصول هذه الدراسة ، كما سيتبين ذلك خلال قراءتها .

١ـ نورد على سبيل المثال مجموعة الدفاتر الهامة في خزينة الوثائق الفرنسية بباريس : دفاتر ب٣ ، ٣٠٤٦ . ومن خزينة وزارة الخارجية الفرنسية نذكر على سبيل المثال مجموعة الوثائق التجارية ، المجلدات رقم: ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . وكذلك مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا رقم ٥ ، ٩) ، والوثائق السياسية العامة ، مجلد رقم ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

٢ـ انظر ادناه ، ص ٩ ـ ١١ .

٣ـ سنشير الى هذه الوثائق فيما بعد ب خزينة الوثائق البريطانية .

٤ـ **اعلمني بذلك رئيس غرفة المطالعة هنالك ، اذ لديه علامات مميزة يعرف بها الوثائق التي وقع الاطلاع عليها اولا من قبل الباحثين .**

رابعا ٠ في اسـطنبول

في خزينة الوثائق العثمانية توجد كميات وافرة من الوثائق المتعلقة بالموضوع الذى ندرسه من تاريخ تونس٠ غير ان تلك الوثائق ليست مرتبة ،كما سبق وذكرنا بالنسبة لخزينة الدولة التونسية ،على أسس منسقة ومطردة٠ تجد بعضها مرتبا حسب موضوعاتها ،وبعضها على اساس عهود السلاطين ،والبعض الاخر مشتتا بين الملفات والدفاتر التي هي بدورها مرتبة تحت اسماء رجـالات أو قضايا أو احكام او مراسلات معينة ٠ ومما تجدر ملاحظته هنا ان جميـع الوثائق التي اطلعت عليها في تلك الخزينة الغنية هي مخطوطة باليد واصلية ؛ وذلك يصدق سواء على ما كتب منها باللغة العثمانية وهو القسم الاكبـر ، او ما كتب باللغة العربية وهو نادر جدا ٠ وهذه الوثائق في اغلبها مهمة بالنسبة لدراستنا ،لانها تطرقت لذكر بعض المعلومات الفريدة التي لا توجد في مكان اخر٠ واهم هذه المعلومات تلك التي توضح العلاقات التونسـية مع الدولة العلية ،ولدينا منها ما يغطي فترة دراستنا هذه٠ وذلك في مجال العلاقات السياسية بين الدولتين ،والقضايا المتعلقة بالتعاون اثناء الحـروب العثمانية ،وبالقرصنة وتوجيه نشاطها نحو عدو معين او كفها عنه٠ [1] هذا بالاضافة الى

١ـ توجد المعلومات المتعلقة بتلك الموضوعات في العديد من الوثائق ،نورد على سبيل المثال الدفاتر والملفات الاتية : دفتر مهمات ،رقم ١٨٠ ،سنة ١٧٨٠، ص٥٤ ،٥٥ ،٥٦ ،١٥١ ؛رقم ١٨٨ ،سنة ١٧٨٨ ،ص٥٢ ؛ رقم ١٨٩ ، سنة ١٧٨٨ ،ص ٣٠ ؛رقم ١٩٦ ،سنة ١٧٩٠ ،ص٢ ؛رقم ٢٠٠ ،سـنة ١٧٩٣ ،ص٢١٥ ــ ٢١٦ ؛ كذلك الوثائق : ترتيب علي اميرى ،سليم الثالث ، رقم ٢٠٨ × ،سنة ١٧٩٨ ؛ورقم ٢٧ × ،سنة ١٨٠٤ ؛ورقم ٢٢٥٥٨ ،سنة ١٨٠٩؛ وكذلك الوثائق ،خطي هميون ،رقم ٢٢٤٩٦ ،سنة ١٨١٤ ؛ورقم ٢٢٥٥٨/ب، سنة ١٥١٨ ٠

التدخلات التي كانت تقوم بها الدولة العلية في شؤون تونس المحلية ، وذلك سواء في الخلافات بين تونس والجزائر ،[١] أو بين تونس وطرابلس الغـرب.[٢] ومعظم تلك الوثائق تدل على أن الدولة العلية كانت تعتبر البلاد التونسية ولاية كأية ولاية اخرى من ولاياتها بشمال افريقيا . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فمن خلال ما اشتملت عليه تلك الوثائق العثمانية من معلومات يمكننـا ان نلاحظ ان الاخبار التي كانت ترد الباب العالي عن تونس هي أخبـار سطحية وغير دقيقة وغير منظمة لعدم وجود ممثلين دائمين ورسميين . عكـس تلك التي نجدها في خزائن الوثائق الفرنسية والبريطانية .

٢ . مجموعات وثائقيـة منشـورة

المقصود بهذا النوع من المؤلفات تلك الكتب التي اختصت بنشر عدد من الوثائق المحفوظة في بعض خزائن الوثائق الرسمية ، وذلك بالنسبة لبلـد معين وفي فترة تاريخية معينة . ومن الصفات المشتركة لهذه الكتب ايضا ـ وذلك على غرار المجلدات التي تضم مراسلات القناصل في خزائن الوثائق ـ انها تذكر الوثائق مرتبة سنة بسنة كالحوليات .

الكتابان اللذان يشملهما هذا التعريف ويهماننا في موضوع دراسـتنا ويشتملان على وثائق اصلية هما :[٣]

١ـ E. Plantet[٤], Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la Cour 1577 - 1830, 3 vols., Paris, Alcan, 1893 - 1899.

١ـ انظر دفتر مهمات ، رقم ١٨٠ ، سنة ١٧٨٠ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
٢ـ المصدر ذاته ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، انظر ايضا : علي اميرى ، سليم الثالث ، رقم ٢٢٥٥٨ ، سنة ١٨٠٩ .
٣ـ رتبت ذكر هذه **المصادر** حسب اهميتها بالنسبة لموضوع دراستنا .
٤ـ سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ بلانتي ، مراسلات بايات تونس .

هذا أهم كتاب وثائقي في كامل الفترة التي تشملها مادته ، وهو مصدر أصلي لأصالة غالب محتوياته . غير أن هذا الكتاب ، بما فيه من وثائق، لا يمكن الاكتفاء به والاستغناء عن الاطلاع على خزائن الوثائق الفرنسية . وذلك للأسباب التالية :
١. ان مؤلفه اقتصر على نشر المراسلات بين قناصل فرنسا في تونس وحكومتهم ، دون التقارير العسكرية والتجارية والبيانات الأخرى التي كانت ترد على الحكومة الفرنسية عن غير طريق قنصلها بتونس ، والتي تعتبر في كثير من الأحيان أهم من المراسلات السياسية لانها تبحث مواضيع معينة بتركيز وبدقة وشمول مادة تفوق مراسلات القناصل احيانا كثيرة . ٢. ان مؤلف الكتاب تصرف في انتقاء الوثائق التي نشرها وتصرف في نص الكثير منها بحذف جمل بل فقرات من الوثيقة الأصلية. ٣. أضف الى ذلك أن المؤلف يشير الى العديد من الوثائق اشارة عابرة ذاكرا مرسلها ومن ارسلت اليه وتاريخها . وأحيانا أخرى تجد الوثيقة ملخصة بعبارة المؤلف مقتصرا على ذكر المعلومات التي يراها مهمة فقط.

ولكن على الرغم من تلك النقائص فان الكتاب هام وأمدني بعدة معلومات وخاصة فيما يتعلق بنصوص المعاهدات التي أبرمت بين تونس وفرنسا . وفي ما يتعلق بسياسة حمودة باشا الخارجية ، وفي احداث الحروب بين تونس والجزائر . وكذلك يرجع له الفضل في ضمه وثائق تبرز عدة نواحي من سياسة ذلك الباى الداخلية وعلاقة مسلمي تونس بالاوروبيين القاطنين هناك .(١)

٢ . للمؤلف ذاته :

(٢)

Correspondance des deys d'Alger avec la Cour de France 1579 - 1833, recueillie dans les dépots d'archives des Affaires Etrangères, de la Marine, des Colonies et de la Chambre de Commerce de Marseille, 2 vols., Paris, Librairie Balliere et Cie, 1889,

---

١ـ المعلومات التي اعتمدت من هذا الكتاب كثيرة سترد الاشارة اليها خلال فصول هذه الدراسة .

٢ـ سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب بلانتي ، مراسلات دايات الجزائر .

في هذا الكتاب يتبع المؤلف الطريقة ذاتها التي ذكرت بالنسبة لكتابه الوثائقي المذكور اعلاه . وهو كسابقة معظم معلوماته أولية . وتزيد أهمية الكتاب اذا علمنا أن المؤلف رجع الى خزائن وثائق فرنسية متعددة في ما جمعه من وثائق . وبالرغم من أن هذا الكتاب اختص بنشر وثائق مراسلات دايات الجزائر مع الحكومة الفرنسية ، فانه لم يخل من فائدة بالنسبة لموضوعنا هذا ، وذلك خاصة في شأن " القائمين بالاعمال "[1] الجزائريين بتونس ،[2] ونواب قناصل فرنسا بمدينة طبرقة .[3]

ب . كتب ودراسات أولية

١ . مخطوطة

هذا القسم من **المصادر** قدم لنا معلومات اكثرها اساسية وفريدة تتعلق أحيانا بذكر قضايا بأكملها لم تذكر في غيرها من **المصادر**. ولكنها من حيث الاهمية تأتي في المرتبة الثانية بعد خزائن الوثائق . وعند وصفنا وتقييمنا لاهم تلك المخطوطات سيتضح لنا أمرها جليا . وسنورد تلك الكتب مرتبة على حسب وفيات مؤلفيها ، وعند افتقارنا لتاريخ الوفاة نوردها حسب تقدير تقريبي لسنة الوفاة ، الا في ما يتعلق برسالة التنبكتاوى الذى ورد حسب تاريخ كتابتها لجهلنا وفاته جهلا تاما .

١ـ كان يطلق عليهم ايضا " نواب الجزائريين " و" وكلاء الجزائريين " وغير ذلك من التسميات ،انظر ادناه،ص ٤١٣ تعليق رقم ٢ .

٢ـ بلانتي ،مراسلات دايات الجزائر ،ج ٢ ،ص ٤٧٨ .

٣ـ المصدر ذاته ،ج ٢ ،ص ٥١٦ .

١ • حمودة بن عبد العزيز (ت• ١٧٨٧) ،التاريخ الباشي • [١] كان هـذا المؤلف [٢] من أكابر رجال دولة علي باشا (ت• ١٧٨٢) ومن اقرب الناس اليه• تقلب في الخطط الرسمية ،منها رئاسة كتاب القصر والسفارات الرسمية الى الجزائر ولقب بالوزير • وقد استمر في حظوته تلك كامل عهد علي باشا وأول عهد حمودة باشا • وهيأ هذا المنصب له اتصالا مباشرا بشؤون الدولة وأسرارها • والكثير من الحوادث والوثائق والأخبار التي يذكرها في كتابه ، كان فيها شاهد عيان • وعلى الرغم من ان الكتاب يؤرخ فيه لعهد علي باشا ، كما يلمح من عنوانه ، فانه افادنا معلومات انفرد بذكرها تتعلق بعهد ابنه حمودة • غير أنه يجب ان نشير هنا الى ان هذا المؤرخ ، نتيجة لتقربه الشديد [٣] الى علي باشا يبالغ في تمجيده والثناء عليه حتى " كاد ان يلحق بالمداحين من الشعراء ،ومجته العقول لذلك ، على بلاغته وجميل نسقه وبديع نسجه". [٤]

١- يوجد المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٧٩٤ مخطوطات ، حجم ١٩ × ٢٥ ،مسطرة ٢٥ ، عدد الصفحات ٥٩١ ،خطه تونسي - مغربي حسن ، به بعض التحريف • ناسخه حسن بن احمد الصالح اللموشي ، اتمها في شهر ماى / ايار ، ١٩٢٥ •

٢- انظر ترجمته في احمد بن أبي الضياف (ت• ١٨٧٤) ،اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ٨ج ،تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والارشاد ، تونس ، المطبعة الرسمية ، ١٩٦٣ - ١٩٦٤ ،ج ٧ ،ص ٢٢ - ٢٤ ؛ وكذلك في : محمد مخلوف (ت•حو• ١٩٤٥) ،شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ٢ج ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٩ ،ج ١ ،ص ٣٦٤ ،ترجمة رقم ١٤٥٠ ؛ وانظر ادناه ،ص ٧٨ ، ٧٩ ، وص ١٢٦ - ١٧٢ •

٣- انظر بعض اخبار هذا المؤرخ ايضا في : مقديش ، نزهة الانظار ،ج ٢ ،ص ٧١ ؛ انظر التعريف بالمؤلف وتقييم مخطوط نزهة الانظار ،ص ١٦- ١٧ من هذه الدراسة.

٤- ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٢ ،ص ١٥٩ •

أهم المعلومات التي أمدنا بها هذا المخطوط هي تلك التي تساعد على المقارنة بين عهد علي باشا وعهد ابنه حمودة في ميادين مختلفة ، منها الحياة العلمية بما فيها رواتب العلماء واعانات الطلبة وبناء المدارس .[١] وكذلك الاصلاحات التي ادخلت على الجيش وادارته في عهد علي باشا ،[٢] وتأثير الدولة العثمانية ونفوذها في ذلك العهد .[٣] هذا بالاضافة الى ما اطلعنا عليه من معلومات تختص بتربية حمودة باشا وتعليمه وأساتذته وصفاته ومشاغله أيام شبابه .[٤]

٢ . أبو عبد الله محمد بن حسين بيرم (ت. ١٨٠٠) ، رسالة في السياسات الشرعية .[٥]

مؤلف الكتاب من أشهر علماء عصره وأقدرهم ، تولى عدة خطط دينية عالية في عهد علي باشا واستمر فيها الى أن توفي في عهد حمودة باشا ؛ منها توليه خطة الافتاء بتونس مدة خمس وأربعين سنة . وله بجانب رسالة في السياسات الشرعية عدة مؤلفات دينية قيمة .[٦]

هذه الرسالة هي في واقعها فتوى شرعية اعتمد مؤلفها في تقريرها على الاجتهاد في الأحكام الشرعية . أصدرها هذا المفتي الحنفي بطلب من حمودة باشا . وهي فتوى تمكن الباى من القاء القبض على من تحوم حوله الشبهات ، اعتمادا على مجرد الظن ، وهو أمر كان ممنوعا شرعا الى ان تتم البينة الشرعية . وقد عمل حمودة باشا بهذه الفتوى ،

١ـ ابن عبد العزيز ، التاريخ الباشي ، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ .

٢ـ المصدر ذاته ، ص ٥٠٢ .

٣ـ المصدر ذاته ، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٩ .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٦٦ ـ ٦٩ ، ٤٥٥ ـ ٤٥٦ ، ٥٠٧ ، ٥١١ .

٥ـ المخطوط ملك احد الخواص في تونس ؛ حجم ١٩ × ٢٥ ، مسطرة ٢٥ ، عدد الصفحات ٢٥ ، خطه تونسي ـ مغربي جيد . ناسخه محمد المنوبي الفراتي **الصفاقسي** ، أتمها في شهر مارس / آذار ، ١٨٦١ . ذكر ابن ابي الضياف هذا المخطوط تحت اسم "رسالة في السياسة الشرعية" ؛ **اتحاف** ، ج ٧ ، ص ٣٤ .

٦ـ انظر ترجمة المؤلف ، المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٣٠ ـ ٣٥ ؛ وانظر ادناه ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

المهمة بالنسبة لدراستنا لايضاح مجرى سياسة الاصلاح ، خاصة بشأن ابعاد الاتراك عن السلطة واحلال الأهالي التونسيين والمماليك محلهم.[(١)]

لقد عولنا على هذه الرسالة في بعض المعلومات القيمة والمدلـــولات الفريدة التي توضح لنا بعض جوانب سياسة حمودة باشا في انجاز اصلاحاته . هذا ويجب ان نشير الى ان المفتي محمد بيرم ،صاحب هـــذه الفتوى ، كان هو نفسه من أصل تركي عثماني .

٣. احمد بن القاضي أبي بكر التنبكتاوى ،[(٢)] هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر .[(٣)]

كل ما نعرفه عن المؤلف ، كما ذكر في أول الرسالة ، هو أنه ذهـــب الى الحج وفي طريقه مر بمصر . وأنه عند رجوعه الى وطنه وجد في تونس ظاهرة اجتماعية خطيرة بل " فتنة لا يجوز لأحد تمر في قلبه رائحة الايمان ان يسكت عنها ..."[(٤)]. هذه الفتنة أو الظاهرة الاجتماعية الخطيرة سببها الحـــرس وجند السودان الذين جلبوا الى تونس في عهد سابق عندما ايقن احد البايات باستحالة الركون والاطمئنان الى جند الترك ، واستحالة الاعتماد على ابناء البلـــد . كان ذلك قبل ان يعتمد حمودة باشا سياسته الجديدة التي تقتضي جلـــب المماليك من المشرق وتربيتهم ثم تقليدهم مقاليد الحكم والادارة .[(٥)]

١ـ انظر ادناه ،ص ١٧٧ـ ١٨١.
٢ـ لم اعثر على ترجمة لهذا المؤلف . وقد ذكر المؤلف في المخطوط باسم التنبكتي ايضا .
٣ـ المخطوط ملك احد الخواص في تونس ،حجم ٢٣× ٢٧ ، مسطرة ٢١ ،عدد الصفحات ٢٠ ،خطة تونسي ـ مغربي حسن ،به تحريف . ناسخه محمد مفتاح ،اتمه في شهر سبتمبر/ ايلول ١٨٣٢ ، المخطوط لم يذكره احد من المؤرخين .
٤ـ التنبكتاوى ، هتك الستر ،ص ١ .
٥ـ انظر ادناه ،ص ١٧٥ ـ ١٧٩ .

تلك الظاهرة الاجتماعية هي انتشار المشعوذين السودان وتكاثر الجرائم والرذائل ، خاصة في العاصمة وفي محيط اولائك الجند وعائلاتهم .[١] وأهمية هذا المخطوط هي في اعطائنا تفاصيل ومعلومات عن تلك الفتنة لم يذكرها غيره ممن تصدوا لهذا الموضوع من المؤرخين . وأهم من ذلك هو أن هذه الوثيقة الفريدة هي عبارة عن رسالة ، مؤرخة بسنة ١٨٠٠ ،من كاتبها الى حمودة باشا باى يهتك له فيها ستر ما عليه سودانه من الخروج عن الدين الاسلامي وأخلاقه وعاداته ،ويطلب منه أخذ اجراء نافع بشأنها . والوثيقة ، من ناحية اخرى ، هي عبارة عن رسالة تورد الاحكام الشرعية المتعلقة بمثل تلك الظاهرة وتدعو الباى الى ايقاف تلك الفتنة. والمؤلف يبين فيها بطريقة علمية مهمة الحاكم والمسؤول في وجوب تغيير الأمور الفاسدة " ... ولا يجوز لأحد السكوت عنها بعد علمها ." [٢] وقد حققت هذه الرسالة الغاية التي كتبت من أجلها ، فقد اخذ حمودة باشا اجراءات حازمة أتت على تسلط اولائك السودان وفتنتهم .[٣]

هذا ، بالاضافة الى المعلومات القيمة التي قدمها التنبكتاوى في شأن اصلاحات حمودة باشا ، وتعلق الناس به ، [٤] وتفسيره للحروب التي بين تونس والبندقية في عهد حمودة باشا ، والتي كان المؤلف يجاهد فيها بجانب مواطنية ، بكونها حروب للدفاع عن الدين . [٥] وفي الرسالة معلومات هامة تتعلق بوصف الحياة الاجتماعية في الفترة التي تهمنا من تاريخ تونس ،مع التأكيد على انتشار السحر والشعوذة وقلة التحمس للامور الدينية والأخلاق ،خاصة من قبل النساء.[٦]

١ـ انظر ادناه ، ص ٢٥٤ـ ٢٥٥.
٢ـ التنبكتاوى ، هتك الستر ،ص ٣ .
٣ـ انظر ادناه ،ص ٢٥٥.
٤ـ هتك الستر،ص ١ ، ٥ ـ ٦ ، ١١ .
٥ـ المصدر ذاته ،ص ١ .
٦ـ المصدر ذاته ،ص ١١ .

هذا المخطوط على أهميته وأصالته بقي مجهولا هو ومؤلفه حتى لدى علماء تونس ومؤرخيها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

٤ . محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي (ت. ١٨١٣) ، نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار ، ٢ ج.[١]

كان الشيخ مقديش [٢] عالما مشهورا في تونس ، سافر في طلب العلم الى أهم المراكز العلمية الاسلامية في عصره : جامع الزيتونة والجامع الازهر . وبعد أن حصل على مبتغاه وأجازه مشاهير علماء الجامعتين الاسلاميتين ، رجع الى مسقط رأسه صفاقس حيث تولى تعليم الطلبة " بما يستجاد " و " أصبح تلاميذه بصفاقس أعلام وأئمة في الاسلام " .[٣]

الكتاب يشمل فترة تاريخية تبدأ بصدر الاسلام وتنتهي بسنة ١٨٣٣ ، مع تركيز شديد على تاريخ تونس في العهد الحسيني وبالاخص على عهد حمودة باشا .

المعلومات التي أفدتها من هذا المخطوط أولية ، وخاصة ان المؤلف معاصر لحمودة باشا وعاش الاحداث التي ارخ لها . وقد اشتهر بالتقى ، والصدق ، ووصفه ابن ابي الضياف بأنه كان رجل علم نبيها منصفا و " محمود الاوصاف ".[٤]

١– يوجد المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ٢٢٠ مخطوطات ، حجم ١٧× ٢٣,٥ ، مسطرة ٢٢ ، عدد صفحات الجزء الاول ٥٢٧ ، والجزء الثاني ٤٣٤ ، خطه تونسي – مغربي ، ناسخه محمود المنوبي الفراتي الصفاقسي ، اتم الجزء الاول في فيفرى/ شباط ١٩٠٣ ، والجزء الثاني في ٩ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٩٠٤ .

٢– لهذا الشيخ ترجمة بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٨٥ .

٣– المصدر والصفحة ذاتهما .

٤– المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٨٥ – ٨٦ .

يرجع لهذا المؤلف فضل اطلاعنا على عدة معلومات هامة بالنسبة لموضوع دراستنا ، منها المادة الغزيرة المتعلقة باصلاحات حمودة باشا في الادارة التونسية ، وذلك بابعاده لجند الترك عن المراكز الحساسة بالدولة وابدالهم بالمماليك المجلوبين من تركيا .[1] بالاضافة الى ذلك قدم لنا المؤلف معلومات اطلعتنا على جوانب مهمة من تاريخ تونس . وذلك ببسطه القول ، وهو شاهد عيان ، على الخسائر التي اوقعها طاعون سنة ١٧٨٣ على البلاد التونسية . وهو الذى ذكران ذلك الوباء قتل اهم العناصر العاملة في الشعب التونسي من علماء وصناع واعيان وتجار ، ولم يبق في تونس الا سوقة القوم .[2] وأورد اخبارا مفيدة تتعلق بسياسة ذلك الباى الداخلية ،[3] وبالصناعات التونسية وبالعلاقات التجارية بين تونس ومصر.[4] وبالاضافة الى ذلك ذكر مقديش تفاصيل هامة وصف فيها صمود التونسيين أيام الحرب بين تونس والبندقية ، مع ذكر معاركها ونتيجتها ، خاصة في مدينة صفاقس حيث نقل لنا أنباء وقائع الحرب من ميدان القتال وقد شارك بنفسه في الجهاد .[5]

١ــ مقديش ، نزهة الانظار ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٧ .

٢ــ المصدر ذاته ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٨ ؛ ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٢٠٩ .

٣ــ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

٤ــ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

٥ــ المصدر ذاته ، ج ٢ ، خاصة الصفحات ٩٢ ــ ٩٤ .

٥٠ المؤلف مجهول ، الفخرية في فضل الدولة الحسينية ، [١] وهو يشتمل على تراجم عديدة لبعض رجالات دولة حمودة باشا • وخاصة منهم من تولوا خطة " رياسة الكتاب " التي كان يعتبر متقلدها من اركان الدولة التونسية • [٢] وقد أفدنا من تلك التراجم في موضوعنا كما سيتبين ادناه•

٦• ابو عبد الله محمد بن سليمان المناعي (ت• ١٨٣١) ، كنش • [٣]

كان المناعي عالما متبحرا في علوم الدين ، رحل الى فاس بالمغرب الاقصى طلبا للعلم والمعرفة • له مشاركة في المناقشة والتاليف العلميين مع اطلاع واسع على الشؤون العامة • [٤]

توجد في هذا الكنش معلومات هامة • منها نص بعض الرسائل التي وجهت الى سلطان المغرب الاقصى والى بعض وزرائه عند السفارة الرسمية التي قام بها القاضي ابراهيم الرياحي سنة ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤ لطلب الحبوب من ذلك السلطان بعد ان اجتاحت المجاعات البلاد التونسية • [٥] وقد استفدنا من نصوص تلك الرسائل حيث ذكرت معلومات هامة لم تكن متوفرة في غير هذا المصدر • [٦]

١ـ يوجد المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٧٨٨٦ مخطوطات ، حجم ١٤ × ٢٠ ، مسطرة ١٧ ، عدد الصفحات ٢٨ ، خطه تونسي جميل ، اتم محمد بن احمد نسخ هذا المخطوط الذى لم تعرف له غير هذه النسخة ، في ٣ جوان / حزيران ، ١٨٥٨ •

٢ـ المؤلف المجهول ، الفخرية ، ص ٥ ـ ١٢ •

٣ـ يوجد المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٦٥٨٩ مخطوطات ، حجم ١٤× ٢٠ ، مسطرة ١٧ ، عدد الصفحات ٥٠٥ ، خطه تونسي ـ مغربي ، لم يذكر اسم الناسخ بالمخطوط ، غير ان الخط كبير الشبه بالذى كتبت به نسخة نزهه الانظار لمقديش والناسخ لها هو محمد المنوبي الفراتي كما سبق ذكره ، وليس بالكنش ذكر لتاريخ النسخ ايضا •

٤ـ مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ج ١ ، ص ٣٧٠ •

٥ـ انظر ادناه ، ص ٤٥٦ •

٦ـ المناعي ، كنش ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ •

ومن الوثائق النادرة التي ذكرت في هذا المخطوط نص رسالة استقالة المفتي محمد بيرم من خطة الافتاء والقضاء فقدمه الى الباى حمودة باشا مع ذكر الاسباب . وكذلك وثيقة اخرى فيها النص الرسمي لرد الباى على طلب الاستقالة ، وهو الرفض البات مع ذكر الاسباب .(١) وجميع تلك المعلومات ذات اهمية بالنسبة لهذه الدراسة .

٠٧ محمد بن الطيب بن سلامة (ت. ١٨٤٩)،

كان هذا المؤرخ (٢) من علماء تونس المشهورين ، تولى خطة القضاء ثم الافتاء بالاضافة الى عدة خطط دينية اخرى ، وله عدة مؤلفات دينية . اما في التاريخ فله كتاب : العقد المنضد في اخبار مولانا المشير احمد .(٣) وله ارجوزة : الدرة النفيسة في امراء تونس الانيسة : ارجوزة في تاريخ امراء الدولة الحسينية .(٤)

١- المصدر ذاته ، ص ٤٤٣ - ٤٤٧ .

٢- ترجم له ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٨ ، ص ٧٧ - ٧٩ ، ومخلوف ، شجرة النور الزكية ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

٣- يوجد المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٨٦١٨ مخطوطات ، حجم متوسط ، مسطرة ٢٥ ، عدد الصفحات ٤٧٠ ، خطه تونسي حسن ، والمظنون انه بخط المؤلف . حيث انه كتب بنفس الخط المكتوب به الكتاب على ظهر الصحيفة الاولى : " لما كانت سنة الملوك برمضان التنزه والمحادثة الممتزجة بالتفكه . وكنت قد غرست هذا البستان [العقد المنضد] ، حتى اينع واستكمل الشان ، فرايت ان ارسله هدية لمستحقه [المشير احمد باى] ، وأعطيه هبة للعارف بمقدار حقه ، كي ينزه طرفه فيه ، ويحمد الله على ما نسب من الفضل اليه ، لا زالت معاليه تؤرخ ، وآثاره بطيب الثناء تضمخ . آمين ". أما تاريخ الانتهاء منه فغير مذكور لان النسخة بها انقاص من الوسط والاخر .

٤- المخطوط ملك المغفور له المرحوم الفاضل ابن عاشور ، حجم ٢٥ × ٣٢ ، مسطرة ٢٦ ، عدد الصفحات ٦ ، خطه تونسي حديث ، لم يذكر اسم الناسخ بالمخطوط ولا تاريخ نسخه .

اما العقد المنضد ... فهو تاريخ لدولة المشير احمد باى ، نحا فيه منحى حمودة بن عبد العزيز في التاريخ الباشي السابق الذكر .[١] وذلك فيما يختص بالتعظيم والاطناب في ذكر اعمال مخدومه وصفاته . غير ان الكتابين يختلفان من ناحية الموضوع . فالتاريخ الباشي اختص موضوعه في التاريخ لعهد علي باشا وان ذكر بعض أخبار ابنه حمودة في عهد صباه وشبابه . اما العقد المنضد ... فانه ارخ للعهد الحسيني عامة ثم لما بلغ الى عهد مخدومه أحمد باى اهتم بذكر سيرته وتاريخ دولته بكل تركيز ، الى ان اصبح الكتاب ومؤلفه ينسبان لعهد احمد باى . في حال ان المؤلف عاش حوادث تاريخ تونس منذ عهد حمودة باشا الى عهد احمد باى .

وقد افدنا من المعلومات الواردة في هذا الكتاب بالنسبة لمواضيع عديدة منها أمثلة فريدة تثبت عدل حمودة باشا وانصافه في احكامه ، واستعانته في ذلك احيانا بالخبراء الاوروبيين مبالغة في تتبع الحقيقة باحدث الوسائل .[٢] واختص الكتاب ايضا بذكر احداث تتعلق بحملة ذلك الباى على طرابلس ، وذكر بعض أوجه جديدة في العلاقات بين تونس والدولة العلية في ذلك العهد .[٣] واخبار نشاطات حمودة باشا في الميدان العسكرى من تسليح وتحصينات ومنشآت حربية واصلاحات في الجيش .[٤] ثم تفصيلات هامة تتعلق بالخلاف بين تونس والجزائر وما تبع ذلك من احداث ، البعض منها لم يذكرها احد قبله .[٥] هذا بالاضافة الى ما أورده من قصائد قيلت في حمودة باشا ، وقد انفرد بذكر بعضها تخليدا لانتصاراته في حروبه ، وتمجيدا لسياسته الاصلاحية .[٦]

١ـ انظر اعلاه ، ص ١٢ ـ ١٣ .
٢ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٢٦ .
٣ـ المصدر ذاته ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٤ـ المصدر ذاته ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .
٥ـ المصدر ذاته ، ص ٦٧ ـ ٨٤ .
٦ـ المصدر ذاته ، ص ٦٩ ، ٨٠ ـ ٨٥ .

اما ارجوزة الدرة النفيسة ... فهي في مدح بايات الدولة الحسينية حسب تتابعهم التاريخي . وتنتهي باطول قسم في الدرة وهو في مدح مخدومه المشير احمد باى . والذى يهمنا في هذه الارجوزة وصفه لاهم انجازات حمودة باشا بنظم لا يخلو من الرقة والجمال . وقد شمل ذلك[1] وصف حكمه وحزمه ، وانتصاراته الباهرة على الجزائريين المتسلطين ، وغزوات قراصنته الموفقة ضد الكفار . وكذلك ابدع صاحبنا في وصف المنشآت الحربية من مطنع (مصانع) وثكنات واسوار كان شيدها حمودة باشا .

٢ . مطبوعة

(أ) الرحلات

من الكتب التي كتبت في عهد حمودة باشا ، او قاربت ذلك العهد ، كتب الرحالة[2] الاجانب الذين زاروا تلك البلاد لاسباب مختلفة سيتم التنويه (التعريف) بها اثناء تقييم بعضها . وقد كتب جلهم ذاكرا ما شاهده في تونس: مثل جغرافية البلاد ومدنها وريفها وعمرانها ، وكذلك شرح عدة نشاطات للبلاد منها الزراعية والتجارية والحربية والعمرانية . وقس على ذلك وصفهم للحياة الاجتماعية ، وللعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية القاطنة في تونس . والى هذا الصنف من الكتب يرجع الفضل في ذكر اكثر ما يتعلق بالحياة الدينية والاجتماعية التي كان يحياها النصارى . وتزيد قيمة هذه المراجع عندما نعلم ان المصادر العربية لم تهتم بذكر شيء عن نشاط غير المسلمين في تونس . هذا بالاضافة الى الفصول الطويلة المتعددة المخصصة لذكر حجم المبادلات التجارية ونوعها ، بين تونس ومختلف الدول الاوروبية في ذلك العهد . وقد بلغت بعض تلك الرحلات درجة من عمق التحليل وشمول البحث حدا جعل اتهام البعض من اصحابها بالتجسس لمصلحة دولهم امرا معقولا .

١- ابن سلامة ، الدرة النفيسة ، ص ٢ - ٣ .

٢- تشمل كلمة "رحالة" هنا اولائك الذين زاروا تونس عن طيب خاطر ولسبب الاطلاع ، وهو المعنى المتداول للكلمة ، وتشمل ايضا اولائك الذين اسرهم القراصنة التونسيون واقاموا في تونس كارقاء .

وقبل ان ابدا في وصف هذا القسم من المصادر وتقييمه تجدر الاشارة الى انه تم لي الاطلاع على عدد لا يقل عن احدى عشرة رحلة قام بها اوروبيون الى تونس في مدة حكم حمودة باشا بالذات . بالاضافة الى اكثر من عشر رحلات اخر قام بها اوروبيون ايضا في فترات قريبة من عهد ذلك الباى . ومن هذه الرحلات ، التي طبعت ونشرت ، اخترت تقييم ما ياتي منها ، وهي من تلك التي تمت في الفترة التي ندرسها ، مرتبة على حسب وصول اصحابها الى تونس .

١ . رحلة ديفونتان R. Desfontaines[١] زار تونس واقام فيها مدة سنتين (١٧٨٣ — ١٧٨٥) . كان هذا الرحالة المشهور من ابرز علماء فرنسا .[٢] وقد تتبين اهمية هذا العالم وقيمته عندما نجد قنصل فرنسا بتونس يخبر حكومته بوصول ذلك الرحالة ، ثم بما يقوم به من نشاطات واكتشافات جديدة في علم النبات .[٣]

١— D. de la Malle, Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les regences de Tunis et d'Alger, 2 vols., Paris Librairie de Gide, 1838.
رحلة ديفونتان ، التي تهمنا في هذا التقييم ، تكون الجزء الثاني من الكتاب ، وهي تحت عنوان : Fragmens d'un Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, fait de 1783 à 1786;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب ، ديفونتان ، رحلة . فيما يتعلق بذكر عناوين الكتب اعتمدنا الطريقة التي اتبعت في الطبعات الاصلية التي رجعنا اليها .

٢— يعرف ناشر الرحلة ، في مقدمة الجزء الثاني ، بالرحالة دى فونتان بقوله :
"... René Desfontaines, membre de l'Academie des Sciences, professeur de Botanique au jardin du roi, membre de la Societé d'Agriculture de Paris, dé l'Academie des Sciences et Belles-Lettres de Dijon, de la Societé de physique de Gottingue, de la Societé Linneenne de Londres, etc. etc...".

٣— بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٣٣ .

المعلومات التي يذكرها في رحلته تلك ، سواء منها الجغرافية او التاريخية ، من الاهمية والدقة ، بالنسبة للفترة التي ندرسها بل لتاريخ تونس في القرن الثامن عشر ، بحيث تؤهل الكتاب ليكون في لائحة اهم المصادر لذلك العهد .[1] وقد افدنا منه في دراستنا في مواضيع شتى ، واعتمدناه في جلها وذلك لموضوعيته وعلمه ومنطقيته . وامتاز هذا الرحالة بوصفه الدقيق لحمودة باشا سواء بالنسبة لصفاته الشخصية او لصفاته كحاكم ، مع وصف مفصل لحياة الاهالي داخل البلاد ، ولمظاهر النشاطات والانظمة فيها . وذلك لانه تحصل على شرف مصاحبة حمودة باشا في احدى رحلاته الكبيرة داخل البلاد على راس المحلة[2] لجمع الاداءات ، وقد دامت تلك الرحلة مدة تقارب ثلاثة اشهر . وبالاضافة الى ذلك اقام في تونس مدة تقارب السنتين قضاها في الترحال والبحث عن غريب النباتات.[3]

٢ . تتبع هذه الرحلة رحلة[4] ثانية مؤلفها مجهول ، كل الذى نعرفه عنه هو انه كان فرنسي الجنسية ومثقفا ثقافة عالية . استولى على المركب الذى كان مسافرا عليه قراصنة من المغرب الاقصى . بيع في سوق الرقيق وانتقل مع سيده التاجر الثرى الى عدة مدن بشمال افريقيا خاصة منها مدن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب .

١ـ عدد من العلماء يرون هذا الراى ايضا . اخص بالذكر منهم :

A. Pellegrin, Essai sur les noms de lieux d'Algerie et de Tunisie, etymologie, signification, Tunis, S.A.P.I., 1949, p. 24.

٢ـ انظر ادناه ، ص ٤٦ تعليق رقم ٢ .

٣ـ المعلومات التي اعتمدناها من هذا المؤلف كثيرة سترد الاشارة اليها خلال فصول هذه الدراسة .

٤ـ اسم الكتاب الذى جمعت فيه رسائل ذلك الرحالة :

Voyages dans les Etats Barbaresques de Maroc, Alger, Tunis et Tripoli; ou Lettres d'un des Captifs qui viennent d'être rachetés par MM. les Chanoines réguliers de la Sainte Trinité. Suivies d'une notice sur leur rachat, et du catalogue de leurs noms, Paris, Guillot, 1785;

وسنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ الرحالة المجهول ، رحلة عبر بلدان شمال افريقيا .

الكتاب مجموعة من الرسائل بعث بها المؤلف الى احد اصدقائه في باريس . الرسالة ، بيت القصيد ، التي تتعلق بوصف مشاهداته في تونس مؤرخة بيوم ١٠ ديسمبر / كانون الاول سنة ١٧٨٤ .[١] وعلى الرغم من تحامل المؤلف على سكان شمال افريقيا فان بعض المعلومات التي اوردها لا غنى عنها في دراستنا . من ذلك ما يتعلق بنشاط القرصنة الشمال افريقية في عهده .[٢] والتبادل التجارى بين تونس واوروبا ،[٣] وحالة الجيش والامن في تونس .[٤] وكذلك لمحة عن الطوائف الدينية المسيحية القاطنة بتونس ،[٥] وتفسير ظاهرة اعتناق النصارى للدين الاسلامي في ذلك البلد .[٦]

٣ . ستانلي E. Stanley ، انجليزى الجنسية ، زار تونس وبقي فيها مدة تتجاوز السنتين (١٧٨٤ — ١٧٨٦) . سجل لنا الكثير من مشاهداته والتجارب التي مر بها في كتاب قيم [٧] تناول وصف مختلف مظاهر الحياة في تلك الديار . غير انه على الرغم من وعده ، في مقدمة رحلته ، بانه سيذكر كل شيء على حقيقته كما هو بكل موضوعية وتجرد ، فانه يخيب الامل في الوفاء بذلك الوعد ، ومرجع ذلك تعصبه الديني . فهو لا يجد فرصة لشتم اهالي البلاد المسلمين الا ويغتنمها . ولا يذكر أحدا منهم بالخير الا بقدر عطفه على المسيحيين .[٨]

---

١ — الرسالة تتالف من ٣٦ صفحة (من ص ١٢٥ الى ص ١٥٦) ، وهي الرسالة الخامسة في ترتيبها .

٢ — المصدر ذاته ، ص ١٥ — ١٦ .

٣ — المصدر ذاته ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

٤ — المصدر ذاته ، ص ١٤٠ — ١٤٣ .

٥ — المصدر ذاته ، ص ١٤٤ .

٦ — المصدر ذاته ، ص ١٥٨ — ١٦١ .

٧ — E. Stanley, Observations on the City of Tunis and the adjacent country, with a view of Cape Carthage, Tunis bay, and the Goletta, taken on the spot, London, Edward's, 1786;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس .

٨ — انظر مثلا الصفحات ٦ — ٧ ، ١٩ .

وعلى الرغم من ان ستانلي لم يجروء على الابتعاد كثيرا خارج مدينة تونس فقد افادنا بمعلومات مفيـــــدة ،من ذلك وصفه لاهم رجالات تونس وعلى رأســـهم الباى وذكر أهم اعمالهم وانجازاتهم في مختلف الميادين .[1] وتفصيله لسياسة تونس الخارجية واهمية تجارتها الخارجية .[2] وكذلك ايضا وصفه للحياة الزراعية وكثرة الانتاج ،[3] مع ذكر الاسعار وتفصيل تكاليف المعيشة .[4]

٤ . الاب بوارى l'abbé Poiret عالم في الطبيعيات والاعشاب زارتونس لاغراض علمية وقضى فيها مدة سنتين ١٧٨٥ و ١٧٨٦ . وكتابه[5] يعتبر من اهم المصادر التي لا مناص من الرجوع اليها في تاريخ تونس في الفترة التي ندرسـها . خاصة وان المؤلف يتصف بالاتزان والصدق ، يفكر ويحلل الظواهر التي يكتـب عنها بموضوعية ومنطقية وتحكيم عقل ما تعودناها من كثير من امثاله الزوار .

والرحلة عبارة عن ٢٩ رسالة بعث بها هذا الرحالة العالم الى اســتاذ زميل له في جامعة السربون بباريس . وقد دون فيها اهم الاحداث التي جرت خلال مدة اقامته في تونس ،مع وصف موجز كثير الافادة لما شاهده من شؤون الدولة وحياة الناس هنالك . من ذلك ما امتاز به من ذكر القبائل المتاخمـة

١ـ المصدر ذاته ، ص ١٧ .

٢ـ المصدر ذاته ،ص ١٠ـ ١٥ .

٣ـ المصدر ذاته ،ص٧ـ٨ ، ١٩، ٢١ ، ٢٧ـ٢٨ ، ٣٢ ـ ٣٦ .

٤ـ المصدر ذاته ،ص ٦ـ٨ .

٥ـ Voyage en Barbarie; ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les anneés 1785 et 1786, sur la religion, les coutumes et les moeurs des Maures et des Arabes-Bédouins; avec un Essai sur l'Histoire Naturelle de ce pays, Paris, Née de la Rochelle, 1789؛

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب بوارى ، رحلة .

للحدود الجزائرية واسباب فتنهم ومشاكلهم القائمة ضد الجزائر ،[١] وكذلك الكثير من المعلومات القيمة التي تتعلق بالحياة الاجتماعية ، خاصة لدى البدو.[٢] وامتاز ايضا باهتمامه بوصف فن الطب والحكماء بتونس في ذلك الوقت ،[٣] وعلاقات النصارى بالمسلمين .[٤] هذا مع ما زودنا به من معلومات تختص بوصف الاوبئة ونتائجها وتاثيرها على سكان البلاد التونسية واقتصادهم وثروتهم .[٥]

٥ . الاب كاروني F. Caroni من سكان مدينة ميلانو بايطاليا وهو عالم في الاثار والنقوش ، وجماعة للمخطوطات النفيسة والعملات والاوسمة القديمة النادرة . قام ذلك الاب العالم برحلة من ديره بميلانو الى نابلي وبليرم لشراء مجموعة هامة من تلك النوادر لاستاذ تاريخ العصور القديمة ومسكوكاتها بجامعة فينا . وفي طريق رجوعه استولى القراصنة التونسيون على سفينته ، وسيق مع جميع الركاب الى تونس حيث قضى سنة ١٨٠٤ في الرق . ثم اعتق بعد التعويض[٦] المالي والتدخلات الرسمية من قبل بعض الدول الاوروبية .

١- بوارى ، المصدر ذاته ، ص ٤٢ ، ٥١-٥٣ ، ١٧٥-١٧٦ .

٢- المصدر ذاته ، ص ٣١ ، ٣٤-٣٩ ، ٤٢-٤٤ ، ٤٩ ، ١٠٢-١٠٥ ، ١٤٠ ، ١٤٠-١٤٦ ، ١٧٤ .

٣- المصدر ذاته ، ص ٦١ ، ١١٣ - ١١٤ .

٤- المصدر ذاته ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ١٧٩ .

٥- المصدر ذاته ، ص ١ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١٩١ - ١٩٢ .

٦- نقصد بكلمة تعويض هنا وفي ما يلي عن هذه الدراسة الفدية او ما يدفع للتونسيين من اموال لاسترجاع ارقاء اوروبيين استولى عليهم قراصنة تونسيون .

المخطوط الذى سجل فيه الاب كاروني الاحداث التي جرت له ومشاهداته وتحليلاته وانطباعاته مكتوب باللغة الايطالية • قام المستشرقان المؤرخان كانور وغرانشان بترجمة اهم ما ورد فيه من أخبار تتعلق بتاريخ تونس وتحقيقها •[1] وقد افدنا من تلك الرحلة في دراستنا ، وبالاخص في المواضيع التالية : نشاط القرصنة التونسية مع وصف حياة الارقاء في تونس •[2] وأحسن في ذكر الخبراء والاطباء الاجانب وميادين عملهم ومجالات تاثيرهم الحضارى ،[3] واخبار اخرى تتعلق بالحكم والادارة ،[4] والنشاط الزراعي والصناعي ،[5] ووصف لمكانة تونس الحربية وامكانات جيشها واسطولها •[6]

٦ • همبير J. Humbert ، هولندى الجنسية اقام في تونس من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨١٧ • وهو عالم في الاثار تحصل على رخصة من حمودة باشا تسمح له باقامة حفريات آثرية في بقايا مدينة قرطاج •

١ـ M. Conor, et P. Grandchamp, "Relation du court voyage d'un antiquaire amateur (F. Caroni) surpris par les corsaires, conduit en Barbarie et heureusement rapatrié (1804)", R.T., no. 117 (1916), pp. 287-294; nos. 118 - 119 (1916), pp. 293 - 403; no. 120 (1917), pp. 30 - 54; no. 121 (1917), pp. 96 - 122;

في مقدمة المقال الاول ترجمة مطولة للمؤلف وتعريف المخطوط ،عدد ١١٧ (١٩١٦) ،ص ٢٨٧ ـ ٢٩٠ ؛ وسنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " •

٢ـ المصدر ذاته ،عدد ١١٧ (١٩١٦) ،ص ٢٨٩ ؛ والاعداد ١١٨ـ١١٩ (١٩١٦) ، ص ٣٩٧ ؛ وعدد ١٢٠ (١٩١٧) ،ص ٥٠ ـ ٥١ ، ١٠١ •

٣ـ المصدر ذاته ،عدد ١١٧ (١٩١٦) ،ص ٢٨٧ ؛ وعدد ١٢٠ (١٩١٧) ،ص ٣٤ ، ٤٢ ـ ٤٣ ، ٤٨ ـ ٤٩ ؛ عدد ١٢١ (١٩١٧) ص ١٠٢ •

٤ـ المصدر ذاته ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ،ص ٣٤ ، ٣٦ ـ ٣٧ ، ٤٤ ـ ٤٥ •

٥ـ المصدر ذاته ،ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ٥٢ ـ ٥٣ •

٦ـ المصدر ذاته ،عدد ١٢٠ (١٩١٧) ،ص ٣٢ ـ ٣٣ •

اثناء اقامته في تونس ألف هذا العالم كتابا ،[١] مهدى الى ملك هولنـــدا الذى موّل حفريات ودراسات همبير في تونس ، ضمنه اكتشافات[٢] ومعلومـــات وخرائط وصور فريدة في آثار قرطاج في ذلك العهد . والكتاب ،على الرغم مـــن انه لا يخرج من ميدانه في علم الآثار ،افادنا بمعلومات اولية ذات شأن . ومعظمها يتعلق بانجازات علماء الاثار الاجانب في تونس قبل واثناء حكم حمودة باشا ،ثم وصف تفتح ذلك الباى وتشجيعه لرجال العلم .[٣]

٠٧ الدكتور فرانك Dr. L. Frank نشر كتابه تحـت عنوان

Tunis, Description de cette régence[٤]

اقام هذا الطبيب الشـهير[٥] في تونس مدة حوالـي ثماني سنوات ابتداء من سنة ١٨٠٦ . وهو هولندى الجنسية ، فرنسي الاصل ، جمع في تونس بين خطتيـن كبيرتين في ميدان الطب هما : طبيب حمودة باشا الخاص[٦] ورئيس الاطباء .[٧]

١ـ J. E. Humbert, Notice sur Quatre Cippes sépulcraux et deux fragments, la Haye, Imprimerie De Lyon, 1821.

٢ـ من اكتشافاته الاثرية عثوره على مشاهد اربعة قبور ترجع الى القرون الاولـــى من تأسيس قرطاج . نقلت الى هولندا ووضعت في متحف جامعة لايدن (Leyde) هذه ، المعدومة مع سابقاتها هي من المصدر ذاته ،الاهداء ،صأ ــ ب .

٣ـ المصدر ذاته ، الاهداء والمقدمة .

٤ـ وهو يحتل القسم الاول من الكتاب الذى اصدره المستشرق الفرنسي

J. J. Marcel, Histoire de Tunis, Précédée d'une description de cette règence par le docteur Louis Frank, Paris, Didot Frères, 1851

هذا المؤلف فيما بعد بـ فرانك ،وصف البلاد التونسية ، اما القسم الذى حـرره مارسال ،وهو يمثل النصف الثاني من الكتاب ،والذى عنوانه :

Un précis historique et eclaircissements tirés des écrivains orientaux

سنشير اليه فما بعد بـ مارسال ،موجز تاريخ تونس.

٥ـ عمل طبيب نابليون الخاص اثناء غزوته لمصر ، والف عدة كتب ونشر عدة دراسات طبية عن الامراض في مصر ، له ترجمة مستفيضة في مقدمة الكتاب بقلم مارسال .

٦ـ المصدر ذاته ، المقدمة .

٧ـ المصدر ذاته ،ص ١٤٢ .

وقد أهله مركزه ذاك وطول اقامته في تونس ، مع ماله من حب الاطلاع والاستقصاء ، وسابق معرفته بالتاريخ والحضارة الاسلاميين ، من ان يجعل من كتابه أفيد كتاب وصفي لعهد حمودة باشا . ويصدق ذلك على كتب التاريخ والرحلات .

وهو يقسم كتابه الى موضوعات مستقلة [١] كوصف العمران والابنية ، والاثار وجغرافية تونس ووصف اهم مدنها ، وذكر طبيعة الحكم والادارة ، بما في ذلك ذكر مداخيل الدولة ومصاريفها ، واهم رجالاتها ، وحياة الاجانب على مختلف جنسياتهم هناك . وكذلك وصف المكاييل والموازين والعملة الخ ...

وقد اعتمدنا كثيرا على الكتاب في دراستنا هذه ، وذلك لان عمل المؤلف أهله للاطلاع على شؤون الدولة نتيجة عيشه في القصر ، وشدة تقربه للباى . هذا مع وفائه ، في الغالب ، لما ذكره في المقدمة من انه لم يعتمد الا على الصدق والتجرد التام في ذكر مادة كتابه الغزيرة . تلك المادة التي قدمت لنا معلومات دقيقة ، ووثائق لا يمكن الاستغناء عنها قط .

٨ . شاتوبريان F. Chateaubriand الكاتب والرحالة الفرنسي المشهور زار تونس سنة ١٨٠٧ ، ضمن رحلة طويلة ضمت عدة بلدان اوروبية وعربية . ألف هذا الكاتب الاديب كتابا [٢] ذكر فيه مشاهداته وانطباعاته عن كل المدن التي زارها .

١ـ المعلومات التي اعتمدت من هذا الكتاب كثيرة سترد الاشارة اليها خلال فصول هذه الدراسة .

٢ـ F. Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jerusalem, 2 vols., Paris, Imprimerie de Lagny, 1881.

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب شاتوبريان ، رحلة .

الفصل الذى خصص للحديث عن مشاهدات المؤلف في تونس ، وهو الفصل السابع والاخير ، اخذ طابعا اثريا نتيجة تركيز المؤلف على وصف اثار قرطاج وذكر لمحة عن تاريخها عبر العصور • غير ان كل ذلك لم يمنع رحالتنا الدقيق الوصف من ذكر بعض مشاهداته وانطباعاته عن بعض مظاهر البلاد التونسية وانظمتها في ذلك الوقت • من ذلك على سبيل المثال لا الحصر وصف عدة نواحي من الحياة الاجتماعية والتجارية [١] هذا بالاضافة الى معلومات ذات اهمية تتعلق بشخصية حمودة باشا وسياسته الخارجية ونجاحه فيها ، تجاه اوروبا خاصة • [٢]

٩ • بوتان M. V. Boutin : [٣] ضابط مهندس بالجيش الفرنسي ملحق بقسم الاستخبارات العسكرية • كلفته وزارة البحرية الفرنسية مهمات سرية في اسطنبول سنة ١٨٠٧ وفي الجزائر وتونس سنة ١٨٠٨ • وقد لقي حتفه على يد الاعراب سنة ١٨١٣ اثناء قيامه بمهمة مماثلة في كل من مصر وسوريا • [٤]

وان كانت اعمال ذلك الضابط في اساسها ترمي لرسم الخرائط ، فان تقاريره ووصفه لبعض مظاهر البلاد افادتنا بالنسبة لهذه الدراسة وبخاصة في شان تحصينات العاصمة وموانيها وحالة جيشها واسطولها • [٥]

١ـ المصدر ذاته ، ج٢ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ •

٢ـ المصدر ذاته ، ج٢ ، ص ٢٠٩ •

٣ـ نشر هيجون بعض اثار هذا الرحالة التي عثر عليها مع مقدمة وشرح وتعليق في مقال H. Hugon, "Une mission topographique à Tunis en 1808", R. T., no. 53 (1905), pp. 369 - 376;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ هيجون ،" مهمة بوتان " •

٤ـ لذلك الضابط ترجمة في مقدمة المقال ؛ يذكر هيجون ان الجيش الفرنسي في حملته على الجزائر سنة ١٨٣٠ استعمل خرائط رسمها الضابط بوتان ؛ وكذلك عندما احتل ذلك الجيش تونس سنة ١٨٨١ ؛ المصدر ذاته ، ص ٣٧٠ •

٥ـ المصدر ذاته ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٤ •

١٠ • مجيل T. Maggill أقام في تونس طوال سنة ١٨٠٨، وهو تاجر بريطاني زار تلك البلاد في مهمة تجارية • ولما طالت اقامته هنـــاك ولم ينه عمله ، شـغل أوقات فراغه في جمع المعلومات عن مختلف مظاهـــر البلاد التونسية ، وتسـجيل مشاهداته وانطباعاته الشخصية • وذلك للتعريف بالبلاد التونسية وباهميتها التجارية للحكومة الانجليزية وزملائه التجار، كما يذكر في المقدمة •[١]

من اشارة المؤلف الى الغرض الذى يرمي اليه من نشر تلك الرحلـة يمكننا ان نعرف ان التركيز فيها كان على النشاط الاقتصادى في الاساس • وقد كانت المعلومات التي ذكرها في ذلك المجال هامة • وشملت ذكر سـياسة حمودة باشا التجارية مع اوروبا وداخل تونس ،[٢] ونشاط القرصنة التونســية واخطارها ،[٣] وحياة الاوروبين هناك •[٤] وكذلك لم ينقصه الاهتمام بالتحصينات ووصف القوة العسكرية لمختلف اقسام الجيش •[٥] وافدنا من معلوماته ايضا فيما يتعلق بذكر العلاقات التونسية الجزائرية ووصف الحروب بين البلدين •[٦]

١ـ الف هذا الكتاب باللغة الانجليزية تحت اسم ، An account of Tunis, London, 1811 • الاصل الانجليزى غير متوفر ولم اعثر علـى غير الترجمة الفرنسية له ، وهي طبعة محققه صدرت تحت اســم :
Nouveau voyage à Tunis, publié en 1811 par M. Thomas Maggill, et traduit de l'anglais avec des notes par M. ... Ragueneau de la Chesnaye, Paris, 1815; سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ مجيــل ، رحلة •

٢ـ المصدر ذاته ، ص ٣٥ ، ٦٤ـ٦٨ ، ٨٧ ، ١٥٠ـ١٦٤، ١٧٧ـ١٨١ •

٣ـ المصدر ذاته ، ص ٧٨ ـ ٨٣ •

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٣٠ ، ٨٤ـ٨٥ •

٥ـ المصدر ذاته ، ص ٥٧ ، ٨٨ ـ ٨٩ •

٦ـ المصدر ذاته ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٠ ـ ٧١ •

١١ • كارولين دى برانشفيك C. de Brunswick [1] اقامت هذه الاميرة في تونس اقل من عشرين يوما فقط • ورحلتها مقاربة جدا ، زمنيا ، للفترة المعنية بهذه الدراسة • غير انها لا تتطرق لشيء يتعلق بعهد حمودة باشا • ولكنها افادتنا في ذكر العادات والتقاليد التونسية ، ووصف الاستقبالات الرسمية واجنحة الحريم في قصور البايات ، وبذخ تلك القصور الظاهر •

هذا وقبل الانتهاء من الحديث عن هؤلاء الرحالة يجب ان نذكر ان رحلة مجيل تاتي ، في نظرنا ، في المرتبة الثالثة بالنسبة لاهميتها لموضوع هذه الدراسة ، وذلك بعد رحلتي ديفونتان وفرانك المذكورتين اعلاه • [2]

(ب) كتب تاريخ عامة

١ • عبد الرحمن الجبرتي الحنفي (ت• ١٨٢٥) ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٧ج ، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وغيره ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٧. يذكر هذا المؤرخ المصرى المعاصر لحمودة باشا اخبار فريدة وهامة تتعلق بسير بعض كبار المسؤولين التونسيين الذين هربوا من تونس في اول عهد حمودة باشا والتجاوا الى الاسكندرية والقاهرة واسطنبول • ومن اشهر هؤلاء احمد بن عياد الجربي ، اول خزندار ذلك الباى ، التجا الى مصر بعد ان هرب بجميع " الاموال " التي كان مؤتمنا عليها • [3] وهي معلومات افدتنا منها الفهم بعض اوجه التغيير الذى اجراه حمودة باشا في ميدان الادارة كما سنوضحه في مكانه من هذه الدراسة •

١ـ نشرت اخبار هذه الرحلة وبعض وثائقها الاصلية بالمقال :
P. Grandchamp, "A propos du sejour à Tunis de Caroline de Brunswick, Princesse de Galles (4-22 avril 1816), " R. T., no.17 (1934), pp. 59-72,
سنشير الى هذا المصدر فيما بعد بـ غرانشان ، " زيارة كارولين دى برانشفيك" •

٢ـ انظر اعلاه ، ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ٢٨ ـ ٢٩ •

٣ـ عجائب الاثار ، ج ٤ ، ص ١١ ـ ١٢ •

٢ • احمد بن أبي الضياف (ت• ١٨٧٤) ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان • وعلى الرغم من كون مؤلفه حرر تاريخه في وقت متاخر قليلا عن الفترة التي ندرسها فقد اعتبرناه مصدرا اصليا لاسباب عديدة • من أهم تلك الاسباب ان مؤلفه منذ حداثة سنه كانت له معرفة وخلطة برجال دولة حمودة باشا • فقد كان يتردد عليهم وعلى دواوين الحكومة وهو في صحبة والده الذى كان ادخله حمودة باشا في خدمة الدولة • ومن المناصب التي تولاها والد مؤرخنا في عهد حمودة باشا منصب " كاتب يوسف صاحب الطابع وصاحب سره "[1] و منصب" رئيس الكتبة في بيت خزندار •••" ، وكذلك كان يكتب لحمودة باشا " اسراره عند مغيب الرئيس [رئيس كتاب الباى] ، ويحضر في نادى مشورته "•[2] وقام بمهمات اخرى عديدة هامة منها مشاركته في سفارة يوسف صاحب الطابع الى اسطنبول سنة ١٧٩٤ ،[3] ومنها مشاركته العملية في حرب تونس ضد الجزائر سنة ١٨٠٧ •[4] وقد كان هذا الوالد المطلع على اسرار الدولة يخبر ابنه عن كثير من الحوادث التي جرت في عهد حمودة باشا ويفسر غوامضها ، وهو ما نجده في اماكن عديدة من هذا الكتاب الهام • بالاضافة الى ذلك كان المؤرخ يذكر الكثير من اخباره مستندا الى اقوال بعض المسؤولين الذين عاصروا وراوا الحوادث وعاشوها •[5] بالاضافة الى ذلك تولى مؤرخنا رئاسة " ديوان الانشاء " سنة ١٨٢٧ ،[6] ثم تولى

١ـ اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٦ ؛ انظر ترجمة والد المؤلف بالمصدر ذاته ، ج ٨ ، ص ٣٧ـ٣٨ •

٢ـ المصدر ذاته ، ج ٨ ، ص ٣٧ •

٣ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ •

٥ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٦ ، ١٢٠ •

٦ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥٩ •

عدة مناصب اخرى عالية في الدولة منها الوزارة .[1] وجميع تلك المناصب تؤهلـه للاطلاع على ما لم يتسن لغيره .

اما الكتاب فهو كتاب هام جدا وغني بالوثائق ،فيه من المعلومات والاخبار ما يجعله يتمتع بمرتبة خاصة لا يشاركه فيها اى كتاب تاريخ آخر للعهد الذى ندرسه . وذلك على الرغم من ان مؤلفه اتبع التاريخ الحولي لفترة طويلة من تاريخ تونس . وهي تمتد من الفتح الاسلامي الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، مع تركيز كبير على العهد الحسيني (يبتدئ سنة ١٧٠٥) . وقد اعتمدنا المعلومات الوفيرة التي اوردها ابن ابي الضياف في اماكن متعددة سترد عبر فصول هذه الدراسة .

ج . المراجع الثانوية

ان الكتب والدراسات الثانوية التي تطرق فيها اصحابها الى تاريخ تونس في عهد حمودة باشا هي في الغالب ضحلة المادة قليلة الفائدة . وسنذكر في هذا القسم آهمها ،ونوردها مرتبة على حسب سنوات طبعها .

١. المراجع العربية . كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ، لمحمد بيرم (ت. ١٩١٠) . في الجزء الاول والثاني منه من طبعة ١٨٨٤ يذكر المؤلف حسن سياسة حمودة باشا الاقتصادية ونتائجها المحمودة على البلاد ، وهي السياسة التي كان يدعو فيها الباى الى التقشف والى تشجيع الصناعات المحلية .[2] هذا بالاضافة الى معلومات اخرى تتعلق بتعريف بعض الوظائف والخطط التي كانت موجودة في عهد حمودة باشا مع ذكر التطورات والتغييرات التي ادخلت عليها فيما بعد ، مع معلومات ثانوية اخرى متفرقة في الجزء الاول من الكتاب .[3]

١ـ انظر بعض المناصب والمهمات التي تولاها مؤلف الاتحاف بالدولة بمقدمة الكتاب ج ٣ ،ص ١٧٧ ــ ١٧٨ ،ص ١٩٣ ،ج ٨ ،ص ١٨٥ ، وكذلك انظر ترجمته بمخلوف ، شجرة النور الزكية ،ج ١ ،ص ٣٩٤ ،ترجمة رقم ١٥٧١ .

٢ـ بيرم ، صفوة ،ج٢ ،ص ٥ـ٦ .

٣ـ المصدر ذاته ،ج ١ ، انظر على سبيل المثال ص ١٢١ـ١٢٢ ، ١٣٣ـ١٣٤ ،١٥٥ .

محمد مخلوف (ت ٠حو٠ ١٩٤٥) ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكيـة ، (ط٠ ١٩٢٩) ٠ يشمل رجال تلك الطبقات الذين عاشوا في البلاد التونسية من الفتح الاسلامي الى عهد مؤلفه ٠ اخذنا من المعلومات التي وردت خلال تراجم رجالات عهد حمودة باشا ٠ وهي معلومات ابرزت لنا أهم صفات ذلك الباى مع نبذة مفيدة عن سياسته الداخلية واصلاحاته واهم رجال دولته ٠[1]

لدينا كتابان اخران لا يخلوان من فائدة لمؤرخ تونس المعاصر حسن حسني عبد الوهاب (ت٠ ١٩٦٨) ، هما خلاصة تاريخ تونس : مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من اقدم العصور الى الزمان الحاضر ،(ط٠ ١٩٥٣) والكتاب الثاني هو ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، (ط٠ ١٩٦٦) ،

في المختصر اخ المؤلف لعصر حمودة باشا وسرد اهم الاحداث التي وقعت انئذ باختصار شديد ،واهمها حروبه مع البندقية و طرابلس الغرب والجزائـر وذكر ايضا ثورة جند الترك وبعض خصال ذلك الباى ٠[2] اما في ورقات فانننـا لم نجد ما يهم دراستنا سوى بعض المعلومات الثانوية جدا والمتعلقة ببعـض العادات الجارية في ذلك العهد ٠[3]

اما محمد السنوسي (ت٠ ١٨٩٩) فله كتاب مسامرات الظريف بحسـن التعريف ، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية ،(لا ت٠) ٠ يحتوى هـذا

١ـ مخلوف ، شجرة النور الزكية ،ج ٢ ، ص ١٦٧ ــ ١٧٣٠

٢ـ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٦ ــ ١٦٠ ٠

٣ـ عبد الوهاب ، ورقـات ،ج ٢ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٩ ٠

الكتاب على تراجم البايات الحسينيين واشهر الفقهاء في عهدهم الى وفاة المؤلف • وفي ترجمته لحمودة باشا [١] يورد عدة معلومات لا تخلو من الاهمية •

٢ • المراجع الاجنبية • هذه المراجع تتطرق باختصار للعهد الذى ندرسه ، وهي اكثر من المراجع العربية عددا وافادة • وسنذكر في هذا التقييم بعض اهمها ، ونوردها على حسب مواضيعها •

(ا) الرحلات • هذه الرحلات قام بها اصحابها بعد عهد حمودة باشا ، وهي هامة ولا يصح الاستغناء عنها في كتابة دراسة علمية لها علاقة بتاريخ تونس في القرن التاسع عشر • منها رحلة T. Grenville في كتابه Excursions in the Mediterranean, Algiers and Tunis, 2 vols., London, 1835 .

فهي رحلة قام بها هذا الانجليزى حوالي سنة ١٨٣٠ لمجرد السياحة والترفيه ، فيها عدة معلومات جغرافية واثرية بالاضافة الى مشاهداته الهامة • وهي مادة صالحة للمقارنة بين العهد الذى ندرسه والعهود التي لحقته في عدة مظاهر • هذا بالاضافة الى الاخبار التي سمعها وتتعلق بقوة شخصية حمودة باشا وعدله ، واثر اعمال وانجازات ذلك الباى في نظام الدولة بعده • [٢]

ومن تلك الرحلات ايضا رحلة مؤلفها ضابط سويسرى الجنسية مجهول الاسم ، اسمها Une promenade à Tunis [٣], en 1842, Paris, 1844 .

قام هذا الرجل برحلته للترفيه على النفس ايضا • افادنا في ذكر تحصينات مدينة تونس والحياة الاجتماعية فيها والعسكرية منذ عهد حمودة باشا الى زيارته لتونس • [٤]

١ـ المصدر ذاته ، ص ٣٥ ـ ٤٠ •

٢ـ المصدر ذاته ، انظر خاصة ج ١ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، ٢٣٦ ـ ٢٤١ ، ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ جرينفيل ، نزهات في الجزائر وتونس •

٣ـ سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ الضابط السويسرى ، جولة في تونس •

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٧٦ ـ ٨٠ ، ١١٤ ، ١٤٢ ، ١٥٨ •

اخر رحلتين اشـتملتا على فوائد ومعلومات هامة لا يستغنى عنها هما؛الاولى رحلة الكاتب الاديب الفرنسي المشهور Alexandre Dumas, في كتابـه
Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, 4 vols., Paris, 1848 - 1851.(1)
اكد هذا المؤلف على اهمية الصداقة التونسية الفرنسية • ووصف تلك العلاقـة بانها بنيت على اسس متينة منذ عهد حمودة باشا ، وكونها اعطت ثمارها سـنة ١٨٤٦ السنة التي زار فيها احمد باى فرنسا زيارة رسمية •(٢) وهي رحلة مفيـدة وشـيقة •

الرحلة الثانية هي رحلة Philippe Dauma, التي اسـماها (٣) Quatre ans à Tunis, Alger, 1857. هذا الرحالة كان ضابطا في الجيـش الفرنسي استقدمه احمد باى لتدريب الجيش التونسي • افادنا في تفسير اهمية عهد حمودة باشا واصلاحاته في الجيش والاسطول في ابراز فكرة دولة تونسية • وافادنـا ايضا في ما يتعلق بتاريخ الجيش التونسي في العهد الحسيني مع تبيين اقسـامه واعداده وامكاناته •(٤)

(ب) الحوليات • بالنسبة لهذا النوع من الكتب فلا جدال ان اهمهـا في ما يتعلق بهذه الدراسة ،اثنان • الاول لـ A. Rousseau عنوانـه
Annales tunisiennes ou Apercu historique sur la régence de Tunis, Alger, 1864.
هذا الكتاب له ميزة خاصة هي ان روسو كان يحسن اللغة العربية كتابـة وقـراءة ،

١ـ سـنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ الكسندر دوما ، رحلة •
٢ـ انظر المصدر ذاته ،ج ٢ ،خاصة الصفحات ١١٥ ـ ١١٦ •
٣ـ سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ فليب دوما ،اربع سنوات في تونس•
٤ـ المصدر ذاته ،خاصة الصفحات ٤٦ ، ١٥٧ ـ ١٥٩ •

بالاضافة الى توليه منصب المترجم الاول للقنصلية العامة لفرنسا بتونس سنة ١٨٥٤.[١] ارخ لتونس من سنة ١٥٣٥ الى سنة ١٨٣٠. اورد بعض المعلومات الجديدة في شأن تولية حمودة باشا الحكم، وكذلك في تفسيراهم قواعد سياسته الداخلية والخارجية.[٢]

اما كتاب الحوليات الثاني فهو ل Ch. Ferand اسمه Annales tripolitaines, Paris, 1927. يجد فيه الباحث بعض المعلومات الهامة التي تتعلق بالعلاقات التونسية الليبية في عهد حمودة باشا. خاصة في شأن تدخل تونس الحربي وارجاعها لوالي طرابلس القديم علي قرمانلي الى عرشه بعد ان اطرده منه والي عثماني اخر.[٣]

(ج) كتب التاريخ العامة. هذا النوع من الكتب يشتمل على عدد كبير من المراجع سنختار اهمها في تقييمنا هذا، مرتبة على اساس سنوات نشرها. اولها كتاب Gay Oscar الموسوم La Tunisie, notice historique, Paris, 1861. وهو يمتاز بالاراء الجديدة ~~والشيقة~~ والهامة التي بحث بها حكم البايات الحسينية. وبتلك الروح الفاحصة الجديدة التي قلما نجدها لدى الكتاب الفرنسيين المختصين بشمال افريقيا، اهتم المؤلف ببعض مظاهر حكم حمودة باشا خاصة في ما يختص بسياسته الخارجية.[٤]

١ـ غرانشان، "وجهاء فرنسيون في تونس"، المجلة التونسية، عدد ٤٩، ٥٠ و ٥١ (١٩٤٢)، ص ٢٣٠.

٢ـ روسو، حوليات تونسية، خاصة الصفحات: ١٧٩ـ١٩٧، ٢١٥ ـ ٢٢١، ٢٦٣ ـ ٢٦٩، ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

٣ـ فيراند، حوليات طرابلسية، خاصة الصفحات: ٢٨٩ ـ ٢٩٤، ٢٩٧ ـ ٢٩٨؛ انظر ادناه ص ١٠٨ـ١٠٩، ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ٣٩٩ـ٤٠٢.

٤ـ اوسكار، ملخص تاريخ تونس، انظر خاصة الصفحات: ٣٨ ـ ٤٧، ٤٨ ـ ٥٣.

اما A. De Flaux ، فان كتابه La Régence de Tunis au dix-neuvième siècle, Alger, Bastide, 1865. يعتبر كسابقه من الكتب الفرنسية القليلة التي ارخت لتونس ببعض الموضوعية والاعتدال . وقد افادنا في بحثنا في شان تقييم بعض الاصلاحات التي ادخلها ذلك الباى في ادارته العسكرية والمدنية ، مع وصف اخلاقه وعدله وحزمه .[١] وعمله الدائب للحصول على استقلال بلاده عن كل من الجزائر والدولة العلية .[٢]

اما A. Qualid في كتابه المهدى الى محمد الصادق باى (حـ ١٨٥٩ـ١٨٨٢) Principales époques de la Tunisie ...[٣] فيؤكد فيه على اهمية عهد حمودة باشا ، ويذكر اهم رجالات دولة ذلك الباى سواء منهم العثمانيون او التونسيون او النصارى الاوروبيون.[٤]

١ـ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، خاصة الصفحات: ٢١٤ ، ٢١٧ ـ ٢١٨ ، ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

٢ـ المصدر ذاته ، خاصة الصفحات: ٢١٤ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ٢٢١ .

٣ـ A.Qualid, Principales époques de la Tunisie, documents pour servir à l'historie de ce pays, Alger, Imprimerie Aillaud, 1874;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٤١ ـ ٤٩ .

ويعتبر كتاب Les emblèmes des beys de Tunis للموءرخ الفرنسي H. Hugon [١] من الكتب الهامة التي لايستغنى عنها في تاريخ الدولة الحسينية ، خاصة وانه الوحيد في موضوعه . يذكر معلومات وتفسيرات جديدة لبعض احداث عهد حمودة باشا . يتعلق بعضها بثورة جند الترك ١٨١١ ، [٢] وتأثر ذلك الباى بالاحداث الخارجية . [٣] ووصف انجازاته الرامية الى استقلال تونس ، وكذلك اورد معلومات توءكد تأثير سياسة حمودة باشا في سياسة البايات بعده . [٤]

آخر هذه المراجع هو الكتاب المسمى : Initiation à la Tunisie, [٥] Paris, 1950.

وهو عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها اختصاصيون فرنسيون تشمل مختلف عهود تاريخ البلاد التونسية . في المقال المخصص لحكم الحسينيين وردت معلومات واراء هامة تلقي مفهومات جديدة من المفيد الاطلاع عليها . وذلك ينطبق خاصة على عهدي حمودة باشا واحمد باى . [٦]

١ـ H. Hugon, Les emblèmes des Beys de Tunis, études sur les signes de l'autonomie husseinite: Monnaies, Sceaus, Etendards, Armoiries, Marques de dignités et de grades, Décorations Médailles commémoratives militaires, Paris, E. Leroux, 1913;
سنشير الى هذا الموءلف فيما بعد ب هيجون ، شعارات بايات تونس .

٢ـ المصدر ذاته ، ص ٣ ـ ٦ .

٣ـ المصدر ذاته ، ص ٤٣ .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٥ ـ ٦ ، ١٢ ـ ١٣ .

٥ـ سنشير الى هذا المرجع فيما بعد ب باسيت (A. Basset) ، اسم اول اولائك الاختصاصيين ، تعريف بتونس .

٦ـ المصدر ذاته ، خاصة الصفحات : ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ـ ١٢٧ ، ١٢٩ .

د • المجلات الدورية • لعله من المتعين ان نشير هنا ، قبل ان ننهي تقييمنا للمراجع ، الى بعض المقالات المفيدة التي نشرت في بعض المجلات العلمية الدورية •

لقد قمت بفحص دقيق ومنظم لكل من المجلة التونسية (Revue Tunisienne) وهي مجلة تصدر كل ثلاثة اشهر ، عن معهد قرطاج بتونس ، منذ سنة ١٨٩٤ ، وقد توقفت عن الصدور اثناء الحرب العالمية الاولى ، ثم عادت الى الظهور الى سنة ١٩٤٨• هذه المجلة تمتاز بمقالات وبحوث ذات اهمية بالغة ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ تونس في العصور الحديثة • ومنذ سنة ١٩٥٣ خلفتها كراريس تونس(Cahiers de Tunisie) التي يصدرها معهد الدراسات العليا بتونس ، وهي تهتم اكثر ما يكون بالعلوم الانسانية • المجلة الثالثة هي المجلة الافريقية (La Revue Africaine) ، تصدر بمدينة الجزائر منذ سنة ١٨٥٦ ، وتشرف عليها الجمعية التاريخية الجزائرية• وقد اهتمت كثيرا بتاريخ تونس خاصة في السنوات الاخيرة • اما المجلة الرابعة فهي مجلة ابلا (Institut des Belles Lettres Arabes), يصدرها الاباء البيض بتونس كل ثلاثة اشهر منذ سنة ١٩٣٨ •

تلك هي اهم المجلات التي اهتمت بتاريخ تونس وافدنا منها في هذه الدراسة.ومن تلك الدراسات التاريخية مقالة المؤرخ F. Arnoulet التي عنوانها — "Les Exportations Tunisiennes de 1802 à 1881",[1] I. B. L. A., vol. 10 (1947), pp. 167 - 179.

١— سنشير الى هذا المرجع فيما بعد ب ارنولي ، " صادرات تونس،١٨٠٢ــ ١٨٨١"•

هذا المقال مهم في بيان اهمية عهد حمودة باشا في تجارة تونس الخارجية ، مع مقارنتها بالعهود التالية له . اما مقال
M. Emerit, "L'essai d'une marine marchande barbaresque au XVIII^{e} siecle", (١) C.T., tome 3 (1955), pp. 363 - 370.

فهو الاخر يبرز المكانة المرموقة ، التي يمثلها العهد الذى ندرسه في مجال التجارة الخارجية التونسية مع الدول الاوروبية . وللتدليل على الظاهرة المهمة ذاتها كتب
L. Valensi, "Les relations commerciales entre la Régence de Tunis et Malte au XVIII^{e} siecle", (٢) C.T., tome 11 (1963), pp. 71 - 83.

وهو مقال هام اعتمد مؤلفه في كتابته على مصادر اصلية مشفعا بوثائق وبيانات وجداول موضحة .

في ما يتعلق بالعلاقات بين تونس والدولة العثمانية لا شك ان من اهم المقالات التي تصدت لذلك الموضوع الشائك مقالة
R. Mantran, "L'evolution des relations entre la Tunisie et L'Empire Ottoman du XVI au XIX siecle", (٣)
C.T., tome 7 (1959), pp. 319 - 333.

١- سنشير الى هذا المرجع فيما بعد باميريت ، "اسطول تجارى شمال افريقي ".
٢- سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بفالينزى ، " العلاقات التجارية بين تونس ومالطة".
٣- سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بمانتران ، " العلاقات التونسية العثمانية".

وهي دراسة ، وان كانت عبارة عن عرض للعلاقات بدون تحليل ،فانها مفيدة في ربطها ووصفها لتلك العلاقات.

واخيرا فان المقال الوحيد الذى بحث العلاقات بين تونس خاصة والمغرب عامة من جهة ، ومصر من جهة اخرى في القرن الثامن عشر هو مقال A. Raymond, "Tunisiens et Maghrébins au Caire au dix - huitième siècle"[1], C.T., tome 7 (1959), pp. 335 - 371.
وقد اورد المؤلف معلومات مفيدة في تاثير مصر على بلاد شمال افريقيا ،خاصة تونس دينيا وثقافيا . مع ذكر حجم قوافل الحج القادمة من شمال افريقيا ومدة اقامتها في القاهرة . ووصف بعض اوجه النشاط التجارى بين تونس ومصر في ذلك العهد .

١- سنشير الى هذا المرجع فيما بعد برايموند ، " تونسيون ومغاربة في القاهرة".

الفصـــــــل الثانـــــــــي

تونس قبيل عهد حمودة باشا
(١٥٧٤ - ١٧٨٢)

عندما اتم سنان باشا العثماني فتح البلاد التونسية سنة ١٥٧٤ ، اصبحت تونس ولاية من ضمن الولايات العثمانية بشمال افريقيا . بعد ذلك جعل للولاية الجديدة نظاما يرتب امورها وادارتها يُرجع اليه في الشؤون الضرورية . ويعتمد هذا النظام على ما يلي : يديرشؤون البلاد ويباشر سياستها وال ، بلقب باشا ، معين من قبل الدولة العلية ومسؤول لديها عن الولاية . وهو مفوض تفويضا مطلقا في البلاد ، وذلك بمقتضى عُرف جرت عليه الدولة العثمانية فيما يتعلق بادارة ولاياتها البعيدة .[1]

ورتب سنان باشا عدة خطط وهيأت جلها عسكرية تعمل تحت نظر الوالي . أهمها : ابقاؤه لاربعة الاف مقاتل من عسكر الانكشارية بحاضرة تونس ، وقد كان قسمهم الى أربعين قسما على كل مائة امير بلقب داي .[2] ثم أسند نظر هذا العسكر الى الاغا .[3]

١- بيسونال ، رحلة ، ج١ ، ص٥٦ - ٦٠ ؛ ديفونتان ، رحلة ، ج٢ ، ص١٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج١ ، ص٦١ ، ج٢ ، ص٢٦-٢٧ ؛ بيرم ، صفوة ، ج١ ، ص١٣٣ .

٢- داى : تعني في اللغة التركية الخال . اخوال ؛ ويطلق اللفظ ايضا كلقب تحبب يخاطب به الكهول والشيوخ ، خاصة بين أفراد عسكر الانكشارية ؛ ومن هذا المعنى اطلاق لقب داى ، في شمال افريقيا وخاصة في الجزائر ، على امير عسكر الانكشارية ؛ بيسونال ، رحلة ، ج١ ، ص٥٩ ؛ J. W. Redhouse, English and Turkish Dictionary; London, Bernard Quaritch, 1856, مادة " داى " ، فيما يلي سنشير الى هذا القاموس ب راد هاوس ، قاموس .

٣- اغا : تعني في اللغة التركية : الاخ الاكبر ، رئيس الخدم ... ويطلق اللفظ ايضا ليدل على بعض الرتب العسكرية ، والمدنية ، ومنها "يكيجرى اغاسي" التي تعني قائد الانكشارية ؛ بيسونال ، رحلة ، ج١ ، ص٦١ ؛ انظر فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص١١٩ ؛ وانظر H. A. R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West, London, Oxford University Press, 1960, Vol. 1, pt. 1, pp. 58-59; فيما يلي سنشير الى هذا المرجع ب جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ؛ وانظر ايضا راد هاوس ، قاموس ، مادة " اغا " .

اما استخلاص الجباية فقد أسند الى امير لواء بلقب باي [١] ، وهو مامور للداي وولايته منه. [٢]
أما الشؤون البحرية للولاية فقد عهدت الى قبودان رائس. [٣] وقبل ان يرجع سنان باشا
الى اسطنبول انشا ديوانا يجتمع به هؤلاء المسؤولون لتدبير شؤون الولاية وفصل
قضايا العسكر؛ [٤] وكذلك انتخب بعض اعيان التونسيين ليحضروا بالديوان ويشاركوا
في النظر ، وذلك " تالفا لقلوبهم ". [٥] وبالاضافة الى ذلك أصبحت تلقى خطبة صلاة الجمعة
باسم السلطان العثماني وكذلك تضرب السكة. [٦]

استمر العمل بالترتيب المذكور مدة لا تزيد عن الست عشرة سنة ثم ، في
سنة ١٥٩٠ ، ثار صغار الجند على رؤسائهم (ضباط) الديوان وفتكوا بالكثير منهم
بسبب جورهم ، في واقعة اشتهرت بـ " واقعة البكباشية ". وكانت نتيجة تلك الثورة
ان انعقد مجلس ضم الباشا والباى [٧] والاربعين دايا ، وانتخبوا من بينهم احد
الدايات ليتولى امارة العسكر بالتعاون مع الاغا ، وليحفظ الحاضرة. [٨]

١ـ باى : تعنى في اللغة التركية الرجل الغني او الرجل العظيم ؛ راد هاوس ، قاموس ،
مادة " باى " ؛ وقد كانت تسند اليه في تونس بعض الوظائف والخطط
العالية الاخرى ؛ انظر بيسونال ، رحلة ، ج١ ، ص ٥٧ – ٥٨ ؛ انظر ايضا
جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ، ج١ ، قسم ١ ، ص١٣٨ – ١٤٠ ؛ انظر ادناه ،
ص ٤٦ .

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج١ ، ص ٦٢ .

٣ـ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص١٣٣ ؛ قبودان رائس : اللفظة تعنى في اللغة التركية
قائد (قبطان) البحر ، او قائد الاسطول ، وقبودان كلمة أصلها طلياني ،
راد هاوس ، قاموس ، مادة " قبودان " و " رئس ".

٤ـ بيسونال ، رحلة ، انظر خاصة ج ١ ، ص٥٦ – ٥٧ ، ٦٠ .
٥ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٢ ، ص ٢٧ .
٦ـ هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص ١٥ – ١٦ .
٧ـ المصدر والصفحة ذاتهما.

٨ـ Ch. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord: Tunisie - Algerie Maroc de la conquete arabe à 1830, 2 vols., 2eme édition, Paris, Payot, 1966, vol. 2, p. 276;
فيما يلي سنشير الى هذا المرجع بـ جوليان ، تاريخ شمال افريقيا .

بمجرد أن تولى الدآى تلك الخطة سمت همّته الى تركيز سلطته وتوسيعها ، وقد تحقق له ذلك عندما حد من نفوذ الباشا وتطاول على امتيازاته.[1] وما أن جاء الداى الثالث ، عثمان (ت. ١٦١٠) ،حتى أكد سلطته ووطدها بأمور ثلاثة : قلل من صلاحيات الديوان الى درجة جعلته يفقد معظم اختصاصاته ؛ انتزع من الباشا سيادته وامتيازاته ولم يتبق له من شأن إلا شرف وهمي هو تسلم القفطان[2] من السلطنة العثمانية • واعتمد الداى في حكمه على قوة وولاء رجلين من اقوى رجالات الولاية هما القبطان قائد البحرية والباى قائد المحال[3] ومدبر شؤون القبائل.[4]

١ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٢ـ القفطان : كلمة قفتان في اللغة التركية تطلق على نوع من الألبسة الرسمية ذات الصبغة الشرفية ؛ راد هاوس، قاموس ،مادة "قفتان". وكان السلطان يبعث به لولاة تونس الجدد علامة اعتراف ورضى بالولاية من قبل الباب العالي ؛ ديفونتان ،رحلة ، ج٢،ص ١٠.

٣ـ المحال : ج. محلة ، هو اسم يطلق على مجموعة كبيرة من العسكر كانت تخرج مرتين كل سنة تحت امرة الباى ،وذلك لجمع الجباية من الأهالي "...ولتأمين السبل وهناء القبائل ... ويسافر لاجل ذلك مرتين في السنة احداهما شتاء الى الجهة الجنوبية والثانية صيفا الى الجهة الشمالية ..." ؛ بيرم ،صفوة ، ج١ ،ص ١٣٢ـ ١٣٣ . وقد كانت المحلة في عهد حمودة باشا يتألف عسكرها من عدد يتراوح بين الثلاثة والاربعة الاف جندى . وكانت تخرج المرة الأولى في شهر مارس/اذار والثانية في شهر سبتمبر / ايلول ؛ تقرير من قنصل فرنسا دوفواز (J. Devoize قنصل بتونس ١٧٩٢-١٧٩٦ ، ١٧٩٨ - ١٨٠٨، ١٨١٥-١٨١٨)، الى حكومته ، تونس ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣، ٣٠٤ ؛ وقد عدل البايات عن الخروج على راس المحلة بداية من اوائل عهد حمودة باشا . وذلك "لما تمهدت المملكة وانسدل برد العافية ..." ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ،ص ١٩.

٤ـ جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

وبذلك يكون عثمان داى هو اول الدايات الذين تولوا حكم البلاد التونسية ومارسوا السيادة الكاملة عليها دون الوالي • وهذا الوضع كان يشابه الى حد كبير سلطة الداى في البلاد الجزائرية آنئذ •[١] وخلف عثمان في الولاية صهره يوسف داى (١٦١٠-١٦٣٧) ، ثم اسطا مراد (١٦٣٧- ١٦٤٠) •[٢] بعد هؤلاء ضعفت خطة الدايات وعلا شان البايات كما سيتبين لنا فيما بعد •[٣]

في فترة حكم الدايات هذه ، التي دامت نصف قرن (١٥٩٠ - ١٦٤٠) ، حصلت في تونس احداث هامة ذات تاثير في الفترات التاريخية التالية • من اهم هذه الاحداث واكثرها تاثيرا على حياة البلاد التونسية قدوم حوالي ثمانين الف مهاجر من الاندلس سنة ١٦٠٩ •[٤] والجدير بالملاحظة ان عثمان داى عرف كيف يستفيد من ذلك الحدث الى ابعد الحدود • وجعل من تلك الهجرة اشراقا اقتصاديا وعمرانيا وحضاريا للبلاد التونسية • يصف عبد الوهاب ذلك بقوله :

" ثم ان هذا الداى اقطع مهاجرى الاندلس ما اختاروا من الاراضي ووزع على محتاجيهم الاموال والنفقات فانتشروا في اكناف البلاد يشيدون القرى وينشؤون المزارع والبساتين حتى استانف القطر عمرانه المفقود وثروته الغابرة ، فمن المدن[٥] التي اسسوها (سليمان) و (قرنبالية) و (الجديدة) و (زغوان) و (طبرقة) و (مجاز الباب) و (تستور) و (قلعة الاندلس) وغيرها • وانشاوا اسواقا

١- Anonyme, Précis historique sur les nations barbaresques, suivi d'un tableau des crimes, des horreurs et des brigandages des pirates africains..., 2 vols., Paris, Tiger, (s.d.), p. 62.

فيما يلي سنشير الى هذا المرجع ب موجز تاريخي لبلدان شمال افريقيا •

٢- محمد الرعيني القيرواني ابن ابي دينار (ت• حو• ١٦٩٨) ، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، الطبعة الثالثة ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ ، فيما يلي سنشير الى هذا المصدر ب ابن ابي دينار ، المؤنس •

٣- انظر آدناه ، ص ٤٩ - ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٥٦ •

٤- جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ج٢ ، ص ٢٧٨ •

٥- انظر مواقع هذه المدن والقرى على خريطة تونس بالملحق رقم ١ من هذه الدراسة •

للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية[1] ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليج ، وقد نقل اهل البلاد عنهم اصول تلك الحرف حتى اتقنوها • وبالجملة فقد حصل للقطر من هجرة الاندلسيين اليه ثروة واسعة وعمران دافق •[2]

الى جانب الافادة من هذه الهجرة المهمة قام البايات بعض الاعمال التي تدل على حكمهم القوي ، فقد اخمد عثمان داى ثورات القبائل داخل البلاد ومهد الامن والثروة لعهد صهره يوسف داى • وفي عهد هذا الاخير وقع خلاف شديد بينه وبين داى الجزائر بسبب حدود البلدين أفضى الى قيام حرب انتهت بتغلب الجزائريين ، ووقع تدارك الامر بعقد صلح حقنا للدماء سنة ١٦٢٧ • وعلى يدى هذا الباى استرجعت تونس جزيرة جربة التي كان اغتصبها حكام ولاية طرابلس •[3]

في عهدهم ايضا علا شأن القرصنة التونسية خاصة في عهد اسطا مراد بصفة أزعجت الممالك الاوروبية وجعلتها تنصب قناصل لها لدى حكومة تونس • وقد تفاقمت القرصنة واشتدت في عهد هذا الداى حتى " قيل انه جلب للحاضرة في مرة واحدة اثني عشر الف اسير وقريبا من تسعين مركبا بين كبيرة وصغيرة •"[4] واليه يرجع فضل انشاء مرسى غار الملح[5] الحربي •

١ـ الشاشية : كمة أو قلنسوة رجالية بدون حافة ناتئة ، حمراء اللون في الغالب (لهجة تونسية) •

٢ـ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٣٥ •

٣ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٦ •

٤ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٧ •

٥ـ غار الملح : يطلق عليه الاوروبيون اسم Porto - Farina ، وهو مرسى صغير يقع في شمال البلاد التونسية بالقرب من مدينة بنزرت •

أما من الناحية العمرانية فقد راى هذا العهد نشاطا ملحوظا بسبب نشاط اولائك الدايات ولا يخفى ان هجرة الاندلسيين اعانتهم على انجازاتهم تلك . ومن ماثرهم جامع يوسف داى البهيج بالعاصمة ومدرسته وعدة اسواق تجارية ، وحصون وجسور وبعض الثكنات .[1] وكذلك يمتاز عهدهم ببداية نشاط التجارة بين تونس ودول جنوب اوروبا .[2]

لم يتول بايات تونس السلطة نتيجة ثورة كما حدث سنة ١٥٩٠ بالنسبة للدايات ، وانما تولوها على مراحل وفترات تدريجية . وهو الامر الذى جعل تاريخ تونس في القرن السابع عشر يتمثل في اكثره في تقدم وتعاظم سلطة البايات من ناحية ، وتاخر وتقهقر امر الدايات من ناحية ثانية . بدأ أمر تولي البايات حكم تونس في عهد المراديين .

اصل المراديين وباني اسس دولتهم هو مراد باى (١٦١٢-١٦٣١) ،[3] كان يشغل خطة باى من قبل يوسف داى ، آخر الدايات الاقوياء . وقد راى فيه يوسف الشهامة والشجاعة والاهلية وحسن الادارة فقدمه واوسع في سلطته . لم يخف على مراد باى سرّ القوة التي استقرت في يده . ولا خفيت عنه امكانات الاستفادة من شهرته وسطوته التي طبقت البلاد .[4] فقد تجرأ مراد ، في حياة سيده يوسف داى ، وطلب امرين من الحضرة السلطانية العثمانية التي كان جوابها عليهما قبولا واقرارا . هذان الامران الهامان كانا سبب بزوغ الدولة المرادية ، وسبب تولي البايات السلطة العليا الى ان نالت تونس استقلالها من فرنسا سنة ١٩٥٦ .

١- عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٢- من دراسة قمت بها بالجامعة الاميركية في بيروت ، جوان / حزيران ١٩٦٦ . عنوانها " تجارة تونس في جنوب اوروبا في الفترة ١٥٧٣ - ١٧٠٢ " .

٣- اصله من جزيرة كرسكا Corse اسلم صغيرا على يد سيده رمضان باى (ت ١٦١٣) .

٤- بيوسونال ، رحلة ، ج ١ ، ص ٥٦ - ٥٩ ، وانظر بعض الاشارات الى ذلك بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

هذان الامران هما اولا : استحصال مراد على فرمان سلطاني ياذن له بتولي منصب الباشا والقيام بخطته .[١] الامر الثاني : احرازه على اذن يكرس حق توريث السلطة وتولية ابنه بعده .[٢] من ذلك الوقت علا شان البايات وتأكدت سلطتهم التي اصبحت وراثية ،عمليا لا رسميا ،في ذرية مراد باى .

حمودة باى المرادى(حـ. ١٦٣١-١٦٥٩) هو ابن مراد ،نال شهرة بوضعه حدا للاضطراب المتواصل الذى كانت تحدثه القبائل داخل البلاد التونسية .[٣] باشر امور منصب الباشا من حين وفاة ابيه ،وزاد فطلب اللقب رسميا من الدولة العلية فقلدته اياه " وخوطب في الفرمان بـ« الباشا ابن الباشا ».[٤] اما بالنسبة لمعاملته للدايات فقد اقتدى حمودة بأبيه وحصر سلطتهم في الشؤون العسكرية وامن العاصمة.[٥] ثم زاد فانتهج سياسة تضعيفهم والاستبداد عليهم بالنفي والاغتيال والمداراة .[٦]

بعد حمودة تقدم للولاية ابنه مراد (١٦٥٩-١٦٧٥) وهو الباى الذى طرح التحرز والمداراة جانبا وزج بالداى في ظلام السجن سنة ١٦٧١ . ثم بعد ان اخمد نار ثورة قام بها العسكر ،[٧] استقر بقصر باردو[٨] بصفة الحاكم الاوحد للبلاد وقد اثبت ذلك بسطوته وكرمه ومشاريعه العمرانية الكبيرة .[٩] غير ان وفاة مراد باى

١- ابن ابي الضياف ،اتحاف ج ٢ ،ص ٣٥ .

٢- جوليان ،تاريخ شمال افريقيا ،ج ٢ ،ص ٢٧٦ .

٣- ابن ابي الضياف ،اتحاف ج ٢ ،ص ٣٦ .

٤- المصدر والصفحة ذاتهما .

٥- المصدر ذاته ،ج ٢ ،ص ٣٥ .

٦- المصدر ذاته ،ج ٢ ،ص ٣٧ - ٤٢ .

٧- المصدر ذاته ،ج ٢ ،ص ٤٢ .

٨- قصر باردو : كان مقر حكم وسكنى الامراء الحفصيين ،ولما فتح العثمانيون تونس استعمله ولاة البلاد ،من باشاوات ودايات وبايات ،في نفس الغرض الذي استعمله فيه الحفصيون .

٩- ابن ابي دينار ،المؤنس ،ص ٢٤٢-٢٥٠ ؛ ابن ابي الضياف ،اتحاف ج ٢ ،ص ٤٢-٤٣ .

(١٦٧٥) جرت البلاد الى اتون من الفتن والحروب الاهلية دامت عشرين سنة كاملة . سببها نشوب قتال مستميت بين اثنين من ابنائه محمد باى (ت· ١٦٩٦) وعلي باى (ت· ١٦٨٦) وعمهما محمد الحفصي (ت· ١٦٨٦) كل واحد منهم يريد حكم الولاية .[1] وقد اسفرت تلك الفتن عن ثلاث نتائج ذات اثر في تاريخ تونس الحديث . هذه النتائج هي قتل الدايات وتشريدهم بعد محاولات فاشلة قاموا بها لاستغلال فرصة الخلافات والفتن بين البايات للرجوع الى سلطتهم السابقة .[2] النتيجة الثانية هي تدخل الجزائر في شؤون تونس بعد أن غزا جيشها البلاد بدعوة من محمد باى لنجدته .[3] النتيجة الثالثة هي قيام السلطنة العثمانية بمحاولة جريئة للتدخل في شؤون تونس عسكريا ايضا بعد ان استنجد بها محمد الحفصي للتغلب على ابني اخيه.

كانت تلك الحروب الاهلية وما تخللها من احداث وفتن مؤلمة بداية ضعف الدولة المرادية ، وانحلالها وهرمها . ولما تولى رمضان باى (ح· ١٦٩٦–١٦٩٩) ، اضعف البايات المراديين حكما وسياسة ، حتى جر ايام الدولة المرادية الى الاحتضار بسبب جرائمه وفتكه بالناس . وكذلك كان سفاك الدماء مراد بن علي باى (ت· ١٧٠٢) الذى تولى بعد عثمان .[4] وكانت نهاية تلك الدولة على يد ابراهيم الشريف آغا

١– ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ٤٧ – ٥٢ .

٢– المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٦–٥٧ ، ٦٠ – ٦١ .

٣– انظر ادناه ، ص ٤٠٨ – ٣٤٧ ما نتج عن تدخل الجزائريين من تسلط على البلاد التونسية وحكامها الى نهاية عهد حمودة باشا (ت· ١٨١٤) .

٤– ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ٦٨ – ٧٢ .

صبايحية [١] الترك الذى قام بموامرة عسكرية ، باتفاق مع السلطان العثماني في اسطنبول وبأمر منه ، قتل أثناءها مراد باى وما تبقى من ذرية حمودة باى . ثم تولى عرش البلاد متقلدا منصب الباى سنة ١٧٠٢ . [٢] وبعد سنتين من ذلك التاريخ نادى به عسكر الترك دايا ، ثم قلده الباب العالي لقب باشا . وبذلك، ولاول مرة اجتمعت الألقاب الثلاثة وتركزت في يد شخص واحد . وصار ابراهيم يكتب في أوامره : " الباشا ابراهيم باى داى " . [٣]

يوصف عهد ابراهيم الشريف (١٧٠٢ - ١٧٠٥) بكثرة الظلم والاستبداد الذى سلط على الاهالي من قتل وسلب وتشريد ، على يده وعلى يد جند الترك الجائرين ، وذلك لشدة بغضه للعرب . ولم تحل سنة ١٧٠٤ حتى شن حربا على طرابلس لأسباب شخصية ضد واليها ، وفي سنة ١٧٠٥ شن حربا ثانية ضد الجزائر انكسرت جيوشه فيها . [٤] عند تلك الهزيمة قام آغا صبايحية الترك حسين بن علي بجمع شتات العسكر المشرد وتحصن داخل مدينة تونس، حيث نادى به السكان بايا وهو موسس الدولة الحسينية (١٧٠٥-١٩٥٦) ، نسبة له ، وأول باياتها . [٥]

١- الصبايحية : هم نوع من رجال الامن وظيفتهم تشبه وظيفة " الجندرمة :- gendarmerie " في البلاد الاوروبية ؛ يحرصون على حفظ الراحة وتأمين السبل ؛ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص١٣٩-١٤٠ ، انظر أصل كلمة " صبايحي " واستعمالها في الامبراطورية العثمانية مع تفسير لتلك الخطة العسكرية ب. جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ، ج١ ، قسم ١ ، ص٤٧ ؛ انظر ادناه ، ص ٢٠٨ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٢ ، ص ٧٦ - ٧٨ .

٣- المصدر ذاته ، ج٢ ، ص٨١ .

٤- المصدر ذاته ، ج٢ ، ص ٨١ - ٨٤ .

٥- انظر ادناه ، ص ٥٤- ٥٥ .

في عهد البايات المراديين (١٦٤٠-١٧٠٥) توطدت سلطة الباى وانتزع النفوذ من الداى ، وغرقت البلاد في سنوات طويلة من القتل والتشريد والظلم بسبب الفتن والحروب الأهلية كما رأينا . غير أنه بجانب تلك الصورة القاتمة اليائسة لذلك العهد نجد بعض المظاهر التي برزت لتصبغ تلك الفترة وما تلاها بأمور هامة. من ذلك بداية ازدهار الزراعة والصناعة التونسية بعد ان استقر المهاجرون الاندلسيون في المناطق التي اختاروها منذ سنة ١٦٠٩ ، وبدأت خبرتهم في الميدانين تعطي نتاجها العميق التأثير على الحياة الاقتصادية في تونس . امتاز ذلك العهد ايضا باستيطان أعداد وافرة من الاتراك استقروا في البلاد وامتزجوا مع شعبها . وقد استفادت منهم تونس خاصة في ميدان زيادة تنشيط القرصنة بادخال خبرات فنية متفوقة .[1] وقد نتج عن هذا التجديد ازدهار القرصنة التونسية حتى بلغت عصرها الذهبي بالنسبة لعهد تلك الدولة. وكان من نتائج ذلك ايضا اغتناء البايات والتجار الكبار ، الذين مولوا بدورهم المشاريع العمرانية الضخمة التي زانت مدينة تونس وبعض المدن الاخرى بعمارات تعتبر من اجمل وأتقن عمارات البلاد . ومنها الجوامع والمساجد والمقامات والقناطر على الأودية ، مثل جامع حمودة باي وصومعته البديعة ، وجامع مدينة قابس والمسجد الحنفي بتونس . ومنها المدرسة المرادية ، ومقام الصحابي ابي زمعة البلوى بالقيروان . وكذلك انشأوا الأسواق وجلبوا المياه لتونس وأقاموا مرستانا في الحاضرة .[2] هذا بالاضافة الى بعض التغييرات التي احدثوها في الادارة والجيش.[3] ومما تجدر ملاحظته قضاء المراديين على عدة عروش[4] من البدو لأجل الأمن ، وتثبيتهم لعدة عروش اخرى

١- جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ، ص ٢٧٩ .

٢- بيرم ، صفوة ، ج١ ، ص١٣٢-١٣٣ ، عبد الوهاب ، خلاصة ، ص١٣٩-١٤١ ، جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ، ص ٢٧٩.

٣- عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٣٩- ١٤٠ .

٤- عروش أو أعراش: ج. عرش ومعناه ، بالشمال الافريقي ، القبيلة ، R. Dozy, Supplement aux dictionnaires arabes, Leyde, E. J. Brill, 1881;

انظر مادة "عرش" ، وفيما يلي سنشير الى هذا القاموس بـ دوزى ، قاموس.

عربية وبربرية في وسط البلاد وجنوبها .[1]

حسـين بن علي تركي[2] (حـ. ١٧٠٥ ـ ١٧٤٠) هو موءسس الدولة الحسينية (١٧٠٥ـ١٩٥٦) التي يأتي حمودة باشا (١٧٨٢ـ١٨١٤) ، موضوع دراستنا هذه ، خامس باياتها . انتخب حسين لمنصب باي تونس[3] ليس من قبل الدايات او عـن طريق الثورة والتسلط كما سبق في عهد المراديين ، بل كان ذلك من قبل العلمـاء والعسكر والاعيان يوم ١٥ جويليـة / تمـوز سنة ١٧٠٥ . يصف ابن ابي الضياف

١ـ جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

٢ـ يختلف الموءرخون في اصل حسين بن علي تركي . يقول حسـين خوجة (تـ. ١٧٥٥) ان والد حسين بن علي قدم الى تونس من جزيرة كريت متطوعا للخدمة العسكرية اوائل دولة بني مراد " ، بشائر اهل الايمان في فتوحات ال عثمان (مخطوط) ، نسخ عن الاصل سنة ١٧٦٥ ، يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ٢٠٣ مخطوطات حجم ١٧ × ٢٣٫٥ ، مسطرة ٢٢ ، عدد الصفحات ١٨٠ ، ص ١١٢ . ويذكر الاب رينال الذى كتب عن تونس حوالي سنة ١٧٨٠ ان حسين هو حفيد احد سكان جزيرة كرسكا اسلم واستوطن تونس ؛ M. Emerit, "Un mémoire inédit de l'ablé Raynal ... ", R.T., no. 3 et 4 (1948), p. 147; سنشير الى هذا المصدر فيما بعد بـ. الاب رينال "تقرير" . اما ابن ابي الضياف فانه لم يتحمل عناء البحث عن اصل موءسس الدولة الحسينية ويكتفي بالاشـارة الى ما اورده حسين خوجه ، ثم يقول " ... وينقل عن بعض من عاصره انه من الموالي ، وعلى كل حال قدمه حسبه ولم يوءخره نسبه ... " ، اتحـاف ، ج ٢ ، ص ٨٥ . وقد ذكر عبد الوهاب الاصل الكريتي كما فعل حسين خوجة ؛ خلاصة ، ص ١٤٩ . وكذلك فعل هيجون في كتابه شعارات بايات تونس ص ٤ .

٣ـ انظر اعلاه ، ص ٥٢ .

ذلك الانتخاب ، بعد ان انهزم عسكر تونس واسر الجزائريون " الباشا ابراهيم باى داى "
اخر المراديين بقوله :

" ... وانقرضت دولة ابراهيم الشريف ... ولما بلغت المنهزمة الى الحاضرة [مدينة تونس] جزع اهلها ، وخافوا هجوم العدو [الجزائريين] عليهم ، وهم فوضى بلا امير يجمع عصابتهم ، ويدافع به عنهم فتفاوضوا في هذا الامر الواجب شرعا وعقلا ، وهو البيعة لامام ، واتفق اهل الحل والعقد من العلماء وأكابر الجند ووجوه الحاضرة على المبايعة لحسين بن علي ، لما يعلمون من حميد خلاله وعزمه ... فخرج اليه اهل الحل والعقد ، وكثير من اهل الحاضرة ، وطلبوا منه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم ، فامتنع مصرا على عدم القبول ، فقال له العلماء : " يجب عليك القبول ، لا سيما والحالة هذه " فاجاب دعوتهم ، ودخل معهم الحاضرة لقبول البيعة . " [1]

على الرغم من ان ولاية هذا الباى كانت شرعية " لانه لم يطلبها ، ولا سفك لغرضه دماء المسلمين في طلبها " ، [2] فانه طلب تجديد مبايعته مرتين اخريين . الاولى لما صمم على تحرير البلاد من القوات الجزائرية [3] التي كانت لا تزال مرابطة في التراب التونسي منذ هزيمة ابراهيم الشريف ، وقد بطش بهم حسين وارجعهم الى ما وراء حدودهم سنة ١٧٠٥ . والمبايعة الثانية كانت عند محاربته للداى محمد الاصفر ، الذى سعى لاعادة سلطة الدايات ، وقد هزمه حسين شر هزيمة سنة ١٧٠٦ . [4]
بعد هذين الانجازين الهامين اراد توطيد حكمه وتثبيت امر دولته الفتية ، وذلك بجعل الحكم وراثيا ، بصفة رسمية خلافا لما كان عليه المراديون ، يتداوله الاكبر فالاكبر سنا

١ـ اتحاف ، ج ٢ ، ص ٨٤ .
٢ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٩٠ .
٣ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
٤ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

في نسـله • وذلك لتجنب عسف وجور البايات ، وبالتالي قطع دابر الفتن والمؤامرات• (١)
بالاضافة الى ذلك سن حسين باى عادة منح لقب باشا الى من يرتضيه من اعضاء
عائلته وبذلك أضعف حصر امتياز منح ذلك اللقب في السلطنة العثمانية • (٢)

لكن آمال حسين في جعل الحكم في دولته مرتبا ومنظما لم يتحقق بالصفة التي
ارادها ، وكذلك الفتن والمؤامرات لم يقطع دابرها قط • وكفانا دلالة على ذلك
ان حسين بن علي ذاته ذبح بيد حفيد اخيه في صحارى القيروان بعد ثورة
ناجحة سنة ١٧٤٠ • غير انه يجدر التأكيد على ان اهم شيء حققه حسين بن علي
تركي هو تأسيس دولة توالى في حكمها تسعة عشر بايا في مدة تزيد عن القرنين
والنصف • وهذا حظ نادرا جدا ما تحقق في الولايات العثمانية بشمال افريقيا • (٣)
ويرجع لهذه الدولة الفضل في تغيير الدولة التونسية ، خلال القرن الثامن عشر ،
من دولة قراصنة ومغامرين من جند الترك الى دولة منظمة ومرتبة • وهو انجاز
يضع الحسينيين في مصاف حكام الدول الاسلامية المرموقة التي حكمت تونس واهمها
الصنهاجيون (٩٧٢ ـ ١١٤٨) والموحدون (١١٥٩ ـ ١٢٢٨) والحفصيون
(١٢٢٨ ـ ١٥٣٦) •

كان عهد حسين بن علي عهد ازدهار اقتصادى حقيقي اطنب الرحالة والمؤرخون
في وصفه • يشهد بذلك مثلا بيسونال سنة ١٧٢٤ عندما يذكر صناعات تونس منها
الشاشية الممتازة ، وتجارة تونس الخارجية الرائجة خاصة فيما يتعلق بتصدير زيت الزيتون ،

---

١ ـ جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ؛ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٤٩ •

٢ ـ انظر عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٠ ؛ هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص ٥ •

٣ ـ M. Lamasse , " La station navale française de Tunis au milieux du XIXe siècle " , C.T. , tome 4(1956), P. 351 ;

سنشير الى هذا المرجع فيما بعد ب لاماس ، " المحطة البحرية الفرنسية " •

والقمح ، والصوف ، والجلد ، والشمع ، والاسفنج ، والتمر . هذا بالاضافة الى ما تستورده تونس من مختلف الدول الاوروبية والاسلامية .[١] وكذلك يشهد ابن يوسف (ت ١٧٧١) في وصفه الدقيق للخيرات التي عمت البلاد في ذلك الوقت.[٢]
اما ابن ابي الضياف فيصف ازدهار اقتصاد تونس بقوله :

"... وسعدت المملكة وأهلها بيمنه[حسين بن علي] وامتلاءت ايديهم بالمكاسب فأثاروا الارض ، وعمروها بالحبوب والاشجار . وخفف على الفلاحين من اثقال المغارم ، وما قوى به الامل ، واغرى على العمل . وتنافسوا في الصناعات والخلال الحميدة والناس على دين اميرهم ."[٣]

ابرم هذا الباى معاهدات مع فرنسا (١٧١٠ و ١٧٢٨) ومع انجلترا (١٧١٦) ومع اسبانيا (١٧٢٠) ومع النمسا (١٧٢٥) ومع هولندا (١٧٢٨) .[٤] وبذلك اصبح حسين بن علي يتمتع بتفاهم مع مختلف الدول ، وعلاقات حسنة مع الباب العالي . غير ان نشاط القرصنة في عهده كان محدودا ، الامر الذى انتج غزوا فرنسيا على حلق الواد مرتين سنة ١٧٢٨ و ١٧٣١ . ذلك الازدهار الاقتصادى والامن الذى عم البلاد ، الى جانب القيام بتشييد العديد من المؤسسات العامة من مدارس وغيرها ، كل ذلك توقفت مسيرته سنة ١٧٢٩ . وهي السنة التي بدات فيها ثورات علي باشا

---

١ - بيسونال ، رحلة ، ص ٧٦ - ٨٠ .

٢ - V. Serres, et M. Lasram (translators), Mechra el Melki: chronique tunisienne (1705 - 1771): pour servir à l'histoire des quatre premiers Beys de la famille Husseinite par Mohammed Seghir Ben Youssef, de Beja, Tunis, Imprimerie Rapide, 1900, p. 34 - 35;

فيما يلي سنشير الى هذا المصدر بـ ابن يوسف ، المشرع الملكي .

٣ - ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، انظر كذلك المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠٢ .

٤ - انظر جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

ابن اخ حسين بن علي ، بسبب ابعاده عن الحكم بعد ان رزق الباى ابناء من احدى سبايا جنوة . هذه الثورات التي اشعلت نار الفتن والحروب المتواصلة مدة تزيد عن العشر سنوات احدثت اضطرابا خطيرا تكبدت فيه البلاد خسائر فادحة في النفوس والأموال واخيرا وبمساعدة داى الجزائر ونصرته ، انتهت تلك الحروب بانتصار علي باشا الذى حاصر الباى في مدينة القيروان مدة خمس سنوات ،كانت نهايتها هزيمة حسين باى وقطع رأسه في ضواحي تلك المدينة سنة ١٧٤٠.(١)

وقد أحدثت تلك الحروب انقساما كبيرا في داخل البلاد ،وذلك بظهور تحزب الاهالي الى احد المتحاربين ، فكان الحسينية وهم القائمون بدعوة حسين بن علي ، والباشية وهم الداعون الى علي باشا . ونتجت عن ذلك فتنة شعبية داخلية شملت احياء العاصمة والمدن والقرى وعربان البوادى.(٢)

لما تولى علي باى بن محمد بن علي تركي (حـ. ١٧٤٠-١٧٥٦) اعترف بفضل داى الجزائر عليه ،باعلان تبعيته له وتأديته للجزية .(٣) أما مع الدول الاوروبية فقد اظهر تعلقا شديدا باستقلال تونس كما كانت في عهد حسين بن علي ويدا كثير الخوف عليه . وقد اكد مرارا على القناصل في تونس عزمه على البقاء حرا في بلده . ومن اجل رغبته تلك قطع العلاقات مع فرنسا سنة ١٧٤١ . وقد كانت الشركة الفرنسية المرسيلية الكبيرة المسماة بالشركة الملكية لافريقيا (la Compagnie Royale d'Afrique)

١- بشأن هذه الفتن واحداثها انظر ابن يوسف ،المشرع الملكي ،ص٢٢-١٦٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١١٥ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج٢ ، ص ١١٣ ؛ P. Grandchamp, "Les premiers beys hassinites (1705 - 1837)", R.T., no. 53-54 (1943), p. 267-268. ـــ سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ غرانشان ، "بايات تونس الاوائل".

٣- عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٠ .

تخطط لاحتلال مرسى طبرقة [١] لسببين : الاول لتوسيع حجم التجارة الفرنسية بين فرنسا وتونس ، وثانيا للتحكم في الباى ثم في تجارة جميع بلدان شمال افريقيا مع اوروبا .[٢] فما كان من الباى الا ان فاجأهم بالاستيلاء على طبرقة واستولى على جميع الجنويين المقيمين بالمرسى بقصد صيد المرجان عملا باتفاق سابق ، ووضع بها حامية تونسية دائمة . وكانت دعواه في عمله ذاك ان الجنويين تجاوزوا المساحة المرخصة لهم للبناء وانهم انشأوا قلعة محصنة بها .[٣] ثم التفت الى المركز التجارى البحرى الشهير الثاني المسمى تامكرت ، [٤] وكانت لبعض الشركات الفرنسية فيه امتيازات تجارية ، فخربه علي باشا واجلى عنه جميع سكانه ، وحرسه بحامية ايضا .[٥] ولولا انشغال فرنسا في حربها ضد الانجليز ، [٦] وانشغال الباى ببعض الفتن الداخلية لما وقع الصلح بين البلدين الذى اعيدت فيه امتيازات فرنسا كما كانت سابقا .[٧]

١ـ طبرقة : مرسى تجارى يقع بالشمال الغربي من البلاد التونسية ، اشتهر بموقعه الهام بالنسبة للتجارة البحرية بين تونس وبلدان جنوب اوروبا . واشتهر ايضا بالمرجان الرفيع الذى يوجد في البحر المجاور ، انظر موقع تلك المدينة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

٢ـ جوليان ، <u>تاريخ شمال افريقيا</u> ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

٣ـ ابن أبي الضياف ، <u>اتحاف</u> ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

٤ـ تامكرت : هي قرية صغيرة كانت توجد بالقرب من طبرقة ويسميها الفرنسيون Cap Nègre أى الراس الاسود ، انظر موقع تلك القرية على خريطة تونس بالملحق رقم ١ من هذه الدراسة .

٥ـ ابن يوسف ، <u>المشرع الملكي</u> ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٨ .

٦ـ ابن ابي الضياف ، <u>اتحاف</u> ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

٧ـ جوليان ، <u>تاريخ شمال افريقيا</u> ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

قام علي باشا بعدة انجازات ذات منفعة عامة اهمها المدارس التي شيدها وخزائن الكتب التي اقامها ، كذلك اشتهر بشدة حبه للعلم والعلماء ·[(١)] غير ان السنوات الاخيرة من حكمه حصلت فيها فتن كبيرة بسبب الثورة التي قام بها ابنه ضده سنة ١٧٥١ · استغل الجزائريون تلك الفرصة السانحة واجتاحت عساكرهم البلاد التونسية ودخلوا العاصمة بكل سهولة · فقتلوا وسبوا " ولم ينج من النهب الا من ستره الله ، وقليل ما هم "[(٢)]. وبعد ان خنقوا علي باشا سنة ١٧٥٦ نصبوا على البلاد محمد باى احد انجال مؤسس الاسرة حسين بن علي · وهو الباى الذى قبل لاول مرة في تاريخ تونس ، ان يلتزم للجزائريين بدفع غرامة سنوية كبيرة ·[(٣)]

لم يبق عهد محمد باى الا ثلاث سنوات فقط ، استطاع أثناءها ان يفرض الاستقرار والامن في البلاد · ولقد اختصه المؤرخون بالمدح والتعظيم ووصفوا عدله وانصافه وطيبته · وكذلك نوهوا بنجاح سياسته ومعاملته سواء بالنسبة للأهالي أو بالنسبة للاجانب القاطنين هناك ·[(٤)]

تولى بعد محمد باى أخوه علي باى[(٥)] (والد حمودة باشا موضوع دراستنا هذه) من سنة ١٧٦٩ الى سنة ١٧٨٢ · أظهر في عهده ذكاء ملحوظا ومهارة سياسية فائقة وهو أول باى متن العلاقات السياسية والتجارية مع فرنسا بصفة رسخت ذلك المنهج السياسي فيما تلا من عهود تاريخ تونس الحديث · من ذلك انه على الرغم من

١- عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ·

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ؛ انظر كذلك ، بشأن تلك الثورة وتدخل الجزائريين انظر خاصة المصدر ذاته ، ج٢ ، ص ١٣٥ - ١٤٠ ، ١٤٦ - ١٥٣ ·

٣- جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ، ص ٣٠٠ ·

٤- ابن يوسف ، المشرع الملكي ، ص ٤٠٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ؛ جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج٢ ، ص ٢٠٠ ·

٥- انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٩ · يجب التنبيه الى ان لقب باشا كان يمنحه البايات ، بالاضافة الى السلطان ، الى من يرتضونه من اعضاء عائلتهم ؛ انظر اعلاه ص ٥٦ ، ٦٢ · لذا فقد يرد اسم الحاكم مصحوبا بلقب باى وهو اللقب الرسمي المتداول ، او مصحوبا بلقب باشا وهو اللقب الممنوح ·

محاولات الانجليز ، الذين خرجوا منتصرين على فرنسا في حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، لم يظهر علي باي اى حقد او بغض تجاه الفرنسيين . وهو الذى اقر امتياز فرنسا التجارى فيما يتعلق بصيد المرجان والاتجار به . ليس هذا فقط بل اذن بحق فتح وكالة تجارية (Comptoir) لفرنسا ببنزرت سنة ١٧٦٨ .[١] غير انه في نفس تلك السنة تأزمت العلاقات بين البلدين لمدة قصيرة بسبب ضم فرنسا جزيرة كرسكا الى ممتلكاتها . لم تعترف تونس بذلك الالحاق وبالتالي لم تعترف بالجنسية الفرنسية لاسرى تلك الجزيرة وارقائها الموجودين بتونس . وقد افضى ذلك الخلاف الى اعلان الحرب من قبل فرنسا ، وقصف اسطولها بعض المدن الساحلية التونسية . وبعد مفاوضات أبرم صلح ببارد و سنة ١٧٧٠ . ورجع التجار الفرنسيون الى مراكزهم بتونس بعد ان كانوا غادروا البلاد .[٢] عندئذ ازدادت العلاقات وثوقا . وبالاضافة الى الامتيازات السابقة منح " شركة افريقيا " الفرنسية جزيرة جالطة (la Galite) عوضا عن تامكرت التي كان افتكها[٣] منهم علي باشا سنة ١٧٤٠ .[٤] ثم منحهم رخصة لاقامة اربع وكالات تجارية فرنسية بالراس الطيب سنة ١٧٨١ . وهنا تجب ملاحظة ان التقارب والود بين علي باشا وفرنسا على الصفة المذكورة انما يرجع سببه الى وزيره الاول مصطفى خوجة .[٥] في زمن هذا الباى شهدت تونس نهضة اقتصادية وعمرانية واصلاحات في ميادين شتى . فقد ابطل مظالم عظيمة كانت تحل بالمزارعين كل سنة بسبب ما كان يعرف بـ" المشترى"

١- جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

٢- عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٥ .

٣- جالطة : جزيرة صغيرة تقع شمال شرق مدينة طبرقة ، بشمال تونس .

٤- انظر اعلاه ، ص ٥٩ .

٥- انظر ادناه ، ص ١٠٤-١٠٦ .

وهو مال تدفعه الدولة للمزارعين على ان يسددوه حبوبا وزيوتا في ختام موسم الحصاد وجمع الغلة . وكانت الدولة تتقاضى تلك المحصولات بثمن بخس مجحف مع ما يصاحب ذلك من عنف وشدة ،خاصة في سني الجدب .[1] هذا بالاضافة الى ما كان اسقطه من الاداءات على المزارعين مما كان قدره الامناء . وكذلك ابطل جورا كان يلحق ملتزمي مزارع الدولة ؛ فبعد ان كان المكتري لا يقال من المزرعة سواء اخصبت أو اجدبت ويلزم بدفع المقدار الذى التزم به " ... الا اذا زاد عليه غيره في مقدار الكراء . واذا لم يقع ذلك يبقى الهنشير [المزرعة] بيده . ويتفق ان يبيع في كرائه سائر كسبه " ؛ بعد ذلك ، ابطل علي باشا تلك المظلمة " وحكم بان هناشير [مزارع] الدولة تكون مثل املاك عامة الناس ، يلتزمها المكتري برضاه ، واذا تم الاجل ، له ان يسلم أو يجدد بمثل ذلك الكراء او اقل منه ، أو تبقى معطلة " .[2] ومن اياديه البيضاء على المزارعين وتشجيعا للفلاحة اسقط عنهم كل ما تبقى في ذمتهم من ضريبة العشر للدولة منذ ايام ابن عمه علي باشا وايام اخيه ، اى من بداية سنة ١٧٣٥ الى سنة ١٧٥٩ ؛ وهي مقادير كبيرة جدا من الحبوب الباقية على اربابها أسقطها عنهم دفعة واحدة .[3]

وبمثل التفاتته المشجعة للمزارعين التفت الى الميدان التجارى ، وبعث فيه من النشاط والحماس ما جعله ينتعش ويزدهر ، ويصدق هذا على التجارة الداخلية والخارجية على السواء . حصل ذلك عندما قرر علي باشا اعطاء ما يفضل لديه من اموال للتجار يتاجرون بها ؛ ليس هذا فحسب بل كان لا يسترجع منهم الا ما دفعه لهم " ولهم الربح بتمامه ،اعانة لدوران المتجر ."[4]

١- ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج٢ ،ص ١٦٠ .

٢- المصدر ذاته ،ج٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

٣- المصدر والصفحات ذاتها .

٤- المصدر ذاته ،ج٢ ،ص ١٦١ .

كانت نتائج هذه السياسة الاقتصادية المتنورة النجاح والرخاء الاقتصادي والرضى الشعبي . يصف ابن ابي الضياف ذلك بقوله :

" فلم يلبث ان نمت الفلاحة في اسرع وقت ، نموا واضحا . وازداد دخل العشر على الدخل المعهود من "المشترى" زيادة كثيرة . وظهرت للعيان كيمياء العمارة وخسران صفقة تلك التجارة [تجارة عملية المشترى] . ونبتت محبته في قلوب العامة ، وأعان ما بقي من عمران البلاد والحاضرة ، وقد بلغت الى حد اليأس ..." [1] ثم يقول:

"وبهذا تراجع للبلاد ما بقي من رمقها ، الذى بقي من اباحتها لعسكر الجزائر ..." [2] .

ولهذا الباى حسنات اخرى كثيرة ومآثر جمى يوجزها عبد الوهاب بقوله :

" ومن حسنات هذا الامير الشاهدة بفضله عنايته بالعمران وتعميم المعارف ، فمنها مدرسته المعروفة (بالجديدة) قرب تربة ابيه ، وانشاؤه المحكمة الشرعية ، ومنها ملاجئ الضعفاء العواجز المسماة (بالتكلية) وقد خصص قسما للرجال واخر للنساء ، واوقف عليهما أوقافا نافعة ، ومن حنانه وتواضعه لله انه لما تم بناؤها قاد بنفسه اليها العمي واطعمهم بيده جبرا لقلوبهم المنكسرة جازاه الله خير الجزاء ، وله غير ذلك من الاعمال الجليلة في سبيل الري وجلب المياه وضرب الاسوار على المدن مما يطول تعداده ." [3]

لما طعن علي باشا في السن وأضعفته الشيخوخة والأمراض ، اولى عهده ابنه الشاب حمودة واشركه في الحكم سنة ١٧٧٧ . لقد تمت تلك التولية المبكرة لاسباب عدة اهمها مرض علي باي وكبر سنه ، ثانيا نفاد صبر الباى من تسلط الجزائريين وضغطهم عليه لعلمهم

١ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

٢ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

٣ـ عبد الوهاب ، خلاصة ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

بمرضه وهرمه . ثالثا لتحاشي الفتن على العرش ، خاصة ان ابن اخ [١] علي باى ، وهو أبو الثناء محمود باى (ت. ١٨١٤ - ١٨٢٤) كان أسن من ابنه حمودة . وتجدر الاشارة الى ان لرجال دولة علي باى يدا في هذه التولية ، غيرانّنا لا ندري ان كان ذلك بمحض ارادتهم أو باشارة من علي باشا . وعلى كل فقط طلبوا منه " ان يولي عهده لابه الشاب المقتبل الخليق للرئاسة ...." [٢] وبعد ان تمت البيعة لحمودة بولاية العهد بعث علي باشا الى السلطنة العثمانية يطلب منها موافقتها تقديم ابنه للولاية بعده ، فوافاه " الفرمان السلطاني والشعار الملكي لابنه " وكان " أول من بايعه بها ابن عمه ابو الثناء محمود باي " . [٣] وبهذا الاجراء تولى حمودة ولاية العهد والنيابة عن أبيه في مباشرة أمور البلاد واحكامها يوم الاحد ٩ فيفرى/ شباط سنة ١٧٧٧ . [٤]

١- اخو علي باي هو محمد باي (ت. ١٧٥٩) ، أبقى بعده صبيين هما محمود واسماعيل ، فتسلم عندئذ علي باى (والد حمودة) ادارة الحكم بعد ان تعهد رسميا ان يسلم الحكم لابني محمد باي لما يبلغا الرشد . غير ان علي باي لم يفعل ، وقد رضي الاميران بالتخلي عن الحكم لعمهما علي باى . ثم رضيا ايضا بتقديم حمودة ابن علي باى الى الحكم بعد أبيه ، انظر ادناه ، ص ٩٥ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٢ ، ص ١٧٦ .

٣- المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٤- M. Conor, et P. Grandchamp, Journal de l'ambassade de Suleiman Aga à la Cour de France: Janvier - Mai 1777, Tunis, Imprimerie Rapide, 1917, p. 1, note 1;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ كونور وغرانشان ، سفارة سليمان اغا .

ولتوطيد صفة الشرعية لحكم ابنه أقام علي باى مفاوضات مع الباب العالي تستهدف نيل لقب باشا لولي العهد . وقد كانت وساطات سفراء الدول الاوروبية وتدخلاتهم باسطنبول ، وخاصة منهم سفير فرنسا ، ذات فضل كبير في انجاح تلك المفاوضات التي انتهت باصدار فرمان يمنح حمودة لقب باشا .(١) ولزيادة تثبيت سلطة ابنه ، ولتدريبه على المهمات العامة لجعله يحتك بالناس ، عينه قائدا عاما لمختلف اقسام الجيش التونسي .(٢)

حري بنا ان نشير هنا الى ان ولاية حمودة باى العهد من قبل ابيه وتكريس السلطان العثماني لذلك ، وحتى موافقة محمود باى ، صاحب الحق الشرعي في الولاية على التأخر عنها لصالح ابن عمه حمودة ، كل ذلك لم ينف احتمال وقوع الفتن عند وفاة علي باى . كتب James Traill (٣) القنصل البريطاني بتونس الى حكومته رسالتين يذكر في الاولى (٤) ، وهي مؤرخة بيوم ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٧٧٨ ، ان الامر يتوقف فقط على من سيكون الاقوى حمودة باى أو محمود باى . أما الرسالة الثانية (٥) المؤرخة بيوم ٢٠ فيفري/ شباط سنة ١٧٨٢ ، أى قبل وفاة علي باى بحوالي ثلاثة اشهر فقط ، فتنص على تأكيد ذلك الشك بل يذكر القنصل ان الرأى السائد بين اهالي تونس ان الفتنة لا محالة واقعة لان الوريث الشرعي للعرش هو ابن عم حمودة باى . هذه المعلومات القيمة تدلنا بصورة واضحة على ان الفترة التي قضاها حمودة باى في ولاية العهد

١ـ ملاحظات دوفواز كتبها حوالي سنة ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ .

٢ـ المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص١٨٧ ؛ وسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص٣٦ .

٣ـ ج. تريل (J. Traill) قنصل بريطانيا بتونس من سنة ١٧٦٦ الى سنة ١٧٨٧ .

٤ـ خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٢/ ٧٧ .

٥ـ المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٩/ ٢/ ١٧٧٧ـ ٢٦/ ٥/ ١٧٨٢ كانت فترة تساؤل وغموض عمن سيتولى العرش بعد علي باشا ،وهي قضية هامة انفردت هاتان الرسالتان الدبلوماسيتان بالاشارة اليها .

توفي علي باى يوم ٢٦ ماي / ايار ١٧٨٢[1] وتبين ان تشاؤم تريل واهالي تونس بالنتيجة لم يصدق ،وارتقى حمودة باى عرش البلاد في ظروف من الاتفاق والتفاهم ومن السلام والامن لم يحصل مثلها في مثل تلك المناسبة منذ سنين طويلة .[2]

تجددت لحمودة البيعة ،بعد البيعة الاولى التي تمت في حياة والده سنة ١٧٧٧ على ولاية العهد ، يوم وفاة علي باى . وكان اول من بايعه ابن عمه محمود باى ثم تبعه العلماء وكبار القضاة واكابر الجند والاعيان ،ثم خرجت جنازة والده الى تربته .

استهل حمودة باشا اعماله الرسمية باجتماع مع وزرائه ورجال دولته قال لهم فيه : "اني لم اجلس في هذا الموضع بتغلب حربي حتى احسن لمن اعانني واتشفى مما حاربني ،وقد طلبتموني في حياة ابي ، فاطلب منكم ان تكونوا لي كما كنتم لابي ،والله تعالى ولي اعانة الجميع".[3]

١ـ يذهب العديد من المؤرخين والمحققين الى اعتبار يوم ٢٥ واحيانا يوم ٣١ (اتحاف ،ج ٣ ،ص ١١ ، التواريخ من عمل المحققين) في الشهر المذكور اعلاه يوم وفاة علي باى ،وهو غلط وصوابه يوم ٢٦ في الساعة العاشرة صباحا ؛ رسالة من القنصل تريل الى حكومته ، ٢٩ ماى / ايار ، ١٧٨٢ ،خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢ـ رسالة من القنصل الفرنسي دى روشي (J. B. Du Rocher) قنصل بتونس ١٧٧٩ ـ ١٧٨٣ ،الى حكومته ،تونس، ٢٧ ماى / ايار ، ١٧٨٢ ؛ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١٢٥ ؛ ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٧ .

٣ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ١١ .

الفصـــــــــل الثالـــــــث

سيرة حمودة باشا

ولد حمودة ليلة السبت ٨ ديسمبر / كانون الاول ١٧٥٩[١]، في الجزائر، من جارية قرجية[٢] الاصل اسمها محبوبة تزوجها علي باشا هنالك ايضا،[٣] وهو ابنه الاكبر.[٤] وقد استبشر الوالد بذلك الحدث السعيد فأقام الافراح والعزائم وأجرى صدقات كثيرة منها " صدقة جارية على طايفة من النسوان مستورات متعففات وقدرها خمسون ريالا[٥] في كل يم وهي جارية من يم ولادته [حمودة] أبقاه الله الى الآن [زمن المؤلف] ".[٦]

١- تاريخ مولد حمودة باشا هذا يورده مؤرخ علي باشا المشهور ابن عبد العزيز في كتابه التاريخ الباشي، ص ٥١١، وابن ابي الضياف، اتحاف، ج٣، ص ١١، وكذلك محمد السنوسي في مسامرات الظريف، ج١، ص ٣٥. اما مجيل في رحلته، ص ١٣، فانه يرجع ميلاد حمودة الى سنة ١٧٥٢ وهو قول تفرد بذكره ذلك الرحالة ولا يمكن الاعتماد عليه لضعفه.

٢- قرجية: نسبة الى القرج أو الكرج (Kurdj) ، وهي بلاد تقع بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وايران من الجنوب، واسمها مشتق من نهر الكير (Cyrus) ، وهي اقليم القوقاز الان؛ مراد كامل محقق كتاب تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، لمحي الدين ابن عبد الظاهر (ت ١٢٩٢)، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص ٢٣، الهامش.

٣- ابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٣، ص ١١.

٤- تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية، تونس، ١٧٧٥، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩)، ص ١٦٧.

٥- انظر قيمة الريال أدناه، ص ٣١٥.

٦- ابن عبد العزيز، التاريخ الباشي، ص ٥١١، لم يذكر هذا المؤرخ تاريخ انتهائه من كتابة تاريخه، غير انه توفي سنة ١٧٨٧.

كان لحمودة باشا أخوان وخمس أخوات هم : محمد المأمون توفي في ديسمبر/كانون الاول ١٧٨٤ بدون ان يخلف أولادا ، والثاني عثمان باى وهو من أم ثانية ، تولى العرش بعد حمودة ثم قتل يوم ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨١٤ . أما الاخوات فاثنتان منهن تزوجتا الوزير الاول مصطفى خوجة ،[١] والثالثة تزوجت محمود باى وهو الذى حكم تونس من تاريخ مقتل عثمان باى الى سنة ١٨٢٤ ، والرابعة منهن كانت زوجة اسماعيل كاهية ،[٢] اما أخت حمودة باشا الخامسة فقد فضلت التبتل والعزوبة على التزوج .[٣]

١ـ انظر أدناه ، ص ٨٠ ، ١٠٢ . تزوج يوسف صاحب الطابع اخت حمودة باشا التي مات عنها زوجها مصطفى خوجة سنة ١٨١٤ بعد وفاة حمودة باشا ، انظر ادناه ، ص ١٢٤ تعليق رقم ٦ .

٢ـ انظر ادناه ، ص ١٧٤ تعليق رقم ٢ .

٣ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٧٧٥ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ١٦٧ . ويتفق ما ورد في ذلك التقرير مع ما يذكره كل من مجيل ، رحلة ، ص ١٣ ، ٢٤ ، ومارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ ، كذلك ما أثبته P. Grandchamp, "Arbre généalogique de la famille Hassinite (1705 - 1944), C. T., tome 13 (1965), pp. 132 - 133; سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ غرانشان ، "شجرة نسب العائلة الحسينية" . أما جرنفيل ، نزهات في الجزائر وتونس ، ج١ ، ص ١٩٣ ، فانه يذكر أن لعلي باى اربعة ابناء هم حمودة وعثمان ومحمد والمأمون ، ووجه خطئه هو اعتبار اسم محمد المأمون اسمين لشخصين مختلفين احدهما اسمه محمد والثاني المأمون . فيما يتعلق باخوات حمودة باشا فاننا لا نعرف الا اسم واحدة منهن فقط ، وهي خدوجة (تصغير وتحبب لاسم خديجة : لهجة تونسية) . يذكر اسمها قنصل فرنسا دوفواز اثناء حديثه عن مشتريات تلك الأميرة من فرنسا ، وهي مشتريات كانت تتم بواسطة ذلك القنصل ، رسالة من القنصل الى حكومته ، طولون ، فرنسا ، ٥ سبتمبر / ايلول ، ١٨١٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٥٢٤ .

عندما أنهى حمودة باشا تعلمه وناهز الثامنة عشرة من عمره زوجه[١] ابوه ، يوم ٥ اكتوبر / تشرين الاول سنة ١٧٧٦[٢] ، من بنت " الشيخ الامام المفتي ابي عبدالله محمد ابن الشيخ الامام المفتي ابي عبد الله الحاج حسين البارودى [ت ١٨٠١٠] "[٣]

وقد اقيمت الولائم والافراح العظيمة بالبلاد شارك فيها رجال الدولة والاعيان والقناصل.[٤]

وقد أنجبت زوجة حمودة هذه عدة أولاد ، لكن أحداً منهم لم يعمر اذ توفوا جميعا وهم صغار السن .[٥] احد هؤلاء الأبناء واسمه محمد (ولد يوم ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٧٩١)[٦] عاش الى أن بلغ عمره حوالي ثماني سنين ونصف ثم توفي ايضا (يوم ٨ جوان/ حزيران سنة ١٨٠٠) . وقد تأسف حمودة باشا كثيرا على فقد ابنه الوحيد الذى عاش لتلك السن حتى انقطع عن مقابلة الناس وامتنع عن الأكل مدة الى ان اصابته حمى كاد أن يموت بسببها .[٧]

١ـ حفظت نسخة لعقد زواج حمودة باشا بخزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦ ، كرتون رقم ١ ؛ انظر صورة لتلك النسخة بالملحق رقم ٣ من هذه الدراسة .

٢ـ كانور وغرانشان ، سفارة سليمان آغا ، ص ٤ تعليق رقم ٢ ، وص ٥ .

٣ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٢١ ؛ ولهذا العالم الجليل ترجمة بالمصدر ذاته ، ج٧ ، ص ٤٠ .

٤ـ كانور وغرانشان ، سفارة سليمان آغا ، ص ٤ـ٥ .

٥ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧١ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٦ .

٦ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٢١ .

٧ـ انظر ادناه ، ص ٨٩ـ ٩٠ ، ١٨١ .

أما مظهره فقد كان حمودة باشا طويل القامة ، متناسب الأعضاء ، جميل الطلعة حسنها ،[1] أنيق المظهر[2] . سيماء محياه تحمل طابع الرقة وملامح الذكاء وبعد النظر ، وتحمل أيضا ملامح خصوصية تدل على النبالة والاصالة والسمو . وهي سيماء زادت في امتياز انماط تصرفه وفي طرق تعابيره . وينهي فرانك وصف مظهر حمودة باشا بالتأكيد على أنه في امكاننا أن نعتبره بصدق واحدا من أجمل رجال البلاد التونسية .[3]

الذى استرعى ملاحظة الاب رينال بالنسبة لمظهر حمودة باشا هي التقاطيع المتناسقة والدقيقة ذات الطابع الرجولي ، وهي التقاطيع التي جعلت مظهره يفرض الجلال والهيبة ، وجعلت بنيته تظهر ثابته غير متزعزعة قط .[4] ومنذ وقوع محاولة ذبحه وهو نائم سنة ١٧٩٢ ، بقي بوجه حمودة أثر الجرح باديا على الرغم من التئامه .[5]

وبما اننا بصدد الحديث عن مظهر حمودة فيجدر بنا أن نشير الى ميله الظاهر الى الأناقة والخيلاء ، فبالاضافة الى قصره الصيفي البادى البذخ ،[6] كان أحيانا يحب لباس الالبسة النادرة النوع والباهظة الثمن . ومن هذا الباب ما ذكره مقديش من ان حمودة باشا " أمر أهل جربة[7] فاستخرجوا له صوفا بين السواد والحمرة وصنعوا

١- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٣ ؛

٢- رسالة من القنصل البريطاني ماجرا (P. Magra) ، قنصل بتونس من سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٠٤ ، تونس ١٦ ، فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ملف ٧٧/٢ .

٣- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠ .

٤- الاب رينال ، " تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩-١٥٠ .

٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢١ .

٦- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٤٧ .

٧- جربة : جزيرة تونسية تقع جنوب شرق البلاد ، انظر موقعها على خريطة تونس بالملحق رقم ١ من هذه الدراسه .

له منه طيالسة "

وهذا الصوف ينبت على الحجارة في أقاصير البحر ".[1] ومن هذا القبيل جلوس ذلك الباى ، في المناسبات الرسمية ، على كرسي ، صنعه لابيه على باى صانع افرنجي ، من سن حوت رماه البحر على سواحل تونس.[2] وبلغ به ميله للخيلاء والاناقة أن اخذ لنفسه فقط امتياز استعمال العربة الفاخرة ذات الاربعة دواليب وسقف ، اما العربات ذات الدولابين فيستعملها القناصل والاهالي على السواء . وحتى لما تحصل قنصل امريكا على عربة فاخرة ذات اربعة دواليب من حكومته اخذها الباى لنفسه على أساس انها من شعار منصبه لا يركبها غيره.[3]

بعد هذا لا موجب للشك في تصديق صاحب الاتحاف عندما يذكر ان اعرابيا دخل القاعة التي توجد فيها محكمة الباى وهو يجر احرامه ،[4] فقال له احد كبار المسؤولين " ارفع حوليك " ، فقال له : " اتراني أجره في بيتك؟ " فضحك حمودة باشا ، وقال للحاضرين : " دعوا سلطانا وعربيته ".[5]

١- مقديش ، نزهة الانظار ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٣- مجيل ، رحلة ، ص ١٠١ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٤- الاحرام : رداء طويل يلتحف به أعيان العربان في شمال افريقيا ، ويتلفظ به بدون الهمزة مع ترقيق الراء ، جمعه حرامات ، انظر مادة " احرام وحريم "
R. P. A. Dozy, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes, Amsterdam, Jean Muller , 1845, p. 136-138;
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب دوزى ، قاموس اللباس .

٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٨ ، ص ٥٨ .

أما أعمال حمودة باشا وانجازاته في الداخل والخارج أيام حكمه البلاد التونسية فهو ما سنحاول ابرازه بوضوح في مختلف فصول هذه الدراسة . ثم نقيم تلك السياسة مع اعماله في الخاتمة . لقد اظهر حمودة باشا مقدرة وكفاءة تعدتا مقدرة جميع بايات الدولة الحسينية .[1] وهذا يصدق سواء بالنسبة لعلاقاته مع الدول الأوروبية أو الدولة العلية ، أو بالنسبة لعلاقاته مع الولايتين المجاورتين لتونس وهما طرابلس والجزائر .[2]

فخورا بتلك الانجازات المأثورة ،[3] وفي الوقت الذى ظهر فيه حمودة اكثر ما يكون نجاحا في سياسته وتمكنا من الحكم وتثبتا في السلطة ، في ذلك الوقت بالذات وهو في أوج عهده ، مات حمودة باشا فجأة في تمام الساعة السابعة بعد أن تناول الافطار بثلاثة أرباع الساعة ، من ليلة عيد الفطر يوم ١٥ سبتمبر/ايلول ١٨١٤ .[4] وذلك بعد أن بلغ سن الثالثة والستين ، قضى منها في الحكم ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وأياما ، ودفن في تربة أبيه .

١- فليب دوما ، أربع سنوات في تونس ، ص ١٥٧ .

٢- انظر ادناه ، ص ٣٩٥ - ٤٥٨ .

٣- شاتوبريان ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

٤- رسالة من سيالف (Astoine Sielve) ، نائب القنصل والقائم باعمال القنصلية الفرنسية ، الى حكومته ، تونس ١٦ سبتمبر / ايلول ، ١٨١٤ في بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

لقد اختلف المؤرخون والكتاب اختلافا شديدا في تحديد السبب الحقيقي لموت حمودة باشا المفاجيء • بعض هؤلاء يذهبون الى ان سبب موته هو مرض بالقلب كان يعاني منه الباشا منذ مدة طويلة ، والبعض الآخر منهم يرى ان سبب الموت كان التسميم • أول من أدلى بالرأى الاوّل هو القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بتونس الذى أعلم حكومته في رسالة بتاريخ ١٦ سبتمبر/ آيلول ١٨١٤ أى بعد يوم واحد من موت الباى ، أعلمها بأن حمودة مات بسبب سكتة قلبية صاعقة •[١] وقد أكد الدبلوماسي ذاته هذا القول مرة ثانية في رسالة كتبت بعد خمسة ايام فقط من تاريخ الرسالة الاولى •[٢] ويرى قنصل بريطانيا أن قضية التسميم هي دعوى اكبر الظن مختلقة •[٣] ومن أكثر الناس اخذا بهذا الرأى وتحمسا له ابن ابي الضياف وهو ينفي تهمة تسميم الباى بقوله : " ••• وهي تهمة يبعدها العقل وتحيلها العادة ، لانه [حمودة باشا] مبتلى بعرض مصاب به في القلب ، أنذرت الاطباء بانه من اسباب الموت فجأة ••• وراج ذلك [كونه تسمم] عند بعض الجهال •"[٤]

الفريق الاخر من المؤرخين والكتاب يذهبون الى ان حمودة باشا مات نتيجة التسميم ، وهو الرأى الرسمي للدولة عند خروج محمود باى على عثمان بن علي باى متهما اياه وكبار رجاله بالتآمر وتسميم حمودة باشا ، وقد قتلهم وأبناءهم مدعيا أخذ الثأر لدم ابن عمه حمودة • وبتلك التهمة وبذلك العمل اراد محمود اقناع الناس بأن خروجه لم يكن تعديا ولا بغيا •[٥] وقد اعتمد عدد من المؤرخين

١ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٢ـ رسالة من سيالف الى حكومته ، تونس ، ٢١ سبتمبر / أيلول ، ١٨١٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٥٢٥ •

٣ـ رسالة من القنصل أوغلاندر (R. Oglander) قنصل بريطانيا بتونس ١٨٠٤ـ ١٨٢٤ الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٦ •

٤ـ ابن أبي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٩٨ •

٥ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

هذا الرأي الرسمي ومن اهم هوءلاء اوسكار (طبع كتابه سنة ١٨٦١) حيث يتهم ضابطين من ضباط القصر بتسميم الباى .[١] وقد ذكر روسو (طبع كتابه سنة ١٨٦٤) واقعة التسميم ايضا في تفسير سبب موت حمودة المفاجيء .[٢] وكذلك فعل وليد[٣] (طبع كتابه سنة ١٨٧٤) الذى يوءكد ان ستينكا (M. Stinca) وضع للباى السم في التبغ ، ثم بمجرد ان شرب الباى الدخان شعر بوجود طعم غيرعادى فيه ، وقد اقنعه ستينكا آنئذ بانه التبغ ذاته الذى يشربه دائما ، وانه ليس في طعمه ما هو ليس عاديا . وبنهاية هذه الكلمات وقع حمودة باشا فاقدا الحياة .[٤] ويقول بالتسميم كذلك بلانتي جامع ومحقق وثائق كتاب مراسلات بايات تونس (ط. ١٨٩٣-١٨٩٩) .[٥] وينفرد ابن سلامة بتعليل آخر للوفاة وهو ان حمودة باشا لما انهزم جيشه في حربه الاولى مع الجزائر اصابه مرض ، نتيجة الهم والغم ، بقي معه الى ان مات.[٦]

هذا ولا احسب اني أحيد عن الصواب اذا رجحت السبب الذى اعتمدته الفئة الاولى من هوءلاء الموءرخين ، واعتبرته الاقرب الى الصواب وذلك لاسباب عدة ، اهمها : ان المصادر التي اكدت الموت بسبب مرض في القلب هي وثائق أصلية كتب بعضها في الايام الاولى بعد حصول الحادث . كتبها قنصلا اعظم دولتين

١- اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٥٢ - ٥٣ .

٢- انظر كتابه حوليات تونسية ، ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .

٣- انظر ادناه ، ص ١٣٧ - ١٣٩ .

٤- عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٥ - ٤٦ .

٥- انظر ج ٣ ، ص ٥٢٥ ، تعليق رقم ١ .

٦- العقد المنضد ، ص ٧٤ .

في ذلك الوقت فرنسا وبريطانيا وبعثا بها الى حكومتيهما ، ولا يتوقع ان يسلكا غير الحقيقة الواقعة في هذا الامر . بجانب ذلك فان التقارير التي اعدها الحكماء نفت تهمة التسميم نفيا قاطعا .[1] هذا بالاضافة الى ابن ابي الضياف الذى يعتبر مصدرا موثوقا به في ذكره لتلك الاحداث ، وذلك بسبب قربه من الفترة نسبيا وبسبب اطلاعه الواسع على احداث تونس وهو وأبوه من أقرب المقربين الى البايات والى الاختلاط معهم . بخلاف الفئة التي اتخذت سبب وفاة الباى هو تسميمه على يد بعض الاشقياء ، المتآمرين ، هم من المؤرخين الثانويين ، وما اوردوه من أمر التسميم لا يعتمد على المصادر الاصلية بل لم يذكروا اى اصل . وقد يكون سبب كونهم من المؤرخين المتأخرين نسبيا جعلهم يتأثرون بالتفسير الرسمي للحادث ، وهو التفسير الذى لم يشع الا بعد مقتل عثمان بن علي ليلة ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٤ ، أى بعد وفاة حمودة باشا بمدة قدرها سبعة وستون يوما .[2]

هذا ومما يزيد في توطيد هذا الترجيح وتعزيزه ، هو ان المراسلات الموجودة في خزينة الوثائق العثمانية لا تشير قط الى حادث موت حمودة باشا بسبب التسميم . وهذا يصدق سواء بالنسبة للوثائق التي تمثل مراسلات محمود بن حسين ، الذى قتل عثمان مدعيا آخذ الثأر لدم ابن عمه حمودة ، أو بالنسبة للمراسلات الاخرى . فقد كتب قبودان باشا العثماني [3] الى السلطان محمود الثاني (حـ ١٨٠٨- ١٨٣٩) يخبره بان حمودة باشا توفي بأجل موعود ، وان روحه أجابت دعوة ربها .[4]

١- الأب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩-١٥٠ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢٢ .

٢- الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩-١٥٠ ؛ دى فلو ، تونس ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢٢ .

٣- قبودان باشا : رئيس الاسطول العثماني ، انظر جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ، ج ١ قسم ١ ، ص ٩٣ ، ١٠٠ - ١٠٤ ، ١٤٢ .

٤- رسالة من قبودان باشا الى السلطان ، تونس ، ١٨١٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم ٢٢٥٢٤ .

وكذلك فعل محمود باى تونس ، في رسالة منه الى داى الجزائر حيث أخبره بأن حمودة توفي ليلة العيد والتحق بجوار ربه .[1] وفي الوثيقة العثمانية ذاتها ما ينص ايضا على ان مقتل عثمان باى ، أخو حمودة ، كان سببه تآمره لقتل ابن عمه محمود وأبنائه يوم ٢١ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٤ ، ولكن الاقدار جعلت النتيجة عكسية ، بسبب معرفة محمود بها مسبقا .[2] فالذى قتل هو عثمان باى وأولاده ، ومحمود تولى العرش من الغد .[3] ولم ترد أية اشارة الى ان قتل محمود لعثمان كان بسبب الاخذ بثأر دم ابن عمه المغدور حمودة كما أشاع الباى الجديد في تونس .

هذا ويظهر ان محمود باى هو الذى لفق جميع تلك التهم واستغلها للاستيلاء على الحكم ، فقد اشاع داخل تونس أنه قتل عثمان لأخذ ثار حمودة ، وفي الخارج اعلم قبودان باشا بان عثمان تآمر على حياته وحياة ابنائه فكانت الدائرة عليه ، وكذلك فعل مع داى الجزائر كما بينا سابقا . ولتعزيز موقفه ، الذى كان مهدده له قبودان باشا ، بعث محمود محضرا الى السلطان العثماني مختوما وممضيا بيد مائة وستين من كبار رجالات الدولة التونسية ، يمثلون امراء العائلة والاشراف ورجال الدين وضباط الجيش بمختلف أقسامه وكبار رجال الحكم والادارة وجميع هؤلاء يشهدون ان كل ما ذكره محمود باى في رأس العريضة ، من قضية المؤامرة ضده ، هو صحيح ومطابق للواقع .[4] هذا مع ملاحظة ان محمود

١- رسالة من محمود باى الى حاكم الجزائر ، تونس ٢٧ محرم ١٢٣٠/١٧ ديسمبر ١٨١٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم E - ٢٢٥٥٨ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- رسالة من قبودان باشا الى السلطان محمود الثاني ، الجزائر ، ١٨١٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم ٢٢٥٢٨ .

٤- محضر من محمود باى الى السلطان محمود الثاني ، تونس ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم A - ٢٢٥٥٨ .

باى لم ينس التاكيد مرتين انه هو اكبر فرد في العائلة الحاكمة بتونس،[1] اشارة الى احقيته في تولي العرش ، وهي الاحقية التي تقوى موقفه ، ولا ينكرها عليه احد . جميع هذه الدلائل تؤكد صحة القول بأن حمودة مات ميتة طبيعية نتيجة مرض بالقلب .

لقد فجع سكان تونس بفقدان حمودة ورأوا في ذلك سوء الطالع . وعلى الرغم من تقارير الحكماء التي نفت تهمة التسميم تمسك الشعب بذلك الرأى لشدة تعلقهم به وحبهم له .[2] يصف ابن سلامة حزن الاهالي على موت حمودة باشا بقوله :

" ... حتى جاءت ليلة عيد الفطر وهي ليلة جمعة سار لعفو الله تعالى فجأة فدهى الناس أمر عظيم وحزنت لفقده البلاد وذابت اسى له جميع الاكباد لأنه كان لجميع الناس أبا وهم له أولاد وهو حقيق بأن تبكي الناس عليه وتعظم الرزية فيه".[3]

وفعلا هكذا كان ، فقد بكاه ورثاه كثير من الادباء والعلماء بالقصائد البليغة الخالدة .[4]

١- المصدر والوثيقة ذاتهما ، وكذلك سبق وفعل في رسالته الموجهة الى داى الجزائر ، تونس ، ١٨١٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطى هميون ، رقم E - ٢٢٥٥٨ .

٢- الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩-١٥٠ ، دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢٢ .

٣- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٥ .

٤- انظر المصدر ذاته ، ص ٦٩- ٨٤ .

الفصل الرابع

العوامل المؤثـرة في تكويـن سياسة حمـودة باشــا

أ . شـخصيته

١ . ثقافتـــه

اعتنى علي باشا بتربية ابنه غاية الاعتناء حيث انتقى لتعليمه وتهذيبه فحولا من علماء تونس ، عارفين بفنون "الرياسة والسياسة "[١] وبالعلوم "المعقولةوالدينية".[٢] من أهم هؤلاء الشيخ الحاج حمودة ابن عبد العزيز[٣] ،الذى كانت وظيفته تلـك أول درجات سلم ارتقائه في رتب الدولة . وابن عبد العزيز هذا هو مؤلف كتـاب التاريخ الباشي الذى رجعنا له في أماكن عديدة من هذه الدراسة . وهو من أشـهر العلماء الناشطين ، تصدر للتدريس "فشنف الأسماع بكل نفيس" ،وتخرج عنــه " أعلام صاروا أيمة في الاسلام".[٤] يصف ابن أبي الضياف أهلية هذا العالم بقوله :

"وكان من أفراد العلماء وأعلام الكتاب ، وفريدة عقد ذوى الألبـاب والاداب ،وتاريخه " الباشي " الذى ألفه في مدح مخدومـــه ، اعظم شاهد له بالبلاغة والبراعة في فن الانشاء ، والله يؤتـــي الحكمة من يشاء . وله في العلوم الشرعية والعقلية القدم الراسخ واليد الطولى . وكان فصيح اللسان ، ماضي القلم ، عذب المجالسة آية الله في المحاضرة ، بحيث اذا حضر مجلسا توفرت الدواعـي على سماع ما يلفظ من قول في كل فن ، مع وقار وهمة عاليـــة زاحمت الكواكب ، وأشـــعة زيـت المواكب".[٥]

هذا وقد كانت له مشاركة في التأليف ،فبالاضافة الى كتابه الباشي ، لـــه حاشية على كتاب في علم الكلام ،ورسالة في القبلة ، وديوان شعر رائق .[٦]

١ـ مخلوف ، شجرة النور الزكية ،ج٢ ،ص١٦٧ .
٢ـ السنوسي ،مسامرات الظريف ، ج١ ، ص ٣٥ .
٣ـ فيما يتعلق بهذا الرجل انظر ايضا اعلاه ،ص ١٢ ـ ١٣ ، وأدناه،ص ١٢٦ـ ١٢٧.
٤ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٧ ،ص ٢٣ .
٥ـ المصدر والصفحة ذاتهما .
٦ـ المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ٢٤ .

تعلم حمودة باى على هذا الشيخ ، بعد ان حفظ ما تيسر من القرآن ، المواد التالية: النحو والحساب والتاريخ [١] والصرف " وغير ذلك مما لا يسع الكامل جهله." .[٢]

المدرس الثاني الذى اوكلت له مهمة تعليم حمودة ، مع ابن عبد العزيز ، هو الشيخ حمودة باكير (ت. ١٨٠٦) . كان من اعيان علماء تونس ومشاهيرها ، تولى خطة التدريس بجامع الزيتونة . اشتهر بعلو همته وبعده عن التصنع . كان يأتي اليه فقهاء الحنفية في موسم العيد فيهتم بمن لم يكترث بشارات زيه ، ويعرض عن المتصنعين في لباسهم . ولما سئل عن سبب ذلك قال : " هؤلاء ذلك مبلغهم من العلم ، واولئك يرجى خيرهم ، لان هممهم مصروفة على التقدم بالمعارف ، لا باللباس والزى ، فالمرء لا يعرف ببرده ، كالسيف لا يعرف بغمده ." [٣] اخذ عنه حمودة ، الحنفي المذهب على شاكلة السلاطين العثمانيين والاتراك عامة ، الفقه الحنفي وعلم الكلام . [٤] وقد حزن حمودة باى على استاذه لما توفاه الله " فوجد عليه كما وجد على والده ، ومشى في جنازته راجلا باكيا ، من داره بتونس الى مدفنه ، وعد له من الوفاء ." [٥]

آستاذ حمودة باى الثالث هو الوزير مصطفى خوجة (ت. ١٨٠٠) . اصل هذا الوزير من بلاد القرج ، جاء الى تونس مملوكا صغيرا لاحد البايات . وبعد ان تعلم شيئا من مبادئ العلوم ، اشتغل بتسفير الكتب في دكان بالقرب من جامع الزيتونة . في تلك الاثناء تعرف عليه علي باى ، والد حمودة ، ووجد فيه " النجابة والامانة

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١١ .

٢ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٢٣ .

٣ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٤٩ .

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١١ .

٥ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

والوقار " ،فقربه و " اولاه خطة خزنة دار ،وزوجه بنته ،فماتت في عصمته ٠٠٠" ، ثم تزوج باختها وهو شيخ ، " فمات عندها " ٠[١] ولهذا الرجل مكانة خاصة ترجع لاعتبارين ،كونه أول رجل يتولى خطة الوزارة بتونس وذلك في عهد علي باى ثم في عهد ابنه حمودة ٠ هذا من جهة ،ومن جهة ثانية اعتبارا لما تم على يديه من انجازات هامة سواء في شؤون البلاد الداخلية او الخارجية ٠[٢]

لم يكلف مصطفى خوجة بتعليم حمودة باشا مواد معينة ،وانما نشأ حمودة " في كفالة تربيته ،وهو حارس شبابه من جهة أبيه " ٠[٣] يصفه ابن ابي الضياف بأنه كان :

" خيرا عفيفا ،متأنيا في موضع التأني ،قوى الفكر ،سليم الصدر ،مأمون الغيبة ،منصفا من نفسه ،متواضعا وفيّ العهد ،مقتصدا بعيدا عن السرف وكان ضيق النفس، بعيدا عن المداهنة ،لا يكاد يتجاوز ، ولا يعقب ذلك حقد ،واهل عصره يتجاوزون له ذلك ،ويحتملونه احتمال الابناء من الاباء ،سريرة طيبة البسه الله رداءها ،قليل الفصاحة في الخطاب ،وان كان المقصود منه الفعال ،لا تزيين المقال" ٠[٤]

بالاضافة الى ما سبق تعلم حمودة باشا اللغة التركية نطقا وكتابة ،[٥] وهي اللغة التي كانت مستعملة في اجراء المفاوضات وتحرير المعاهدات ٠[٦]

١ـ المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ٣٨ ٠

٢ـ فيما يتعلق بهذا الوزير انظر ادناه ،ص ١٠٠ ـ ١١٠ ٠

٣ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٧ ،ص ٣٨ ٠

٤ـ المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ٣٩ ٠

٥ـ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١١ ٠

٦ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس، ١٦ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ ٠

وكذلك كان يتقن شكلا من اشكال اللغة الايطالية ، كان يتكلمها الاوروبيون القاطنون بتونس ، وهي لغة كان الاجانب يطلقون عليها اسم la langue franque .(١)
وكان الى جانب ذلك يميز بين بعض اللغات الاوروبية ويفهم فهما عاما الفرنسية والمالطية .(٢) هذا عدا اللغة العربية التي كان يعرفها نطقا وقراءة وكتابة.(٣) غير ان كتابته للغة العربية كانت ضعيفة وتغلب عليها التراكيب والالفاظ العامية التونسية .(٤) لم يكتف حمودة باشا بمعرفته لتلك اللغات بل صمم على تعلم اللغة التسكانية " l'italien pur - toscan " قراءة وكتابة . ولكن رجال الدين في تونس صدوه عن تعلمها بحجة انها لا تليق بامير مسلم .(٥) وقد كان حمودة دائم الممارسة لتلك اللغات جميعها الا اللغة التركية ، ولذا وخشية ان ينساها ،

١ــ المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ في النصف الاول من القرن الثامن عشر كان يطلق على تلك اللغة اسم " la petite langue franque " ، وهي اللغة الايطالية ذاتها ولكنها مشوهة ومحرفة ، جرت عادة استعمالها في البلاد التونسية منذ زمن طويل ؛ L. de Tassy, Histoire des états barbaresques qui exercent la piraterie, contenant l'origine, les révolutions et l'etat present des royanumes d'Alger, de Tunis, de Tripoli et de Maroc, avec leurs forces, leurs revenus, leur politique, et leur commerce, 2 vols., Paris, Chaubert et Herissant, 1757, vol. 2, p. 162; سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ دي تاسي ، تاريخ بلدان البربر ، ويعرف فرانك تلك اللغة بانها صنف أو ضرب من اللغة الايطالية جرى بها العمل في البلاد التونسية ؛ وصف البلاد التونسية ، ص١٣ .

٢ــ رسالة من ماجرا الى حكومته ، ١٦ فيفري/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ملف ٣/ ٧٧ ؛ كانور وغرانشان "رحلة الاب كاروني" ، المجلة التونسية ، عدد ١٢١ (١٩١٧) ، ص ٩٦ــ٩٧ .

٣ــ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠ ؛ اوسكار ، ملخص تاريخ تونس، ص٣٦ .

٤ــ انظر عينات من كتابات حمودة باشا بخط يده بالملحق رقم ٢ من هذه الدراسة .

٥ــ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠ . يظهر ان حمودة باشا تعرف على اللغات الاوروبية السابقة عن طريق الممارسة ، وعندما اراد ان يتعلم اللغة التسكانية صده رجال الدين عن ذلك .

منح غلمانه المماليك التكلم بالعربية " ... ولا يكلمهم الا باللغة التركية ".[١]

ما دمنا بصدد التحدث عن تعلم حمودة باشا وثقافته يجدر بنا ان نشير الى اعجاب هذا الباى بالمفكر العربي الكبير عبد الرحمان ابن خلدون (ت. ١٤٠٦) وتأثره بأفكاره المبسوطة في مقدمته . فقد كان ولوعا بمطالعتها والنظر في مبادئها ، وبلغ به الاهتمام الى حد جعله يثبت ملاحظات وتوقيفات كثيرة بخط يده على هامش المقدمة .[٢] ولما وجد الباى ان نسخ تاريخ ابن خلدون ومقدمته محرفة ، جمع عددا وافرا منها ، وامر الشيخ المفتي علي الآجري (ت. ١٨١٠) ، احد علماء تونس المشهورين ، بمقارنة تلك النسخ واصلاح تحريفها .[٣] اما عن تاثره بآراء ابن خلدون فقد ظهر صريحا في اعماله خاصة فيما يتعلق بالتغيير الذى ادخله ذلك الباى في سلك الادارة والوظيفة العامة . فقد اصبح ينتقي موظفيه باعتبار اهلية المترشح ، دون غيرها من الاعتبارات .[٤]

فيما يتعلق بمعرفة حمودة باشا لبعض اللغات الاوروبية ، يمكننا ان نعتبر ذلك اداة فتحت مجالات ثقافية هامة امام ذلك الباى الشاب الطموح . فقد جعلته ، مع تربيته وثقافته العامة ، يمتلك معارف نادرة لا تتوفر لغيره من حكام شمال افريقيا "المستبدين" حسب قول رينال .[٥] ليس ذلك فحسب بل يعتبره كاتب تقرير سرى[٦] كتب في تونس لنابليون بونابرت ، بانه الأمير الفريد بين امراء المسلمين قاطبة ، الذى يتمتع بثقافة مرموقة مكنته من فهم مصالح القوى والدول

---

١ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

٢ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

٣ ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٩ .

٤ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

٥ ـ الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩ .

٦ ـ تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية يشرح امكانات غزو فرنسا لتونس ، تونس ، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

الغربية باوروبا ، وبالتالي الاستفادة منها الى الحد الاقصى . ويقول هيجون ان ثقافة حمودة باشا اهلته حتى لفهم الحضارة والثورة الفرنسيتين وهو سبب اعجابه بهما .[١] وليس عجيبا بعد ذلك ان نجد الصداقة تتوطد بين حمودة ونابليون بونابرت فيتبادلان الهدايا وعبارات الود .[٢] ويبلغ اعجاب الباى ببونابرت حدا جعله يتمنى لو يرزق المسلمون حاكما مثله ، يذكر ابن ابي الضياف ذلك بقوله "وكان يعرف [حمودة باشا] ما للسلطان نبليون من المآثر والحزم والشجاعة ، ويقول في مجالسه : ليت للمسلمين سلطانا في شجاعة نبليون وأوصافه . سمعنا ذلك من غير واحد من رجال دولته ."[٣]

هذا وقد كان شغوفا بانجازات الثورة الفرنسية ، ومحبا للاطلاع على اخبار اوروبا وشؤونها .[٤] ومن ذلك انه اعجب بدستور جمهورية فرنسا ، "المبني على الرأي والسواب" كما يقول القنصل . وقد اطلع عليه بعد ان ترجم خصيصا له سنة ١٧٩٤ .[٥] ولم يكتف حمودة باشا بمطالعاته ودراساته تلك بل كان سنة ١٨١٢ يستمع ويناقش كل ليلة بعض الفصول من قانون نابليون بونابرت (Code Napoléon) .[٦]

---

١ ـ شعارات بايات تونس ، ص ١٢ ـ ١٣ .

٢ ـ رسالة من Regnaud de Saint jean D'Angely ، مفوض الحكومة الفرنسية بمالطة (ت. ١٨١٩) الى حمودة باشا باى تونس ، مالطة ، ٢ جويلية / تموز ، ١٧٩٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

٣ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

٤ ـ كانور وغرانشان ، "رحلة الاب كاروني" ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٣٦ .

٥ ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٣١ ماى/ايار ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

٦ ـ رسالة من بيلون (J. BILLON) نائب قنصل فرنسا بتونس ١٨٠٩ ـ ١٨١٤ الى حكومته ، تونس ، ١٨ افريل / نيسان ، ١٨١٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

وليس من المستغرب بعدئذ ان نرى حمودة باشا يأمر محمد بيرم بوضع قانون يعتمد عليه في حكمه ، وهو القانون الذى ظهر في شكل رسالة تحت اسم السياسات الشرعية .[1]

٢ . صفاته ، أهليته .

اما فيما يختص بصفات حمودة باشا فمن الملاحظ ان المصادر امدتنا بمعلومات دقيقة ومركزة عنها . وان دل اهتمام الكتاب الشديد بذكرها على شيء فانما يدل على بروزها ووضوحها ومقدار اهميتها في وصف شخصيته ونشاطاته .

من الصفات المميزة لحمودة باشا شدة تعلقه بالحياة العسكرية وميله للمشاركة فيها ، وهو الذى تولى قيادة المحلة العسكرية ، التي كانت تجوب مختلف انحاء البلاد التونسية لجمع الضرائب واسدال الامن في المناطق ، وعمره لا يتعدى العشرين سنة .[2] وقد كانت قيادته لتلك المحال تمتاز بالفطنة والوقار والعظمة .[3] وبمرور السنين ازداد شغف حمودة باشا بالحياة العسكرية فخالط جنوده وسكن معهم ولبس لباسهم واهتم بهم اهتماما كبيرا .[4] وبمواظبته على نشاطاته العسكرية ازداد معرفة بشؤون الجيوش والحروب حتى وصفه قنصل فرنسا سنة ١٨٠٧ بانه اقدر قائد عسكري في تونس .[5]

١ـ انظر اعلاه ص ١٣ ـ ١٤ ، وادناه ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

٢ـ تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٣ـ الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩ .

٤ـ انظر ادناه ، ص ١٩١ ـ ١٩٥ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

٥ـ رسالة من دفوار الى حكومته ، تونس ، ١٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلة رقم ٣٨ .

لقد ساعدت تلك الحياة العسكرية على ابراز صفة الشجاعة والاقدام لدى حمودة . وهي الصفة التي ظهرت اكثر ما يكون عندما قام بمفرده ، سنة ١٧٩٢ ، ثلاثة من مماليك قصره تآمروا على اغتياله اثناء نومه . وقد استطاع في الظلام الدامس ان يزيحهم عنه وينجو منهم ، الى ان وصلت النجدة ، على الرغم من كونه كان اعزل وهم مسلحون . وتمت مقاومته لهم بمقدرة لا تتوفر الا " للقادة العسكريين ".[1] وتجلت شجاعة حمودة ايضا في مناسبات اخرى عديدة اهمها صموده الصلب في حرب البندقية لتونس (١٧٨٤ - ١٧٩٢) [2]؛ وزجه لاعضاء الوفد الجزائرى في السجن وهو الوفد الذى اتى من قبل داى الجزائر ليسعى في الصلح اثناء حصار الجيش التونسي لمدينة قسنطينة الجزائرية اثناء الحملة الاولى ، وتمزيقه للرسائل التي قدمها اعضاء الوفد بدعوى ان الداى لم يبعثهم خصيصا له .[3] ومن مواقف شجاعته ايضا قراره ، سنة ١٨٠٧ ، تولي قيادة الحملة التونسية الثانية بنفسه في حربه للجزائر بعد اربعة اشهر من الهزيمة ؛ ولم يقبل التراجع عن تصميمه الا بعد ان نصحه رجال الدولة بعدم ترك العاصمة ، كاجراء يتعلق بالمصلحة العليا للدولة .[4]

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ ؛ انظر ادناه ، ص ٢١٦ - ١١٧ .

٢- انظر ادناه ، ص ٣٧٢ - ٣٧٨ .

٣- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٩ ماى / اذار ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

غيــر ان طباعه العسكرية التي أبرزت صفــة الشــجاعة والاقدام فيه ، اظهـرت من ناحيــة اخرى صفــة القساوة والفظاظة التي بلغت حدها الاقصى لما اباد جند الترك عند ثورتهم سنة ١٨١١ ،[١] وكذلك في بعض معاملاته مع من تساوره نفسه بعــدم الطاعة من الاهالي .[٢] ولعلنا لا نحيد عن الحقيقة كثيرا اذا صدقنا قول رجــل السـياسة البريطانية بتونس عندما يذكر ان شغف الباى بالحياة العسكرية جعــل منه رجلا عنيدا ، صلبا في آرائه ، وذلك الى حد لا يجاريه فيه احد .[٣] غير انــه مع ذلك العناد والتصلب كان حمودة باشا يتحلى بصفة من اهم الصفات الحميــدة لدى الحكام وهي انه كان يفتح الاذان الواعية لنصائح من يثق بهم وان خالــفت تلك النصائح هواه . يذكر ابن ابي الضياف هذه الخلة الحسنة بقوله :

"كان عزيــز النفس ، ثاقب الفكر ، ومع ذلك لا يستغنى عن مشورة رجال دولته في جليل الامور وحقيرها ، ولا يأنف من الرد عليه ، ويقــول " الخطأ مع الجمهور أحب الي من الاصابة وحدى " ... فهو فــي هذه الحالة كملوك القانون مع انه من ملوك الاطلاق ، وكان يعاني من وزيــره ابي المحاسن يوسف صاحب الطابع مرارة الرد عليه ، ويقول له : " يا يوسف انك لا تعيش مع غيرى نفـ نسنة " ، فكانت كالجفــر ."[٤]

هذا وقد كان حمودة باشا كثيــر ما ينشــد قول الشــاعر :

١ـ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ؛ وانظر ادناه ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

٢ـ تقرير من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينــة وزارة الخارجية الفرنسية ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٣ـ رسالة من هايجريفس (L.Haigreves) القائم باعمال القنصلية البريطانيــة بتونس (١٧٩٧) الى حكومته ، تونس ، ١٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤ / ٧٧ .

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٥ ؛ وانظر ادناه ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦ .

الرأي كالليـل مسـود جوانبـــه والليــل لا ينجلـى الا باصباح
فاضمم مصابيـح اراء الرجال الى مصبــاح رأيك تزدد ضوء مصباح (١)

وأكبر مثال لانتصاحه رجوعه عن قرار قيادة الجيش التونسي في محاربته للجزائريين سنة ١٨٠٧ ،(٢) وذلك عندما نصحه أحد كبار عسكره بقوله : "انـت لا تملك امر نفسك ، والمالك لأمرك المصلحة للبلاد ، والمصلحة ان تكون في مركز ولايتك ردءا بخلاف ما اذا خرجت بنفسك ." (٣)

من الصفات الغالبة التي اتصف بها ذلك الباى عدله ونباهته في الحكم ، وهما صفتان اقترنتا باسمه في كامل تاريخ تونس الحديث . وقد اورد المؤرخـون والرحالة قضايا عديدة اصدر فيها احكامه واعتبرت غررا ازدان بها عهد ذلـك الباى ، على غيره من العهود . وقد لازم حمودة صفة العدل هذه في احكامـــه ومعاملاته سواء مع اهل البلاد او الارقاء ، او النصارى الاوروبيين المستوطنيـن بتونس . ليس هذا فقط بل منع حتى زوجته من ان تحيد عن العدل ، ومن ضرب خدم القصر . (٤)

من ابرز القضايا التي حكم فيها حمودة وتظهر عدله ونباهته قضيتـان يذكرهما ابن سلامة ، نوردهما كما وردا في الاصل لاصالتهما وطرافتهما . يقول المؤرخ أتي الى حمودة باشا

" برسم وصية بثلث بخط مدلس على عدل ميت واشتكى اليه الخصم وتظلم رب الكتب يقول هذا حقي فكان من رايه [حمودة باشا] العجيب ان نظر الى الكاغــض (٥) فاذا هـــو ازرق اللـــــون فارســـل الى النصـارى وســـألهم عن تاريــــــخ

١ــ المصدر والصفحة ذاتهما .

٢ــ انظر اعلاه ، ص ٨٥ .

٣ــ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

٤ــ كانور وغرانشان ، "رحلة الآب كاروني" ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٥ ، ٥٠ ،

E. Cardon , Etudes sur les progrés de la Civilisation dans la regence de Tunis , paris , 1861, p. 20 .

٥ــ الكاغض : الكاغد ، الورق (لهجة تونسية) .

هذا الكاغض [الكاغد] الجديد والعادة عندهم أنهم اذا احدثوا جنسا ارخوه فاذا التاريخ الذى في الرسم وقت الشهادة اسبق من تاريخ صنعة الكاغض فافتضح الامر . وكذلك رجل ضاعت له حكة [1] بها مائة دينار فقال من يأتيني بها أعطيه عشرين فاتاه رجل فقال له هي عندي . فلما اتاه بها قال له سرقت منها النصف لان بها مائتين فتراجعا للمرحوم السيد حمودة باشا . فقال له كم بحكتك قال مائتان فاحضر [حمودة باشا] مائتين وجعلها بها فلم تسعها الحكة . فقال اذا هاته ليست بحكتك لانها لا ترفع المائتين فاذهب فابحث عن حكتك واعطي الحكة للاخر وقال احتفظ عليها حتى يأتيك ربها . فبكى الرجل الذى ادعى السرقة . فقال له ما يبكيك ، فقال له ابكي على من يجلس بعدك على هذا الكرسي الحق اني انا الكاذب وما كان يخطر ببالي هذا . فحكم بينهما بالعدل".[2]

كان حمودة شهما عزيز النفس لا يحتمل العار ، [3] يذكر صاحب الاتحاف ، ان من اسباب حرب حمودة للجزائر ، وهي اكبر واخطر انجاز تم في عهده ، [4] انه "لم يكن من اخلاقه احتمال الضيم". [5] غير ان الجيش التونسي انهزم في الحرب الاولى ضد الجزائر ، [6] فطعن حمودة في عزة نفسه وكثر به الغم والهم حتى اعتل وبقي معه المرض الى ان كان سبب موته . [7] ومن علو همته وحزمه مقته للاطراء والمدح

١- حكة : حقة ، علبة (لهجة تونسية) .
٢- العقد المنضد ، ص ٢٦ .
٣- السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٩ .
٤- انظر ادناه ، ص ١٢٠ ، ٤٢٥-٤٣٠ .
٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٧ .
٦- انظر ادناه ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
٧- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٤ ، ٨٤ .

فقد كان يقول : " من مدحك بما ليس فيك ، جدير ان يذمك بما ليس فيك ، وأنا أعلم منه بنفسي ، وحالة بلادى ، وتصرف الملوك تابع لحال المملكة ، ويقبح بالانسان ان يجهل مقداره ويتعدى أطواره " .[1] هذا وكان تذوقه للفصاحة واعجابه بالبلاغة يجدان الميدان الرحب في بعض خطب الجمعة المؤثرة في القلوب.[2]

ومن صفاته أيضا كرهه للابهة والمظاهر الكاذبة ، وكان اقتصاده وحفظه لأموال الدولة من خلاله الحميدة .[3] أورد ابن ابي الضياف حادثة دفع اجر نسوة يهوديات عملن في وليمة ختان ابناء اخ وأخت حمودة باشا ، يذكر أن ام الباى طلبت منه ان يدفع لهن مثل ما دفع أحد أعيان تونس فقال لها :

" لسنا مثل دار التومي [اسم احد الاعيان] " ، فقالت " نعم ، انت باى البلاد ، والتومي رجل من أهلها " ، فقال لها : " ليس هذا مرادى ، وانما المراد ان التومي يتصرف في ماله كما يحب لانه ثمرة عمله ، وتلاد آبائه ، والمال الذى تجول فيه أيدينا ، ليس لنا ، بل هو للمملكة واهلها ، ونحن وكلاء ، فليس لنا الا ما للوكيل من التصرف بالمصلحة " .[4]

كان حمودة باشا عاطفي المزاج سريع التأثر الى حد الافراط احيانا ،[5] من ذلك انه لما مات ابنه الوحيد محمد[6] تأسف كثيرا على فقده واشتد حزنه حتى انقطع عن مقابلة الناس وامتنع عن الطعام الى أن خاف عليه رجال دولته.[7] يورد ابن ابي الضياف وصفا للظروف التي جعلته يخرج عن حزنه القاتل ذاك بقوله :

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

٢ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٤ .

٣ـ انظر ادناه ، ص ٢٧٣ .

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

٥ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٩ سبتمبر/ايلول ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٦ـ توفي صبيا يوم ٨ جوان / حزيران ، ١٨٠٠ .

٧ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٣٠ جوان/حزيران ، ١٨٠٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ ، ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

"...فبعث وزيره يوسف صاحب الطابع [1] لعالم العصر وشيخ الشيوخ ابي الفلاح صالح الكواش، [2] وكان بليغ العبارة، حاضر الجواب، لا يبالي، وطلب منه وعظ الباى وتسليته، وأدخله اليه . ولما دخل استرجع وقال له : " سلم لحكم الله، فما بك ابتدا، ولا عليك اعتدى، فان صبرت فحبذا، الا فانطح ذا وزد ذا" وأشار الى الحائط، ثم قال له : "هل انت على يقين بان هذا الطفل لو عاش يكون فيه ما تؤمله؟" فقال : " لا "، فقال : " وما يدريك ان الله اكرمك بموته ؟ وفي الحديث الشريف : " ما من مصيبة الا وعند الله اعظم منها " ، فنشط حمودة باشا في الحين من عقال حزنه ، واسترجع واستغفر الله تعالى وطلب الطعام ." [3]

كان حمودة باشا أيام شبابه يميل الى الشهوات، [4] ويكثر من شرب الخمر كل ليلة . [5] وما ان اعتلى عرش البلاد ، وتيقن مغبة اصداره للاوامر وهو في حالة السكر، [6] حتى اقلع عن تلك الصفات البذيئة مرة واحدة وصار يعاقب كل من يشرب الخمر، [7] وهو من باب الشعور بالمسؤولية العامة والفطنة والرشاد .

١- انظر ادناه، ص ١١٠-١٢٥ .
٢- صالح الكواش : احد مشاهير علماء تونس(ت. ١٨٠٤) ، له ترجمة بابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٧، ص ٤٤ - ٤٦ .
٣- المصدر ذاته، ج٣ ، ص ٣٥ ؛ ذكرها السنوسي ايضا ، مسامرات الظريف، ج ١، ص ٣٩ .
٤- ابن سلامة ، العقد المنضد، ص ٦٧ .
٥- رسالة من هيركولي (D. Herculais) المبعوث الفرنسي فوق العادة بتونس سنة ١٧٩٥، الى حكومته ، تونس، ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .
٦- انظر ادناه ، ص ١٠٧ .
٧- فرانك ، وصف البلاد التونسية، ص ١٧ ، ٧١ ؛ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني "، المجلة التونسية، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٥ - ٤٦ .

عدا ما سبق يورد المؤرخون والرحالة عدة صفات اخرى لحمودة باشا نخص بالذكر منها : انه كان متجملا بطابع الرصانة والوقار ، وفي نفس الوقت كان ميالا بعض الشيء الى الزهو .[1] كان كاظما للغيظ صبورا متحكما في طبيعة غضبه .[2] فطنا شديد الحذر ، حتى انه كان اذا ذهب الى قصر نزهته بمنوبة[3] خارج العاصمة يكون مصحوبا بكوكبة من حرسه الخاص وهم مدججون بالسلاح . ليس هذا فقط بل كان لا يبقى احدا من الامراء في باردو لما يكون هو خارجه ، وياخذهم معه اينما ذهب. يصف القنصل الانجليزى تلك الاجراءات بانها " غريبة ولا يماثله فيها اى حاكم في العالم اجمع ." [4]

اشتهر حمودة باشا بمحافظته على كلمته ووفائه بعهوده ، وكم كان يغتاظ نتيجة اعطاء عهد ولكنه لا ينقضه ، وقد بلغ تمسكه بهذه الصفة الى حد الصفح عن بعض المخالفين . من ذلك مثلا انه حصلت حرب بحرية بين تسعة شقوف[5] تونسية والاسطول الجزائرى سنة ١٨١١ انهزم التونسيون اثناءها بسبب خيانة الرياس[6] للقبطان التونسي الذى استشهد في الواقعة . طلب اولائك الرياس الامان من الباى فاعطاهم اياه لعدم علمه بالخيانة. يصف صاحب العقد المنضد شعور الباى لما علم بأمر الخيانة بقوله : " ... فلما اتوا [الرياس] حلق الوادى [ميناء تونس العاصمة] سمع حمودة باشا انهم خانوا فاغتاظ الغيظ الشديد لامرين الاول الخيانة والثاني كونه امنهم

١- رسالة من دى روشي الى حكومته، تونس، ١٣ فيفرى / شباط ، ١٧٨١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٥٤ .

٣- منوبة : ضاحية من ضواحي تونس العاصمة ، انظر موقعها على خريطة تونس بالملحق رقم ١ من هذه الدراسة .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، ١٦ فيفرى / شباط ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ملف ٣/ ٧٧ .

٥- الشقف : نوع من السفن البحرية الحربية المتوسطة الحجم (لهجة تونسية) .

٦- الرياس : مفردها رايس ، وهي تحريف لكلمة رئيس ورؤساء ، والكلمة تستعمل حتى الان خاصة فيما يتعلق برؤساء السفن المتوسطة الحجم ، (لهجة تونسية) .

ولم يسعه ان ينقض عهده لان هذا اعظم عيب عند الملوك ...[1]

بالاضافة الى تلك الصفات كان حمودة يتصرف بكياسة ولطف ولكن بطريقة تظهر شعوره بالتفوق • كان انيسا وعذب المعاشره ، شديدا وضاربا ، قاهرا ، شديد التدين الى حد القسوة لكن حمايته للمسيحيين بتونس كانت مكفولة تماما •[2] كان ذكيا وبصيرا بالامور ، منتبها ،[3] ذا أنفة ونخوة ، جريءا ، جسورا هماما •[4]

عدا كل ما سبق كان ذلك الباى يميل الى التجارة ، محبا لاكتساب المال واختزانه •[5] يذكر الاب رينال صفات حمودة باشا التي كان يواخذه المشنعون بسببها وهي صفات تتعلق بحياته الخاصة : كونه تخلى عن حريمه وجواريه ليقضي معظم سهراته مع الظرفاء ، كونه تعود على تعاطي الخمر كل ليلة بافراط وفوضى • يجيب نفس المؤرخ على هاتين التهمتين بقوله : أما الصفة الاولى فهي صفة عامة توجد في البلدان الاسلامية حيث تعدد الزوجات مسموح ، وانما يسهر معهم لمجرد التسلية فقط • اما تهمة شرب الخمر فقد كانت تحصل بين الباى وندمائه ، وانه لم يظهر ولا مرة واحدة ، أمام الجمهور وهو سكران •[6] وعلى كل حال ، يضيف المؤرخ ذاته قائلا ، فان رئيس الدولة التونسية ، حمودة باشا ، كان يسير شؤون دولته وكأنه ليس لديه محظوظون قط ، ليس هذا فحسب ، بل كان يتصرف وكأنه اكثر الرجال عفة واستقامة في البلاد •[7]

١ـ ابن سلامة ، ص ٨٤ ، غير ان امان الباى ذاك لم يمنعه من نفي هؤلاء والتشهير بهم ، انظر ادناه ، ص ٤٣٢ تعليق رقم ٢ •

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، ١٦ فيفرى/شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

٣ـ S. Zemerli, "Une figure oubliée; Youssef saheb Et-Tabaa", R. T., no-21 (1935), pp. 41.
سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " •

٤ـ أوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٦ ـ ٣٧ •

٥ـ كانور وغرانشلن ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٥ •

٦ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٠ •

٧ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

انه لحرى بالملاحظة هنا أن نورد بعض المعلومات التي قد تبلور مقدار اهمية تينك التهمتين اللتين اثارهما المشنعون فبالنسبة للاولى ان الاعتقاد بانه كان يقضي اكثر سهراته مع الظرفاء كان نتيجة سوء فهم من المنتقدين ، ونتيجة عدم اطلاعهم الكافي على شؤون ذلك الباى ونشاطاته . لقد كان حمودة باشا كثير الحيوية متواصل النشاط ، همه الاكبر تنظيم ادارته ، وتعلقت همته بذلك الى درجة انه كان " يبيت في صراية الرجال " . ولهذا السبب ايضا منع وزيره يوسف صاحب الطابع من الزواج .[1] هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان المؤلف الذى ذكر التهمة استقى معلومات تقريره حوالي سنة ١٧٨٠ أى قبل ان يتولى حمودة باشا العرش بسنتين ، وعندها كان سن حمودة لا يتجاوز الواحدة والعشرين. اما بالنسبة للتهمة الثانية وهي الافراط في شرب الخمر كل ليلة ، فقد اقلع عنها بصفة نهائية في واقعة اصدار أمره بقتل بعض الجزائريين وهو في حالة السكر.[2] هذا وقد اكد عدد من المصادر على ان محاولة اغتيال حمودة باشا من قبل بعض مماليكه ليلة ٨-٩ فيفرى / شباط ١٧٩٢ ، كانت درسا شديدا لذلك الباى تخلى بعده عن العديد من صفات الشدة والقساوة والفظاظة .[3]

قبل ان ننهي حديثنا عن صفات حمودة باشا ، من المفيد ان نورد بعض اقوال وآراء وردت في ذكر أوصاف ذلك الباى . يصفه ابن ابي الضياف بقوله: "عماد البيت [الحسيني] ، وبيت القصيد ، وفريدة السلك ، المعدود من مفاخر هذا القطر ، ثاقب الفكر ، قوى الحزم ، صادق العزم ، ثابت الجنان ، ابي الضيم ... يغلب عقله هواه ، لا يانف من المراجعة ، يقيل العثرة ويعفو عن الزلة ، جماعا للمال ، متلافا له في اوقات الحاجة ، بعيدا عن السرف متجافيا عن دواعيه ... ، عظيم المهابة

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٩٧ ، انظر ادناه ، ص ١٨٦ .

٢- انظر اعلاه ، ص ٩٠ ، وادناه ، ١٠٧ .

٣- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٦-٢١٨ ؛ انظر ادناه ، ص ١١٦ .

في قلوب الناس ... طامح النفس الى قنن المعالي من اخلاق الرئاسة ، من غير اعجاب ولا جهل بمقدار نفسه ...»[١]

اما اوسكار فيصفه بانه كان متنور الراى مع حكمة طبيعية فيه ، زيادة على الخبرة النادرة التي اكتسبها في معرفة الناس والاشياء ، ويؤكد على ان جميع الاهواء تجد مكانا في قلبه .[٢] اما دى فلو فيذكر ان ذلك الباى كانت له كل الصفات التي يتميز بها امير مسلم عظيم .[٣] ويصف لوغران صفة الانصاف التي كان يتحلى بها حمودة باشا بكونها قليلة الوجود بل من اندر النادر لدى الامراء والحكام .[٤] اما بيرم التونسي الذى تولى المناصب العالية في عهد محمد الصادق باى (ح. ١٨٥٩-١٨٨٢) فيصف حمودة قائلا : «... وهو في الحقيقة اعقل فروع ذلك البيت الحسيني الذين استولوا على القطر .»[٥] وبالجملة كان ذلك الباى يتمتع بصفات وخصال تحتم الاعجاب والتقدير حتى من ألد اعدائه .[٦]

أهليتــــــه

من العوامل المؤثرة في تكوين سياسة حمودة باشا ، والتي تندرج تحت عامل شخصيته ، هو أهليته لمنصب باى تونس وجدارته في ادارة البلاد وحكمها .

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢ .

٢- اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٦ - ٣٧ .

٣- دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٤ .

٤- A.D. Legrand, La Tunisie: étude historique, Paris, Imprimerie J. Claye, 1873, p. 41.
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس .

٥- بيرم ، صفوة ، ج ٢ ، ص ٥ .

٦- زمرلي ، «يوسف صاحب الطابع» ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤١ .

ذكرنا سابقا ان الوريث الشرعي للولاية بعد علي باى لم يكن ابنه حمودة باشا بل ابن اخيه محمود ٠[1] ولكن نظرا لقدرة حمودة واهليته المتفوقة رضي محمود ان يتنازل عن العرش لصالح ابن عمه ٠ غير انه ما ان توفي حمودة وتولى بعده عثمان ، اخوه الضعيف ، حتى قام عليه محمود باى وقتله باعانة المماليك ، ثم قتل وشرد اكثر رجالات حمودة باشا الذين تولاهم عثمان باى بالعطف ٠ وحادثة تولي حمودة الحكم بالطريقة المذكورة آنفا حادثة فريدة في التاريخ التونسي الحديث ، وهي تدل بكل وضوح وتاكيد على قدرة ذلك الباى واهليته ٠[2]

بدا حمودة يمارس بعض شؤون السلطة منذ ان كان شابا صغيرا لا يتجاوز عمره السادسة عشرة ، وذلك بتوليه الحكم في القضايا المعروضة على محكمة الباى[3] منذ عام ١٧٧٤ ٠[4] وفي عام ١٧٧٧ تولى قيادة المحال كل سنة بنشاط ومقدرة ونجاح لم يسبقه اليها احد من اسلافه ، وظل متوليا عليها كل سنة الى ان تخلى عن ذلك سنة ١٨٠٧ ٠[5] وفي هذه السنة (١٧٧٧) ايضا تولى نيابة ابيه في مباشرة امور البلاد واحكامها ، غير ان الاوامر تصدر مختومة باسم والده ٠[6] واصبح

١- انظر اعلاه ، ص ٦٣ - ٦٤ ٠

٢- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٩٠ - ٢٩٣ ٠

٣- يعرف صاحب الاتحاف اختصاصات محكمة الباى هذه بقوله : " ٠٠٠ ولا يرفع لحضرة الباى الا ما تقصر عنه ايدى هؤلاء [العمال (القياد) ، شيخ الاسلام ، القضاة ، الاخبار ، مجلس التجارة ، امناء الفلاحة ، الداى ، كاهية دار الباشا ، آغة القصبة ، آغة العسكر] ٠" ثم يذكر المؤلف عدم تعلق حمودة بامور تلك المحكمة كثيرا " ٠٠٠ لانه يرى الامر وراء ذلك ، بخلاف من جاء بعده ، فان غالبهم يرون الجلوس بالمحكمة هو معنى الولاية وشعار الملك ٠٠٠ "

٤- تقرير غفل ، تونس ٢٦ ماى / ايار ١٨٠١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ب ٣ ، ٣٠٤ ٠

٥- رسالة من ديسبارون (A. D'Esparron) نائب القنصل وقائم باعمال القنصلية الفرنسية بتونس ١٧٨٤-١٧٨٧ الى حكومته ، تونس ١٠ افريل / نيسان ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٨ ؛ الاب رينال ، تقرير ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ، ج ٣ ، ص ١٩ ٠

٦- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ٠

يوقع مع أبيه على المعاهدات منذ سنة ١٧٨١.[١] وقد برزت مقدرته واهليته على حقيقتهما منذ ان تولى العرش سنة ١٧٨٢ ، وهذه الحقيقة ستظهر لنا جلية خلال فصول هذه الدراسة .

يظهر ان سكان تونس استطاعوا ان يقدروا مهارته اثناء السنوات الخمس التي قضاها هذا الباى وليا للعهد (١٧٧٧ - ١٧٨٢) ،فنراهم منذ سنة ١٧٨٢ يستقبلون عهده بالرضا والثناء .[٢] وكان موقف سكان تونس ذاك يزداد باطراد ، وما ان حلت سنة ١٨٠٠ حتى تعلق الناس به وكثر مدحهم له وثناؤهم عليه "... بالخير ،خصوصا على منابر المسلمين سدد الله امرنا وامره ."[٣] في سنة ١٨٠١ وصل تقرير الى وزارة الخارجية الفرنسية من تونس وهو التقرير الذى يشرح فيه كاتبه امكانيات غزو فرنسا لتلك البلاد ،وقد اكد هذا التقرير على ان حمودة باشا هو اقدر الحكام المسلمين في عصره وامهرهم .[٤] وفي السنة ذاتها اشار ماجرا الى ان باى تونس له من البداهة والبصيرة اكثر من أي شخص تعامل معه القنصل في حياته.[٥]

١- رسالة من دى روشي الى حكومته ،تونس، ٢٥ جوان / حزيران ، ١٧٨١، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص١٢٢ .

٢- الاب رينال ، " تقرير " ،المجلة التونسية، عدد ٣-٤(١٩٤٨) ،ص١٤٩-١٥٠ ؛ فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص٧٠ .

٣- التنبكتاوى ، هتك الستر ،ص ١١ .

٤- تقرير غفل ،تونس ، ٢٦ ماى/ايار ، ١٨٠١،خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ب٣ ، ٣٠٤ .

٥- رسالة من القنصل البريطاني الى حكومته ، تونس ، ٤ ديسمبر/كانون الاول ، ١٨٠١ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٥/ ٧٧.

هذا ويظهر ان الطبيب الخاص لهذا الباى كان معجبا بحمودة ومقدرته ، فيشرح ذلك باسهاب قائلا عنه ان خبرته الطويلة بالاضافة الى ذكائه وحكمته مكنته من فهم طباع وخاصيات كل من يقابله بسهوله محيرة • ويضيف الكاتب ان هذه الاهلية كانت تنعكس في جميع محادثاته ومفاوضاته ، فتجده يفكر اثناءها بطريقة دقيقة وأسلوب محكم الضبط ، مع ايجاز وشمول والحاح • كان يقبض على النقطة الرئيسية لمشكل ما بسرعة ادراك وفهم ومهارة لا مثيل لها ، ثم يصدر رأيه في القضية بكل بصيرة وحكمة •[1] واذا زدنا على ذلك معرفته الدقيقة والكاملة لكل جزئيات الادارة التونسية ، ولكل ما له اعتبار ومكانة في البلاد ،[2] أمكننا ان نتصور أهلية ذلك الباى ، الذى بنت امته عليه الآمال الكبيرة •[3]

الى جانب ما سبق ظهرت مقدرة حمودة جلية ايضا في سياسته الخارجية• وان كنا خصصنا في هذه الدراسة فصلا كاملا سنبحث فيه تلك السياسة ونبين مقدرته فيها ،[4] فانه يجدر هنا ان نشير فقط الى الكتاب والمؤرخين الذين شهدوا بأهليته في علاقاته الخارجية • يصفه شاتوبريان الذى زار تونس سنة ١٨٠٧ بانه اكثر الحكام الشرقيين ادراكا وحذقا في فهم سياسات الدول الاوربية•[5] واعترف نابليون بونابرت لحمودة باشا ، في مناسبات عديدة ، بمهارته الفائقة في تسيير شؤون سياسة تونس الخارجية •[6] تلك الشهادة نفسها شهد بها

١ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠ •

٢ـ المصدر ذاته ، ص ٥٩ •

٣ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٠ •

٤ـ انظر ادناه ، ص ٣٦٥ ـ ٤٥٨ •

٥ـ شاتوبريان ، رحلة ، ج٢ ، ص ٢٠٩ ، انظر اعلاه ، ص ٨٢ـ٨٣•

٦ـ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٨ ، انظر ادناه ، ص ٨٢ـ٨٣•

الطبيب فرانك في حمودة باشا .[١]

ولعلنا لا نكون استبقنا الاحداث ،وقررنا أمرا قبل أوانه ، اذا وافقنا الباجي المسعودى عندما يصف مكانة الباى وأهليته بقول : " ... فكان [حمودة باشا] في سلسلة الجيد الحسيني واسطة عقد ودرة يتيمة لاتسام بنقد ".[٢] وكذلك يستحق كنية " اخي السياسة " التي اطلقها عليه موئرخ تونس الشهير ابن ابي الضياف ،[٣] وخاصة لقب " العظيم " الذى اختصته به بلاده دون غيره .[٤]

ب . رجال حمودة باشا وأثرهم ومدى اعتماده عليهم

قبل ان نبحث هذا الموضوع يجدر بنا ان نذكر بما يلي : لم تكن بتونس، في أول العهد العثماني ،هيئة " نظامية " للخطط الكبيرة والصغيرة . وانما كانت الوظائف العالية منحصرة في الداى والباى والاغا الذين كان ينتخبهم رجال الديوان ، وبقية كبراء الدولة هم من كانوا يسمون اذ ذاك برجال الديوان .[٥] ولما آلت الدولة للعائلة الحسينية تم اخضاع الداى [illegible] حيث ادخل تحت نفوذ موءسس الدولة الحسينية وسيادته . اما بالنسبة للديوان فقد بقى نظامه على هيئته من جهة تشكيل اعضائه الى ان آلت الدولة الحسينية الى رابع باياتها علي بن حسين

١- فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص٧٠ ،ويضيف هذا المؤلف بالصفحة ذاتها قائلا : ان حمودة باشا وان كان يحكم بلاده بغير القواعد والاسس التي يحكم بها الرجال العظام دولهم في اوروبا ، وان كان الباى غريبا ايضا عن الافكار النبيلة التي تميز النبوغ المتفوق في اوروبا ،وكذلك لا يعرف المبادىء التي تحكم على اساسها الامم المتمدنة ،فانه يجب الا ننكر، بل نعترف بانه كان يدير بلاده بحذق ومهارة كافيين بالنسبة لتونس ،وذلك سواء في ادارة الدولة داخليا اوفي ادارة سياستها خارجيا .

٢- الخلاصة النقية ،ص ١٣٤ .

٣- اتحاف ،ج ٣ ،ص ٩٤ .

٤- هيجون ،شعارات بايات تونس ،ص ٦ .

٥- محمد بن الخوجة ، " الوزراء الصدور بالمملكة التونسية " ،الرزنامة التونسية ،ج ٢ (١٩٠٢) ،ص ٥٠ - ٥١ .

باى والد حمودة باشا ؛ وهو الذى احدث خطة " الوزارة الاولى "[١]، ومتقلدها يطلق عليه " الوزير الاول " .[٢] وجانب ذلك الوزير الواسع الصلاحيات ، كما سيتبين لنا من خلال التراجم الاتية ، كان يوجد هناك عدة وزراء آخرين أدنى مرتبة منه واقل نفوذا حتى ان بعض هؤلاء كان يطلق عليهم لقب وزير بصفة تشريفاتية لا عملية .[٣]

هذا ومما تجدر ملاحظته ان تقسيمنا للرجال ذوى التأثير في تكوين وتنفيذ سياسة حمودة باشا الى ثلاثة انواع: وزراء وقواد جيش ومستشارين انما هو من باب الترتيب والتوضيح في الغالب . وذلك لان هذه الخطط كانت في الواقع خططا متداخلة ومتشابكة . فقد تولى بعض وزراء حمودة ، في وقت قيامهم بمهام الوزارة ، قيادة الجيش مرات عديدة ، وكذلك امر اسداء النصيحة للباى ، وكانوا اقرب مستشاريه .[٤] وما اشرنا اليه في شأن الوزراء يصدق على قواد الجيش ايضا ؛ وهو ما سيظهر اثناء تعرضنا لاهم اعمال هؤلاء الرجال . وكذلك سيتبين لنا واضحا مدى اعتماد حمودة باشا على رجاله القديرين في تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا وان ذكر اهم اعمال ومآثر هؤلاء الرجال هو اعتبارا من انى اعتقد ان هذه المآثر بكونها اعمالا هامة هي عوامل مؤثرة في سياسة حمودة باشا .

١- بيان من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢- من الكتاب من كان يطلق على صاحب هذه الوظيفة لقب "الوزير الصدر " ، انظر ابن الخوجة " الوزراء الصدور بالمملكة التونسية " ، الرزنامة التونسية ، ج ٢ (١٩٠٢) ، ص ٥٠ - ٥١ .

٣- تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

١ . وزراؤه الاول

عندما عقدت البيعة لحمودة باشا سنة ١٧٨٢ رأى ذلك الباى من حسن التدبير ابقاء معظم رجال الدولة في عهد ابيه بالخطط التي كانوا يشغلونها . ويذكر ابن ابي الضياف ان حمودة اقر وزراء ابيه في مراتبهم ، وكذلك فعل مع اكثر رجال دولته.[1]
وقد صدق معظم هؤلاء في عهدهم لما وعدوا ان يكونوا له كما كانوا لابيه خدمة واخلاصا . غير ان حمودة باشا ، رغبة في التجديد والاصلاح ادخل تحويرات جوهرية في مختلف قطاعات الادارة العامة ، ادت ، فيما بعد، الى تجميد نفوذ اواعفاء بعض العناصر كما سياتي ، ومن هؤلاء بعض الوزراء .
فيما يلي سنذكر اهم وزراء حمودة باشا الذين كان لهم تاثيرعلى سياسته ودور كبير في انجاز تلك السياسة ، وبالتالي سنتعرف على قيمتهم في الدولة ونتبين مدى اعتماده عليهم .
أولا . مصطفى خوجة :[2] لقد سبق ان ذكرنا في هذه الدراسة[3] ان أصل هذا الوزير من بلاد القرج جاء من اسطنبول مملوكا لاحد البايات . سكن بالقرب من جامع الزيتونة حيث تعلم بعض مبادئ العلوم ، وكان يسد رمقه مما كان يحصله من صناعة تجليد الكتب . وبقى على حاله تلك الى ان اصطفاه علي باى ، والد حمودة ، لخدمته . ولما تحققت أمانة الرجل ونجابته اولاه خطة خزندار،[4] وقد كان مصطفى خوجة " حارس شباب " حمودة وأحد مربيه .[5]

١- اتحاف ، ج ٣ ، ص ١١ .

٢- خوجة : كلمة تركية ؛ وهي صفة تشريفية فخرية تطلق عادة على كباررجالات الادارة والحكم ، وتطلق ايضا على الكتاب الملحقين بالوزارات في الدولة . وللكلمة معان اخرى عديدة ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٩٦ ، تعليق رقم ١ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٢٤ ، تعليق رقم ١ ؛ انظر ايضا رد هاوس ، قاموس ، مادة " خوجا " .

٣- انظر اعلاه ، ص ٧٩-٨٠ .

٤- انظرادناه ، ص ١٢١ تعليق رقم ٢ .

٥- انظر اعلاه ، ص ٨٠ .

في آواخر أيام علي باشا (ت٠ ١٧٨٢) طلب هذا الوزير من الباى ان يسرحه لاداء فريضة الحج فسمح له بذلك بعد الحاح • وعندما رجع اعلم ، وهو في ميناء حلق الواد ، بخبر وفاة سيده علي باى ، فقال متشائما : "لو بلغني نعيه ، وانا بالاسكندرية ماقدمت حتى انظر الحال" •[1] غير ان تخوفات الوزير من تولى حمودة باشا عرش تونس كانت في غير محلها ، فقد تيمن حمودة بقدوم مربيه واسند اليه معظم الخطط التي كانت موكلة لعهدته في عهد الباى الراحل • وبذلك رجع للوزير مقامه الاول في الدولة ورجع له نفوذه وسلطته ومكانته كما كانت سابقا •[2]

بهذا الاجراء ضمن حمودة باشا ، وهو في اول عهده ، ولاء وخبرة اول وزير عرفته تونس في ذلك العهد والذى اصبح فيما بعد من اشهر مشاهير الوزراء التونسيين • ويذكر مارسال انه لم يكن للباى في تلك الفترة احسن من ذلك الاختيار ، حيث انه وجد في وزير ابيه وصهره ومربيه صفات الرجل الذى يحتاجه • فقد كان الرجل الادارى الكفء والمسؤول الاهل والوزير النشيط الامين المتفاني في خدمة سيده • ليس هذا فحسب بل وجد في الباى الشخص الجدير بكل الثقة والائتمان ، فاعتمد عليه وتأثر به في تسطير سياسته •[3] ان ثقة حمودة في وزيره واختياره له لم يكونا قط نتيجة عاطفة أو عمل ارتجال ، جريا على ما كان حادثا في عهد والده ، بل كان عن تجربة ومعرفة وترو • لقد كان حمودة اكثر الناس اطلاعا على مقدرة مصطفى لخوجة في شؤون الحكم من جهة ، واعلمهم بشدة افتقاره وحاجته اليه من جهة ثانية • يدلنا على ذلك امران : الامر الاول هو فضل مصطفى خوجة في تخطيط امر تولي حمودة باشا العرش والتمهيد له بعد ابيه ، وهو امر يخالف

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٣٨-٣٩ •

٢- رسالة من دى روشي الى حكومته ، تونس ، ٢٠ جوان / حزيران ١٧٨٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٢٥ •

٣- موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ •

قانون الوراثة لدى الحكام الحسينيين كما نعلم . وقد نجح الوزير في مشروعه ذاك على الرغم من حصول التولية في وقت تغيبه في الحج .[١] الامر الثاني هو اكتشاف حمودة ، وهو في اول عهده مبلغ صعوبة ادارة دفة الحكم بدون ذلك الوزير ، وقد حصل ذلك اثناء قيام مصطفى خوجة بفريضة حجه .[٢]

اعترف حمودة بفضل وزيره في ادارة شؤون الدولة بحكمة واهلية واراد زيادة تقريبه ، فاجاب طلب وزيره ، وزوجه من اخته الصغرى بعد ان توفيت الاخت الكبرى ، زوجة الوزير الاولى .[٣] وقد نتج عن هذا الزواج الميمون ازدياد حظوة مصطفى خوجة وتضاعف نفوذه لدى سيده على الرغم من ان الباى ماطل في عقده ، لاسباب نجهلها ، من سنة ١٧٨١ ، أى قبل ان يتولى عرش تونس بسنة ، الى شهر جوان / حزيران من سنة ١٧٨٦ .[٤]

زودتنا الوثائق والمعلومات المتوفرة لدينا بمادة كافية لنكون فكرة صحيحة عن اهمية هذا الوزير وكفاءته من ناحية ، والدور الذى لعبه في مختلف نشاطات الدولة من ناحية ثانية .

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من دى روشي الى حكومته ، تونس ، ١٦ افريل/نيسان ، ١٧٨٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- انظر رسالة من دى روشي الى حكومته ، تونس ، ١٣ فيفرى/ شباط ، ١٧٨١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١١٦-١١٧ ؛ رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ١٣ جوان/ حزيران ، ١٧٨٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥٦ ؛ ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٧ .

يؤكد قنصل فرنسا ان حمودة باشا منذ ان كان وليا للعهد ومشاركا لابيه في ادارة شؤون الدولة (١٧٧٧-١٧٨٢) وكان يحيل الامور الهامة على الوزير مصطفى خوجة لينظر فيها ويبت في امرها .[١] اما قنصل بريطانيا فيذكر سنة ١٧٩٠ انه مقتنع تمام الاقتناع بان ذلك الوزير هو اعظم رجل واكبر مصلح بتونس، وانه في مدة الثلاثين سنة التي قضاها في الادارة تقدمت البلاد التونسية خطوات كبيرة في طريق التمدن والتقدم . هذا مع ازدياد ثروة البلاد بصورة ليس لها مثيل في جميع فترات تاريخ تونس في العهد العثماني .[٢] وفي نفس الرسالة يقول القنصل ايضا ان مصطفى خوجة هو ابرز شخص في تاريخ تونس ،انجز اعماله بتفوق واستقامة ونزاهة ، كل ذلك مع سلاسة واعتدال يعز وجودهما في مثل " هذه الشعوب " . ويؤكد الرحالة الانجليزى مجيل حكمة ذلك الوزير ورصانته وتحكيمه الدائم للعقل دون العاطفة في الشؤون العامة . وكذلك يذكر فضله على امن البلاد التونسية وازدهارها .[٣] اما ستانلي فانه لم يخف اعجابه بالوزير فيذكر صفاته مفصلة ،ويطيل الحديث عن ذكائه المفرط الذى ينعته بكونه " فوق مستويات ذكاء المسلمين قاطبة " .[٤]

اعتمد حمودة باشا على براعة هذا الوزير وخبرته ،واوكل اليه تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية للدولة وهو امر تشمله خطة الوزير الاول .[٥] وكان عليه واجب اسداء النصيحة للباى في كل امر يعرض على هذا ،هذا مع العلم انه في جميع

١- رسالة من دى روشي الى حكومته ،تونس ، ١٣ فيفرى/ شباط ، ١٧٨١ ، بلانتي، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١١٦ - ١١٧ ،انظر مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ .

٣- رحلة ،ص ١٨ ، ٢٤ .

٤- مشاهدات في مدينة تونس،ص ١٧ .

٥- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ،تونس ، ٢٦ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨١٥ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٦/ ٧٧ .

الحالات تقريبا ،[١] لا ينفذ الا ما يؤمر به ،وان كان تأثيره على الباى كبيرا .[٢]

أبرز الاعمال التي اسندها حمودة باشا الى هذا الوزير ونجح في تنفيذها وعدت له مفاخر ،بالاضافة الى نصائحه القيمة ،ابرز تلك الاعمال هي ما سنوجز ذكرها فيما يلي . وهدفنا من وراء ذكرها اظهار تأثير ذلك الوزير في سياسة الباى ومبلغ اعتماد هذا على وزيره في تنفيذ السياسة المقرر اتباعها . وسنورد هذه الوقائع مرتبة على حسب تسلسلها التاريخي .

١. من أعمال مصطفى خوجة اهتمامه بفرنسا وعمله الدائم على خدمة مصالحها في تونس بتقديمها على مصالح جميع الدول الاوروبية الاخرى . انتهج الوزير هذه السياسة منذ عهد والد حمودة ، ولما تولى هذا الاخير كرس تلك السياسة وايدها . وقد اعترف وزير خارجية فرنسا منذ سنة ١٧٧٩ بفضل ذلك الوزير على الامة الفرنسية ،بل بعث له رسالة يعرب له فيها عن شكره وامتنانه

١ـ نستثني من شبه التعميم هذا بعض الوقائع التي تصرف فيها الوزير خلافا لاوامر سيده . مع ملاحظة ان ذلك التصرف كان يرمي من ورائه الى خدمة سيده بما هو افضل واكمل ، وقد اعترف له الباى فيما بعد بفضل تريثه في تنفيذ تلك الاوامر ، رسالة من حمودة باشا الى ملك بريطانيا ، تونس٤ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٣ ،خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/٧٧ ، انظر ايضا مجيل ،رحلة ،ص ١٨ ،انظر احدى تلك الوقائع التي تصرف فيها الوزير خلافا لاوامر سيده ادناه ، ص ١٠٧ .

٢ـ رسالة حمودة باشا الى ملك بريطانيا المذكورة اعلاه ذاتها .

لعطفه الدائم على الفرنسيين . وفي الرسالة ذاتها يؤكد الوزير الفرنسي آمال الدولة الفرنسية ،المبنية على استمرار عطف مصطفى خوجه ومحبته ،في توطيد علاقات المودة بين الدولتين .(١) ومن الملاحظ ان تلك السياسة تاكدت مرات عديدة من قبل الوزير التونسي الامر الذى جعل الحكومة الفرنسية من طرفها ايضا تكرر امتنانها وتؤكد اعترافها له بالجميل والفضل ،كلما ازداد تمكين العلاقات بين الطرفيين المعنيين .(٢) وقد بدا اتجاه الميل الى فرنسا وتمييزها

١- رسالة من وزير خارجية فرنسا الى الوزير الاول مصطفى خوجة ، باريس، ٢٢ نوفمبر / تشرين الثاني ١٧٧٩، ، بلانتي ،مراسلات بايات تونس،ج ٣ ،ص ١٠٥ .

٢- انظر على سبيل المثال لا الحصر : رسالة من دى روشي الى حكومته ،تونس ، ٢٥ جوان / حزيران ١٧٨١، ، المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ١٢٢ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٥ ستبتمبر/ايلول ١٧٨٢، ،المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ١٢٦ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته تونس، ٨ مارس / اذار ١٧٨٤، ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١٣٦ ؛رسالة من مصطفى خوجة الى وزير خارجية فرنسا ،التاريخ ذاته والمصدر والصفحة ذاتها ،رسالة من دى شوتاناف (P. Dechateauneuf قنصل فرنسا بتونس من سنة ١٧٨٧ الى سنة ١٧٩٢ الى حكومته ، تونس ، ١٥ ديسمبر/ كانون الاول، ١٧٨٨ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١٨٠ ؛رسالة من وزير خارجية فرنسا الى دوفواز ،باريس ، ٢٤ اكتوبر / تشرين الاول ١٧٩١، ،المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ٢٠١ ،ص ٢٠٢ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ،تونس، ١٦ جوان / حزيران ١٨٠٠، ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٤٠٨ ؛رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٧ ديسمبر / كانون الاول ١٨٠٠، ، المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ وهي الرسالة التي يعلم فيها القنصل حكومته بوفاة الوزير مصطفى خوجة .

على غيرها من الدول يزداد قوة وتمكنا من السياسة الخارجية التونسية منذ ذلك الوقت .

٢. الامر الثاني الذى انجزه مصطفى خوجه هو نجاحه في تطبيق سياسة احترام الاجانب الاوروبيين المقيمين بتونس وضمان امنهم وحفظ مصالحهم ، وخاصة التجارية منها . وهي سياسة رجعت على تونس بالفوائد الجمة .(١) والوثائق المتوفرة لدينا تشرح مدى امتنان قنصلي بريطانيا وفرنسا بانتهاج الحكومة التونسية لتلك السياسة المثمرة ، واهميتها على الصعيدين السياسي والتجاري بالخصوص .(٢) ويظهر ان معاملة الاجانب على تلك الاسس بلغت درجة من النجاح جعلت القنصلين المذكورين لا يخفيان ، منذ سنة ١٧٩٠ ، شعورهما بالخوف من توقف العمل بتلك السياسة ، وذلك بسبب وفاة الوزير او اعفائه من منصبه .(٣) وهو المسؤول الوحيد الذى يثق فيه الاوروبيون المقيمون بتونس ،(٤) ويعتبرونه ، بسبب اتزانه وتسامحه الديني ، مصدر حماية لهم وحصانة لمصالحهم في تلك البلاد .(٥)

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٧ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ .

٣- المصدران والوثيقتان ذاتهما ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦/ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣ / ٧٧ .

٥- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٠٣ من مآثر هذا الوزير ايضا تصرفه الحكيم اثناء واقعة لو نفذت اوامر الباى فيها لكانت جرت البلاد الى ما لا يحمد عقباه ٠ ومجمل تلك الحادثة هو ما يلي : حدث ان حمودة باشا ،مرة وهو في اول عهده بالحكم ، ثمل وسمع قهقهة جماعة سكارى من جند الترك الجزائريين في ساحة قصره ٠ اعتبر الباى تلك الظاهرة اهانة له فلم يحتملها ،وامر بقتلهم جميعا على التو٠ ولكن وزيره الحكيم الرصين كان أعلم الناس بمغبة انجاز ذلك الامر وبالكوارث التي كانت ستحل بمخدومه وبالبلاد التونسية بسببه ، فلم ينفذه ٠ وما ان صحا الباى من سكره حتى استفسر بفزع وهلع عما آل اليه جماعة جند الترك وعندما طمأنه وزيره بانه تريث في التنفيذ اعترف له الباى بالفضل والحكمة وحسن التدبير ٠ وقد اثرت تلك الحادثة في الباى وكانت له درسا اصلاحيا ، فعدل نهائيا من يومها عن شرب الخمر ،[1] ندما على تصرفه الذى كان سينتج عنه كارثة محققة ،في وقت كانت العلاقات التونسية الجزائرية على اسوء ما تكون عليه علاقات بين دولتين ٠ [2]

٠٤ ومن الحوادث التي تدل على مقدار اهلية ذلك الوزير والثقة الكبيرة التي يتمتع بها لدى الباى حادثة استبقائه نائبا عن الباى بالعاصمة ٠ وذلك انه في سنة ١٧٨٤ خرج حمودة باشا بالمحلة الى داخل البلاد لسببين هامين : اولا ليفرض هيبته على باى مدينة قسنطينة الجزائرية ويلزمه باحترام سيادة باى تونس واستقلاله ،وذلك عندما طلب باى قسنطينة من حمودة دفع مبلغ كبير من المال بدون اى حق او موجب.والسبب الثاني هو استيفاء الجباية من مختلف جهات البلاد ٠ [3] نظراً لدقة الظروف التي خرج فيها وخطورة

١- انظر اعلاه ،ص ٩٠ ، ٩٣ ٠
٢- مجيل ،رحلة ،ص ١٨.
٣- رسالة من ديسبارون الى حكومته ،تونس،٢٣ فيفرى / شباط ، ١٧٨٤ ،بلانتي، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١٣٦ ٠

الخلاف مع باى قسنطينة اصطحب حمودة معه خمس بايات كان سن كل منهم ورتبته في العائلة الحسينية تؤهله للقيام بانقلاب على حمودة اثناء تغيبه عن العاصمة.(١) ولهذا اطلق على هذه المحلة " محلة الخمس بايات " .(٢)

تلك هي الاجراءات الحازمة التي اتخذها حمودة قبل مغادرة عاصمته . اما الشخص الذى وجد فيه الجدارة ليستخلفه على الحاضرة فقد كان وزيره الوفي القدير مصطفى خوجة ، الذى باشر امور الدولة في تلك الاثناء بسياسة ولين . وعلى الرغم من التفويض الذى صدر له ، ومن قيامه خليفة للباى على البلاد لم يتجاوز الوزير سلطته العادية . وكان ، كما يذكر صاحب الاتحاف، " ...يوقف أشياء [مما يعرض عليه من الامور] لقدوم مخدومه ويكاتبه في اخرى مستشيرا ، ويفصل الخفيف وما ينشأ عن توقفه ضرر." (٣)

٥٥ من مآثر ذلك الوزير ايضا تنفيذه بنجاح لاوامر الباى اثناء حملة تونس على طرابلس الغرب سنة ١٧٩٤ . فقد تولى مصطفى خوجة قيادة جيش الحملة بشارات باى مطلق التصرف . وذلك بعد ان كان مقررا ان يقود الباى جيشه بنفسه . وبفضل ذلك الوزير القائد امتازت تلك الحملة العسكرية الهامة بحسن التخطيط ودقة التنظيم وروعة الانضباط .(٤) وبعد انجاز المهمة رجع الى تونس واعلام النصر تخفق فوق رأسه . كان ذلك على الرغم من كبر سن الوزير ومرضه ، حتى انه لما عينه الباى على راس الجيش لاحظ له حمودة قضية مرضه ، فكان

١ـ المصدر والوثيقة ذاتهما .

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢ .

٣ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٣ .

٤ـ انظر ادناه ، ص ٤٠٠ـ٤٠١ .

جواب مصطفى خوجة : " اني باعانة الله حاضر لكل ما تريد ولو اكون على محفة ، والموت بالاجل وان حضر فلا اشرف عندى من الموت في خدمتك "[١] وتعتبر هذه الحرب من اهم الانجازات التي تميزت بها سياسة حمودة باشا الخارجية.

٦. بجانب الاعمال والتاثيرات التي يرجع الفضل في انجازها لمصطفى خوجة والتي سبق ذكرها ، كان الباى يكلف وزيره بعدة مهام اخرى ذات اهمية خاصة ، منها تعيينه لتولى بيع القطعان الوافرة من البقر الذى كان يبعث به داى الجزائر ليباع في البلاد التونسية قصرا . وهي مهمة شائكة تقتضي الكثير من الحكمة والسياسة ، وذلك لارتباطها المباشر بالعلاقات المضطربة والمعقدة مع الجزائر .[٢] وقد كانت هذه العملية تتكرر مرة كل سنة ، وانجاز البيع كان يدوم اشهراً عديدة .[٣]

على الرغم من نجاح مصطفى خوجة في التاثير في سياسة سيده وفي انجازها وعلى الرغم من مقدرة الوزير وتفانيه في خدمة الباى ، لم يرحمودة بدا من التخلي عنه تدريجيا . بدأ سوء التفاهم يدب بين حمودة ووزيره في اواخر صائفة سنة ١٧٨٦ .[٤] ثم استمر الخلاف في تصاعد ونفوذ الوزير في نقصان الى ان بلغ مركز الوزير نقطة من التدني افصح عندها عن استعداده للتخلي عن جميع

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٤

٢- خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٩١ ، ص ٤ .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤- رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ١ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

نشاطاته الرسمية ، وذلك سنة ١٧٨٩ .[١] وبلغ الخلاف بين حمودة ووزيره درجة العلنية بحضور قنصل فرنسا سنة ١٧٩٤ .[٢] ومع كل ذلك لم يقله الباى من منصبه الى ان توفي عن سن متقدمة يوم ١١ اكتوبر/ تشرين الاول سنة ١٨٠٠ . وقد شرفه الباى باقامة مأتم عظيم له يشبه مأتم علي باى والده، وذلك اكراما له واعترافا بمكانته وفضله .[٣] وبوفاة مصطفى خوجة تقلد خطة الوزارة الاولى يوسف صاحب الطابع ، المنافس الاول للوزير المتوفي .

ثانيا : يوسف خوجة : اصله من البغدان[٤] جلب من اسطنبول وهو مملوك صغير الى تونس ،وذلك بعد ان اشتراه بكار الجلولي احد كبار تجار تونس وقايد مدينة صفاقس في ذلك العهد ، اقام يوسف بتلك المدينة ردحا من الزمن تعلم اثناءه لغة اهل البلاد واخلاقهم وعاداتهم . ولما راى فيه

١- رسالة من دي شاتوناف الى حكومته ، تونس ، ٤ ماى / ايار ، ١٧٨٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اوت / اب ، ١٧٨٩ ، المصدر والصفحة ذاتهما ؛ ~~رسالة من دوفواز~~

رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٧ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤١٨ ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٩ اوت/ آب ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٤ جوان / حزيران ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٧ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤١٨ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل/ نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ والبغدان هو الاسم التركي لولاية Moldavia العثمانية ؛ جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٦٨ ، تعليق رقم ٤ . فيما يتعلق باصل هذا الوزير ايضا الاتحاف ، ج ٧ ، ص ٨٩ .

سيده ملامح الذكاء والاخلاص قدمه هدية لحمودة ،عندما كان هذا وليا للعهد [١]
وبعد التعرف والامتحان استنجبه حمودة وساله يوما " هل تحسن الطبع ؟ " ،
وعندما اجابه المملوك يوسف بالايجاب اجلسه عنده وقال له : " مهما اتت
المكاتيب ،تقدم لطبعها " . [٢] ومن يومئذ لقب صاحبنا بيوسف "صاحب الطابع " ،
وبه اصبحت تلك الخطة ذات شأن كبير [٣] واستمرت تلك الخطة في صعود
حتى لما تولى حمودة باشا العرش سنة ١٧٨٢ بلغت مكانة الوزارة الاولى . [٤] وذلك
يرجع لرتبة صاحب الطابع ونفوذه شخصيا اما الوزارة الاولى فهي الاعلى اثرا .
وفي تلك الاثناء كان الباى يغدق على صاحب الطابع بالترقيات الاخرى حتى
اجتاز جميع الرتب العسكرية بعجلة فائقة . [٥]

١- انظر على سبيل المثال لا الحصر خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٣٣ ، كرتون رقم ٣ ، ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج٧ ،ص ٩٠ . وتجدر الاشارة هنا الى ان كلا من قنصل بريطانيا والرحالة الانجليزى مجيل انفرد بذكر ان يوسف صاحب الطابع كان مملوكا لمالكين اخرين غير بكار الجلولي الذى تتفق عليه المصادر الاخرى . فاحدهما ينسبه للوزير مصطفى خوجة ، وهو الذى اهداه الى الباى ، رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس، ٢ افريل / نيسان ١٧٩٠، ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ ، اما الثاني فينسبه الى احد اكابر الدولة ويعرفه بـ " قايد الصفرة " ،وهذا اهداه الى الباى ،" رحلة ،ص ٦٦ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٧ ،ص ٩٠ .

٣- المصدر والصفحة ذاتهما .

٤- خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٣٣ ، كرتون رقم ٣ . في النصف الاول من القرن التاسع عشر صارت خطة " صاحب الطابع " اعلى الخطط السياسية والعسكرية في الدولة التونسية . يعرفها بيرم بقوله : " فاولها الخطط السياسية والعسكرية صاحب الطابع ،يعني حافظ ختم الوالي ومأموريته ختم المكاتيب ومباشرة المتوظفين فيما لم يباشره الوالي ويكون هو الواسطة بينهما " ، صفوة ،ج ٢ ،ص ٢ .

٥- فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص ٦٦ .

كان يوسف صاحب الطابع يمثل فريق الشباب المتحمس النشيط مقابل مصطفى خوجة الذى يمكننا أن نطلق عليه صفة المحافظ في ادارته وسياسته . وببداية تقلص سلطة الوزير مصطفى وقع تدعيم نفوذ صاحب الطابع . ونتيجة هذا الوضع كانت الطريق ممهدة امام يوسف ، فما ان توفي الوزير الشيخ حتى قلد صاحب الطابع الخطة " ولقب بالوزير الاول " .(١)

كانت ليوسف صاحب الطابع خصائص شخصية هامة واسلوب في الحكم والادارة متميز . من ذلك حبه للنظام والتنسيق وحسن الترتيب ، وهي خصائص مهدت له سبل النجاح في اعماله . ومنها ادبه ، واعتداله الذى لا يخلو من الصلابة ، وكذلك فطنته وحنكته . كل هذا جعل الرجل يحرز على مكانة وعطف مرموقين لدى جميع من كانت اعمالهم او مصالحهم تجعلهم يتصلون به .(٢) وبالطريقة والنجاح ذاتهما ، مع اتفاق وتآلف مع الباى ، كان يوسف يدير شؤون الدولة التونسية ويجرى المفاوضات الدبلوماسية مع الدول الخارجية . وكانت اراء الوزير ونصائحه تجد القبول لدى الباى لانها مستوحاة من اهتمامه بمصلحة الدولة في الاعتبار الاول .(٣)

من تلك الاسس ومن ذلك الرصيد من الكفاءة والاخلاص كان صاحب الطابع يستمد قوة الحكم والمناقشة وابلاغ رايه بالحاح الى الباى . وعلى الرغم من ان حمودة باشا في استشارته لرجالات دولته كان اشبه بملوك القانون منه بملوك

١- رسالة من تاليراند (Ch. Talleyrand) وزير خارجية فرنسا (ت. ١٨٣٨) الى الوزير الاول يوسف خوجة صاحب الطابع ، باريس ، ٩ ديسمبر/كانون الاول ، ١٨٠١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٣-٤٤ ؛ ويذكر زمرلي ايضا أن في سنة ١٧٩٢ بدا صاحب الطابع ممارسة الحكم ؛ المصدر ذاته ، ص ٤١ .

٢- زمرلي ، المصدر ذاته ، ص ٤٣-٤٤ .

٣- المصدر والصفحات ذاتها .

الاطلاق ،[١] فقد عانى الكثير من وزيره هذا مناقشاته وردوده . حتى انه كان يقول له : " يا يوسف انك لا تعيش مع غيري نصف سنة "،[٢] وذلك " كناية عن شدته [شدة الوزير] ، وانه لا يتحمله سواه ".[٣] وقد صدق حمودة باشا في قولته تلك.[٤] على ان صراحة ذلك الوزير واخلاصه مكناه من الاستحواذ على حب مخدومه وتقديره غير المحدودين .[٥] وبذلك اصبح حمودة يستشير صاحب الطابع في اغلب الامور ؛[٦] بل يلح على القنصل الفرنسي في وجوب اعتبار يوسف كابن للباي .[٧] يذكر صاحب الاتحاف علو شان ذلك الوزير لدى الباي ومكانته عنده بقوله:

"... وبالجملة فاخبار هذا الرجل تملا الصحف ، ومكانته عند مخدومه مكينة ، وله فيه المحبة الصافية والخلة الوافية ، وهو عيبة سره وسمير نجوته ، وموضع شكواه وحسن امانته ، لا يستطيب العيش بدونه ...".[٨]

١- انظر اعلاه ، ص ٨٦ .
٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٧٥ .
٣- المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ١٠٦ .
٤- انظر ادناه ، ص ٨٦ ، ١٢٤ - ١٢٥ .
٥- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اكتوبر / تشرين الاول ١٨٠٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٤٦٠ .
٦- رسالة من تاليران الى يوسف صاحب الطابع ، باريس ، ٩ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠١ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ زمرلي " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٣ - ٤٤ .
٧- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اكتوبر/ تشرين الاول، ١٨٠٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٤٦٠ .
٨- ابن ابي الضياف ، ج ٧ ، ص ٩٧ .

اعتمد الباى على وزيره في كثير من الشؤون الهامة ، انجزها الاخير على اكمل وجه . وهو واقع سهل على حمودة الحكم واوجد له الحلول الصائبة سواء في الداخل أو الخارج .[١] وأهم الاعمال التي انجزها الوزير وتدلنا على تاثيره في سياسة مخدومه ، واهليته وكفاءته في عمله هي الاتية :

١ . كان يوسف صاحب الطابع ينتهج سياسة خارجية ترتكز على مبدا معاملة قناصل الدول معاملة متشابهة ، الا اذا اقتضت مطحة تونس عكس ذلك ، وقد عرف الوزير بذلك الاتجاه منذ ارتقاء مخدومه العرش .[٢] وهي سياسة تضر بمركز فرنسا ونفوذ هذا المتميزين بتونس ، خاصة بعد العطف والحظوة اللتين كانت تتمتع بهما فرنسا بصفة خاصة على يدى الوزير مصطفى خوجة .[٣] ليست تلك السياسة فقط هي التي ازعجت فرنسا وحيرتها بل الحقد والبغض العميقان اللذان كان صاحب الطابع يكنهما لها .[٤] وخوفا من سوء العاقبة ، ونفوذ الوزير في تعاظم ، وسعيا لايقاف الضرر قبل ان يتسع الخرق على الراقع ، طلب قنصل فرنسا من حكومته تدارك الامر بطريقة ما .[٥] وقد اعطت مساعي ذلك القنصل نتائجها في تخفيف شدة الشحناء ، وذلك عندما استغل سفير فرنسا باسطنبول فرصة زيارة يوسف صاحب الطابع على راس بعثة رسمية للسلطان العثماني سنة ١٧٩٥.[٦] حيث ناشد سفير فرنسا وزير تونس العدول عن سياسته المعادية لفرنسا ، وفي حال

١- زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٣ - ٤٤ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ٢٦ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- انظر اعلاه ، ص ١٠٤ - ١٠٦ .

٤- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٤ ماى / ايار ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

٥- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٦- رسالة من القنصل ذاته الى (N. Semonville) سفير فرنسا باسطنبول ، تونس ، ٣ جوان / حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

الرفض هدده بتقديم شكوى للسلطان ضده ، يؤمن لها اسباب النجاح ، ويطلب فيها عزل ذلك الوزير من منصبه في تونس.(١)

ويظهر من المراسلات الفرنسية ان ذلك التهديد اعطى مفعوله في تخفيف حدة التوتر والبغضاء ، ولكن لمدة معينة .(٢) فما ان بدات حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ حتى رجع سوء التفاهم ورجعت المشاحنات ، ليس بين فرنسا وصاحب الطابع فقط ، بل بينها وبين عدد آخر من كبار المسؤولين التونسيين.(٣) وعندما حلت سنة ١٨٠٠ ، سنة وفاة الوزير الاول مصطفى خوجة ، بدأت العلاقات بين صاحب الطابع وفرنسا في التحسن .(٤) ولكن هذا التحسن لم يتم الا بعد قبول فرنسا لمبدأ عدم محاباة تونس لتلك الدولة عن غيرها من الدول أولا ، ومبدأ الاعتراف بحياد تونس العملي في الحروب التي كانت قائمة بين فرنسا وبريطانيا ثانيا .(٥) وبذلك خدم صاحب الطابع سيده حمودة باشا وبلاده خدمة ثمينة ، حيث مكن الحكومة التونسية من التصرف بحرية في تنفيذ سياستها الداخلية والخارجية دون ضغط أو بلبلة أو تشويش .(٦)

١- رسالة من A. Verninac سفير فرنسا باسطنبول الى دوفواز ، اسطنبول ، ١٥ نوفمبر ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٧٩-٢٨٠ ، تعليق رقم ٣ .
٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٧ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٣ ، كرتون ٢٠٥ ، وثيقة رقم ٤ .

٥- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت / اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٤ .

٦- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٢٠ من مآثر صاحب الطابع الدالة على حبه لحمودة باشا ، واخلاصه له ، تعريض نفسه لخطر الموت لانقاذ مخدومه من محاولة اغتيال قام بها بعض مماليكه وهو نائم في القصر وهي حادثة اثرت في أخلاق الباى وفي احكامه وسياسته. حصل ذلك في ليلة ٨-٩ من شهر فيفرى/ شباط سنة ١٧٩٢،[١] ولم يكن لحمودة باشا ان يفلت من الذبح لولا نجدة يوسف صاحب الطابع له ، من شقته المجاورة لشقة الباى.[٢] عندما وضع المتآمرون الثلاثة السكين في رقبة الباى أنزل هذا ذقنه وشد عليه بقوة الى أسفل ، وفي نفس الوقت شد بظهره ورأسه بقوة على الحائط وراءه حتى لا يذبح من الخلف . فكان السكين ، بفضل ذلك الوضع ، يحز في ذقنه . ولم ينتبه المجرمون للامر بسبب الليل الدامس . ولما أرادوا شده ورميه من تخته ارضا قام عراك بينه وبينهم . شعر صاحب الطابع بان شيئا غير عادى يحدث داخل غرفة نوم الباى ، فما كان منه الا ان كسر الاقفال ودخل فسطا عليه احدهم وطعنه بالخنجر طعنتين واطلق عليه اخر النار من مسدس اصابته رصاصته في فخذه . ولكن ذلك لم يوهن من عزم يوسف في انقاذ الباى فدخل معهم في عراك ، وهو يصرخ للحرس، الى ان هب هؤلاء ، مع بعض رجال الدولة منهم سليمان كاهية ، وافتكوا مخدومهم ووزيره من فتكة محققة .[٣] اما الاسباب الداعية لقيام المتآمرين بمحاولتهم تلك فهي شدة الباى في تربية مماليكه / بدون رأفة ،وقسوته عليهم حتى منعهم من خلطة اهل البلد

١- رسالة من دوفواز الى حكومته ،تونس ، ١٥ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ،المصدر ذاته ج ٣ ،ص ٢٠٥ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ،خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ،خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ، فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص ٦٩-٧٠ .

وحجر عليهم حتى التكلم بالعربية .[1] وقد ازداد حب حمودة باشا ليوسف بعد عمله ذاك ، واعترف له بالفضل وندم على سياسة الشدة التي كان يعامل بها مماليكه. واقيمت الافراح والتهاني والزينة في كامل البلاد احتفاء وفرحا بنجاة حمودة باشا .[1]

٠٣ من أعمال صاحب الطابع ذات التأثير القوى على سياسة حمودة باشا ، الدور الرئيسي الذى لعبه سنة ١٧٩٤ في التأثير على الباى ليتخذ قرارا بمحاربة علي برغل والي طرابلس الغرب الجديد من قبل الدولة العثمانية ، فقد نصح صاحب الطابع بوجوب اتخاذ قرار الحرب منذ احتلال الوالي لمدينة طرابلس وتشريد واليها القديم علي باشا قرمانلي الذى التجأ الى باى تونس .[3] غير ان حمودة لم يستجب لدعوة صاحب الطابع الى ان احتل عسكر علي برغل جزيرة جربة التونسية ،[4] عندها ازداد الحاح الوزير كما يظهر من قوله للباى:

"إنا أضعنا الحزم في اول الامر فلا نضيعه الان ، وقد كان توقفنا في انجاد علي باشا قرمانلي ، لما اتى لتونس ، انما هو للادب مع السلطنة العلية ، على ان ما يدعيه علي برغل من الفرمان غير محقق عندنا ، لاننا لم نره ، ولا سمعنا بخبره ممن يوثق به ، ويحتمل انه ثائر ، ولما تعدى واستولى على قطعة من بلادنا ، وجبت علينا المبادرة بارسال محلة لطرابلس ، وارسال عسكر في البحر لافتكاك جربة ...".[5]

وكذلك كان لصاحب الطابع فضل الاشارة على الباى بتعيين الوزير الاول مصطفى خوجة على راس تلك الحملة بعد ان كان الباى عازما على قيادتها بنفسه . وقد

١- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٩ - ٧٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ - ٢١ .

٢- انظر ابن سلامة ، الدرة النفيسة ، ص ٥ - ٦ .

٣- انظر اعلاه ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

٤- انظر موقع تلك الجزيرة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

اقتنع الباى بذلك الراى عندما قال له يوسف : " الجيش معرض للنصر وضده ، فاذا انهزم الجيش وانت اميره ، انهزمت المملكة ، بخلاف ما اذا انهزم امير من امرائك وانت في قاعدة ملكك ." [1] ومما تجب ملاحظته ان توجيه تلك الحملة والانتصار فيها والنتائج التي ترتبت عليها كانت ذات اهمية رئيسية في سياسة حمودة باشا الخارجية . [2]

٤ . بعد ان تمت هزيمة علي برغل وشرد عسكره ، اعيد علي باشا قرمانلي الى ولايته وتحققت الاهداف المرجوه من الحملة ، ولكن نشأت مشكلة مع الدولة العلية هددت تونس بالوبال . ذلك ان السلطان اعتبر ذلك الاجراء اعتداء مباشرا من الباى على جلالته وسيادته ، بل عصيانا وخروجا على الطاعة ، وقرر ارسال اسطول لغزو تونس . [3] وامام ذلك الوضع الخطير رأى حمودة باشا مخرجا واحدا للازمة وهو بعث رسول للسلطان سليم خان ليهنئه بولايته عرش السلطنة العثمانية . [4] وان كانت تلك التهنئة قد تاخرت حوالي الخمس سنوات عن تاريخ التولية . ولكن القصد الحقيقي من السفارة كان توضيح اسباب الحرب وتقديم الاعتذار على حملة طرابلس . [5]

لم يجد حمودة باشا بين رجاله من يقوم بتلك المهمة الشائكة الدقيقة غير الرجل القدير يوسف صاحب الطابع . وبعد ان سلمه رسائل رسمية تبرر تدخل تونس في شؤون طرابلس ، وتشرح اسباب ذلك ، [6] جهزه بهدية فاخرة

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

٢ـ انظر ادناه ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ، ٤٠١ ـ ٤٠٣ .

٣ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٦٨ .

٤ـ ارتقى العرش يوم ٧ افريل / نيسان ، ١٧٨٩ .

٥ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

٦ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٦٨ ، انظر ادناه ، ص ٣٨٤ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

جدا بلغت تكاليفها حدا جعل الوزير مصطفى خوجة ينكر ذلك الاسراف بقوله : " هدايا امثالنا للدولة العلية انما هو اظهار للطاعة فقط ، وقد ضايقنا البلاد واجحفنا بها ، ولا يعظم اضعاف هذا عند الدولة العثمانية ."[١] غير أنه ، على الرغم من انتقاد الوزير الاول ، لم تكن تلك الهدية كافية اذ ان السفير التونسي زاد فانفق فيها من ماله الخاص " سائر كسبه المنقول ورجع مدينا لما فيه من كرم النفس وعلو الهمة ."[٢]

مكث صاحب الطابع باسطنبول قدر عام كامل انجز فيه كل ما اوكل اليه بنجاح وكفاءة .[٣] ثم رجع الى تونس " ناجح المسعى ، مشكور الوجهة ، ومعه مراكب تحمل المدد الذى اتى به ، وناول سيده دفتر المدد المذكور [هدية من الاسلحة الحربية من السلطان الى حمودة باشا] ، فكان اضعاف قيمة الهدية ."[٤] وكذلك جلب معه فرمانا يؤكد رضا السلطان ، وخلعة منه للباى ، ولباس الولاية لابني علي باشا قرمانلي .[٥] وكانت اكبر هدية للوطن هي سكون " الفتنة" بين الدولة العلية وتونس ، وحلول " الهناء والعافية ."[٦] وقد كان نجاح هذه المهمة نجاحا باهرا لسياسة حمودة باشا الخارجية .

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

٢- المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٢٨ ، انظر ادناه ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

٣- انظر المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

٤- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣١ .

٥- المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٣٠ - ٣١ .

٦- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٦٨ .

٥. من مآثر صاحب الطابع واخلاصه وتأثيره في سياسة حمودة احرازه ، وهو قائد الحملة التونسية ، على النصر النهائي لتونس على القوات الجزائرية . كانت العلاقات بين البلدين سيئة منذ بداية العهد العثماني .وازدادت سوءا في عهد علي باى والد حمودة.ثم تفاقم الامر وبلغ حده ، لاسباب عديدة في عهد حمودة ذاته .(١) وكان هذا الباى متمسكا بسياسة عدم المبادأة ،وحريصا على عدم تجاوز موقف الدفاع الى ان يتم استعداداته التي بداها منذ اول عهده بالحكم .(٢) وقد حافظ حمودة على موقفه ذاك الى سنة ١٨٠٧ ،حين هاجمت عدة بوارج حربية جزائرية ميناء حلق الواد التونسي وشلت كل نشاط تجارى او حربي فيه لمدة غير قصيرة . ولم يجد الباى امام ذلك الاعتداء الصارخ بدا من اعلان الحرب على الجزائر . وقد زحف الجيش التونسي في اتجاه قسنطينة حيث دارت المعارك بين الجانبين في حملتين تونسيتين كما سنذكره بالتفصيل في مكان آت من هذه الدراسة . وقد كان ليوسف صاحب الطابع قائد الحملة الثانية ضد الجزائريين التاثير الفعال في تجهيز جيش الحملة وقيادتها نحو الانتصار النهائي بعد الهزيمة الشنعاء التي حلت بالجيش التونسي في حملته الاولى . وبهذا الفوز سجل صاحب الطابع لمخدومه مأثره من اهم المآثر في كامل تاريخ تونس الحديث ان لم تكن اهمها على الاطلاق. وهو الفوز الذى انجز هدفا كرس حمودة باشا عهده وامكانيات دولته لتحقيقه.(٣)

١ـ انظر ادناه ، ص ٤٠٨ ـ ٤٣٧ .

٢ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ،تونس ، ١٣ جانفي / كانون الثاني ،١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ،مجموعة الوثائق التجارية ،مجلد رقم ٣٨ .

٣ـ انظر ادناه ،ص ٤٢٨ ـ ٤٣٠ .

٦ . من انجازات صاحب الطابع البارزة ايضا اخماده لثورة جند الترك ، التي هددت البلاد بالويل الكبيــر .

هذه الثورة قام بها جند الترك بسبب التغييرات التي ادخلها حمودة باشا في مختلف المجالات ، جريا مع سياسته الداخلية ، وهي السياسة التي حدث من نفوذ هؤلاء في الادارة والجيش وقد رموا من ورائها الى اغتيال الباى والاطاحة بحكمه وتغيير نظام الحكم وجعله كالحكم في الجزائر بايدى جند الترك . وكان لصاحب الطابع ، الذى عينه حمودة باشا على راس قوة لاحباط الثورة عندما بدات الامور تفلت من ايدى الحكومة ، كان لذلك الوزير الفضل الكبير في القضاء على تلك الفتنة . وبذلك النجاح تخلص الباى والبلاد التونسية من اخطر اداة تخريبية ومجرمة كانت بالبلاد . وهو انجاز اثر كثيرا في سياسة حمودة باشا خاصة الداخلية منها .[1]

ولصاحب الطابع بجانب هذه الانجازات والمآثر الكثيرة التاثير في مجرى سياسة حمودة باشا ، اعمال اخرى هامة سيرد ذكر بعضها في اماكن اخرى من هذه الدراسة .[2]

عندما توفي حمودة باشا كان يوسف صاحب الطابع اقوى شخصية في البلاد التونسية ، حتى انه كان في مقدوره عندئذ تولي عرش تونس لو اراد .[3] ولكنه بدل ذلك اعان على تولية عثمان باى اخي حمودة على محمود باى - ابن عم حمودة والاحق بالولاية حتى من حمودة باشا نفسه - وقد نجح في مسعاه في

١- انظر ادناه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

٢- من مآثره ايضا نجاحه في محاربة الاسطول الجزائرى وصده وهو الاسطول الذى حاول الهجوم على ميناء حلق الواد يوم ٢٣ جويلية / تموز ١٨١٢ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٨ ؛ انظر ، ادناه ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٥ - ٤٣٦ ، ٤٤٤ .

٣- رسالة من أوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٠ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨١٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

تولية عثمان ، ولكنه جنى حقد محمود • في عهد عثمان الذى لم يستمر اكثر من شهرين وستة ايام (١٥ سبتمبر/ايلول _ ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٤) اقر يوسف صاحب الطابع في جميع خططه السابقة ، ثم زاد فرقاه لمنصب خزندار ،[١] والبسه شعارات هذا المنصب المختلفة •[٢] غير ان يوسف تولى تلك الخطة بالاسم وتولى امر الادارة غيره • وذلك لانه كره العيش بعد حمودة باشا "فبقى منعكفا في محله مقبلا على طاعة ربه ، مهموما كثير البكاء على مخدومه لا يقابل احدا •[٣] ولما شعر ببداية الخلاف بين عثمان ومحمود عزم صاحب الطابع على ترك البلاد التونسية قائلا لوالد مؤرخنا ابن ابي الضياف : " انك صاحب اهل وأولاد يتعذر عليك فراقهم ، ولا تدرى ما يقع بهم ، وانا توفي اعز ما عندى وهو حمودة باشا ، وليس ورائي ما أخاف عليه •"[٤] غير ان ذلك الصديق اثبط صاحب الطابع عن عزمه " لسابق قدر محتوم "•[٥]

حزن الوزير على سيده ، وتوليه الوزارة بدون حماس، وبداية خوفه على نفسه من نشوب خلاف بين عثمان ومحمود على العرش، كل ذلك لم يمنع صاحب الطابع رجل الدولة القدير ، من ان يقدم النصائح الجلى لمخدومه الجديد • حتى انه انكر على عثمان تصرفه الارتجالي في الحكم وقال له امام بعض رجالات الدولة :

" يا سيدنا اتبع سيرة ابيك [علي باى] أو سيرة اخيك [حمودة باشا]، او اجتهد في سيرة توافق المصلحة ، وبينها لنا ، لتكون خدمتنا على مقتضاها • ونخشى ان الناس اذا لم يكن لهم منهج مسلوك ينظرون لانفسهم ، والعامة اذا قدرت ان تقول ، قدرت ان تفعل ••• وهلا اقتفيت سيرة ابيك في اجتماع المجلس الشرعي لديك في كل اسبوع ،

---

١ _ هذه الخطة لم يلقب بها احد في عهد حمودة باشا ، وكان يقوم بمهامها الباى نفسه مع الوزير الاول ، ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٢ _ ٩٣ •

٢ _ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٣٣ ، كرتون رقم ١ •

٣ _ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٤ _ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٦ •

٥ _ المصدر والصفحة ذاتهما •

لانه كان يتاثم من فصل النوازل برايه فيجعلها للشريعة ...
فسكت حياءا ، ولم يجبه ." (١)

يصف صاحب الاتحاف ما حصل للوزير بعد الادلاء بنصيحته الهامة والغالية تلك بقوله :

" وهذه المعارضة من هذا الوزير ابي المحاسن ، سهل بها الطريق الى السعاية به من المقربين للباى ، الا انهم لم يقدروا على ازالته، لرسوخ قدمه في الدولة ورجالها وانما قدروا على تبعيده وتعطيل النفع به ، حتى صار ينكر على رجال الدولة الاتيان لمحله ويقول لهم : "ان اتيانكم الي يضركم واني على يقين بما عندكم ." (٢)

عندما ثار محمود باى على عثمان باى وقتله ليلة ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٤ ، وتولى عرش تونس (٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٤ ، ـــ ٢٨ ، مارس/ اذار ، ١٨٢٤) قال له نصحاؤه ساعة جلوسه : " لا يتم لك امر الا باصطناع الوزير صاحب الطابع لانه زعيم الدولة ، العارف بسياستها ، ودقائق احوالها ." (٣) وقال العربي زورق (٤) ، كبير رجال محمود باى في حركته الانقلابية للباى الجديد محرضا اياه على ضرورة الاستعانة بالوزير صاحب الطابع : " لا يثبت لك ملك ، ولا يتم لك أمر ، الا ببيعة يوسف صاحب الطابع ، اذ الدولة طوع يده ، ولا تعتمدني الا ن في شيء من الامور ، فقال له محمود : " توجه اليه بنفسك ، ومعك سبحتي (٥)

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

٢ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٤ .

٣ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٩٨ .

٤ـ انظر ادناه ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

٥ـ السبحة : المسبحة (لهجة تونسية) .

ودلائل الخيرات .[1] ولما آتاه وجده مستعدا للاجابة .[2]

تولى صاحب الطابع خطة وزير اول في اول عهد محمود باى ، ووضع فيه الباى ثقته وقلده سلطة البلاد الحقيقية " ... لما له من الرأى ومعرفة احوال البلاد ... "[3]. وقال له :

" انك باشرت هذه المملكة مع سيدك ، وعلمت ما يضرها وما ينفعها ... فافعل ما كنت تفعله ايام ابن عمي حمودة باشا ، ولا تتوقف في المصلحة على امرى وانا اتوقف على رايك . "[4]

بتلك الخطة وبذلك التكليف بدأ صاحب الطابع ادارة شؤون وزارته بكل نشاط وكفاءة واخلاص .[5] ولكن اغتياظ اصحاب السوء من نجاح ذلك الوزير[6] — بسبب اعتماد الباى عليه كل الاعتماد — حرك فيهم الغيرة فدسوا له الدسائس الى ان قتل غيلة في قصر الباى يوم ٢٣ جانفي / كانون الثاني سنة ١٨١٥ ، ثم رميت جثته في الطريق اياما ليمثل بها الاوباش واليهود .[7]

---

١ ـ تقديم المسبحة ودلائل الخيرات هو رمز لاعطاء الامان ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

٢ ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٣ ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٣٣ ، كرتون رقم ٣ .

٤ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

٥ ـ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٥ .

٦ ـ مما يدل على نجاح ذلك الوزير في اكتساب ثقة محمود باى بالاضافة الى اعتماده الكامل عليه ، تزويجه باخت حمودة باشا في ديسمبر سنة ١٨١٤ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ؛ انظر ايضا المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٩٧ ، ج ٨ ، ص ٤٧ .

٧ ـ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٨ ـ ٥٠ ؛ انظر تفاصيل المؤامرات التي حيكت ضد صاحب الطابع وكيفية قتله واخبار التمثيل بجثته ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ـ ١١٢ ، ج ٧ ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ .

يذكر ابن ابي الضياف اخلاص يوسف لسيده محمود باى ولبلاده بقوله :

" لما فوض الباى [محمود] لهذا الوزير وقربه نجيا ، اخذ الامر على ظاهره ، من غير تدبر في عاقبة ملك الاطلاق ، واقبل على مصلحة المملكة من حيث هي مصلحة ، غير مبال بشيء ، على عادته مع صاحبه الاول [حمودة باشا] ، فقد كان يجاهر بالنصيحة ، ويعارضه بما لا يسوغه الا فرط الصفو في المحبة ، او غلبة العقل على الهوى .. ."(١)

هذا وقبل أن ننهي حديثنا عن هذا الوزير الشهير يجدر بنا لزيادة التأكيد على اهميته في عهد حمودة باشا خاصة ، ان نذكر خبرا اورده ابن ابي الضياف يقول فيه انه لما توفي حمودة باشا

" طار المبشر بخبر وفاته لصاحب الجزائر ، فقال صاحب الجزائر: هل مات يوسف صاحب الطابع وسليمان كاهية ، وهل تبدلت رجال الدولة ؟ " فقال [المبشر]: "لا " فقال له : " لم يفقد الان من تونس الا شخصه ، ولا يموت مثله ، الا اذا تبدلت رجاله الذين قارعنا بهم " .(٢)

٢٠ وزراؤه

هذان الوزيران ، مصطفى خوجة ويوسف صاحب الطابع ، هما اهم رجال حمودة باشا واكثرهم تأثيرا في تكوين سياسته وتنفيذها ؛ وقد وضح لنا ذلك من خلال نشاطاتهم وانجازاتهم الدالة على مقدراتهم وكفاءاتهم . بعد هذين الوزيرين "الاولين" ياتي ، في المرتبة الثانية ، عدد من رجالات الدولة اطلق عليهم لقب " وزير" خدموا حمودة باشا واثروا ايضا في تكوين سياسته وتنفيذها. ومن المهم ان ننبه منذ الان ان اعمال هؤلاء كانت عسكرية او ادارية استشارية في الغالب ، وهم :

١- اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٨ .

١٠ حمودة بن عبد العزيز: سبق وذكرنا ان هذا الوزير الكاتب والمؤرخ كان من أكابر رجالات دولة علي باى ، والد حمودة ، وانه مؤلف كتاب التاريخ الباشي الذى ارخ فيه سيرة ذلك الباى وافدنا منه في دراستنا هذه . وقد كان ابن عبد العزيز احد كبار علماء تونس واستاذ حمودة باشا ومعلمه . ويذكر مقديش ان محبة علي باشا لحمودة بن عبد العزيز ازدادت وعلاقتهما توطدت بعد ان كلفه بتربية ابنه حمودة وتعليمه . وبعد ان صاهره بابنته ،[١] وكانت وظيفة التدريس تلك اول درجات سلم ارتقاء ابن عبد العزيز في رتب الدولة.[٢] ثم خصه علي بن حسين برئاسة الكتاب واطلق عليه لقب "وزير في قلم الانشاء".[٣]

لما تولى حمودة باشا عرش تونس اقر ابن عبد العزيز في منصبه ،[٤] وكلفه بتدريب الوزير ابي المحاسن يوسف صاحب الطابع على سياسة الاعمال والعمال لما كان هذا في اول عهده بخدمة الدولة .[٥] بعد ذلك حصلت تطورات واحداث شديدة ، انتهت بنبذه ثم موته في مدة لا تتجاوز الخمس سنوات من تولي حمودة باشا الحكم (ت. ١٧٨٧) . وعلى الرغم من قصر تلك الفترة فقد كانت حافلة بالأحداث التي اثرت في سياسة الباى . من ذلك انه احدث قانونين :الاول غير به ما كان معمولا به في امر الجباية ،والثاني سن فيه نظام المشارطة المالية للولاة داخل البلاد .[٦] وقد اعتمد حمودة باشا كلا القانونين في تنظيم الجباية .[٧] غير ان سن هذين القانونين ووضعهما موضع التنفيذ اثارا معارضة الوزير الاول مصطفى خوجة واشعل نار الخلاف بينهما .[٨] وبلغ

١- نزهة الانظار ،ج ٢ ،ص ٧١ .
٢- خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٣٠ ،كرتون رقم ٠٣
٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .
٤- المصدر والوثيقة ذاتهما ،ابن ابي الضياف ،اتحاف ج ٧ ،ص ٦٩ ، ٩٠ .
٥- المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١٧ .
٦- انظر ادناه ،ص ١٨٥ - ١٨٦ ، ٢٧٩ - ٢٨١ .
٧- ابن ابي الضياف ،اتحاف ج ٣ ،ص ١٦ - ١٨ ،واستمر بهما العمل الى سنة ١٨٥٥ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١٩ .
٨- المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ١٨ .

وبلغ حقد الوزير الاول في هذا الشان حدا جعل صاحب الاتحاف يورد احتمال مشاركة ذلك الوزير في محاولة اغتيال ابن عبد العزيز.[١] والخلاف بين هذين الرجلين وردت تفاصيله في مصادر عديدة .[٢]

هذا وقد انهى ابن عبد العزيز ايامه مكروها من الباى ومنبوذا من الاهالي في وقت واحد . وذلك لاسباب منها انه لما وقعت محاولة اغتياله امر حمودة باشا ان يحمل الجاني الى ابن عبد العزيز "... ليحكم فيه بما يراه من العقوبة..." فحكم هذا " بتكسير يديه ورجليه ، والقائه ببطحاء القصبة حتى يموت".[٣]؛ ونفذ الحكم فهشمت اعضاؤه بمطارق الحدادين والقي بالبطحاء الى ان مات . ثم يذكر صاحب الاتحاف ما نتج عن تلك الواقعة فيقول "...وكانت هنة على هذا العالم ، وقبح احدوثة في دار الدنيا ...".[٤] ومن اسباب نبذه ايضا انه دبر مقتل صالح باى - باى قسنطينة - بطريقة تترتب عنها مضرة لتونس ، هذا بالاضافة الى صفة الغدر التي تم بها القتل ، وقد نفر الباى من الامرين واستنكرهما بشدة . يقول ابن سلامة : " فوجد الحاج حمودة في نفسه من كونه قتل انسانا ظلما ولم يشكروا سعيه ..." ، وانحطت مرتبته ، وبسبب ذلك مرض " المرض الذى مات من اجله ..".[٥]

١- المصدر والصفحة ذاتهما .

٢- انظر على سبيل المثال : خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٣٠ ، كرتون رقم ٣ ؛ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٠-٧٢ ، ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٦-١٩ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٨ .

٤- المصدر والصفحة ذاتهما ، وانظر بعض الاسباب الاخرى وبعض صفات الرجل بالمصدر ذاته ، ج ٧ ص ٢٣-٢٤ ، ٦٩ .

٥- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧١-٧٢ .

٢٠ سليمان كاهية الثاني [١] (ت٠ ١٨٣٨) : اصل هذا الوزير والقائد العسكري من بلاد القرج ٠ نشا في خدمة سيده حموده باشا ثم تقرب منه الى ان لازمه " ملازمة الظل "٠ [٢] — وقد كان سليمان " الشهم " من الذين شاركوا في افتكاك حمودة باشا من ايدى مماليكه اثناء محاولة ذبحه في قصره٠ [٣] اظهر هذا القائد من الشجاعة والكفاءة ما جعل حمودة باشا يعينه اغا وجق [٤] باجه، ثم يقدمه كاهية للسفر بالمحال صيفا وشتاء منذ سنة ١٨٠٧٠ [٥] هذا بالاضافة الى " المهمات" العديدة التي اسندت اليه وانجزها بكفاءة ومنها تطويعه للعصاة وتامينه للطرقات وضربه على ايدى البغاة وقد " حمد في ذلك اثره ، وبقي خبره "٠ [٦] —

على الرغم من اهمية اعمال سليمان كاهية تلك فان من اعظم اثاره وانجازاته في عهد حمودة باشا انتصاراته على راس محلة من المحال التي شاركت في حرب تونس — الجزائر تحت قيادة يوسف صاحب الطابع سنة ١٨٠٧٠ [٧] وهي الحرب التي انتصرت فيها تونس انتصارا ساحقا ٠ ومما يدلنا على اهمية هذا الوزير القائد وعلى تاثيره في سياسة حمودة باشا ما اوردناه مما ذكره صاحب الاتحاف : من ان داي الجزائر لما اتاه المبشر معلنا وفاة حمودة باشا سأله الداى ان كان سليمان كاهية مات ايضا تدليلا على اهميته في الدولة ومكانته فيها ٠ [٨]

١— يلقب سليمان كاهية هذا بالثاني لتمييزه عن سليمان كاهية الاول الذى كان امير الجيش التونسي في الحرب التونسية — الجزائرية الاولى (١٨٠٧) ، وهي الحرب التي انهزمت فيها القوات التونسية بسبب عدم كفاءة ذلك القائد ، انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص٤٣ ، ج ٧ ، ص٥٦ ٠

٢— المصدر ذاته ج ٨ ، ص٣٩ ٠

٣— انظر اعلاه ، ص ١١٦ — ١١٧ ٠

٤— الوجق : اصل الكلمة في التركية تعني المدفاة ، الموقد ٠٠٠ ثم صارت تطلق على مجموعات من العسكر او تجمعات منهم في مراكز لاستجماع القوة ، انظر جب وبوون المجتمع الاسلامي ، ج ١ ، قسم ١ ، خاصة الصفحات ٣٨ ، ٣١٨ — ٣١٩ ٠

٥— كان الباى يقود تلك المحال بنفسه كل سنة ، وحمودة باشا هو الذى ابطل عادة مباشرة السفر بالمحال ، ابن ابي الضياف ، اتحاف ج ٣ ، ص١٩ ٠

٦— المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص٣٩ ٠

٧— المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص٤٢ ، ٤٣ ٠

٨— انظر اعلاه ، ص ١٢٥ ٠

عندما توفي حمودة أبقى عثمان باى سليمان كاهية في خططه . ولما قام محمود بالانقلاب على عثمان قاتل سليمان كاهية قتالا شديدا محمود باى وجماعته الثائرين ، ولما تحقق موت عثمان باى ، كف عن القتال وانزوى في بيته . فبعث له محمود بمسبحته وكتاب دلائل الخيرات " زيادة في التوثق لتامينه ".[1] ولما دخل على الباى قال له : " يا سيدى قد فعلت ما يجب علي ، ولو لم يمت سيدى أقاتل عنه حتى اموت دونه ، كما اقاتل عنك " ، واعترف محمود باستقامة ذلك القائد واهليته وزوجه بنته في الليلة ذاتها .[2] وقد تولى سليمان كاهية الوزراة بعد مقتل يوسف صاحب الطابع ، وكان له دور هام في اخماد ثورة جند الترك سنة ١٨١٦ .[3]

٣ . محمد العربي زروق : اصل هذا الوزير القائد من أعيان بيوتات البلاد التونسية ، نشأ " في بيت شرف اصيل ، ومجد اثيل ، اصله من اشراف باجة تونس . . . " .[4] وكانت لوالد محمد العربي خطة بقصر باردو مكنته من ان يسكن بالقصر حيث نشا صاحب الترجمة . وضع ذلك الرجل سهل عليه التعرف الى حمودة باشا الذى قربه " واصطفاه لمجالسته ". وقد خدم هذا القائد عهد حمودة باشا بكثير من الاعمال يذكرها صاحب الاتحاف بقوله : " . . . واستكفى حمودة باشا به في المهمات ، كاصلاح قلعة الكاف وتحصينها ، وبناء الابراج ، والسور ، وغير ذلك . . . " .[5] وكذلك ملا تلك القلعة " بالميرة والاقوات وآلات الدفاع وخزائن البارود ".[6] وبلغت انجازات هذا الوزير في عهد حمودة حدا جعلت يوسف صاحب الطابع يشعر بمزاحمة هذا الوزير له فتكونت البغضاء بينهما " ووجد كل منهما على الاخر ".[7] غير ان ذلك الخلاف بين

١- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ١٠٦ .

٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

٣- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٦-١٧ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٣٠٢ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ١٣٠ .

٥- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١٣١ .

٦- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٧- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١٣١ ، انظر ايضا ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

الوزيرين لم يجد طريقة للتفاقم والانفجار في عهد حمودة باشا ، الباى القوى ، فخمدت ناره ليستعر لهيبها في عهد محمود باى . وقد اعانت العربي زروق عوامل ثلاث هامة مكنته من الانتصار على غريمه صاحب الطابع . هذه العوامل هي انكماش نفوذ وسلطة صاحب الطابع بعد موت حمودة ، ثانيا قيامه بمعظم اعباء الثورة التي تولى نتيجتها محمود باى العرش، وثالثا استغلاله لنسب الرضاع الذى كان بينه وبين اخته زوجة محمود باى .[1] لتلك الاسباب لم يلحق العربي زروق اى اذى لما حاك مؤامرة اغتيال يوسف صاحب الطابع ومقتله ، على الرغم من ان معظم بقية المشتركين فيها نالهم العقاب .[2]

غيران شموخ ذلك الرجل ، الذى تولى خطة خزندار بعد مقتل يوسف صاحب الطابع ، وازدراءه باولاد الباى وانفراده بامر المملكة وغيرها من الاسباب كانت سبب مقتله هو الاخر ونكبة اهله واصحابه واتباعه يوم اول اكتوبر/ تشرين الاول ١٨٢٢ .[3]

٤ . محمد الاصرم (ت. ١٨٠٦) : اصل هذا البيت من مدينة القيروان . التحق بخدمة البايات الحسينية منذ عهد مؤسس تلك الدولة . تولى محمد الاصرم عدة خطط هامة وكان يلقب بالوزير ، بل يستنتج ، مما يذكره صاحب الاتحاف ، انه كان من اهم وزراء حمودة باشا ،[4] ومن اعلى تلك الخطط ايضا انه كان باش كاتب[5] ذلك الباى .[6] وهي الوظيفة التي يرفعها المؤرخ المجهول حتى يجعلها اولى المراتب الادارية " ... واما اول المراتب الباش كاتب ، الذى هو من اركان الدولة

---

١ ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، انظر ايضا المصدر ذاته ، ج ٣ ص ٩٩ .

٢ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ١٠٨ ، ج ٧ ، ص ٩٨ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٩٩ ؛ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ص ٤٥ .

٣ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٣٨ ـ ١٤١ ، ١٤٨ ، ج ٧ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

٤ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، ج ٧ ، ص ٥١ .

٥ ـ يطلق عليه المؤرخ ذاته لقب " رئيس الكتاب " ؛ انظر اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩١ .

٦ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٥ ؛ السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

المبرورة ...»[١] وكان ذا تأثير على حمودة باشا وذلك لنصحه الدائم له حتى يذكر ابن ابي الضياف انه " لا يستغنى عن رأيه . وكان الباى حمودة باشا يعرف له فضل التقدم مع أبيه ." [٢] ويظهر ان هذا الوزير كان من مؤيدى الحلول السلمية ومعارضي الحروب . يدلنا على ذلك انه لما استشاره الباى وهو عازم على محاربة الجزائر سنة ١٨٠٧ أجابه هذا الوزير الذى " حنكته التجارب " [٣] بقوله: " نساعد احوالنا ولا نقطع سياستنا ، فانها احسن من الحرب . " [٤] ومما يدل على نفوذ هذا الوزير الكاتب ان قنصل بريطانيا طلب من حكومته بعث هدية فاخرة لمحمود باى ، وذلك لانه احق بالولاية من حمودة واذا توفي هذا سيتولى محمود العرش . ثم يطلب في نفس الرسالة ان تكون تلك الهدية مرفقة باخرى لسيدى محمد الاصرم الكاتب الاول لحمودة باشا ، الذى يصفه بكونه " ... كان المرجو والذى ينتظر له مستقبل مرموق ، زيادة على كونه يمثل المسؤول الشاب ذا المستقبل المرموق ." [٥]

٥ . محمد خوجة : من رجالات حمودة باشا الوزراء ايضا . تولى خطة كاهية في ثغر بنزرت منذ زمن علي باى والد حمودة . ولما تولى حمودة باشا واعتنى ببناء قوته وتسليح بلاده ، [٦] عين محمد خوجة امينا

---

١ ـ الفخرية ، ص١١ .

٢ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص٥١ .

٣ ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٤ ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص٤٠ .

٥ ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٩ سبتمبر / ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٦ ـ انظر ادناه ، ص٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٢٢٢ ـ ٢٣٤ .

لترسخانــة حلق الواد ،وكذلك بعثه في عدة سفارات للدول الخارجية التي منها بريطانيا وفرنسا وقد " استحسنت سفاراته ،ونجحت اشاراته ." (١) يرسم صاحـب الاتحاف كفاءة هذا الوزير واستشارة الباى له بقوله " ... فجلى في ميادين الكفاية والحزم والنصح ،وقربه مخدومه فصار من رجال مشورته ،ومشورة من بعده من الملوك ، يعتمدون رايه " . ويصفه المؤرخ بقوله ايضا : " وكان فاضلا كريما ،بصيرا بالعــواقب، عارفا بالسياسة ، متخلقا باوصاف الرئاسة ، حنكته التجارب في غالب المآرب ،ذا عفة ووقار وهمة عالية ، ما دنس وجوه خططه بطمع ،ولا حفظ عنه شر ... ." (٢)

٣ . مســـــتشـــــاروه

بجانب أولائك الوزراء المؤثرين في سياسة حمودة باشا ،والمنفذين لهـــا والذين اعتمدهم في مختلف المهمات واظهروا كل جدارة وكفاءة ، بجانب أولائـك الوزراء الذين يصدق وصفهم بالوزراء والقادة العسكريين والمستشارين ، بجانبهـم اعتمد ذلك الباى ايضا مستشارين آخرين سخروا امكاناتهم وكفاءاتهم لخدمـــة مخدومهم . ومن هؤلاء ثلاثة من القادة العسكريين كان الباى يستشيرهم وياخذ بنصائحهم ،هؤلاء هم رجب بونمرة وحميدة بن عياد وحمودة الاصرم .

١. رجب بونمرة (ت. ١٨٠٧) : نشأ هذا الرجل في خدمة البايات ، وترقـى في الرتب العسكرية حتى صار كاهية الوجق التونسي . اعتمد عليه حمودة باشـا في كثير من المهمات فقاد الجنود " وخفقت عليه البنود " وتميز بشجاعته وذكائه . (٣) كان حمودة باشا يثق برجب ويستشيره ،حتى لما اصيب هذا بفالج منعه مــن النطق " لم يستغن الباى عن مشورته ،ويجيبه [رجب] بالكتابة ." (٤)

١- ابن ابي الضياف ،اتحاف،ج ٨ ،ص ٦٠ ،انظر ادناه ،ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .
٢- المصدر والصفحة ذاتهما .
٣- المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ٥٥ .
٤- المصدر والصفحة ذاتهما .

٢• حميدة بن عياد (ت• ١٨١٧) : اصله من جزيرة جربة ، تولى الخطط المرموقة المدنية والعسكرية في الدولة التونسية • من المدنية تقلبه في خطة والي على مناطق مختلفة في تونس،[١] وتوليه وظيفة وكيل الباى في الاعتناء بكل ما يحتاجه ضيوف تونس الطرابلسيين من طعام وسكنى وغيرهما ، وهي خطة تدل على ان الرجل محل ثقة حمودة باشا الكبرى •[٢] وبالاضافة الى ذلك فقد كان ابن عياد ،كما يؤكد قنصل بريطانيا ، من كبار اغنياء تونس العاملين في ميدان التجارة الخارجية •[٣] اما الخطط العسكرية فقد قاد حميدة محلة من الخيالة في حرب تونس ضد الجزائر سنة ١٨٠٧ •[٤] وهي الحرب التي أبلى فيها هذا القائد بلاء الشجعان الابطال[٥] هذا ولا نستغرب شجاعة ابن عياد اذا علمنا انه دفع من ماله الخاص كميات وفيرة لاعادة تجهيز حملة ثانية تونسية ضد الجزائر بعد ان فشلت الحملة الاولى •[٦]

كان هذا القائد واحداً من أقرب رجال تونس لحمودة باشا ،وانصحهم له•[٧] يصف ابن ابي الضياف هذه الخلة بقوله : "••• وكان [حميدة بن عياد] محببا عند مخدومه الباى ابي محمد حمودة باشا ،يجالسه ويستعين برايه ، ويؤثره على أقرانه •••" •[٨]

١- المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ١٠٧ •
٢- خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٧٥ ،ص ٨ •
٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس، ٢٠ سبتمبر/ايلول، ١٨٠٤ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٥/ ٧٧•
٤- ابن ابي الضياف ،اتحاف، ج ٣ ،ص ٤٢ •
٥- وليد ،عهود رئيسية في تاريخ تونس،ص ٤٤•
٦- ابن ابي الضياف ،اتحاف،ج ٣ ،ص ٤٣•
٧- رسالة ماجرا المذكورة اعلاه ذاتها •
٨- ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج٣ ،ص ٤٢ •

٠٣ حمودة الاصرم (ت٠ ١٨٣٥) : نشا هذا الرجل العسكرى في خدمة الدولة وتولى الخطط الرفيعة في عهد حمودة باشا المدنية منها والعسكرية ٠ من المدنية رئاسة الجمرك وحفظ دخله [١] وهي وظيفة هامة جدا في الدولة ٠ اما الخطط العسكرية فمنها توليه منصب خوجة زواوة ،[٢] وهي الخدمة التي يعرفها مؤرخنا بقوله : "٠٠٠ وهي من الخطط الرفيعة يومئذ ٠٠٠" بالاضافة الى ذلك قاد هذا العسكرى الجنود حتى "خفقت عليه رايات البنود ٠٠٠"٠

كان حمودة الاصرم من اخص رجال حمودة باشا وكان يستكفي به في "عظائم الامور" ٠ واكثر من ذلك كان من اقرب مستشاريه يثق بنصحه وامانته٠[٣]

بالاضافة الى هؤلاء جميعا كان للباى مستشارون اخرون عديدون لعل اهمهم شيخ الاسلام محمد بن حسين بيرم في الشؤون الدينية ، والشيخ علي المازغني وسلطان الحسني في شؤون البدو ، ومستشارون اخرون اعتمدهم الباى في الشؤون الخارجية في الغالب ٠ وكان لجميع هؤلاء تاثير في سياسة حمودة باشا ايضا ٠

٠١ محمد بيروم : ذكرنا في مكان سابق من هذه الدراسة ان الشيخ بيرم كان يتولى خطة الافتاء ومشيخة الاسلام [٤] مدة خمس واربعين سنة وان له رسالة في السياسة الشرعية ذات اهمية علمية ودينية اساسية في التاثير على مجرى سياسة حمودة باشا [illegible] في الشؤون الداخلية ٠[٥]

١- المصدر ذاته ،ج ٨ ،ص ٢١ ٠

٢- انظر ادناه ،ص ٢٠٩ تعليق رقم ١٠

٣- ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٨ ،ص ٢١ ٠

٤- كان يقصد بخطة "مشيخة الاسلام" في تونس رئاسة المفتيين الحنفية ؛ بيرم ،صفوة ، ترجمة المؤلف الملحقة بآخر الكتاب ،ص: ب ٠

٥- انظر اعلاه ، ص ١٣ - ١٤ ٠

كان حمودة باشا يستشير هذا الشيخ العالم في عظائم الأمور وهو ينصحه بما يراه بكل صراحة وصدق . من ذلك ان حمودة باشا لما قرر حرب طرابلس استشار شيخ الاسلام بيرم في ذلك الامر . وما كان من مستشاره الديني التقي الا ان اجابه بالنصيحة التي من شأنها ان توفق بين مقامه الديني ، كرجل متول لاعلى خطة دينية في البلاد التونسية ، وسياسة حمودة باشا الخارجية . اجاب هذا الشيخ بقوله : " هذا امر سياسي ، انفع الاشياء فيه استعانتك باهل الراى ورؤوس الجند واكابر الدولة ، واما العلماء ، فلا تجد منهم فتوى تعتمدها في الحرب بين المسلمين وبيعة السلطان منعقدة باعناقنا ، واذا توقف العلماء في الفتوى وشاع ذلك ربما يكون سببا في وهن" . فاستحسن حمودة هذا الراى الصريح ولما خرج قال حمودة لوزيره مصطفى خوجة " انه نصحني " .(1)

٢ . علي المازغني : كان هذا الشيخ البدوى يتمتع بعطف الباى حمودة وتقديره ، وكان محل ثقته فيما يتعلق بشؤون البدو ، يستشيره فيها ويأخذ برآيه .(2)

٣ . ومن مستشارى الباى في هذا الخصوص ايضا رجل اسمه سلطان الحسني (ت. ١٨٤٤) قربه حمودة وكان يستشيره في امور العربان بالبلاد التونسية . يذكر صاحب الاتحاف ذلك بقوله : " ... وكان الباى ابو محمد حمودة باشا يجله ويقربه ، ويسمع رأيه فيما يتعلق بعموم الخيام ، ويحتمل هفوته ، واقتدى به من بعده في ذلك ." (3)

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٢٣ - ٢٤ .
٢- المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٤٦ .
٣- المصدر ذاته ، ج٨ ، ص ٥٨ .

٤ • نيسان L. Nyssen : كان هذا الرجل من يهود تونس التحق بخدمة حمودة باشا منذ صغره واحرز ثقة الباى في النصائح التي كان يقدمها له خاصة في شؤون تونس الخارجية وعلاقاتها بالقناصل المعتمدين لديها • وهو الذى كان يقوم بترجمة المراسلات التي ترد على الباى باللغات الاوروبية ، وكذلك يكتب الردود عليها • وبذلك اصبح ذلك الموظف السامي ذا اطلاع ومعرفة بقضايا الدول الاوروبية مع الحكومة التونسية • [١] بجانب خطة نيسان تلك كان يشغل منصب قنصل لهولندا ولراغوصا (Ragusa) [٢] لدى الحكومة التونسية ، وكذلك عينه الباى ممثلا لدولة روسيا بتونس • [٣] يذكر القنصل مقدار اخلاص هذا الرجل للباى بقوله : هذا الرجل هو اكثر الناس اخلاصا للباى وتاثيرا عليه في علاقات تونس مع الدول الخارجية • [٤]

٥ • فامان J. E. Famin هذا الرجل الدبلوماسي كان من الفرنسيين المقيمين بتونس • حصل عن جدارة على ثقة حمودة باشا حتى عينه "المفاوض الرسمي" لتونس في عقد معاهداتها مع الدول الاجنبية • [٥] ويرجع له الفضل في عقد عدة معاهدات من أهمها المعاهدة التي تمت بين تونس والبرتغال ، والتي بفضلها اتسع مجال نفوذ القرصنة التونسية حتى شملت المحيط الاطلنطي • [٦] ومنها ايضا المعاهدة التي عقدت بين تونس والولايات المتحدة الامريكية وانهت الحرب بين البلدين سنة ١٧٩٧ • ومن الملاحظ ان المعاهدتين تمتا في صالح تونس • [٧] وهو من اكثر الناس تاثيرا في سياسة الباى الخارجية • [٨]

---

١ ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٤ جوان/حزيران ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ •

٢ ـ راغوصا : مدينة كبيرة من مدن جزيرة صقلية •

٣ ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٤ ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٥ ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٣ جوان / حزيران ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ •

٦ ـ المصدر والوثيقة ذاتهما ، انظر ادناه ، ص ٤٤٤ •

٧ ـ انظر ادناه ، ص ٤٤٣ •

٨ ـ المصدر والوثيقة ذاتهما ، روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٣٦ ، بشأن فامان هذا انظر ايضا : رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٤ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ •

٦ • قنصل الدانمرك • كانت له حظوة لدى حمودة باشا وكان هذا يستشيره في اعماله وعلاقاته مع الدول الاوروبية • وكان القنصل صريحا في نصائحه صدوقا للباى ، وهو الامر الذى مكن ذلك الدبلوماسي من ان يصبح ذا تاثير على آراء الباى فيما يتعلق بشؤون تونس الخارجية •(١)

٧ • ستنكا M. Stinca (٢): اصله رقيق من ارقاء نابلي وقعت السفينة التي كانت تقله مع مئات غيره من ابناء جنسيته في قبضة احدى سفن القرصنة التونسية وهو لا يزال صبيا • وفي تونس الحق بارقاء القصر حيث نشأ وتعلم اللغة العربية وأصبح يحسنها بطلاقة •(٣) ثم لاحظ حمودة باشا على ذلك الشاب علامات النجابة والامانة فقربه وعينه رئيسا لجميع الارقاء الاوروبيين في القصر وهي من اعلى خطط القصر •(٤) لم يكتف ستنكا بتلك الخطة بل جعلها منطلقا لتحقيق طموح كبير كان يجول في خاطره • وقد تحققت معظم آماله في السلطة والنفوذ والثراء عندما اصبح ، بفضل ذكاءه وأهليته وحذقه اللغة العربية ، الكاتب (٥) الشخصي لحمودة والمترجم الخاص للرسائل التي يتلقاها الباى ، خاصة منها المكتوبة بالايطالية ، من القناصل الاوروبيين •(٦)

١ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٩٢ •

٢ـ بشأن هذا الرجل انظر ايضا اعلاه ، ص ٧٤ ، وآدناه ، ص ١٨٢ •

٣ـ مجيل ، رحلة ، ص ٢٨ •

٤ـ المصدر والصفحة ذاتها •

٥ـ اعتمدنا كلمة كاتب كترجمة للكلمة " Secrétaire " الواردة في المصدر •

٦ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٠ سبتمبر / ايلول ، ١٨٠٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٢٨ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ •

ثم اسندت اليه عدة خطط مرموقة اخرى ، منها تعيينه موءتمنا على نفائس القصر ،[١] وتسميته مفاوضا باسم تونس خاصة في المعاهدة التي تمت بين تونس ونابلي سنة ١٨١٤ .[٢] وكذلك تسميته " كاتبا منفذا " (Secrétaire des commendements du Bey) للباى .[٣] بتلك الخطط العالية في الدولة استطاع ستنكا ان يكون من الرجال ذوى التأثير الكبير على حمودة باشا وعلى توجيه سياسته .[٤] وما كان قبول حمودة باشا بأن يبقى ستنكا على نصرانيته على الرغم من المساعي التي بذلت لاسلامه ، وما كان عتق حمودة باشاله قبل ان يموت الباى بقليل ، ما كان كل ذلك الا اعترافا من الباى لفضل ذلك المستشار وكفاءته في خدمته .[٥] ومما يوءكد لنا نفوذ ستنكا في الدولة وتأثيره على الباى ان قنصل فرنسا دوفوار لما بعث يطلب هدايا من حكومته لاهم رجالات تونس ذوى النفوذ الحقيقي في شوءون الدولة ، طلب منها ثلاث هدايا الاولى للباى والثانية لوزيره الاول مصطفى خوجة وهو في اخريات ايامه والثالثة لمريانو ستنكا . وهذا الاخير يصفه القنصل بكونه الرجل الذى لا يتغيب قط عن مجالس الباى ومقابلاته ، والذى لديه جميع الامكانيات والموءهلات ليضر ويوءذى بقدر ما يستطيع ان ينفع ويصلح .[٦] ليس هذا فقط بل بلغت سلطة ستنكا بعد وفاة مصطفى خوجة حدا جعل يوسف صاحب الطابع يبغض ذلك

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، والموءلف يطلق على هذا الرجل اسم مريان النصراني وهو تعريب لاسمه الشخصي Mariano ثم ينعته بالنصراني .

٢- انظر داناه ، ص ٤٤٤ .

٣- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٨١ - ٢٨٣ .

٤- المصدر ذاته ، ص ٢٩٣ .

٥- مجيل ، رحلة ، ص ٢٨ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

٦- رسالة الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٢٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤١٣ .

الرجل لشدة تأثيره على الباى وفي شؤون الدولة ،ويكن له العداوة المريرة. وهي العداوة التي لم تجد متنفسا لها في عهد حمودة باشا ،الباى القوى، فانتظرت ما يقارب اربعة عشر عاما لتظهر كابشع ما يمكن ان تسفر عليه عداوة من البغضاء والمقت . فما ان تولى محمود باى الحكم بعد ثورته وقتله لابن عمه عثمان واولاده ، حتى وجد صاحب الطابع الوقت مناسبا للوشاية بستنكا ، فاسر للباى الجديد مسؤولية ستنكا في تسميم حمودة باشا[1]، وعدم ولاء الرجل له ولحركته الاخيرة وادعى ان ذلك الكاتب لا زال يعمل في السر على الاطاحة به . وجدت تلك الوشاية صدى كبيرا في نفس الباى الشديد الحساسية بشان ولايته التي ابعد عن التمتع بممارستها مدة لا تقل عن النصف قرن . وما كان منه الا ان أمر باحضار ستنكا على التو ، ولما لمحه داخلا القاعة التي يتصدرها الباى والمكتظة بالامراء والاعيان ، وهي القاعة التي يطلق عليها اسم " بيت الباشا " في قصر باردو ،حتى صرخ الباى في جلاديه بقطع راسه قبل ان يفوه ببنت شفة . نفذ امر الاعدام في ستنكا حالا ومن الغد دفن في مقبرة النصارى المسماة بمقبرة Saint - Antoine ،كان ذلك في شهر ديسمبر/ كانون الاول سنة ١٨١٤.[2]

هؤلاء الرجال جميعا هم اهم من أثر في تكوين سياسة حمودة باشا الداخلية والخارجية ، وهم يمثلون ايضا الرجال الاكفاء والمسؤولين المؤهلين الذين اعتمد عليهم الباى في تنفيذ سياساته كما سيتبين لنا في هذه الدراسة.

١- انظر اعلاه ،ص٧٤.

٢- رسالة من سيالف (Astoin - Sielve) موظف بالقنصلية الفرنسية ١٨٠٧-١٨١٤ ثم قائم بالاعمال بالنيابة بها سنة ١٨١٤ الى حكومته ، تونس ٢١ سبتمبر/ ايلول ،١٨١٤ ،بلانتي ، مراسلات بايات تونس،ج ٣ ،ص ٥٣١ ، ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ، ص٩٨ ،روسو ، حوليات تونسية ،ص٢٩٣ ، تعليق رقم ١ .

ج ٠ الاوضاع الدوليـــة

من العوامل المؤثرة في تكوين سياسة حمودة باشا ، بجانب العاملين السابق ذكرهما وهما شخصية ذلك الباى وقدرة رجاله ، هناك عاملان آخران خارجيان هما ضعف الدولة العثمانية من جهة واختلاف الدول الاوروبية وعدم اتحادها في وضع حد للقرصنـــة التونسية والرق بالقوة ، من جهة اخرى ٠

١٠ ضعف الدولـة العثمانية

سنبحث مظاهر ضعف الدولة العثمانية في عهد حمودة باشا من خلال تتبعنـــا العاجل لوضعها في اوروبا ولوضعها الداخلي ٠ اما وضعها في اوروبا فاننا نلاحـــظ انه منذ ان تورطت اوروبا في حرب وراثة العرش النمساوية (١٧٤٠-١٧٤٨) ، وحرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، والحرب التي نتجت عن تقسيم بولنــــدا المرة الاولى (١٧٧٢) ، منذ تلك الاحداث تبين ان ضعف الدولة العثمانيـة اصبح غير مخفيا ٠ فان بعد تلك الدولة عن الحرب مدة جيل كامل حرم جيوشهـا الخبرة العسكرية وسبب لها تقهقرا ملحوظا في هذا الميدان ٠ وقد كانت معاهدة بلغراد (١٧٣٩) بداية سرعة ذلك الانحطاط ٠[1] هذا بالاضافة لاسباب اخرى علمية[2] وسياسية وادارية واقتصادية وغيرها أسرعت في ذلك الانحطاط الذى تخبطت فيـه الدولة العثمانية ٠[3]

وقبل أن يتولى حمودة باشا ولاية العهد باقل من ثلاث سنوات امضـــت الدولة العثمانية معاهدة كوجك قينارجة[4] (٢٢ جويلية / تموز ١٧٧٤) ٠ وهـــي

١- S. N. Fisher, The Middle East, A History, London, Humphries, 1960, p. 248.
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ فشر ، الشرق الاوسط ٠

٢- C. Brockelmann, History of the Islamic Peoples, Translated by Joel Carmichael and Moshe Perlmann, New York, Putnam's Sons, 1960, pp. 343.
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ٠

٣- بشأن اسباب ضعف الدولة العثمانية انظر Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London, New York Toronto, 1962, pp. 21-39.

٤- سميت هذه المعاهدة باسم المدينة التي عقدت فيها ، وهي تقع جنوبي سلسترة ٠

المعاهدة التي وقع بها الصلح بين روسيا والدولة العلية بعد حروب مريرة انتهت بهزيمة العثمانيين . والواقع ان هؤلاء تنازلوا في هذه المعاهدة عن امور هامة عديدة ، منها انهم منحوا الاسطول الروسي حق المرور في الدردنيل وسلموا لروسيا اعظم قلاع البحر الاسود ، تلك الامور جعلت الدول الاوروبية تنظر اليهم كدولة قد هبط اعتبارها ، الى حد بدا معه " وكأن طرد العثمانيين من اوروبا بات مسألة وقت لا غير " . وازدادت محنة الدولة العثمانية عندما اقتطعت النمسا احدى المقاطعات بعد تلك المعاهدة ، بحجج مهلهلة ، " لم يستطع الباب العالي للاقتطاع دفعا ". [1] وقد اعتبر بعض رجال السياسة المعاصرين لتلك الوقائع ، اعتبروا تلك المعاهدة تمهيدا لانهيار الامبراطورية العثمانية ، بالاضافة الى كونها وضعت تلك الدولة تحت رحمة روسيا نهائيا بل اعتبر بعضهم ان تلك المعاهدة جعلت من الدولة العلية ولاية من الولايات الروسية . [2]

في السنة الرابعة من ولاية حمودة باشا العرش (١٧٨١) ، وقبل ان يتوفى والده بحوالي سنة واحدة ، وضعت امبراطورة روسيا ، كاترينا الثانية (حـ. ١٧٦٢ - ١٧٩٦) بالاشتراك مع امبراطور النمسا جوزيف الثاني (حـ . ١٧٦٥ - ١٧٩٠) ، برنامجهما المهول لتقطيع الدولة العثمانية وتجزئتها ؛ وهو البرنامج الذى يشتمل من جملة ما يشتمل على تشجيع واعانة اليونان على نيل استقلالهم من العثمانيين . [3] وما ان حلت ، بعد ذلك ، سنة ١٧٨٧ ، واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية من جهة والروسيا والنمسا من جهة ثانية ، حتى وجد ذلك

---

١ - بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

٢ - Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, Beirut, Khayats, 1961, pp. 410-414;
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين .

٣ - فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٥٢ .

البرنامج صدى لدى الشعب الروسي الذى اقتنع به ورفع امام الامبراطورين ، اثناء زيارتهما لجنوب روسيا ، يافطات كتبت عليها عبارة : " هذه طريق بيزنطة ".[١] وفي سنة ١٧٨٣ ، بعد سنة من تولي حمودة عرش تونس اخضعت كاترينا التتار وقضت على استقلال شبه جزيرة القرم . ثم ان السلطان اكره على قبول ذلك الامر الواقع سنة ١٧٨٤ على الرغم من مخالفته لبنود معاهدة كوجك قينارجة ، و " تنازل عن شبه تلك الجزيرة نهائيا سنة ١٧٩٢ ".[٢] وفي ختام القرن الثامن عشر ، بعد ان احرقت روسيا الاسطول العثماني على شواطئ القرم ، وبعد ان انهزم الباب العالي في معارك طاحنة مع روسيا والنمسا والمانيا " وجدت الامبراطورية العثمانية نفسها مضطرة الى ان تنتقل انتقالا كاملا من الهجوم الى الدفاع ، وبدا واضحا ان تنافس الدول الاوروبية هو الضمانة الوحيدة لسلامة الاراضي العثمانية في اوروبا ".[٣] وقد اعلمت الحكومة الفرنسية حمودة باشا بتلك الاحداث الجسيمة والوضع الجديد الذى اصبح في اوروبا بسبب ضعف الدولة العثمانية . وتشير الرسالة ذاتها الى وجوب سهر كل دولة على اسطولها ومصالحها بكل حزم بعد دخول السفن الروسية ، عن طريق المضائق التركية ، الى البحر الابيض المتوسط .[٤] وعندما عقدت معاهدة الصلح المسماة بـجاسي (Jassy) بين العثمانيين والروس سنة ١٧٩٢ سمح لهؤلاء بضم مناطق شاسعة جديدة من الامبراطورية العثمانية المتداعية الى امبراطوريتهم .[٥]

١- A. Rambaud, Histoire de la Russie, 7ème édition, Paris, Hachette, 1918, pp. 492 - 493.

٢- بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤٢ ، انظر ايضا كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٤١٢ - ٤١٤ .

٣- بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

٤- رسالة من الحكومة الفرنسية الى حمودة باشا ، باريس ، ١٣ ماى / ايار ، ١٧٨٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٧٤ .

٥- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٥٢ .

حصلت بعض الراحة للعثمانيين من استمرارعدوان الاوروبين عليهم في الفترة بين السنوات ١٧٩٣-١٨٠٧ ، سنة وفاة السلطان سليم الثالث(حـ ١٧٨٩-١٨٠٧). وأسباب تلك الراحة المؤقتة من التسلط الاوروبي هي انشغال تلك الدول في قضية التقسيم الثاني (١٧٩٣) والتقسيم الثالث (١٧٩٥) لبولندا ، ووفاة الامبراطورة الروسية كاترينا الثانية (١٧٩٦) ، وكذلك قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) .[1] ثم جاء نابليون بونابرت فورط الامبراطورية العثمانية في حروب وسياسات تلك الفترة من التاريخ ، وهي الاحداث التي تندرج اكثر في وقائع القرن التاسع عشر وانماط الامبريالية الاوروبية في الشرق الاوسط وقتئذ .[2] من ذلك احتلال نابليون لمصر وما نتج عنه من تحالف الدولة العثمانية مع روسيا وانجلترا لمحاربته ،[3] ومخططات نابليون في السنتين ١٨٠٧ - ١٨٠٨ فيما يتعلق بتجزئة الامبراطورية العثمانية وتقسيم الحصص بين الدول المتغلبة في اوروبا .[4]

عندما تولى محمود الثاني عرش الامبراطورية سنة ١٨٠٨ وجد الخطر جاثما على مستقبل دولته من قبل عدة قوى اوروبية وبخاصة روسيا وبريطانيا وفرنسا .[5] هذا بالاضافة الى المخاطر الجسيمة التي كانت تتعاظم داخل الامبراطورية .[6] في سنة ١٨٠٧ والى محمود الثاني نابوليون وفرض الحصار القارى على التجارة البريطانية . ولم يفك الحصار الا سنة ١٨٠٩ بعد عقد معاهدة الدردنيل .[7] وهي المعاهدة التي ارجعت العلاقات بين تونس وبريطانيا الى الوضع الودى الذى كان سائدا

١- المصدر والصفحة ذاتهما .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما ، انظر كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٤٨٥-٤٩١ .

٣- انظر المصدر ذاته ، ص ٤٦٠-٤٦٤ ، فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

٤- كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٤٨٥-٤٨٨ ، ٤٩٠ .

٥- المصدر ذاته ، ص ٤٩٢ .

٦- انظر ادناه ، ص ١٤٤ - ١٤٩ .

٧- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٦٦ .

قبل سنة ١٨٠٧ .[(١)] غير ان تلك المعاهدة وان ارضت بريطانيا فانها اثارت غضب روسيا التي اعلنت الحرب على الباب العالي واحتلت مناطق واسعة من البلاد العثمانية المتاخمة لها . ولم تتوقف تلك الجيوش عن الزحف الا عندما عقدت معاهدة بخارست سنة ١٨١٢ بين الطرفين المتنازعين . وقد حملت بنود تلك المعاهدة من التنازلات العثمانية ما جعل السلطان محمود الثاني يطرد وزيره الصدر الاعظم من خطتـه وينفذ حكم الاعدام في اعضاء الوفد العثماني الذى اجرى المفاوضات .[(٢)] وبجانـب كل تلك المحن المدوخة اطلعت النزعة الاستقلالية في اوروبا رأسها بين "الرعايا" على اختلاف اجناسهم واوطانهم .[(٣)]

وعلى كل فان الانقلاب الجذرى الذى حدث لميزان القوى في العالم خاصـة في اوروبا ، الدول الاوروبية من جهة والدولة العثمانية من جهة ثانية ، بعد سنة ١٨١٥ ، كان يجسم ضعف الدولة العثمانية في تلك القارة ، وكان " ينعكس في المكائد التي كانت الدول الاوربية تحيكها ضد الباب العالي ".[(٤)]

كان هذا بالنسبة لمظاهر ضعف الدولة العثمانية في اوروبا . اما مظاهـر ضعفها في داخل الامبراطورية ، في العهد الذى ندرسه ، فيمكننا ان نستعرضهـا بايجاز فيما يلي :

عندما تولى حمودة باشا ولاية العهد سنة ١٧٧٧ كانت قوة الدولة العثمانيـة الداخلية وهيبتها بالنسبة لولاياتها الشاسعة في طريق الضعف والانحطاط على غرار وضعها مع اوروبا . ففي اثناء انهزاماتها في تلك القارة كانت هناك تغييرات ذات معنى بدأت تصبح ظاهرة داخل الامبراطورية العثمانية ذاتها " وهي الاحداث التي ستسبب تفاقم ضعف تلك الدولة اكثر فاكثر . وهي تغييرات ستجرف الشرق الاوسط باسره الى تغيير كامل يتجه نحو بروز وحدات سياسية صغيرة ".[(٥)]

١- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٣١ اوت / آب ، ١٨٠٩ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .
٢- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٦٦ .
٣- بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤٤ .
٤- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٥٢ .
٥- المصدر والصفحة ذاتهما .

كانت سلطة الدولة العلية على مصر ضعيفة في وقت حكم المماليك ، خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . حتى ان علي بك الذى سبق ان احتفظ باستقلاله عن الباب العالي فترة من الزمن ، عقد اتفاقية تجارية سنة ١٧٧٨ مع بريطانيا لصيانة ملاحتها في البحر الاحمر ، بدون استشارة الباب العالي .[١]
وفي سنة ١٧٨٨ وصل الوهابيون في غزواتهم الى الكويت ، وعلى الرغم من مساعي الشريف غالب (ت. ١٨١٦) امير مكة فانه لم يستطع التغلب عليهم . ولم يقف هؤلاء عند ذاك الحد بل هاجموا سنة ١٨٠١ العراق واستولوا على مدينة كربلاء المقدسة ، في سنة ١٨٠٣ ، في ايام الحج ، شنوا هجوما على مكة التي استسلمت بعد مقاومة قصيرة وغادرها الوالي العثماني بعد ثلاثة ايام . وفي ربيع سنة ١٨٠٤ سقطت مدينة جدة في ايديهم ، وكذلك المدينة المنورة . وبذلك طرد الاتراك من الحجاز الذى خضع كله لسلطان الوهابيين .[٢]

كان على السلطان العثماني ، بوصفه خليفة المسلمين ، ان يشعر بواجب تحرير الاراضي المقدسة المستظلة بحمايته ممن كانوا يعتبرون اهل بدع ومنشقين غزاة . ولكن السلطان عهد بمهمة محاربة الوهابيين الى محمد علي والي مصر ، الذى لم يتمكن من التغلب عليهم الا بعد سنين (١٨١١ - ١٨١٨) من الحروب الطاحنة ،[٣] ولم يكن ذلك الانتصار الا لفترة قصيرة من الزمن . وفيما يتعلق بمصر فانه من الجدير الاشارة الى حملة نابليون عليها سنة ١٧٩٨ وما تدل عليه من ضعف الدولة العثمانية . وكذلك اعتراف الباب العالي بولاية محمد علي واستقلاله بتلك الولاية ومحاربته للباب العالي وما احرزه من انتصارات في ذلك العهد .

١- بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٤٧ .

٢- المصدر ذاته ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

٣- المصدر ذاته ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .

أما في طرابلس الغرب فان الثورات والفتن التي اجتاحت البلاد خاصة منذ سنة ١٧٧٠ فانها ايضا تعكس ضعف الدولة العثمانية وعدم مقدرتها على حفظ أمن الاهالي هنالك .[١] واكثر من ذلك تسلط المغامر علي برغل على تلك الولاية سنة ١٧٩٤ وما ارتكبه فيها من قتل ونهب وتعذيب بلغ حدا من البشاعة لا يوصف .[٢] ومهما يكن من امر سكوت الدولة العلية على اعمال ذلك القرصان المغامر فان استيلاء جنود حمودة باشا على طرابلس وطردها للوالي المغامر واعادة علي باشا قرمانلي الى حكم ولايته على عادته قبل حلول علي برغل؛[٣] كل تلك الاحداث الجسام تعكس بكل وضوح ضعف الدولة العلية وتقهقرها .

ولعل من اكبر النوائب التي حلت بالدولة العلية في تلك الفترة عصيان والي يانينه(Janina) علي باشا الذى حكم الولاية من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٨٢٢ .[٤] وكذلك ثورة ولاة ودين على سلطة الباب العالي وعصيانهم له من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٨١٣ ، وقد تعامل هؤلاء مع الاوروبيين واستعانوا بهم ضد الدولة العثمانية .[٥] هذا بالاضافة الى الأخطار التي انجرت عن " التحالف المقدس" الذى انعقد بين حكام روسيا والنمسا وبروسيا ، والذى كان يهدف الى تحطيم الدولة العثمانية .[٦] بجانب ذلك رات تلك الفترة بداية تحرك اليونانيين للمطالبة باستقلالهم من العثمانيين ،[٧] وفي قلاقل اليونان تلك بعث حمودة باشا سنة ١٨١٠ الى جزيرة كريت بعض السفن الحربية

١- انظر رودلفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ، ترجمة طه فوزى، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٩٩-١٣٠ .

٢- انظر - Gabriel Medina , "Les Karamanli de la Tripolitaine et L'occupation temporaire de Tripoli par Ali Bourgoul", R. T. , n- 64 (1907), P. 25;
سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغل ".

٣- انظر ادناه ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ، ٣٩٦ - ٤٠١ .

٤- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٥٤ ؛ كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٤٩٩- ٥٠٢ .

٥- فشر ، الشرق الاوسط ، ص ٢٥٤ ؛ كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٤٩٥ .

٦- المصدر ذاته ، ص ٤٩٦ .

٧- المصدر ذاته ، ص ٤٩٨ .

لاعانة الاسطول العثماني في حملته على تلك الولاية الثائرة .[١] لم تكن تلك الثورات والارتدادات هي الوحيدة التي حصلت في العهد الذى ندرسه وقبيله بقليل ، بل هناك احداث جسام اخرى كان ميدانها العراق والشام وبلاد الاناضول وغيرها ، وجميعها ارهقت الدولة العلية واضعفتها .[٢]

امام ذلك الوضع المتصدع للامبراطورية في الخارج والداخل ارتاى بعض السلاطين ، في الفترة التي تهمنا في هذه الدراسة ، اصلاح الدولة وتقويتها واول هؤلاء سليم الثالث (حـ ١٧٨٩-١٨٠٧) الذى راى وجوب الاستفادة من المؤسسات والنظم التي كانت تعتبر اساسا لتقدم الشعوب الاوروبية وامتيازها ، من غير ان يكون في هذه الاستفادة " ما يطغى على صفة الامبراطورية الاساسية ". وكان اول ما بداه السلطان في هذا الامر هو "اصلاح الجيش" وذلك لانه كان يكون قاعدة الدولة بكاملها ." وكان هذا الاصلاح يهدف ،في الاعتبار الاول الى " انشاء جيش جديد ذى فعالية حقيقية يحل محل عسكر الانكشارية الذين اصبحوا منذ مدة طويلة سبب بلاء العاصمة بعد ان كانوا حماتها ". غير ان مساعي السلطان سليم الاصلاحية تلك لم تات ثمارها وذلك لان جيش الانكشارية المعارض لها صمم على احباطها . وقبل ان يتم تدريب هذا الجيش " وقبل ان يكون في الامكان الافادة منه ثار الانكشارية واكرهوا السلطان على التنازل عن العرش يوم ٢٩ ماى / ايار سنة ١٨٠٧ ؛ وذلك بعد ان استاقوا جميع انصار الاصلاح الى ميدان السباق حيث أعدموهم سواء".[٣] لقد كان سليم الثالث متقدما جدا بالنسبة الى مواطنيه ، وتوفي شهيدا لقضية الاصلاح والتطور .[٤]

١- خزينة وثائق الدولة التونسية ، حملة جزيرة كريت ١٨٠٩-١٨١٠" ،ملف رقم ٣٧٩ ،كرتون رقم ٢٢٢ ،ملف رقم ٣٧٧ ،كرتون رقم ٢٢٢ .

٢- انظر فشر ،الشرق الاوسط ،ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٢٦٥ .

٣- بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ،ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

٤- فشر ، الشرق الاوسط ،ص ٢٥٦ ، ٢٦١ - ٢٦٢ .

بعد سليم الثالث تولى ابن عمه مصطفى الرابع السلطنة ، وقد كان لعبة في ايدى الذين ثاروا على سليم • وبعد سنة وبضعة اشهر قام عليه احد ولاته ، وهو مصطفى بيراقدار حاكم ولاية (Ruschuk) ، وزحف بجيش عثماني كان تحت قيادته على اسطنبول • وقبل ان يتمكن الغزاة من تحطيم ابواب القصر اعدم السلطان مصطفى السلطان سليم واعطى أوامره بخنق شقيقه محمود • وعندما استولى الثائرون على القصر سجنوا السلطان مصطفى ورفعوا اخاه محمود (الثاني) الى العرش في جويلية / تموز سنة ١٨٠٨ •[١]

اسند السلطان محمود خطة الصدارة العظمى الى مصطفى بيراقدار ، ثم بدا في السير في طريق الاصلاح الذى كان رسمه اخوه السلطان سليم الثالث • وبعد ان كون محمود جيشا منظما جديدا على النمط الاوروبي ، في ظل جيش بيراقدار المكون من الالبانيين والبوشناق ، وضع السلطان جيشه الحديث موضع العمل وامر مصطفى بيراقدار رجاله بالرجوع الى مسقط رؤوسهم . عند ذلك ثار جيش الانكشارية من جديد "..ونسفوا مصطفى بيراقدار• وبدات حرب اهلية اجتاحت جميع شوارع اسطنبول مدة اسبوع كامل • وقد عمت العاصمة في تلك الاثناء الحرائق والانفجارات والفوضى العارمة"• وكان نتيجة تلك البلبلة اضطرار السلطان محمود الى الرضوخ للثوار ، واصبحت اعمال الحكومة مراقبة من قبل اصدقاء واعوان عسكر الانكشارية • وبذلك "أضحى تصميم اصلاح الجيش أمرا غير وارد "•[٢] وهكذا ارجيء انفاذ خطط السلطان محمود الثاني الاصلاحية التي جعلته منشيء تركيا الحديثة الى ظروف مناسبة اخرى توفرت بعد موت حمودة باشا سنة ١٨١٤ •

١- المصدر ذاته ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ •

٢- المصدر ذاته ، ص ٢٦٦ •

هذا هو الوضع الذى كانت عليه الدولة العثمانية المتداعية سواء فيما يتعلق بشؤونها مع الدول الاوروبية أو مع ولاتها او حتى في داخل عاصمتها وفي حكومتها . ومهما يكن من أمر فان ما ذكرناه من مظاهر تفكك تلك الدولة يكفي لتبين الدرك الذى انتهت اليه هيبة تلك الدولة والضعف الذى بلغته في الفترة قبيل وخلال عهد حمودة باشا . ومما تجدر ملاحظته هنا أن حمودة باشا كان على اطلاع تام على ما كان يجرى في كل من مصر واسطنبول وذلك عن عدة طرق اهمها وكيله عبد الرحمن بدر الدين الذى كان يتردد بين الاسكندرية واسطنبول ويبعث له بالتقارير والرسائل الشاملة لكل ما كان يحدث في المنطقة بصفة تفصيلية ودقيقة .[1] هذا بالاضافة الى سفراء حمودة باشا ومبعوثيه [2] والتجار وبعض قناصل الدول الاوروبية المعتمدين لدى الحكومة التونسية .[3]

هذا الوضع الذى كانت تتخبط فيه الدولة العثمانية ، وبالتالي ضعفها وعجزها ،أثرا في تكوين سياسة حمودة باشا سواء الداخلية او الخارجية منها . ويكفينا للتدليل على صحة ذلك الان ما اتفقت عليه معظم الوثائق الاصلية من ان حمودة باشا جعل من تونس في عهده دولة اكثر استقلالا عن الدولة العلية منها في اى وقت مضي في تاريخ تونس العثماني ، ليس هذا فقط بل اصبح ذلك الباى لا يقيم اى اعتبار جدي لتوجيهات الدولة العثمانية ومطالبها ، ووصل الى حد تحديها والاستقلال عنها عمليا .[4]

١- انظر مراسلات هذا الوكيل بخزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٤٣١ ،كرتون رقم ٢٣١ .

٢- انظر ادناه ،ص ٤٥٠ - ٤٥٨ .

٣- انظر اعلاه ، ١٤٢ - ١٤٤ ، انظر ايضا الاخبار والمعلومات التي كانت تنشرها جريدة L'Ambigu المعادية لفرنسا والتي كانت تصدر في لندن باللغة الفرنسية ، وتقرا في تونس .وقد كانت هذه الجريدة ، على رأى قنصل فرنسا بتونس ، تهول اخبار ضعف الدولة العلية وهزائمها امام ...

٢ • اختلاف الدول الاوروبية وعدم اتحادها في وضع حد للقرصنة التونسية والرق بالقوة

من الاوضاع الدولية التي اثرت في سياسة حمودة باشا بالاضافة الى عامل ضعف الدولة العثمانية الذى سبق وبيناه ، عامل آخر كان له تاثيره الملحوظ ايضا في ذلك الباب • هذا العامل هو عدم اتحاد الدول الاوروبية في ايقاف القرصنة التونسية عند حدها في الفترة التي تهمنا • وهو امر ساعد في ايجاد ظروف مناسبة بالنسبة للباى ليكون السياسة التي يرتئيها لبلده ويسير على مقتضاها ، في الداخل والخارج ، دون خوف من أية قوة بحرية أوروبية موحدة تهدده في استمرار نشاط قراصنته الذين يضمنون له المال والهيبة والشهرة • وحتى بعض الدول الاوروبية التي تجرأت وبعثت باساطيلها فرادى لمكافحة القرصنة التونسية لم يحالفها الحظ قط ، ولم تجد مخرجا لتلك القضية الا بالرجوع الى اجراء المفاوضات وعقد المعاهدات مع الباى • لانه هو الحل الافضل للمحافظة على مصالح تجارتها في حوض البحر الابيض المتوسط •(١)

=== روسيا والنمسا وفرنسا من جهة ، وتفسد العلاقات الفرنسية التونسية بافتراءاتها غير المحدودة ؛ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس، ٤ مارس/ اذار ، ١٨١١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص ٤٩١ — ٤٩٢ •

٤— رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس، ١٦ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس، ٣١ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ ؛ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٤ مارس/ اذار ، ١٨١١ ، بلانتي ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٩١ — ٤٩٢ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١١٢ ؛ انظر ادناه ، ص ٣٧٩ — ٣٩٤ •

١— الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣—٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٨ •

كان الاوروبيون منذ قرون طويلة يصيبهم الخوف والهيبة كلما اقتربوا من المياه الاقليمية لبلدان شمال افريقيا ، وخاصة منها تونس . وتأصل هذا الرعب فيهم الى درجة الذل لاسباب عديدة اهمها انكسار القديس لويس وموته في تونس سنة ١٢٧٠ ، وهزيمة الامبراطور شارل الخامس في حملته على تونس سنة ١٥٣٥ ، واختفاء الملك سيباستيان ملك البرتغال بعد هزيمته في المغرب سنة ١٥٧٨ ، وهو الذى بقى مقتله اسطورة في كامل اوروبا .[١] وقد تضاعف فزعهم ذاك عندما تقوت القرصنة التونسية سنة ١٥٩٨ ، وعندما اشتدت وطأتها عليهم منذ سنة ١٦١٠ .[٢]

غير ان تلك القوة البحرية الكبيرة الاهمية والمسماة بالقرصنة في ذلك العهد ،[٣] بلغت درجة من الشدة ، في عهد حمودة باشا بالذات ، مكنت تونس من الصمود امام كل محاولة تقوم بها دولة اوروبية لكسر شوكة القرصنة التونسية .[٤] ولقد بعث ذلك الوضع اعتزازا وكبرياءا لاحد لهما في نفس ذلك الباى ، وهما صفتان ولدتا

١ـ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

٢ـ المصدر والصفحات ذاتهما ؛ انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، ٣٣

٣ـ مما تجب ملاحظته هنا هو ان نظام القرصنة في البحار كان معمولا به ، وان معظم الدول كانت معترفة به ، خاصة منها البحرية ، في ذلك الزمن . ويجب الا يتبادر الى الاذهان ان بلدان شمال افريقيا هي وحدها كانت تمارس ذلك النشاط ، بل كانت عدة دول اخرى تقوم به . فقد كانت سفن القراصنة تجوب البحر المتوسط وفيها قراصنة من فرنسا ؛ انظر خاصة خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٥٩ ، كرتون ٢٠٥ . ومن بريطانيا ؛ انظر خاصة المصدر ذاته ، ملف رقم ٤٠٥ ، كرتون رقم ٢٢٤ . ومن هولندا ؛ انظر المصدر ذاته ، ملف رقم ٧٢٧ ، كرتون رقم ٢٥٦ . وحتى القراصنة الروس كانوا نشيطين في ذلك البحر في الفترة التي ندرسها ؛ انظر M. Canard, "Une description de la côte barbaresque au XVIII^e siècle, par un officier de la marine russe.", R.A., vol. 95 (1951), p. 129;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب‍ كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا بقلم ضابط روسي " .

٤ـ انظر موجز تاريخي لبلدان شمال افريقيا ، ج ٢ ، ص ٨ ، تعليق رقم ١ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

روح التشامخ والغطرسة في علاقاته مع بعض قناصل الدول الاوروبية بتونس.[1] ليس هذا فحسب بل كان حمودة باشا يستعمل تصعيد نشاط قراصنته في البحر المتوسط كاداة للضغط على بعض الدول الاوروبية . وذلك يتمثل خاصة في حالة قيام حكم جديد في احدى تلك الدول او في حالة قيام حروب بينها . ومثل الحالة الاولى ما جرى عند قيام الثورة الفرنسية ، فقد ادعى الباى ان الوضع المحدث يقتضي نقض المعاهدات المبرمة بين البلدين بسبب تغير الحكام . وبالتالي يصبح عقدها من جديد امرا لا مناص منه البتة . وبالنسبة للحالة الثانية يصعد حمودة نشاط قراصنته ليغتنم فرص ضعف وانشغال تلك الدول المتحاربة ،وكل ذلك لا يخلو من فوائد تجنيها تونس باستمرار .[2] هذا بالنسبة للدول التي تربطه معها معاهدات ، اما الدول الاخرى فلم يكن لقراصنة تونس ما يستوجب توقيرها واحترام اساطيلها التجارية في البحر ،وهي الدول التي كانت تعاني من اولائك القراصنة ومن غاراتهم الشيء الكثير .

في سنة ١٧٩٣ وجد قنصل بريطانيا ان غزوات اسطول القرصنة التونسي اصبح يحدث اضرارا بالغة بتجارة دولته ،والح على حكومته بوجوب بعث قوة بحرية بريطانية الى سواحل البلاد التونسية لاظهار المقدرة وبالتالي لضمان تقدير باى تونس واحترامه لبريطانيا . ويستطرد القنصل قائلا ان جميع الدول الاوروبية تبعث باساطيل في اوقات مختلفة الى تونس لذلك السبب ،ما عدا دولتي السويد والدانمرك اللتين وجدتا في استمرار بعثهما الهدايا من الاسلحة الى تونس خير

١- دى فلو ،تونس في القرن التاسع عشر ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٢- انظر مارسال ،موجز تاريخ تونس ،ص ١٩٧ .

طريقة لكسب صداقة تونس .[١] وبعد حوالي ستة اشهر من تلك الرسالة بعث القنصل ذاته يعلم حكومته بتفاقم قوة القراصنة التونسيين الى حد جعلهم يصيرون أسياد البحر المتوسط بدون منازع . ويؤكد أن سبب تعاظم تلك القوة يرجع الى امرين هما كفاءة باى تونس وطموحه من جهة ، وثروة تلك البلاد المتزايدة بسبب ازدهار الزراعة والتجارة والثروات والاعمال ، وذلك بصفة لم يسبق لها مثيل في تونس ، من جهة ثانية .[٢]

استعراضات الاساطيل الاوروبية فرادى واظهار قوتها امام موانيء تونس وسواحلها لم تجد أى نفع في تغيير او تليين مفعول قراصنة الباى . بل بالعكس من ذلك فقد ازداد حجم اسطولهم وتعاظمت غاراتهم وغزواتهم الى حد جعل حتى رجال السلطة في تونس ، علاوة على الباى ، لا يترددون في استعمال التجبر والشدة حيال ممثلي بعض الدول الاوروبية .[٣] وهو الامر الذى جعل مفتش قناصل بريطانيا بشمال افريقيا ينصح حكومته بتعيين قنصل جديد في تونس يكون واسع الاطلاع على شؤون شمال افريقيا وان يكون يحسن اللغة العربية وكذلك ان تكون له صلاحية اخذ بعض القرارات بدون الرجوع الى حكومته .[٤] ويضرب لنا مجيل مثالا عن عجز ملوك اوروبا في مجابهة حمودة باشا بذكره لملك نابلي الذى كان يرد على من يطلب زوجة ساقها فرصان تونس للرق بقوله : " اليس في البلاد امرأة تتزوجها؟ ... ".[٥]

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- تونس ، ٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- انظر تقرير غفل ، من الحكومة البريطانية الى قنصلها بتونس ، لندن ، ١٤ أفريل / نيسان ، ١٧٩٨ ، المصدر ذاته ، ملف ١/ ٩٥ .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٥- مجيل ، رحلة ، ص ٨٠ - ٨١ .

استمر تعزيز القرصنة التونسية في ازدياد وعملياتها ونشاطاتها في تصاعد ، وذلك سواء في البحر المتوسط أو في المحيط الاطلسي .[١] ولم تجد الدول الاوروبية في قضية القرصنة طريقة واضحة تتعامل على أساسها مع تونس ، سوى طريقة الاخافة المتبادل من الجانبين مع الاحتراز واليقظة الدائمين .[٢]

عانت الدول الاوروبية من تغلب القرصنة التونسية وتفوقها من البحـــر المتوسط الامرين . وبدأت تظهر بين رجال اوروبا وحكوماتها دعوات تهدف الى ضرورة اتحاد قوى وأساطيل تلك الدول لمحاربة بلدان شمال افريقيـــا وقراصنتها . أول من قدم مثل هذا المشروع ، حسب ما لدينا من معلومـات ، هو Dauvibert Caille سنة ١٧٨٣ . وهو الذى ، حسب ما ورد في وثائق باريس ، دعا كاتب الدولة الفرنسية ووزير خارجيتها الكونت Charles de Vergennes الى وجوب مبادرة فرنسا ، بمعية الدول الاوروبية : الى القيام بذلك " الواجب الانساني " ضد قرصنة شمال افريقيا " المخلة بالمعاهدات القائمة ولمنع استعباد حكامها للانسان الابيض ... " . ثم يؤكد السيد Caille في مشروعه وجوب تحمل حكومة فرنسا مسؤولية تحقيق ذلك وان كلفها الامـــر القيام بمحاربة تلك البلدان بمفردها .[٣]

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ وانظر ايضا رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٣٠ افريل / نيسان ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ ؛ تقرير غفل مؤرخ بسنة ١٨١٩ يعرض لنشاط القرصنة بتونس في السنتين ١٧٩٨ و ١٧٩٩ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت / اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

٣- خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ، ص ١٨٩ .

بعد اربع سنوات من تقديم ذلك المشروع ، كتب احد رجالات ايطاليا كتابا عرض فيه قضية تحتم محاربة دول شمال افريقيا ، وذيله بمشروع يضم تقديرات سياسية ومعلومات عسكرية تضمن فوز الدول الاوروبية في تحقيق ذلك العمل . أهم ما اشتمل عليه الكتاب هو ما يلي : اولا دعوة الدول الاوروبية جميعها الى بعث اسطول موحد لمحاربة دول شمال افريقيا ، وذلك بعد ان اعتبر عجز الاوروبيين وخوفهم من دول هم أقوى منها بمائة مرة كما يدعي ، اعتبره عارا وذلا لا يحتملهما سكان تلك القارة ، ثم يلقي الكاتب لومه الشديد على كل من بريطانيا وهولندا والسويد والدانمرك ، وذلك بسبب الاموال الطائلة والهدايا الثمينة التي كانت تدفعها تلك الدول كل سنة لكسب ود حكام شمال افريقيا .[1] ثم يصف الكاتب المحاولات التي قامت بها اقوى الدول الاوروبية مرات عديدة بدون نجاح ، وينسب ذلك الى عدم اتحاد قواهم ضد أولائك القراصنة .[2] بعد ذلك يشرح المؤلف وسائل نجاح مشروعه بقوله انه تجب محاربة هؤلاء بارسال قوات اوروبية موحدة تغزو السواحل الشمال افريقية ، خاصة منها سواحل تونس والجزائر ، ثم تقصف جميع المدن الساحلية فيها . بعد ذلك تنزل الجيوش الى البر وتهدم بمدافعها كل ما يعترضها . ويعطي الكاتب تفصيلات دقيقة ومنظمة لسير تلك الحملة داخل تونس والجزائر حتى احتلال العاصمتين .[3] ويوصي

---

١ - Anonyme, Mémoire concernant le système, de paix et de guerre que les puissances européennes pratiquent à l'égard des régences barbaresques, traduit de l'italien par le chevalier D'Henin (secrétaire d'Ambassade de France à Venise), seconde édition, Venize, Formaleoni, 1788, p. 19-20.

٢ - المصدر ذاته ، ص ٢٠ - ٢٣ .

٣ - المصدر ذاته ، ص ٢٥ - ٣٤ .

بلزوم التخطيط لتلك الحرب قبل نشوبها بمدة كافية ، وأثناء تلك المدة يتحتم على الدول الاوروبية مجتمعة ان تمنع بيع الاسلحة والبارود لكل من تونس والجزائر ، هذا من جهة ومن جهة ثانية يلح على فرض حصار اقتصادى محكم عليهما ايضا .(١) بعد هذا يذكر المؤلف الفوائد الجمة التي ستنتج عن نجاح المشروع بالنسبة لجميع الدول الاوروبية وبالنسبة للانسانية والحضارة جميعا ، ويؤكد صاحب المشروع على ان دول شمال افريقيا لا تقوم لها قائمة قط بل تذوب وتنهار وحدها بعد القضاء على قراصنتها . عند بلوغ تلك النتيجة يوصي الكاتب الدول الاوروبية بابرام اتفاقية صلح واحدة ونهائية ، يكون المتعاقدان فيها هما دول اوروبا جميعها من جهة ودول شمال افريقيا مجتمعة من جهة ثانية . واخيرا يدعو سكان اوروبا قاطبة للبذل والتضحية العامة من اجل تحقيق السلم والهناء والاستقرار ، الصفات التي ستعم العالم المتحضر باكمله عندئذ .(٢)

في سنة ١٧٨٩ قدم للحكومة الفرنسية مشروعان فرنسيان اخران حفظ نصاهما ، في خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . يهدف كل من هذين المشروعين الى تحطيم القرصنة الشمال افريقية وكسرها ، وخاصة منها التونسية والجزائرية . المشروع الاول رفعه للحكومة وأمضى عليه الملازم الاول (De Buissyr)، قائد مركز عسكرى بجنوب فرنسا ، مؤرخ بيوم ١٠ سبتمبر/ ايلول ١٧٨٩ . يبدأ المشروع بتعداد الاعتداءات التي ارتكبها " قطاع الطرق " قراصنة شمال افريقيا ضد جميع دول اوروبا . وبعد ان يؤكد الملازم استحالة ايقاف غزوات القراصنة المدمرة والفادحة الخسائر البشرية والمالية بالنسبة لاوروبا ، يحصر امل نجاح اوروبا في اتحاد قواها وغزو شمال افريقيا متساندة لتحطيم اساطيل القراصنة . وينتهي هذا المشروع بوصف طويل " لجشع حكام دول البرابرة" ، وبطلب يقتضي من الحكومة تبني المشروع والعمل على اقناع الدول الاوروبية الاخرى بوجوب تنفيذه .(٣)

١- المصدر ذاته ، ص ٤٤ - ٥١ .

٢- المصدر ذاته ، ص ٥٩ - ١٠٥ .

٣- خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقياه) ص ١٩٢-١٩٦ .

المشروع الثاني قدم يوم ٢٠ من الشهر والسنة ذاتهما يتألف من صفحتين فقط ،وهو غفل من اى اسم أو امضاء • يختلف هذا المشروع عن سابقه في ناحية واحدة هي انه يخصص ثلثي النص على الاقل في تبيين الفرق الشاسع بين جدارة الاساطيل الاوروبية وقوتها ،عندما تاخذ خطة موحدة ،وبين عجز وضعف أساطيل وقراصنة دول شمال افريقيا • وفي الاخير يسعى صاحب المشروع لاقناع حكومته بالضرورة القصوى لاخذها بعين الاعتبار لمقترحاته التي يؤيدها معظم سكان العالم المتحضر •(١)

بعد هذين المشروعين لم تقدم تقارير ولا مشروعات حتى ولا اقتراحات ،اعتمادا على المعلومات المتوفرة لدينا ، طوال مدة تقارب الاحدى عشرة سنة • وذلك يرجع الى انشغال الدول الاوروبية التي اجتاحتها الحروب في تلك الفترة من الزمن ، ومن اهمها فرنسا واسبانيا وبعض ممالك ايطاليا وبريطانيا وبروسيا والنمسا وهولندا وروسيا وغيرها •(٢) وهي الحقبة التي اصبح فيها الاسطول وقراصنة تونس صاحبي نفوذ وسطوة في البحر المتوسط لا ينكران ،وهي الفترة ايضا التي اصبح فيها ذلك البحر محط رحال جميع اساطيل وقراصنة دول ذلك الحوض، وكلها متناحرة متحاربة •(٣)

وعلى الرغم من ان حمودة باشا اعطى اوامره في تلك الاوقات المضطربة الى جميع السفن التونسية العاملة في البحر المتوسط يمنعها من القيام باى عمل عدائي على الاطلاق ضد سفن الجمهورية الفرنسية في ذلك البحر ،(٤) على الرغم من ذلك فان المشروع الاخر الذى خطط لمحاربة تونس وتحطيم قواها البحرية كان مشروعا فرنسيا قدم للحكومة الفرنسية ذاتها سنة ١٨٠١• هذا المشروع المؤرخ بيوم

١- المصدر ذاته ،ص١٩٧-١٩٨ •

٢- غرانشان ، مهمة بليفيل في تونس،المقدمة ،ص٨•

٣- انظر G. Grosjean, La maitrise de la Mediterrannée et la Tunisie pendant la Revolution francaise (1789 - 1802), Paris, (n. p.), 1914, p. 100 - 102.

٤- غرانشان ،مهمة بليفيل في تونس،المقدمة ،ص٨ •

٢٦ ماى / ايار هو عبارة عن مخطط يرمي " الى تهديم القرصنة التي تمثل أحد أهم موارد تونس ، واحد اسس كيانها " . ثم يبرر المشروع الغفل هذا الاجراء بوجود رئيس قادر ، وهو يرمز الى نابليون بونابرت ، على رأس امة حرة ومحاربة . ويلح على وجوب محاربة الفساد واقتلاعه من جذوره ، وذلك لا يتم الا بفتح البلاد التونسية وتطهير البحر المتوسط من قوتها البحرية المستبدة وتعدياتها الدائمة . ثم يصف ذلك المشروع الابتهاج الذى سيعم سكان تونس عندما يرون جنود الجيش الفرنسي وهو يقتلع جذور الفساد فيه .(١)

ان ما يمكننا ان نؤكده هنا هو أن تلك المشاريع بما فيها من دراسات دقيقة واقتراحات ملحة ، لم يكتب لواحد منها التدرج من حالته النظرية الى حالة العمل والتنفيذ . ويخبرنا القنصل البريطاني سنة ١٨٠٥ بان القرصنة التونسية ضد الدول المسيحية امر ليس من السهل قطع ايقافه . ويبني حكمه ذاك على امرين هما اولا عدم اتحاد الدول الاوروبية في جعل حد لذلك النشاط واستغلال باى تونس لذلك الموقف بصورة دائمة ، بل يذكر القنصل ان حمودة باشا كان يبني سياسته تجاه أوروبا على أساس الخلاف بين دولها . الامر الثاني هو الكره المتأصل الذى يحمله التونسيون منذ صغرهم لكل اوروبي ، ويؤكد على ان اول الكلمات التي يتعلمها الصبي هناك هي ان يحارب النصارى ويغزوهم ، وهي آخر الكلمات التي ينساها التونسي في حياته .(٢) هذا وان كنا نلاحظ نقصا متزايدا في عدد الرقيق الاوروبي في تونس

١- خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٩ سبتمبر/ايلول ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

منذ حوالي سنة ١٨١٠ فان ذلك لا يرجع الى اى نوع من أنواع الضغوط الاوروبية العسكرية ، وانما يرجع الى عتق تونس الى اكثر رقيقها الاوروبي بناء على اتفاقات ومفاوضات مع فرنسا اقتضت ... ، بعد دفع اموال معينة لتونس، عتق ارقاء البلدان الايطالية وغيرها التي الحقت بالامبراطورية الفرنسية واصبحت تعتبر جزءا منها .(١) والوضع ذاته يصدق على المفاوضات التي اجريت بين تونس وبريطانيا في الفترة ذاتها والتي نتج عنها عتق معظم الارقاء البريطانيين والارقاء الملحقين ببريطانيا مقابل مقدار مالي على كل فرد منهم .(٢)

وان كان لم يبق لدى حمودة باشا وكبار تجاره عدد وافر من أرقاء أوروبا بعد المفاوضات التي جرت في شأنهم كما ذكرنا ، فان نشاط القرصنة التونسية لم يفتر ، وذلك بسبب استمرار تطبيق حمودة باشا لسياسته المتاثرة باختلاف الدول الاوروبية وعدم اتحادها في جعل حد للقرصنة بالقوة .(٣) يذكر الباجي المسعودى تفاقم نشاط القرصنة التونسية بعد سنة ١٨٠٧ بقوله : " ... بعد ان تغلب حمودة باشا عن الجزائر في حروبه وتحلت تونس بالعز والامان ، اتخذ الامير المذكور عدة أساطيل للغزو فاستولى على مغانم كثيرة وسبي جم ."(٤)

١- رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٨ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٨٥-٤٨٦ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٩ جويلية / تموز ، ١٨١٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٠٣ ؛ انظر ادناه ، ص ٤٤١ تعليق رقم ٢ .

٢- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٧ افريل / نيسان ، ١٨١٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٠٢ ؛ انظر ايضا غرانشان ، " زيارة كارولين دى برانشفيك " ، المجلة التونسية ، عدد ١٧ (١٩٣٤) ، ص ٥٩ - ٧٢ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى دولته ، تونس ، ٩ جويلية / تموز ، ١٨١٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٠٣ .

٤- الخلاصة النقية ، ص ١٣٧ .

قبل وفاة حمودة باشا بخمسة عشر يوما فقط ورد على وزارة الخارجية الفرنسية من لندن بيان بتالف من اربع صفحات متوسطة الحجم مكتوبة باللغة الفرنسية ، مؤرخ بيوم ٣١ أوت / آب ١٨١٤ ٠ هذا البيان الممهور بتوقيع W. Sidney Smith (١٧٧١ - ١٨٤٥) ينص على ضرورة ازالة الاسترقاق من قبل دول شمال افريقيا ،مع شرح للطرق وللوسائل التي ستتخذ لانجاز ذلك الامر٠ وبعد ان يشرح اللورد Smith الاسباب التي دعت بريطانيا للقيام بتلك المبادهة المؤيدة من قبل مؤتمر فينا (١٨١٤-١٨١٥) وهي اسباب انسانية وحضارية كما يدعي ،يذكر ان وسيلة تحقيق ذلك سيكون ،في صورة عدم قبول تلك الدول ، عن طريق استعمال القوة الضاربة ٠[1] مع هذه الوثيقة الهامة حفظت في تلك الخزينة عدة نسخ لرسائل بعث بها " رجال ذوو مناصب عالية " خارج بريطانيا تؤيد اللورد Smith في مشروعه وتلح عليه في انجازه ٠[2]

بعد وفاة حمودة باشا بسنة وشهر واحد ،في يوم ١٥ اكتوبر / تشرين الاول ١٨١٥ ، نزلت قوة كبيرة من القراصنة التونسيين جزيرة Saint - Antioche[3] التابعة للتاج البريطاني في ذلك العهد وساقت معظم سكانها الى الرق بتونس ٠ وقد احدثت تلك الغزوة التي عمت اخبارها بسرعة فائقة جميع انحاء أوروبا ، أحدثت صيحة هول واشمئزاز في بلدان تلك القارة ٠[4] وقد نتج عن هذه الحملة تصعيد كبير لقضية وجوب منع بلاد شمال افريقيا من ممارسة القرصنة والرق ، وأصبحت عشرات الخطب الحماسية تلقى في مختلف المؤتمرات والمجالس السياسية

١- خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ،مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ، ص ٢٣٥ - ٢٣٨ ٠

٢- انظر المصدر ذاته ، ص ٢٣٩ - ٢٨٧ ٠

٣- تقع هذه الجزيرة في الجنوب الغربي من جزيرة سردانية ٠

٤- P. Grandchamp, "Chronique de l'aucien temps", R.T., no. 21 (1935), pp. 83-89.

والدينية تطالب الملوك بايقافها حالا او الدخول في حروب صليبية جديدة.[1]

في أوائل شهر افريل / نيسان سنة ١٨١٦ اتجه اللورد Exmouth على راس اسطول بريطاني قوى الى بلدان شمال افريقيا كمفوض من قبل الدول الاوروبية المشاركة في مؤتمر فينا لجعل حد نهائي للقرصنة والرق![2] وقد نجح ذلك القائد العسكري في عقد معاهدة مع داى الجزائر بعد ان دك الاسطول البريطاني حصون مدينة الجزائر البحرية والكثير من سفنها [illegible] الراسية في ميناء تلك العاصمة.[3] وعندما وصل ذلك القائد الى ميناء حلق الواد يوم ١٢ افريل / نيسان كانت القنصلية الفرنسية والقنصلية السويسرية بتونس قد بدأتا منذ مدة المفاوضات مع الحكومة التونسية تهدف الى نفس الاهداف التي يرمي اليها اللورد الانجليزي من مهمته تلك. وبعد ضغوط كبيرة من Exmouth أمضى محمود باى على المعاهدة كما قدمها القائد يوم ١٧ افريل. ثم اتجه ذلك الاسطول الى طرابلس الغرب يوم ٢٤ من الشهر ذاته حيث اجبر الباشا هناك على امضاء معاهدة مماثلة. غير ان المعاهدات الثلاث لم تنل رضا الدول الاوروبية لانها لم تكن في بنودها ونصها قاطعة وملغية لجميع انواع القرصنة والرق.[4]

١- موجز تاريخي لشمال افريقيا، ج ٢، ص ٣ - ٦.

٢- غرانشان، " زيارة كارولين دي برانشفيك "، المجلة التونسية، عدد ١٧ (١٩٣٤)، ص ٥٩ ؛ انظر ايضا لوغران، دراسة تاريخية لتونس، ص ٤٤ - ٤٥.

٣- موجز تاريخي لشال افريقيا، ج ٢، ص ٧-٩، لوغران ؛ دراسة تاريخية لتونس، ص ٤٢ - ٤٤.

٤- انظر تفاصيل هامة تتعلق بهذا الموضوع، موجز تاريخي لشمال افريقيا، ج ٢، ص ٨ - ١٥٣ ؛ روسو، حوليات تونسية، ص ٣٠٨ - ٣١٦ ؛ لوغران، دراسة تاريخية لتونس، ص ٤٣ - ٤٦.

ولئن كانت تلك المعاهدة لم ترض الدول الاوروبية فانها حررت كثيرا من الارقاء الذين كانوا في تونس ، و خففت من وطأة القرصنة في البحر المتوسط الى درجة ملحوظة جدا ،[١] وكذلك جعلت اسرى الحرب لا يعتبرون رقيقا ويملكون بل " يعاملون معاملة المسجونين برفق ، حتى تضع الحرب ا ارها ، فيسرحون من غير فداء ".[٢] أما في تونس فقد نتجت عن ابرام تلك المعاهدة مضاعفات داخلية سيئة من أهمها ثورة جند الترك سنة ١٨١٦ التي كان من اسباب اندلاعها تسريح الباى للاسرى والرقيق الابيض ![٣] وقبل ان ننهي حديثنا عن هذا العامل في تكوين سياسة حمودة باشا يجدر بنا ان نشير الى ان القرصنة لم تنقطع بعد تلك المعاهدة بتاتا ، بل بقيت عاملة ولكن بصورة أقل شدة مما كانت عليه قبلا .[٤] ولم تتوقف بصفة نهائية الا سنة ١٨١٩ تنفيذا لمقررات مؤتمر Aix - la - Chapelle الذى انعقد سنة ١٨١٨.[٥]

١- خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٤٢١ ، كرتون رقم ٢٣٠ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٣١٥ - ٣١٧ .

٢- خزينة وثائق الدول التونسية ، ملف رقم ٤٢١ ، كرتون رقم ٢٣٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١١٧ ، ١٢٠ .

٤- موجز تاريخي لشمال افريقيا ، ج ١ ، ص ٧١ .

٥- المصدر ذاته ، ج ١ ، المقدمة ؛ J. Mallon, L'influence française dans la régence de Tunis avant l'etablissement du protectorat, Paris, Publications Coloniales, 1931, pp.140-141;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية .

قبل ان ننتقل الى الفصل التالي من هذه الدراسة تجدر بنا الاشارة الى ان عدم اتفاق الدول الاوروبية على وضع حد للقرصنة التونسية في البحار ، وهو الامر الذى أثر على سياسة حمودة باشا كما ذكرنا ، عاصرته امور اخرى أثرت بدورها في سياسة حمودة باشا ،وهي الاحداث التي جرت في مختلف أرجاء أوروبا في العهد الذى ندرسه . من أهم تلك الاحداث الثورة الفرنسية وما نتج عنها من حوادث داخل فرنسا ثم من حروب اجتاحت أوروبا خاصة في عهد نابليون . وكل تلك الاحداث شغلت الدول الاوروبية عما كان يجرى في تونس خاصة وفي شمال افريقيا عامة .

هذا بالنسبة لاوروبا ، اما في شمال افريقيا ذاتها فان وضع طرابلس الغرب المضطرب بسبب تناحر آل قرمانلي على السلطة مع ضعف الدولة العثمانية وانشغالها بمشاكلها الخارجية والداخلية في الفترة التاريخية التي ندرسها ، كما سبق تبيانه ، كل ذلك أثر في سياسة حمودة باشا . وما حملته على طرابلس واحتلاله لها الا مظهر من مظاهر ذلك التأثير . أما فيما يتعلق بالجزائر فان زيادة تسلطها على استقلال تونس ، في عهد حمودة باشا ،حدا بهذا الباى الى اعلان الحرب ضدها ونيل حريته واستقلال بلاده من سيطرة طالما عانى منها بايات تونس وسكانها على حد سواء . وسنبحث علاقات حمودة باشا السياسية مع كل من طرابلس الغرب والجزائر في آماكن اخرى من هذه الدراسة .

الفصـــــــل الخامـــــــــس

مظاهـــر ســـياســة حمودة باشا في الداخـل

أ • في مجال الحكم والادارة

لعل من ابرز مظاهر سياسة حمودة باشا الداخلية عمله الدائم على حسم الخلافات بينه وبين أفراد العائلة الحســينية الحاكمة • وهو يهدف من وراء ذلك اتحاد الكلمة وابعاد غيوم الفتن والمحن عن بلاده •[1] وقد سلك ذلك الباى سبيلين اثنين لتطبيق ســياسته تلك والوصول الى هدفه ذاك • سبيل معالجة الامور مــع أفراد العائلة بالمحبة والود ، وســبيل معالجتها بالشــدة والبطش لمن ارتـــآى منهم المخالفة والعصيـــان •

١ • حسـم الخلافات بينـه وبين افراد العائلـــة الحاكمـة

(أ) محاولاتـه لارضائهـم

لقد ســبق وذكرنا أن توليــة حمودة باشا العرش بعد أبيه كانت تولية غيــر شــرعية بسبب وجود محمود واسماعيل ابني محمود باى ، وهما أصحاب الحق فــي حكم البلاد •[2] وذكرنا ايضا ان محمود باى رضي ان يتنازل عن العرش لصالــح ابن عمه حمودة ،وأنه كان أول من بايع الباى الجديد وقدم له الولاء والطاعة سنة ١٨٨٢ •[3] وكان رد حمودة على موقف ابن عمه الاعتراف بالجميل والتقديــر والاحترام ،حتى انه لما تقدم محمود لمبايعة حمودة امتنع هذا عن مد يده لتقبيلها اجلالا له •[4]

١ـ مقديش ،نزهة الانظار ،ج ٢ ،ص ٧٢ •

٢ـ انظر اعلاه ،ص ٦٤ـ٦٥ •

٣ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٢ ،ص ١٧٧ ؛انظر اعلاه ،ص ٦٥ •

٤ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

ثم حباه في كامل عهده بعطف ومحبة كبيرين ، بل كان يستشيره في اهم امور الدولة ويثق بنصحه لخالص محبة بينهما ...". (١) ولم يقف حمودة عند ذلك الحد في تكريم ابن عمه بل زاد فصاهره على احدى اخواته فتعاظمت بذلك المحبة وازدادت . (٢) وأصبح بعدئذ يزور اخته في بيت ابن عمه محمود كل يوم. (٣) وبتلك السياسة الرشيدة ضمن حمودة ولاء اخطر منافس له على العرش، بكل احقية وشرعية ، في كامل عهده الطويل . وبعد ان توفي حمودة وتغيرت سياسة عثمان ـ الباى الجديد آخو حمودة ـ مع ابن العم محمود احبك هذا مؤامرة ضده كانت نتيجتها مقتل عثمان باى وابناءه وأهله ، وارتقاء محمود على عرش تونس. (٤) ويمكننا ان نلاحظ الفرق الشاسع بين جدارة سياسة حمودة باشا وجدواها من جهة ، وبين ضعف وسياسة اخيه وخذلانه من جهة اخرى في هذا المجال بقول محمود مقارنا بين السياستين والمعاملتين :

> "... وقد سلمت لمن قبله [قبل عثمان باى اي حمودة باشا] ، وان كان اصغر مني ، لما لا ينكر عليه من الحزم والكفاءة . ومع ذلك فقد كان يجاملني ، ويأتي دارى ، ولا يقطع امرا مهما دوني ، ويثق باولادى ، ويختصهم بما لا يخص به ابناء أخيه . اما هذا [عثمان] فانه غض الطرف عني ، وعاملني معاملة صغير البيت ، واخرجت من دارى ، حتى رام ابنه التقدم علي ...". (٥)

---

١ ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٢ ـ مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ وابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٣ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

٤ ـ انظر اعلاه ، ص ٧٤ ـ ٧٦ .

٥ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، انظر ايضا ج ٣ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ ، تفاصيل اخرى تتعلق بمعاملة عثمان باى السيئة لمحمود باى ، بـ زمرلي ، "يوسف صاحب الطابع" ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

بجانب تكريم حمودة لابن عمه محمود لم يفته الانتباه الى ابن عمه الثاني - اخي محمود - واخواته بل كان يغدق عليهم العطايا والامتيازات ، ويبادر الى خدمتهم ومجاملتهم والعطف عليهم دائما .[١] سيرة حمودة باشا الحميدة تلك مع عائلة عمه ، جعلتهم ينجذبون جميعا وينضمون بنية صادقة واخلاص الى باي اهلته امكاناته الفكرية ومعاملته الودية لكسب اعجاب وتقدير الناس ، حتى اولائك الذين يكنون له اكبر العداء والبغضاء .[٢] وقد تمكن حمودة بفضل سياسته تلك من اكتساب ولاء افراد عائلة عمه التي لا يشك في شرعية مطالبتها بعرش تونس أحد ، لا في الداخل ولا في الخارج ، وخاصة داى الجزائر الذى كان دائم الاستعداد للتدخل بالقوة واحتلال تونس بدعوى الدفاع عن الحق الشرعي للباى المدعي ، واعانته حربيا لاستلام الامرغصبا . وهو موقف قلما تخلى عنه دايات الجزائر للتدخل في شؤون تونس والتحكم في باياتها .[٣]

فيما يتعلق باخوته واخواته ،[٤] كان حمودة باشا كثير الحب لهم ، شديد العطف عليهم . وكان لا يتردد في ارضائهم والاخذ بيدهم ، وقد بلغ به ذلك حدا جعله يكاتب بعض اخواته بخط يده ، وهي وثائق لا زالت محفوظة في خزينة وثائق الدولة التونسية .[٥] وذلك ليؤكد لهم اكثر فاكثر حنوه وعطفه من جهة واستعداده الدائم لقضاء حوائجهم والسهر على مصالحهم من جهة ثانية .

١- زمرلي ، المصدر ذاته ، عدد ٢١ ، ص ٤١ .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما .

٣- باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٧ ، وانظر اعلاه ، ص ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ - ٥٨ ، ٦٠ .

٤- انظر اعلاه ، ص ٦٨ .

٥- ملف رقم ٣ كرتون رقم ١ ، مخلف رقم ٨ ، خاصة الوثيقتان رقم ١٤ ، ١٥ .

ومن الجدير بالذكر ان تلك الرسائل المكتوبة باللهجة العامية التونسية ، تفيض جملها بمعاني الود الخالص والحب الصادق .[١] ويصدق ذلك خاصة على اختة خدوجة التي كانت تتبضع من فرنسا بمبالغ مالية كبيرة تضاف الى حسابات حمودة باشا في القنصلية الفرنسية . وآخر حسابات تلك المشتريات اعلم بها القنصل حكومته قبل وفاة الباي بعشرة ايام فقط .[٢]

اما معاملة حمودة باشا لاخيه عثمان فانها كانت تختلف عن معاملته لاخواته من حيث العطايا والجرايات المالية . وأهم سبب يذكره ابن ابي الضياف لتوضيح سياسة حمودة تلك تجاه آخيه ، هو خوف الباى من نتائج غنى عثمان الذى قد يسبب اعلان العصيان والثورة . يذكر المؤرخ تلك المعلومات بقوله :

" كان [عثمان] ... قانعا بما قسم الله له من الرزق ، لان اخاه [حمودة] لم يجعل له الا ما يسد الخلة فقط ... والسياسة يومئذ تمنع أمثاله من تعاطي الغنى خشية الخروج ، لان الغنى أعون شيء على ذلك ...".[٣]

هذا وقد كان حمودة احيانا يعقد اجتماعات مع افراد العائلة المالكة لاستشارتهم في ما يعرض على الدولة من امور واحداث هامة .[٤]

١- انظر صورة للرسالتين بالملحق رقم ٢ .

٢- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تولون ، فرنسا ، ٥ سبتمبر/ايلول ، ١٨١٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٥٢٣ .

٣- اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

٤- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

يذكر مقديش ما ترتب عن سياسة حمودة المتميزة بحبه وعطفه واحترامه لافراد العائلة بقوله: " ... فاتحدت الكلمة وتمت عليهم وعلى الرعية النعمة وماتت شياطين الانس والجنة وانقطعت المظالم والظلمة وقد انطفت نيران الفتنة ولله الحمد والمنة ... ".(١)

(ب) شدته وبطشه للمخالفين له

ذلك كان وجها لسياسة حمودة باشا في علاقته مع افراد العائلة الحاكمة . اما الوجه الثاني للعلاقات فقد كان يتصف بالشدة والحذر بل البطش احيانا لمن تحدثه نفسه من الامراء بالمخالفة او العصيان .

تحدثنا سابقا عن صفات حمودة باشا ، وذكرنا عندئذ انه كان فطنا شديد الحذر ، وبينا ان من مظاهر تلك الصفة انه حتى عندما كان يذهب الى قصر نزهته خارج العاصمة كانت تصحبه كوكبة من حرسه الخاص وهم مدججون بالسلاح . وانه كان لا يبقي احدا من الامراء في باردو عندما يكون هو خارجه ، بل ياخذهم معه اينما ذهب ، وهي اجراءات عبر عنها القنصل البريطاني بانها "غريبة ولا يماثله فيها اي حاكم في العالم اجمع ".(٢) وذكرنا في مكان اخر من هذه الدراسة ان حمودة في احدى المرات خرج على راس المحلة واصطحب معه كبار امراء البايات الشيء الذي جعل تلك المحلة تعرف بمحلة " البايات الخمس " . وقد فعل حمودة ذلك ليسد كل ثغرة يكون فيها احتمال حدوث عصيان من قبل امراء العائلة .(٣)

١- نزهة الانظار ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

٢- انظر اعلاه ، ص ٩١ .

٣- انظر اعلاه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ وانظر ايضا رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٢٨ نوفمبر / تشرين الثاني ، ١٧٨٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

سياسة الحذر والحيطة هذه سار عليها حمودة منذ ان كان وليا للعهد ومشاركا لابيه في حكم البلاد (١٧٧٧-١٧٨٢) . وقد بلغت قسوة حمودة وشدته مع امراء البيت اقصاها مع اولئك الذين يبدون ميلا للتعامل مع الجزائريين لاحداث الاضطرابات والفتن بتونس.(١)

مر بنا بهذه الدراسة ان يونس باى ثار على ابيه علي باشا سنة ١٧٥٢ ، وانه دارت بين المتصارعين معارك عديدة كانت نتيجتها هروب يونس باى من القصبة خفية مع بعض خواصه الى قسنطينة في شهر جوان / حزيران من سنة ١٧٥٢.(٢) واغتنم بايات قسنطينة حلول يونس بمدينتهم فشددوا عليه الحراسة وابقوه في ايديهم في حكم المسجون ، وذلك للتشغيب على بني عمه حكام تونس الى ان توفي سنة ١٧٦٨.(٣) ومن الجدير بالذكر ان يونس هذا وآله وابناءه كونوا جبهة في العائلة الحاكمة دائمة السعي للاستيلاء على العرش بدعوى احقيتهم فيه منذ وفاة علي باشا سنة ١٧٥٦ . وما كان التجاء يونس الى الجزائر الا لانتظار الظروف المواتية للانقضاض باعانة داى الجزائر ، على عرش تونس والاستيلاء عليه . وقد قضى يونس نحبه في قسنطينة دون بلوغ مرماه.

تبادر الى الاذهان عندئذ ان دعوة يونس قد وصلت الى نهايتها بوفاته . غير ان الاحداث التي جرت اثر الموت مباشرة اتت على ذلك التفاؤل بعد ان تمكن اسماعيل ابن يونس باى من الالتحاق بالجزائر سنة ١٧٦٨ لمواصلة المطالبة بالعرش،

١- مجيل، رحلة ، ص ١٥ - ١٦ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ؛ انظر اعلاه ، ص ٦٠ .

٣- المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

وللنفخ في نار الحرب والفتنة بين البلدين المتجاورين .[١] وفي تلك العاصمة تزوج اسماعيل ببنت احد اعيان الجزائر وقد رزقا من زواجهما ذاك بابن سمي حسنا .[٢]

في عهد حمودة باشا انتقل اسماعيل هذا من الجزائر واستقر بتونس بموافقة حمودة ورضاه . وذلك بعد ان اعطى اسماعيل الوعود القاطعة بعدم التدخل في شؤون الحكم والسياسة البتة وحلف على ذلك الايمان الغليظة .[٣] غير ان اسماعيل لم يصدق في عهده ذاك وكشف الباى وثائق تثبت اتصالات ذلك الامير بداى الجزائر ، بل صودرت من بيته رسائل متبادلة سرا بينه وبين الداى . ويرجع الفضل الاول لاكتشاف تلك المراسلة الى وكيل الجزائر بتونس الذى لم يكن يخفي شيئا من المعلومات والاسرار المتوفرة لديه على صديقه الحميم باى تونس .[٤] فما كان من حمودة باشا الا ان بطش بذلك الامير على التو وقتله خنقا في شهر سبتمبر/ ايلول ١٧٩٩ .[٥]

١- تقرير غفل ، تونس ، ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني ١٧٩٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

٣- مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

٤- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته .

٥- المصدر والوثيقة ذاتهما ، رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ و مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٦ - ١٩٧ وابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٤٢ . افادنا قنصل بريطانيا بمعلومات فريدة تتعلق بوصف شدة حمودة باشا مع امراء واميرات ما بقي من بيت يونس باى . فقد أعلمنا في رسالة كتبها لحكومته سنة ١٧٩٢ انه زار ، في "السنة الماضية" اى سنة ١٧٩١ ، سجن قصر باردو ووجد فيه اميرين واميرتين محبوسين منذ سنوات عدة لسبب كونهم افرادا من عائلة يونس . واثناء وصفه لذلك السجن المحكم الاقفال وللحياة الشاقة التي يعيشها اولائك الامراء ، يذكر القنصل ان مفتاح ذلك =

بهذا الحدث المهم تخلص حمودة باشا ،من اخر منافس خطير له على العرش مسنود بالجزائريين • وقد الح مارسال في وجوب الاعتراف بالدهاء السياسي لحمودة لما قبل برجوع اسماعيل الى تونس واستيطانه بها ،وذلك على الرغم من الشبهات القائمة حوله • لانه بذلك الاجراء " وضع اخطر عنصر على عرشه في حوزته وتحت قبضته " ،بدلا من ان يبقى محولا هداما في قبضة داى الجزائر وارادته • ويضيف مارسال قائلا انه بموت ذلك الامير خلت الجزائر من داع للفتنة من امراء تونس الذين كانوا يلتجئون الى الجزائر ، وفي ذلك الوقت فقط استطاع حمودة ان يتنفس الصعداء ويتمتع بهدوء للعمل على ازدهار بلده وتقدمها •[1]

٢• تطهير الادارة واصلاحها •

(آ) ابعاد الاتراك عن المراكز الحساسة في الدولة

منذ ان فتح الاتراك العثمانيون تونس سنة ١٥٧٤ ،جعلوا من انفسهم طبقة في المجتمع تتميز بالنبلاء والسمو على بقية الاهالي • وكذلك نصبوا رجالهم على اهم الخطط في البلاد ،وهي خطط اصبحت بحكم العادة لا يتولاها غيرهم • وقد سن الاتراك هذا النظام السياسي في البلاد حتى ينحوا عن التونسيين امكانات الاستيلاء على السلطة او الثورة عليهم •

= السجن في حوزة الباى ذاته ولا يخرج من جيبه قط • وان حمودة باشا كان يسمح للاميرين بالاتصال بالعبدات ،غير انه كلما ولد مولودا نتيجة تلك المعاشرة يخنق حالا ، رسالة من ماجرا ،تونس ١٦ فيفرى/ شباط ،١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ • ويذكر صاحب الاتحاف ان بعض امراء ذلك البيت " ماتوا حتف انوفهم بمحبسهم من بارد و ،في ازمان مختلفة ••• "، ج ٢ ،ص ١٤٢•

١ـ مارسال ،موجز تاريخ تونس،ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ، انظر ايضا روسو ،حوليات تونسية ، ص ١٩١ ، زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ،المجلة التونسية ،عدد ٢١ (١٩٣٥) ،ص ٤١•

وقد ضمن لهم ذلك النظام عدم ظهور اية زعامة او ثروة لاى من التونسيين وعمل على قهرهم وحبسهم في الفقر والخضوع .[(١)] سياسة الاستعلاء والامتياز عن بقية الاهالي الاصليين سنها الاتراك في تونس كما سنوها في ولايتي الجزائر وطرابلس الغرب .[(٢)]

كان العثمانيون ينظرون الى السكان الاصليين كبلديين (indigènes) عاجزين عن تحمل اية مهمة او مسؤولية في ادارة او حكم بلادهم . وبلغ هذا الامر بالاتراك حدا جعلهم يصنفون ابناءهم انفسهم ،اذا ما ولدوا خارج "ولايات السلطان العثماني المهمة" ، في نفس مرتبة سكان شمال افريقيا في عدم الكفاءة والاهلية .[(٣)] وقد تولدت عن هذا الشعور بالرفعة والامتياز عدة مظاهر سيئة برزت سواء في الادارة والحكم او الجيش .[(٤)]

في اوائل القرن السابع عشر فرض عثمان داى (ت. ١٦١٠) على سكان المدن ، عدا الاتراك منهم ،ضريبة عالية اطلق عليها اسم " المجبى" تصرف في لوازم وحاجيات جند الترك . وبمر الايام والسنين تعاظم شر هذه الضريبة وصارت عملية استيفائها مصدرا للمظالم والقهر والتنكيل بالاهالي .[(٥)] بجانب مظالم الاتراك

١- بيسونال ،رحلة ،ص ٦٥ - ٦٦ .

٢- تقرير غفل ،تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ،خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ،مجلد رقم ٤٠ .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤- انظر فوضى جند الترك وسيرته السيئة ادناه ،ص ١٧٥-١٧٧ ، ١٩٦-٢٠٣ .

٥- J. Pignon, Un document inedit sur la Tunisie au XVII siecle, Paris, Presse Universitaire de France , (s.d.), p. 98, note 155;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد ب بينيون ،وثيقة تتعلق بتاريخ تونس في القرن السابع عشر .

للاهالي وتحقيرهم لهم في المعاملة والاعتبار.[١] فقد كانوا لا يتحملون خدمة او حتى العمل تحت امرة باى لم يولد في " احدى الولايات الشرقية للسلطان العثماني".
وعلى الرغم من ان العائلة الحسينية هي اسرة حاكمة تركية عثمانية فان اتراك تونس بسبب انحدار مؤسس الدولة حسين بن علي من اصل يوناني ، كانوا يعتبرون باياتها وحكومتهم كدولة تونسية محلية .[٢] اما بالنسبة للاهالي فقد كان اكثرهم يعتبر ان حكام البلاد التونسية العثمانيين ، سواء منهم الباشاوات او الدايات او البايات بما فيهم الحسينيون ، هم حكام اتراك مغتصبون وغـــزاة . ويعتبرون انفسهم تحت سلطتهم مقهورين على امرهم ومغتصبين ، بدلا من ان يكونوا محكومين من قبل امراء شرعيين مرضيا عنهم .[٣]

وعندما تولى حمودة باشا مسؤولية حكم تونس وجد نفسه في هذا الوضع الادارى السيء من ضعف ولاء الاتراك للدولة وكره الاهالي المتأصل للاتـــراك ولحكومتهم وادارتهم . فلم يجد بدا من اصلاح ذلك الوضع المتدهور . واعتمادا على ما اختبره حمودة من قلة ولاء الاتراك للدولة التونسية وكثرة محاباتهم لانفسهم واستهتارهم بمصالح تونس ، وكذلك اعتمادا على ماضيهم الاسود وتاريخهم المترع بالجرائم والفوضى خاصة في عهود البايات الحسينية السابقين ، رأى حمـودة باشا ان اقوم سياسة هي سياسة ازاحتهم عن المراكز الادارية والعسكرية الهامة.[٤]

١- انظر وصفا قيما للعداوات والكراهيات التي كانت قائمة بين التونسيين والاتراك العثمانية ، المصدر ذاته ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، تعليق رقم ١٧٠ .

٢- وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٠ .

٣- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ يذكر بيسونال الذى زار تونس سنة ١٧٢٤ ان جميع الوظائف الادارية والحكومية الهامة كانت بيد الاتراك ، وان المواطنين التونسيين لا يحصلون على اي عمل او وظيفة ؛ رحلة ، ج ١ ، ص ٦٦ ؛ كذلك كان وضـــع التونسيين في سنة ١٧٧٦ ؛ انظر كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا بقلـم ضابط روسي " ، المجلة الافريقية ، ج ٩٥ (١٩٥١) ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٧٦ ؛ فيما يتعلق بسياسة حمودة باشا المتعلقة بضربه على يد جند الترك انظر أدناه ، ص ١٩٦ - ٢٠٦ .

الاجراءات التي ارتآها حمودة لادخال الاصلاح في هذا الميدان ،وابعاد الاتراك عن المراكز الحساسة بدأت بتوحيده لسلطة الحكم وجعلها مطلقة في يده.فان الخصومة التي لا مهرب منها بين الباى والداى كانت سببا دائما للفتن والفوضى، وهي المنازعة التي اتى عليها حمودة في اصلاحه نهائيا . وبذلك الاجراء الهام اثبت الى اى حد كان توحيد سلطة الحكم كان ضروريا لازدهار الدولة ،سواء بالنسبة لراحة الاهالي وهنائهم او بالنسبة لامن الحاكم وسلامته.(١)
عند ذلك ،ونظرا لكفاءته وحزمه ، دخل الرعب في قلوب بعض المسؤولين المقصرين والمشبوه في امانتهم ،منذ ولاية حمودة الحكم ،وتركوا وظائفهم بل هربوا الى خارج البلاد التونسية مرة واحدة . ومن اشهر هؤلاء الوزير اسماعيل كاهية صهر علي باى - والد حمودة - وأحد كبار رجالاته واعضاده ، هرب بمقادير كبيرة من اموال الدولة .(٢)

١- دى فلو ،تونس في القرن التاسع عشر ،ص ٢١٤ .

٢- اصل اسماعيل كاهية من القرج ،يعرفه صاحب الاتحاف بقوله " ... نشأ في خدمة الباشا ... علي باى الحسيني ، ونجب وبرع ، فباشر الخطط الجسيمة ، وترقى في المناصب العظيمة ... وصاهره مخدومه على بنته ... ووقعت وحشة بينه وبين الباى ابي محمد حمودة باشا ... ولما توفي سيده ،واستبد ابنه المذكور في الولاية ،خشي بادرة تلك الشحناء ... فلاذ بمنجاته ، وترك بناته في حجر امهما وخالهما "، اتحاف ،ج ٧ ،ص١٣-١٤ ؛ انظر اخبار الخلاف وعدم ثقة حمودة في ذلك الرجل سنة ١٧٧٧ ،المصدر ذاته ، ج ٢ ،ص ١٧٨ . في سنة ١٧٨٠ ارتفع شأن اسماعيل لدى علي باي الى درجة جعلت مصطفى خوجة يخاف منه على مركزه ووزارته ؛ رسالة من دى روشي الى حكومته ، تونس ، ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٨٠ ، بلانتي ،مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ، ص ١١٤ـ ١١٥ ؛في سنة ١٧٨١ عينه علي باي " كبير رجال الجمرك " وهي من اكبر واهم الوظائف بتونس في ذلك العهد ؛ رسالة من وزير خارجية فرنسا الى اسماعيل كاهية يهنئه بالخطة الجديدة ، باريس، ٤ فيفرى / شباط ١٧٨١ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ١١٥ . بعد ان تولى حمودة عرش البلاد بحوالي ستة اشهر فر اسماعيل كاهية للمرة الثانية (المرة الاولى كانت في عهد علي باي مخدومه الاول) عن طريق البحر الى اسطنبول ثم الى مصر والشام ؛ رسالة من دى روشي الى حكومته ، تونس ،

شرع حمودة باشا في السنوات الاولى من توليه العرش في ابعاد العناصر التركية عن المراكز الحساسة والعامة في الدولة رويدا رويدا.[١] وفي نفس الوقت كان يزداد ثقة وائتمانا لغير الاتراك من السكان ويسند لهم الخطط والمسؤوليات.[٢] هذا بالاضافة الى الخطط التي ابطلها الباي "... توفيرا وحفظا لمال المملكة عن اضاعته في خطط لا احتياج لها...".[٣] ويعلق صاحب الاتحاف على ذلك الاجراء الاداري بقوله ان شأن حمودة باشا كان في ذلك "... شأن اهل الحزم في الاعتناء بالمسمى لا بالاسماء والالقاب الفارغة ، فذلك من شان المستضعفين."[٤]

هكذا ، وبعد سنوات قليلة من بداية عهده ، استطاع حمودة ان يعوض عددا كبيرا من الاتراك برجال اخرين اكثر تفانيا له واصدق عملا في سبيل مصلحة البلاد.[٥] حتى استطاع في وقت مناسب ، وتحقيقا لاصلاح حقيقي وحاجة ضرورية واجبة ، ازاحة الاتراك والضرب على ايديهم بصفة نهائية وقاضية في

= ٣٠ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٨٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ؛ انظر ايضا ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٤ . فيما يتعلق بوصف الاموال الكثيرة التي هرب بها اسماعيل كاهية من تونس ، وكذلك فيما يتعلق بحياة هذا الوزير في اسطنبول ومصر انظر مقديش ، نزهة الانظار ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٧ ؛ وبعض الاشارات في نفس الموضوع بالاتحاف ، ج ٣ ، ص ١٤ ، ج ٧ ، ص ١٣ - ١٤ ؛ انظر اعلاه ، ص

١- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٦٩ ؛ باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٧ .

٢- وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٠ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

٤- المصدر والصفحتان ذاتهما .

٥- مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٩ ؛ اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٨ .

ثورة جندهم سنة ١٨١١ .

يظهر ان حمودة باشا تعرض لصعوبات وعنت كبيرين من الاتراك في تونس لما بدأ تنفيذ سياسته الاصلاحية الادارية والعسكرية ؛ وهي السياسة التي استهدفت اولا وبالذات تنحية العنصر التركي وازاحته من تأثيره ومسؤولياته في البلاد . يمكننا ان نستدل على تلك الصعوبات عندما نعلم ان ذلك الباى طلب من مفتي تونس وقاضيها محمد بن حسين بيرم ان يكتب له رسالة تمكنه من اجراء الترتيبات اللازمة بالاصلاح ، خاصة في شان ابعاد الاتراك عن السلطة المدنية والعسكرية . والارجح مما نستنتجه ان معظم المجرمين ان لم يكونوا كلهم كانوا من الاتراك . وقد اشتملت هذه الرسالة على مقدمة واربعة فصول وخاتمة ؛ يعرف في المقدمة " المسائل الشرعية " فيقول " وهي ... ما كان فعلا يكون معه الناس اقرب الى الصلاح وابعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي ... وهي استخلاص الخلفاء بارشادهم الى الطريق المنجي في العاجل والاجل ..." . وبعد ان يستعرض المفتي اقوال واعمال العلماء في مسالة الاجتهاد في تحديد السياسات الشرعية ، يعرف في الفصل الثاني " ما للوالي ان يفعله دون القاضي " . وهي الامور التي منها ان الوالي "... يستعمل في الارهاب وكشف الاشياء بالامارات الدالة وشواهد الاحوال ... ما يؤدى الى ظهور الحق .. مما لا ياخذ به القضاة ...". بعد ذلك يذكر المفتي الامور التي يختلف فيها الامير عن القاضي ، ومنها "... تعجيل حبس المتهم للاستبراء والكشف ومدته شهرا وبحسب ما يراه... ومنها انه يجوز له ضرب المتهم ضرب تعزير لا ضرب حد ... ومنها ان له فيمن تكررت منه الجرائم ولم يترجى بالحدود ... حبسه اذا اضر الناس بجرائمه حتى يموت ... ومنها انه يسمع شهادة اهل المهن اذا كثر عددهم ممن لا يسمعهم القاضي ... وان رأى [الامير] المطحة في قمع السفلة باشتهارهم

بجرايمهم فعل ... قبل ثبوت الجرايم ثبوتا شرعيا ... " . ثم ينتقل المفتي في الفصل الثالث حيث يتحدث عن " ... الدعاوى والتهم والعدوان والمدعى عليه" ، والفصل الرابع مناقشة في مسألة التعزير الذى هو " تأديب دون الحد". وفي الخاتمة يبحث المفتي ثلاثة مواضيع : "البحث الاول في القضايا بما تدل عليه القراين والامارات الظاهرة ، والثاني في الفراسة والثالث في الحسبة ...".[1] ومما يجب التأكيد عليه هو ان هذه الرسالة تبرر كل ما يوطد سلطة حمودة باشا ويطلق يده في ما يراه صالحا لاجراء تنظيماته الجديدة .

(ب) تعيين التونسيين والمماليك والنصارى واليهود في تلك الوظائف

عندما اجرى حمودة باشا التغييرات الادارية التي ذكرناها آنفا عوض الاتراك بموظفين تونسيين ومماليك ونصارى ويهود . وقد كانت له في ذلك مبادءات ميزت عهده واثرت في العهود الموالية من تاريخ تونس الحديث الى الحماية الفرنسية سنة ١٨٨١ .

أول مبادءة قام بها حمودة في هذا الميدان هو تعيينه لعدد كبير من التونسيين في الوظائف الهامة بالدولة على اعتبار انهم ابناء البلاد وبهم يضمن المصلحة العليا للدولة ، خلاف الاتراك الذين كان ولاؤهم وعطفهم منصرفا الى الجزائر والنظام القائم فيها اكثر من ولائهم للباى والبلاد التونسية .[2] غير ان هذه المبادءة لم يكتب لها التوفيق فقد اكتشف ذلك الباى بعد التجربة والاختيار عدم نجاح التونسيين في كثير من المهام التي اسندها اليهم ، وبالتالي عدل عن خطته تلك الى خطة ثانية .

---

١ ـ السياسات الشرعية ، ص١ ـ ١٣ .

٢ ـ مجيل ، رحلة ، ص١١ ـ١٢ ، ١٩ ؛ باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٧ .

مما تجدر ملاحظته في هذا المجال ان المصادر والمراجع التي اعتمدناها في هذه الدراسة لم توفر لنا معلومات كثيرة عن تجربة حمودة باشا هذه مع التونسيين • غير انه لدينا منها ما يكفي لتبريره ،او على الاقل ، لفهم الظروف والقرائن التي جعلت الباى يعدل عن برنامجه •

يذكر مقديش (ت• ١٨١٣) ان حمودة اقتنع بعد التجربة " ان تسليم الحكم والسلطة لسكان البلاد لا يعود بخير عليهم ولا على الدولة •••"•[١] ويذكر من الاحداث المبرهنة حادثة يعلمنا فيها ان احمد بن عياد الجربي التونسي خزندار علي باشا ، لما كان ابنه حمودة وليا للعهد ، هرب سنة ١٧٧٨ بجميع " الاموال " الى مدينة الاسكندرية •[٢]

١- نزهة الانظار ،ج ١ ،ص ٢٤٢ - ٢٤٣ •

٢- المصدر ذاته ،ج ١ ،ص٢٤٣ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ ؛ يذكر عبد الرحمان الجبرتي في كتابه عجائب الاثار ،ج ٤ ،ص ١١ - ١٢ ،اخبارا فريدة وهامة عن حياة ذلك الرجل التونسي الجربي في مصر• ومن ذلك قوله : " ••• ومات الاجل المكرم احمد بن عياد المغربي كان من اعيان اهل تونس وتولى بها الدواوين واثرى فوقعت ••• امور اوجبت جلاءه عنها فنزل في مركب باهله واولاده وماله وحضر الى اسكندرية فلما علم به القبطان اراد القبض عليه واخذ امواله فشفع فيه نعمان افندى قاضي الثغر وكان له محبة مع القبطان فافرج عنه [ودفع] ابن عياد لنعمان افندى الف دينار في نظير شفاعته كما اخبرني بذلك نعمان افندى المذكور ثم حضر الى مصر وسكن بولاق بشاطئ النيل ••• ومعه ابنه صغيرا ونحو اثنتي عشرة سرية من السرارى الحسان طوال الاجسام وهن لابسات لباس الجزائر بهيئة بديعة تفتن الناسك وكذلك عدة من الغلمان المماليك كانما افرغ الجميع في قالب الجمال وهم الجميع بذلك الزى • وصحبته ايضا صناديق كثيرة وتحائف وامتعة فاقام بذلك المكان ••• لا يخرج من البيت قط ولا يخالط احدا ••• فاقام نحو ثمان سنوات ومات اكثر جواريه ومماليكه وعبيده •••"•

ويمكننا ان نضيف الى حادثة ابن عياد حادثة الوزير حمودة بن عبد العزيز معلم حمودة باشا وكاتبه ووزيره ، الذى كلف بمهمة دقيقة فتصرف فيها ، لاسباب تعود الى اغراض شخصية وعداوات بينه وبين مصطفى خوجة ، بكل ما يعود على تونس ملكا ودولة من كوارث ومحن لولا ان حمودة باشا ووزيره مصطفى خوجة تدبرا الامر ومحوا ما ترتب عن عمل ابن عبد العزيز من آثار سيئة .(١)

عندما باءت خطة حمودة باشا في الاعتماد على التونسيين في الحكم والادارة بالفشل اتخذ لنفسه طريقا ثانية لاصلاح الادارة وتعويض الاتراك فيها ، وهي جلب مماليك صغار من تركيا وتربيتهم تربية خاصة ثم تدريبهم وبعد ذلك يسلمهم خطط الادارة والحكم . وقد استثنى الباى من تلك الوظائف الهامة جل الخطط الدينية وخاصة المحاكم الشرعية التي كانت بيد علماء من ابناء تونس . وكذلك خطة "شيخ مدينة" العاصمة .(٢)

يعرف المؤرخ الفرنسي الاب رينال ، المعاصر لحمودة باشا ، هؤلاء المماليك الذين كان ذلك الباى اول من اقتناهم للغرض المذكور بالذات ، بان جلهم من اصل قرجي او شركسي يجلبون الى تونس وهم اطفال صغار . وفي قصر الباى يربون ويثقفون بطريقة ممتازة خاصة بهم ، ثم يلحقون بخدمة الامير مباشرة . ومن هناك يصلون بالتدرج الى اعلى الخطط في الدولة ، وغالبا ما يتزوجون بنات الطبقة الممتازة في البلاد ، حتى بنات الباى نفسه احيانا .(٣)

---

١ _ انظر اعلاه ، ص ١٢٦ _ ١٢٧ .

٢ _ انظر ادناه ، ص ٢٥٦ .

٣ _ الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ _ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥١ _ ١٥٢ ، يوجد في تونس رجل فاضل كرس مقدارا كبيرا من وقته في نسخ المخطوطات والرسائل العلمية وهي تشمل مختلف المعارف الادبية من تاريخ وتراجم وشعر ونثر وحكم الخ ... غير ان السيد عبد المجيد السبعي صاحب هذه المنسوخات لم يكلف نفسه عناء كتابة اسم مؤلف المخطوط الذى انتسخه ولا حتى اسم المخطوط في كثير من الاحيان . وبسبب هذا الخلل الظاهر في معرفة مصادر رجل تلك المعلومات المنسوخة ، ولكوننا لا نستطيع تجاهلها ، وهي اخبار وتواريخ منقولة من مصادر اصلية في الغالب وذات اهمية فريدة =

وكان حمودة شديدا في تربيتهم مرهفا في تاديبهم لا تاخذه في ذلك رافة ولا شفقة " ... يعاقب على سوء الادب عقاب الجناية ، وياخذ البرئ منهم بالمذنب ... " .[١] ليس هذا فقط بل منعهم مخدومهم حتى التكلم بالعربية " خشية ان تكون اللغة ذريعة للخلطة ، ولا يكلمهم الا باللغة التركية خشية ان ينساها ... ".[٢] واذا وجد اثنين منهم يتساران أو يتكلمان خفية يضربهما مائة او مائتي جلدة .[٣] ومن اوائل هؤلاء المماليك واشهرهم

= لان بعضها لم يذكر في المصادر التي رجعت اليها ، رايت ان اذكر ما يرد من معلومات هامة فيها كتعليقات خارجة عن نص البحث . وذلك لزيادة الفائدة في انتظار ان نعثر عن اصولها . وسنشير الى هذه المنسوخات فيما بعد ب منسوخات السبعي ، ثم نورد الصفحات بدون الاشارة الى الجزء لانها متتالية في مختلف مجلداته المنسوخة . وفيما يتعلق بموضوع جلب المماليك ورد فيها ما يلي : " ... وفي سنة ١١٩١ [١٧٧٧] ... بايع الناس الامير حمودة باشا ابن الامير علي باي نائبا عن والده ... وفي اثناء هذا العام امر الامير حمودة باشا باشتراء مماليك من اسطنبول وامر بتعليمهم وتسليم مقاليد الامور اليهم وقال هؤلاء خير من سكان هذه البلاد حيث انهم لا اهل لهم فلا يخونوا الدولة أما هؤلاء العربان فثبت عندهم عدم عفتهم وكثرة اغراضهم ومطامعهم وخيانتهم اموال الدولة وأمر بابعادهم عن الوظائف الهامة الا المحاكم الشرعية " ، منسوخات السبعي ، ص ٧٧ .

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ - ٢١ .

٢- المصدر والصفحتان ذاتهما .

٣- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٩ .

وانجحهم وزيره المشهور يوسف صاحب الطابع .[١] يذكر ابن ابي الضياف ان حمودة مرض بالحمى سنة ١٨٠٠ ، بعد موت ابنه " ... وبقي خمسة عشر يوما في بحرانها [الحمى] مغمى عليه ..." فادار رجال حكومته ، واقواهم سلطة عندئذ يوسف صاحب الطابع ، شؤون الدولة بكل نزاهة وكفاءة . حتى لما عوفي الباى من مرضه عرضت عليه اعمالهم وانجازاتهم فاستحسنها وشكرهم و " لم يعطل شيء من امور المملكة ."[٢]

وما ان حلت سنة ١٨٠٨ ، وهي السنة التي كان فيها الزائر الانجليزي بتونس ، حتى وجد الوضع القديم الذى كان سائدا في البلاد قد انقلب تماما ، وكاد ان لا يجد من الاتراك في الخطط والوظائف الهامة احدا . وانما الرجال الذين كانوا يمسكون امور الدولة جميعها هم من المماليك ،[٣] او من الاوروبيين بقسميهم اولائك الذين اعتنقوا الاسلام أم الذين بقوا على نصرانيتهم .[٤] وكذلك كان الامر بالنسبة لمعظم موظفي القصر .[٥] وقد استمر ذلك الوضع في اخر عهد حمودة باشا ثم تواصل في العهود التي تلته الى اواخر القرن التاسع عشر.[٦]

١- المصدر ذاته ، ص ٦٧ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

٣- يذكر صاحب الاتحاف ، ج ٨ ، ص ١٤٨ ، مفاضلة بين المماليك الجراكسة والقرج واليونان في تونس ، مع تعريف بصفاتهم وخصالهم . يقول : "... نعم أن المماليك الجراكسة والقرج يكرهون المماليك اليونان لمبالغتهم في الملق لاسيادهم ودناءة طباعهم ، ويرون ان اداء مراسم العبودية يكون بقدر الحاجة وبدون اخلال بالمروءة ، وفي طباعهم اباءة الضيم وكرم الاخلاق وحب الانسانية . ويرون فضلهم على اليونان لكونهم عريقين في الاسلام ، واثمانهم اضعاف اثمان غيرهم ، وقد شاهدت [المؤلف] ما يؤيد ذلك في جرائد اثمان مشتراهم ."

٤- مجيل ، رحلة ، ص ١٩ .

٥- المصدر ذاته ، ص ٢٤ - ٢٥ ، انظر اعلاه ، ص ١٣٦ - ١٣٩ ، وادناه ص ١٨٢ .

٦- مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٩ .

وقبل أن ننتقل الى التحدث عن الموظفين اليهود الذين اعتمدهم حمـــودة في ادارته يجدر بنا ان نشير الى ان هؤلاء الأوروبيين ، سواء منهم من اسـلم او من تمسك بدينه الأصلي ، كانوا يحتلون مراكز من اهم مراكز الدولة نفـوذا وتأثيرا وسلطة . فقد كان منهم Mariano Stinca ، [1] وصديقـه ومعينه وخليفته Francesco Romano اللذان يصفهما قنصل بريطانيا بان كلا منهما له من الأهلية والقدرة ما يوازى نشاط مائة من الكتـــاب (Secretaries) . [2] وكذلك Etienne Famin ، [3] والحكيم فرانك . [4] ومن اشهرهم ايضا النابوليطاني الذى اسلم في تونس وتولى خطة والي بلقب " Gardien - Bachi " بعد ان غير اسمه الاصلي . [5] و Andrea Poggi رجل الاعمال الذائع الصيت والقوى النفوذ فـي تونس ، وهو الذى كان يدير شؤون اعمال وتجارة العديد من كبار اغنياء تونس، والذى كان يتمتع بثقة حمودة باشا غير المحدودة بسبب عطف وتأييد يوســف صاحب الطابع . غير ان نجم النحس طلع في حياة Poggi ، وبعد عمـل مثمر دام احدى وعشرين سنة في تونس ، توفي سنة ١٨٢٧ فقيرا معدما مقهورا مظلوما بعد ان وجهت ضده تهمة الاتجار بتهريب الخمر الى تونس سنة ١٨٠٩ . [6]

١ـ انظر اعلاه ، ص ٧٤ ، ١٣٧ ـ ١٣٩ .
٢ـ رسالة من أوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٢ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ .
٣ـ انظر اعلاه ، ص ١٣٦ .
٤ـ انظر اعلاه ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .
٥ـ مجيل ، رحلة ، ص ٢٨ .
٦ـ انظر M. Gondolphe , " La tragique aventure d'Andrea Poggi 1809", R. T., no-167(1927), pp. 41-43, 49, 56.
سنشير الى هذا المصدر فيما بعد ب بوغجي ، " سيرة " .

فيما يتعلق بتوظيف اليهود في سلك الخطط الهامة بالدولة التونسية ،
يذكر القنصل البريطاني سنة ١٨٠٢ ان حمودة باشا كان هو اول من
سن تلك السياسة الادارية وباركها . بل كان الباى ، كما يؤكد القنصل ،
اكثر استعدادا وتهيوءا للاعتماد عليهم وتفضيلهم حتى على الاوروبيين .[١]
ويجد القنصل تفسيرا لميل الباى الى توظيف اليهود وتفضيلهم عن الاوروبيين
بقوله ان الداعي الى ذلك هو كون اليهود اذا ما اغتنوا ، وهو مايحدث
غالبا ، تكون املاكهم وثرواتهم جميعا تحت رحمته . وفي وقت الحاجة يصادرها
بدون ان يستطيع واحد منهم ترك البلاد والعيش خارجها .[٢] وبما ان استعمال
الحروف العربية كان ممنوعا على اليهود منعا باتا فقد لجا هوءلاء في اعمالهم
الى كتابة الالفاظ والكلمات بحروف تشبه العبرية .[٣]

وبالاضافة الى تمكن اليهود من السيطرة في عهد حمودة باشا على الكثير
من نشاطات البلاد المالية عامة والتجارية خاصة،[٤] فقد بدا اليهود منذ
ذلك العهد يحتلون مراكز دقيقة في ادارة الدولة . ويمكننا ان نذكر من هوءلاء
على سبيل المثال لا الحصر : يوسف بيشي الذى كان يلقب بـ" قايد بيت خزندار" ،
وهو الذى كان يقبض جميع مداخيل الدولة تقريبا .[٥] ولنا في الخزينة التونسية
وثائق عديدة بها حسابات مفصلة لمداخيل الدولة ومقبوضاتها سنة بعد سنة اكثر

١- تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ،
خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٩٨ ، يذكر ذلك الطبيب امثلة لهذا
النمط من الكتابة .

٤- انظر ادناه ، ص ..٣.

٥- خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٢ ، كرتون رقم ٨٢ ، وثيقة رقم ٠٤٤ .

اصولها مكتوب بالخط العبرى غير ان لها نظائر بالعربية .[١] ومن اولائك اليهود القنصل نيسان الذى كان ، بجانب وظائفه الاخرى وتاثيره على الباى ومركزه في الادارة التونسية ، يقوم بخطة المترجم الرسمي للباى . وذلك بالنسبة " لجميع الرسائل التي كان يتلقاها حمودة باللغات الاوروبية ، ويكتب الردود الرسمية عنها ايضا ".[٢] كذلك كان زميله المترجم داوود زومير الذى كان يمضي اسمه في اخر معظم الرسائل التي كان يترجمها للباى من اللغة العربية الى الانجليزية بقصد بعثها الى العاهل البريطاني .[٣] ومنهم ايضا دافيد اسراييلي عضو سفارة محمد خوجة الى لندن ، ومترجم الوفد الرسمي لدى الحكومة البريطانية .[٤] وكذلك الياس عتال الذى كان يتمتع بوظائف سامية في الادارة التونسية ، بالاضافة الى الصداقة القوية التي كانت تربط بينه وبين يوسف صاحب الطابع .[٥]

هذا ويذكر المهندس الفرنسي ، المجهول الاسم والذى عاش في تونس اكثر من خمس وعشرين سنة بداية من اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، يذكر ان سياسة توظيف اليهود التي بدآت في عهد حمودة باشا استمر تطبيقها في

١- المصدر ومجموعة الوثائق ذاتهما ، انظر امثلة على تلك والحسابات المكتوبة باللغة العبرية في لوائح السنوات : ١٧٩٩ ، ١٧٨٠ ، ١٧٨١ ، ١٧٨٢ وغيرها .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٤ جوان / حزيران ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

٣- رسالة ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ١٠ جويلية / تموز ، ١٧٨٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٩ ماى/ ايار ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ .

٥- رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٣١ جانفي/ كانون الثاني ، ١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

في عهود البايات الذين تلوه.[١] ويذكر ايضا ان في وقت اقامته في تونس كانت الادارة التونسية تعج باليهود الموظفين ، وان " جميع المكاتب بتلك الادارة كانت بين ايدى اليهود ...". وانهم ، بفضل مالهم وذكائهم ، استطاعوا القبض على " جميع " الخطط السامية سواء منها المتعلقة بمالية الدولة او بالادارة العامة بها . واخيرا يضيف قائلا ان بسبب تسلط اليهود على تلك المراكز الهامة اصبح الاهالي رهن رحمتهم وتحت تصرفهم .[٢]

(جـ) اصلاحات ادارية اخرى مختلفة

بجانب التغييرات التي أحدثها حمودة في الادارة وقد سبق ذكرها ، امتازت سياسة حمودة باشا في ذلك الباب بعدة اجراءات اصلاحية اخرى هامة ، أدخلها ذلك الباى النشيط في اغلب ادارات الدولة التونسية.[٣] وقد اتخذ حمودة في انجاز التغييرات الادارية عدة طرق متنورة ، من ابرزها تفضيله للشباب وتعيينهم في الوظائف الهامة محل الشيوخ . وقد ألح الباى على ذلك التغيير على الرغم من المصاعب والدسائس والمنافسات التي حصلت عند

١- Anonyme (" Par un Ingenieur qui a voyagé et habité dans le pays [la Tunisie] pendant plus de vingt-cinq années. ") Tunis et la Tunisie , Paris, Paul Schmidt , 1881, p. 13 ;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ المهندس المجهول ، تونس والبلاد التونسية .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما .

٣- F. de Candia , " Monnaies husseinites. III. Monnaies frappées de l'année 1196 à l'année 1262 heg. (1782 à 1846)", R. T. , no- 17 (1934), p. 83; سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ فروجيا " العملة الحسينية ، رقم ٣ ".

تحقيق ذلك التغيير .[1] ومن ذلك تكليف الباى للمملوك يوسف صاحب الطابع ، وهو لا يزال شابا وحديث عهد بالادارة ، بامر اعادة تنظيم الادارة في الولايات داخل البلاد ، خاصة منها ما يتعلق بتعيين القياد[2] ومراقبة اعمالهم الادارية وتصرفاتهم الشخصية ، وكذلك للحد من تجاوزاتهم تجاه السلطة المركزية ، واستبدادهم على الاهالي وظلمهم لهم ، الشيء الذى احدث الاستياء والتكدر في صفوف الشعب . وقد نجح صاحب الطابع في المهمة التي اوكلت اليه.[3]

هذا وقد تميزت سياسة حمودة باشا الادارية ايضا بكونه كان ، تجاه موظفي دولته ومسؤوليها ، لا يظهر اى حظوة لاحد منهم ، وذلك بصفة جعلته وكأنه لا يفضل احدا منهم على آخر .[4] وقد بلغ تعلق الباى بانجاز اصلاحاته الادارية وضمان تفرغ كبار المسؤولين لخدمة الدولة حدا جعله يمنع وزراءه وكبار رجالات دولته من الزواج .[5] وهو الذى ماطل سنوات عديدة في اعطاء الاذن لوزيره مصطفى خوجة في التزوج ، وذلك لألا يلتهي بعائلة تمنعه من التفرغ الى واجباته الادارية .[6] وكذلك كان الامر مع الوزير يوسف صاحب الطابع ، الذى اذن له الباى في التسرى ، وبقى يمنيه بالزواج سنوات طويلة .[7]

١- فيما يتعلق بهذا الامر انظر خاصة : رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، اول سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ؛ رسالة من دى شاتوناف الى حكومته ، تونس ، ٤ ماى / ايار ، ١٧٨٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ؛ تقرير غفل ، باريس ، مارس/ ايار ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢١٠ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٧ .

٢- القياد : ج . قايد بمعنى الوالي او المحافظ داخل البلاد .

٣- زمرلي ، "يوسف صاحب الطابع" ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٠ ؛ انظر ادناه ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ .

٤- الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٠ .

٥- انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٨٦ ؛ ج ٨ ، ص ٥٣ .

٦- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٥ / نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

٧- انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٥٤ ، ٩٧ ؛ ج ٨ ، ص ٤٧ ؛ انظر اعلاه ، ص ١٠٢ .

اما فيما يتعلق بادارة القياد وسياسة الاشراف عليهم ومراقبة اعمالهم ، فقد تغيرت كثيرا في عهد حمودة - ولعل ذلك يعود الى التنظيم الذى ادخله عليها يوسف صاحب الطابع عند تكليفه بذلك الامر - وبعد ان كانوا " يضطهدون الشعب بدون ان يعاقبوا ، صار اليوم ابسط قروى يتمتع بحرية الوصول الى الباى واخذ حقه من القايد نفسه ".[1] ليس هذا فقط بل كان يحيط القياد ، ومعظم كبار المسؤولين في الدولة بعيون تخبره بكل ما يجرى في بلده ، سواء في العاصمة او خارجها .[2] يذكر صاحب مسامرات الظريف هذا الامر بقوله " ... وكان [حمودة باشا] متخذا القبة الحمراء امام بارد ولقبول جواسيسه عشية كل يوم يعلم منهم جميع ما وقع ذلك اليوم حتى انفرد بمعرفة حقيقة ما عليه البلاد واهلها ".[3]

وقد كان حمودة في سياسته الادارية يعتمد موقف الرأى العام في تزكيتها والرضا عنها والا يغيرها حتى توافق مطالب افراد الشعب ومصلحتهم .[4] ولا يفوته من شعورهم واخبار موظفيه شيء بالاضافة الى معرفته لمعظم افراد الحاضرة فردا فردا تقريبا .[5]

١- مجيل ، رحلة ، ص ١٩ .

٢- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ .

٣- السنوسي ، ج ١ ، ص ٣٩ ؛ بشأن هؤلاء العيون انظر ايضا ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ص ٨٣ .

٤- تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ بشأن هذا الامر انظر ايضا بعض المعلومات اوردها روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٣ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ٢٦ ، ٨٢ ، ج ٧ ، ص ٥٩ ، ١١٥ ؛ زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٠ - ٤١ .

٥- تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ايلول ، ١٨٠٢ ، ص ٢٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

هكذا ، وبعد ان كان وضع الادارة في اول تسلم حمودة الحكم يتصف بانه كان "... يرثى له من كثرة الوشايات والسرقات المتفشية في القصر وفي دوائر الحكم، ومن انتشار الرشوة بين المسؤولين والموظفين ، ومن تفاقم الحزازات والخلافات بينهم".[1] وبعد ان كان القياد يبتزون اموال الناس دون ان يرى البايات في ذلك غضاضة " لما ياخذونه من العمال [القياد] عند الحاجة ...".[2] بعد ان كان كل ذلك متفشيا في دوائر الادارة بتونس ، بدأ يتغير الوضع منذ اوائل عهد حمودة بفضل الاصلاحات التي ادخلت في ذلك الميدان. وعلى هذا الاعتبار فليس في الامر ما يدعو للاستغراب عندما يعلمنا الاب كاروني الذى كان بتونس سنة ١٨٠٤ ان احد كبار موظفي الباى كان يترجاه واحد اقرباءه عدم التلفظ بشيء ينال من الباى او الدولة لانه سيكون مجبرا ،على الرغم من صداقته لهما ، باعادة ما يتلفظان به حرفيا الى الباى وتكون عندئذ نهايتهما .[3] وبالاضافة الى ذلك يعلمنا ذلك الاب مدى تعلق بعض اولائك الموظفين بالتعرف على اخبار اوروبا وشؤون النصارى وانظمتهم .[4]

يلخص لويس فرانك طبيب الباى الخاص وضع الادارة بتونس عندما ترك تلك البلاد حوالي سنة ١٨١٢ ،بأن حمودة باشا كان ذا اليد العليا في جميع شؤونها ،وانه قليل ما تتم تسمية موظف في مركز يتصف بالاهمية دون معرفته وموافقته . وانه كان صاحب الامر المطلق في الدولة ، وبدون رقابة من اى مؤسسة

١ــ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ،تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧ .

٢ــ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ١٦ .

٣ــ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ،المجلة التونسية ،عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٢ .

٤ــ المصدر والصفحة ذاتهما .

او مجلس عكس ما كان عليه البايات قبله . وهو يشرف على جميع شؤون الدولة الداخلية والخارجية بجميع جزئياتها بنفسه .(١) ويضيف قائلا : قد يجد الاوروبيون مشقة في فهم امكانية قيام رجل بمفرده بجميع تلك المسؤوليات المختلفة وادارتها بنظام ودقة . ثم يكشف السر في ذلك،وهو ان حمودة باشا اختصر كبار المسؤولين على الادارة والحكم الى اقل عدد ممكن ،وهو امر تفادى به الباى المشاكل والتعقيدات الموجودة في البيروقراطية(٢) الاوروبية . ويذكر ايضا ان ذلك الاجراء الادارى انقذ خزينة الدولة من مصاريف عامة كثيرة ،وجعل اجراءات الادارة ،وحتى الاحكام التي تصدر في المحاكم ،تكون واضحة وبدون التواءات . ويقول ان في الوضع الذى يجد حاكم اوروبي نفسه محتاجا لمائة موظف ، من مختلف المستويات الادارية ،للقيام بادارة الدولة ،اربعة او ستة كتاب يكونون كافين للقيام بنفس المهام في تونس.(٣) هناك فائدة ثالثة نتجت عن التغيير الادارى الذى احدثه حمودة . هذه الفائدة العامة والهامة هي السهولة التي يحققها هذا التنظيم بالنسبة لدقة مراقبة اعمال هذا العدد القليل من كبار المسؤولين . وهو امر يمكّن الباى ، من اول وهلة ،من اكتشاف اى استبداد او ظلم او خيانة يمكن ان ينزلق فيها احد المسؤولين ،وهذا كان يفلت من رقابته لو كانت الادارة اكثر تعقيدا . وعلى كل حال فان عقوبات حمودة الصارمة والحازمة جعلت كل موظف في الدولة يقدر العواقب مائة مرة قبل ان يجرؤ على القيام بزلة من اى نوع كانت.(٤)

١ـ فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص٥٧ .

٢ـ بيروقراطية (bureaucratie) وردت ترجمتها في قاموس J. B. Belot كما يلي " سلطة موظفي مكاتب الادارة ولا سيما الحكومية" ، Dictionnaire francais-arabe, Beyrouth , Imprimerie Catholique , 1952.

٣ـ فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص٥٧ .

٤ـ المصدر ذاته ،٥٧ ـ ٥٨ .

ولعل ادق واوجز واشمل حكم صدر على ادارة حمودة باشا واهليتها هو قــول القنصل البريطاني ماجرا " ان سبب الازدهار الاقتصادى في تونس يرجع بنســـبة مهمة الى الادارة المنظمة والى مصالحة الدول ".(١)

١ــ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ١٠ جويلية / تموز ١٧٩١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

ب٠ في المجال العسكرى : تدعيم الامكانات الحربية

١٠ اهتمامه البالغ بالجيش

كان حمودة باشا منذ شبابه شغوفا بالحياة العسكرية مولعا بها؛[١] وليس هذا بالمستغرب اذا علمنا انه عندما كان عمره لا يتجاوز العشرين قاد المحال بكفاءة وجدارة ٠[٢] ومن ابرز مميزات هذا الباى تعلقه الشديد بجنده ،[٣] وهو شغف يوازى كرهه للهزيمة في الحروب ، ويعادل خوفه من الغلب ٠[٤] وقد انهزم جيشه في معركة مع الجزائريين سنة ١٨٠٧ ، فكان هول الخبر عليه عظيما الى حد جعل المؤرخ صاحب العقد المنضد ينسب اليه سبب مرضه ، وهو المرض الذى صاحبه الى ان توفي بالسكتة ٠ وكذلك صعقه نبا هزيمة اسطوله في معركة جرت مع الجزائريين سنة ١٨١١٠[٥]

بجانب ميل حمودة الشخصي وشغفه بالجيش وبالحياة العسكرية كانت هناك اسباب اخرى مثل رغبته في الاستقرار الداخلي ، وتماشيا مع سياسته في القدرة والحماية الخارجية ؛ هذه الاسباب اثرت تاثيرا مباشرا في تاكيد اهتمامه بالجيش والاسطول وتدعيم امكانيات البلاد الحربية ٠ السبب الاول هو تصميمه منذ اول عهده على التخلص من التسلط الجزائرى على تونس ، ونيل استقلاله من داى الجزائر مهما كلفه ذلك الامر من تضحيات٠[٦] اما السبب الثاني فهو ما حدث سنة ١٧٩٤ عندما تدخلت الدولة العلية

١- انظر اعلاه ، ص ٨٤ - ٨٥ ٠

٢- تقرير غفل ، تونس ، ٢٦ ماى/ ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ ٠

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٣ ٠

٤- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ ٠

٥- المصدر والصفحة ذاتهما ؛ وانظر ادناه ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ ٠

٦- رسالة من الحكومة الفرنسية الى القنصل دوفواز ، باريس ١٩ ، سبتمبر/ ايلول ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٩٧-٣٩٨ ٠

في شــؤون طرابلس باطاحتها لعرش العائلة القرمانلية الحاكمة هناك ، وتعيينها لوال جديد مغامر ،[١] وهو علي برغل الذى احتل طرابلس وجزيرة جربــة التونسـية • وهذه القضية هي التي تدخل فيها حمودة وانهاها باحتــلال طرابلس وارجاع الحكم الى اصحابه بعد اجلاء المغامر برغل عنها •[٢]

ومهما كانت الاسباب فان المعلومات المتوفرة ، وهي كثيرة ، تؤكد شدة اهتمام حمودة بالجيش والاسطول ، وتثبت ولعه بهما • وقد كان شديد الحرص علـــى ضمان حسن اختيار افراد الجيش سواء من ناحية القوة البدنية او الاهليـة،[٣] وكان احيانا يزيد في مرتبات الجند قبل الوقائع الحربية وبعدها ، كما وقـع في حملة طرابلس سنة ١٧٩٤،[٤] وكان يحسن تربيتهم حتى اخذ جنوده ، في حربهم ضد الجزائر (المعركة الثانية التي انتصر فيها الجيش التونسي سنة ١٨٠٧)، " يجيبونه [عندما كان الباى يوصيهم بالانضباط والشجاعة] بالسمع والطاعــة والموت دونه •".[٥] ولا شك ان هذه السياسة التي جرى عليها كان لهـــا دور ملحوظ في عدم اكتراثهم بالموت في ساحات القتال •[٦]

١ـ لاماس، " المحطة البحرية الفرنسية " ، كراريس تونسية ، مجلد ٤(١٩٥٦) ، ص ٣٥١ •
٢ـ انظر ادناه ، ص ٣٩٥ ـ ٤٠٧ •
٣ـ انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٨٦ ، ج ٧ ، ص ١٤٩ ؛ انظر ادناه ، ص ١٩٥ •
٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٤ •
٥ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٤ •
٦ـ المصدر ذاته ، ج ٨ ، ص ٤٥ ؛ وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٢ •

ومن مظاهر اهتمامه بالجيش ان الضريبة التي كان يدفعها اليهود على محلاتهم التجارية وكذلك الضريبة الشخصية المرتبة عليهم ، كانت جميعا تصب في الخزينة العسكرية .[١] ومن ذلك ايضا ان شركة Giornati اليهودية ، والتي كانت لها امتيازات تجارية واسعة جدا ، ملزمة بتقديم الاقمشة الاوروبية اللازمة لتجهيز العسكر بسعر منخفض جدا ، تخسر فيه الشركة مالا كثيرا .[٢] وعلى الرغم من ان الاهالي سواء منهم الحضر او البدو كانوا يمدون افراد الجيش اثناء ترحالهم وايام الحرب بكل انواع المساعدات المالية ويقدمون لهم الغذاء والدواب ، زيادة على الجرايات والعطايا الرسمية التي كانت تدفع لهم بسخاء ؛[٣] فان موازنة جيش حمودة باشا كانت تكلف ميزانية الدولة اموالا باهظة .[٤] ويعتقد الرحالة ذاته ان في السنتين الاخيرتين (كان بتونس سنة ١٨٠٨) ، تساوت المصاريف التي انفقت على الجيش لتدعيم امكاناته الحربية مع مجموع دخل الدولة التونسية . ويذكر ان بعض المطلعين على الشؤون التونسية يخمنون ان الميزانية التي استنفدت في مصالح الجيش تجاوزت ميزانية الدولة وتعدتها . ثم يقول ان الامر المؤكد والثابت هو ان الباى انفق مبالغ ضخمة جدا لتقوية امكاناته الحربية ، سواء منها القوات الارضية او البحرية أو التحصينات ،[٥] وذلك استعدادا منه لمجابهة الجزائر .[٦] يفسر

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

٢ـ مجيل ، رحلة ، ص ١٨٠ .

٣ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ص ١٧١ ؛ يذكر مجيل ان جنود حمودة باشا في الوقت الحاضر (١٨٠٨) يتقاضون مرتبات عالية لم يتمتعوا بها في اى عهد من عهود البايات السابقين ؛ رحلة ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٤ـ مجيل ، رحلة ، ص ٨٨ .

٥ـ انظر ادناه ، ص ٢٢٢ ـ ٢٣٩ .

٦ـ مجيل ، رحلة ، ص ٨٨ .

قنصل بريطانيا سر تمكن الباى من مواجهة متطلبات سياسته العسكرية العالية التكاليف ، بان "ـتمكنه من ذلك ـ يرجع الى حالة الازدهار والرخاء الذى حل بتونس • وذلك بفضل انتشار الزراعة وتوسع التجارة وازديادها في الداخل والخارج كما سيلي ، وبفضل قوة اقتصاد البلاد في عهد ذلك الباى ••• وعلى كل فان تحقيق هدف تقوية الجيش الى اقصى حد ممكن كان امنية حمودة المفضلة منذ اول عهده بالحكم •••"(١)

اقتضت سياسة حمودة باشا العسكرية في الاول ، كما ورد في احد التقارير الفرنسية ، زيادة عدد جند الترك (٢) ومضاعفة الاهتمام بهم • وذلك خلافا للسياسة التي سار عليها البايات قبله منذ سنة ١٧٥٦ • فقد كانت خطتهم تقتضي عدم تجاوز الالفي جندى تركي في البلاد ، وهو العدد المطلوب من ذلك الجند لحراسة الحكومة وحفظ امن الدولة • (٣) ولكن حمودة باشا قدر انه في استطاعته ان يربطهم بطريقة المحاباة التي تصنعها وكان يظهرها ، مراعاة لهم وايثارا على بقية الاهالي • بتلك الوسيلة ظن الباى انه بامكانه ضمان الوصول بعددهم الى اثنى عشر الف مقاتل دون خوف • وكان هدف الباى من تكثير عدد ذلك الجند ان يتسنى له امتلاك جيش اقوى من جيش الجزائر • (٤) وهكذا ما ان حل عام ١٨١١ ، العام الذى ثار فيه جند الترك ضد الدولة ، حتى كان عددهم يجاوز التسعة الآف مقاتل • (٥)

١ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

٢ـ كان هذا الجند يشتريه حمودة من اسطنبول وازمير ، تقرير غفل ، تونس ، ٢ اسبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ • ويذكر مجيل ، رحلة ، ص ٣٦ ، ٥٢ـ٥٣ ، ان هذا الجند كان يستورد من " المشرق " وهم اكثر شجاعة واقداما من التونسيين ، في اعتقاد ذلك الرحالة ، ولكنهم كانوا قطاع طرق مجرمين •

٣ـ التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته •

٤ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٥ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

جريا على سياسة المحاباة التي سنها حمودة باشا معهم اصطفى الباى ذلك الجند وبالغ في اظهار حبه لهم.[(١)] يصف ابن ابي الضياف مقدار ايثاره لذلك الجند بقوله :

" كان للباى ابي محمد حمودة باشا شغف بجنده ، ومزيد ميل لعسكر الترك ، يؤثرهم بالاحسان والمودة والقرب ، ويرى انهم بطانته ووقايته ، شأن الملوك مع حاميتهم . وبالغ في الالتحام بهم حتى انه اتخذ لنفسه بيتا في قشلة البشامقية[(٢)] يأتيها اذا كان بتونس ويتوضأ بها مثل اختيارات[(٣)] القشل ...".[(٤)]

ويذكر المؤلف ايضا ان الباى من باب شغفه بهذا الجند

"... اشرك معهم في الخدمة الجندية عددا كثيرا من ابنائهم المولدين في البلاد ، بل وغير ابنائهم ، فكان اذا رأى شابا قوي الجسم من سواد البلاد يقول له : " ابوك تركي ومات ولم يرسم اسمك في الزمام ، وأنت لم تأت لرسم اسمك مع اخوتك هروبا من مشقة الخدمة " ، فيقول له : " يا سيدى ابي فلان وجدى فلان " ، فتكذبه رؤساء حوانب[(٥)] الترك ، ويشهدون بان اباه " ازن محمد " أو " دالي باش " او " كور علي " ، وغير ذلك من الالقاب التركية ، فيعمل شهادتهم ، ويثبته في ديوان الجند ."[(٦)]

١ـ الباجي المسعودى ، الخلاصة النقية ، ص ١٣٦ .

٢ـ البشامقية : اسم يطلق على سوق من اسواق مدينة تونس ، تصنع فيه البشامق: مفردها بشمق وهو نوع من الاحذية ليس لها مؤخرة . في المشرق يطلق على ما يشابهها " بابج " . وكلمة بشمق تركية اصلها " باشمق " وصانعها " باشمقجي " .

٣ـ الاختيار : صفة تعني بالتركية المسن او العجوز ، وفي الاصطلاح العسكرى كانت الكلمة تطلق لتعني صنفا من رؤساء الجند التركي ، والمعنى الاصطلاحي ذكرته اللجنة المحققة لكتاب الاتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، تعليق رقم ١ .

٤ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٥ـ انظر ادناه ، ص ٢٠٧ تعليق رقم ٢ .

٦ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

٢ • ضربه على يد جند الترك

على الرغم من الحظوة والايثار والمحاباة التي عامل بها حمودة باشا جنوده الترك منذ اول عهده بالحكم ، وعلى الرغم من سياسة الاكثار من ذلك الجند ، وهو امر يخالف سياسة البايات قبله ويخالف العبر التي حصلت لاسلافه مع ذلك العسكر؛ (١) على الرغم من كل ذلك كان جند الترك يناصبون مخدومهم العداء ويكنون له الخيانة والغدر • (٢) ليس هذا فقط بل انهم كانوا يعتبرون حمودة باشا والعائلة الحسينية ، رغم كونها تابعة عثمانية في الاصل ، اقل منهم شرفا واصالة لان مؤسس الدولة حسين بن علي كان يوناني الاصل • ومن ثمة كان الاتراك ينظرون الى تلك العائلة الحاكمة وحكومتها كتونسيين ، اى اقل قيمة ودرجة منهم • (٣)

بالاضافة الى ذلك الشعور بالرفعة كان جند الترك يتصفون بصفات منحطة كثيرة • فقد كانوا كثيرى الظلم للاهالي " مستبدين مجرمين ، لا يتحمسون الا لمصالحهم الخاصة وللقتل والنهب والاعتداء "• (٤) وفي نفس الرسالة يؤكد القنصل ان هؤلاء الجند هم اهم اسباب اعاقة تونس من السير الحثيث في طريق التقدم والتمدن ؛ وانهم سبب الفوضى في البلاد ومصدر المظالم المسلطة على الاهالي • (٥) ويصف ماجرا شعور التونسيين تجاه هذا الجند بقوله : " ••• ان الشعب التونسي يكرههم كرها لا مزيد عليه ، ويتمنون لهم الخذلان والموت ، وان الاهالي

١ـ انظر المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٢ •

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى/ شباط ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧•

٣ـ انظر اعلاه ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ •

٤ـ رسالة ماجرا المذكورة اعلاه ذاتها •

٥ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

لا يترددون في اغتيالهم كلما عثروا عليهم افرادا وفي اماكن تمكنهم من ذلك • وحتى لما تتحطم بهم السفن في البحر ويهربون الى الشواطئ يقتلهم السكان هناك...".(١)

وبعد ان يفصل القنصل حالة الرعب والفزع المتفشية بين السكان بسبب تعديات هذا الجند يذكر ان جرائمهم تبلغ احيانا ثماني او تسع مرات على السكان في الليلة الواحدة ، وحتى بالنهار • ومن ذلك انهم ، قبل كتابة القنصل لرسالته بأسبوع واحد ، سلبوا بالطريق ستة واربعين تونسيا في يوم واحد •(٢)

امام ذلك الوضع المضطرب لم يجد حمودة باشا بدا من اتخاذ اجراءات تحد من فوضى ذلك الجند وظلمه • ونجده في مدة تكاد لا تتجاوز العشر سنوات (٢٥ماى/ ايار ١٧٨٢ - ١٦ فيفرى/ شباط ١٧٩٢) يامر بنزع اسلحتهم وابقائهم عزلا مرتين اثنتين •(٣) ويظهر ان غدر جند الترك وخيانتهم بلغت في تونس حدا جعل الباى نفسه يحترز منهم ويامر حرسه بنزع سلاح المبعوث السلطاني العثماني قبل دخوله عليه ، على الرغم من الاهانة التي تترتب على ذلك الاجراء غير اللائق " تشريفاتيا" •(٤)

في سنة ١٧٩٣ ، يشير القنصل ذاته الى ان تزايد عدد جند الترك في البلاد جعل الباى نفسه في قبضة شرذمة من الاغراب عن البلاد وعرضة لكراهية الشعب ومقته • ويذكر ان حمودة سيجد من المتحتم عليه ان يشغلهم بعمل خارج حدود البلاد حتى يحافظ على الامن والاستقرار داخلها ، وكذلك حتى يسكن من غيرة الاهالي ويهدئ كرههم ، وفي نفس الوقت يؤمن على سلامته

١- المصدر والوثيقة ذاتهما •

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما •

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما •

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما •

وامنه الشخصي.(١) بعد هذا يؤكد الدبلوماسي البريطاني ان حمودة باشا ، بسياسته العسكرية تلك ، " كان يهيء لثورة عاصفة سيعجز عن اخمادها يوم تقوم ، وتدور الدائرة عليه ذاته ويا لسوء العاقبة ...".(٢)

لم يقف الارتباك والعسر الذى احدثه جند الترك في البلاد عند ذاك الحد بل تعداه الى ما هوادهى وامر . فقد كانوا يبدون ولاءهم وعطفهم الدائم الثابت لكل ما هو تركي بدون نظر الى مصلحة الدولة التي يخدمونها ولا الى سياسة ورغبات الباى الذى جلبهم لخدمته والذى اغدق عليهم نعمه وحبه . فهم دائموا التطلع للجزائر وداى الجزائر بروح الطاعة والولاء على انها ولاية عثمانية بحق يحكمها جند الترك وهم الذين يتولون حتى انتخاب دايها .(٣) وكم كانت الهزائم التي منيت بها تونس في حروبها مع الجزائر بسبب ضعف ولاء هذا الجند وخيانتهم .(٤) وحتى لما فشلوا في ثورتهم سنة ١٨١١ كانت وجهة تقهقرهم وانكسارهم هي الحدود الغربية التونسية .(٥) وكذلك ، كما يعلمنا قنصل بريطانيا ، لما تولى علي برغل عرش طرابلس الغرب سنة ١٧٩٤ ، وطرد واليها الشرعي واستبد بالبلاد ، ولم يعترف به حمودة باشا كوال عثماني رسمي بل كقرصان مغامر ، حاول علي برغل احداث البلبلة في الجند التونسي ليحبط اى مخطط لتدخل حمودة في قضايا طرابلس بالقوة . وسعى بايد خبيثة الى اثارة جند الترك بتونس واغرائهم للالتحاق به ، وقد انصاع له الكثير منهم وهربوا

١- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤- انظر ادناه ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

٥- انظر اعلاه ، ص ٢٠٦ .

من الجندية التونسية الى طرابلس.[١] وعلى الرغم من ان حمودة باشا اصدر امرا بقتل كل من يلقى عليه القبض هاربا الى طرابلس من جند الترك، وعلى الرغم من تنفيذ الامر مرات عديدة فانهم لم يتوقفوا عن الهروب اليها استجابة لدعوة علي برغل.[٢] وعندئذ (سنة ١٧٩٤) شعر حمودة باشا بالخطر المخبأ له وراء سياسته العسكرية فيما يتعلق بالاكثار من جند الترك. وتجسم له خطأه ذاك عندما قيم وضعه السياسي في حالة نجاح علي برغل في احكام السيطرة على ولاية طرابلس. فوجد، عن صدق تقدير ودقة نظر، " انه سيكون بين فكي كماشة بين حكومتين تركيتين (طرابلس والجزائر) مع عدو في داخل بلاده ذاتها، على اتم استعداد لخيانته". وينهي القنصل رسالته القيمة هذه بقوله: " ... ومن بعد هذه الوقائع التي حدثت في الايام القليلة المنصرمة بدأ حمودة باشا في تسليح واتقان تدريب عساكره الوطنية التي بدات الان تتجه لتتمركز على حدود البلدين المجاورين طرابلس والجزائر ".[٣]

بالاضافة الى تلك الخيانات قام جند الترك بعدة اعمال اجرامية على مر السنين. من اهمها محاولة شرذمة منهم، سنة ١٧٩٧، اغتيال القنصل البريطاني عند رجوعه من قصر الباي حيث اطلق عليه النار اربعة منهم، وقد اخترقت احدى الرصاصات حافة قبعته على مقربة من صدغه ثم فروا ولم يعثر لهم على اثر.[٤] وفي سنة ١٧٩٨ احدثوا هرجا كبيرا في البلاد، بسبب غزو

١- رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس، اول سبتمبر/ ايلول ١٧٩٤، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٤/ ٧٧.

٢- المصدر والوثيقة ذاتها.

٣- المصدر والوثيقة ذاتها.

٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته، تونس، ١٣ جوان/ حزيران ١٧٩٧، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٤/ ٧٧.

نابليون لمصر ، وهددوا بالعصيان وبقتل جميع الفرنسيين المقيمين بتونس لولا اجراءات الامن الخاصة التي اتخذها الباى والاحتياطات النافعة التي نفذها قنصل فرنسا لحماية نفسه والجالية الفرنسية بتونس.(١) وكذلك قام جند الترك بنشر الفوضى في العاصمة وقتلوا الاهالي ونهبوا دكاكينهم وبيوتهم سنة ١٨٠٢.(٢) هذا بالاضافة الى القتل والسلب الذى كان يوقعه ذلك الجند بالاهالي كلما كانت المحلة في طريقها الى داخل المملكة مرتين كل سنة،" ... وحينئذ كان ذلك الجند يسلب حتى البدو من ثيابهم ثم يدخل بيوتهم يسرقها وفي كثير من الاحيان يحرقها".(٣)

وفي سنة ١٨٠٧ تسبب جند الترك في احلال الهزيمة والاندحار للجيش التونسي في حربه ضد الجزائر بسبب الفوضى والخيانة المتفشيتين فيه . وحتى الانتصار الذى احرزته تونس في المعركة الثانية ضد الجزائر والتي وقعت في نفس السنة ، كان قنصل بريطانيا يشك في دوامه" لان جند الترك بتونس لا يوثق بهم بل لا يترددون في الهروب الى الجزائر ليحاربوا جنبا الى جنب مع الجزائريين ، لان حكومة الجزائر باجمعها في يد جند الترك".(٤)

هكذا ، وبعد الانجازات الاصلاحية التي نفذها حمودة باشا في مختلف الميادين ، وخاصة منها التغييرات التي جرت في الادارة(٥) والجيش وهي تحويرات تضرب

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٨ ، بلانتي في مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٥ .

٣ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

٤ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٦ جويلية / تموز ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٥ .

٥ـ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ، ص ٤٢ .

على يد الاتراك وتحد من قوتهم ونفوذهم وامتيازاتهم كما سياتي بيانه . بعد ان حصل كل ذلك شعر جند الترك بالاخطار المحدقة بهم فقرروا اغتيال حمودة باشا واقامة حكومة تركية في تونس يحكمونها على غرار حكومة الجزائر.[١] وقرروا ، في حال عدم نجاح مؤامرة الاغتيال ، الثورة المسلحة للاحراز على اهدافهم في الحكم . وهكذا كان العمل فاندلعت ثورتهم سنة ١٨١١ ، بعد ان سبقتها شهور عديدة من الارهاب والفوضى ، ولكن كانت نتائجها مخالفة تماما لما كانوا يخططون .[٢]

يمكننا ان نحدد ، اعتمادا على المعلومات القيمة والفريدة في موضوعها التي ذكرها قنصل بريطانيا ماجرا كما ذكر انفا ، ان نعتبر ان تغيير سياسة حمودة باشا فيما يتعلق بجند الترك بدأ في سنة ١٧٩٤ مع حلول علي برغل في طرابلس وما تبع ذلك من احداث وخيانات قام بها جند الترك . ثم بدأ يظهر في تصرفات حمودة اجراءات جديدة تنم عن احترازه منهم والسعي لتوقي شرهم ، وهو دليل على الشك في ثقتهم وتغيير عطفه عليهم.[٣] ونشأت فكرة اخذ الحيطة منهم "... بل ظهرت ضرورة ازاحتهم نهائيا من السلطة".[٤]

١- تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ انظر بعض هذا المعنى بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٦ . ورد في احدى الوثائق العثمانية مؤرخة بسنة ١٢٤١- ١٨١٥ بامضاء " سليم خواجة" ، ان جند الترك حاولوا القيام في تلك السنة بقلب نظام الحكم في تونس . واخذ هؤلاء " قرارا ما بينهم ، قالوا هذه البلاد العربية [تونس] نقوم فيها بانقلاب في الليل باتفاق نقتل الباشا واولاده . وبعد ذلك تقبل البلد الامر الواقع ويصير احدنا باشا لتونس ... كباشا الجزائر تركي ..." ؛ خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم B - ٢٢٥٥٨ .

٣- وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٠ .

٤- اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٨ .

ويعلق اوسكار على هذه السياسة التي اتخذها حمودة بانها "لم تكن نتيجة مطالبة شعبية او جلبة وضجة جماهيرية ، ولا كانت نتيجة فوران شهوة وغليان هوى ، ولا كانت ايضا حصيلة فلسفة ممهدة لسفك الدماء ، ولكنها كانت ثمرا طبيعيا واجراء محتوما للعقل والادراك والضرورة".(١)

ولانجاز سياسته الجديدة تجاه جند الترك ، مع المحافظة على الدولة والنظام والامن ، اتخذ الباى طريقة سياسة المراحل ، وواصل السير فيها معهم بعزيمة ثابتة وتصميم مخطط .(٢) ويظهر ان الباى ليتحقق له مقصده ، من ابعاد الاتراك عن السلطة في الجيش ، بطريقة سليمة وقاضية وشرعية امر قاضيه بيرم الاول ان يصدر له قانونا شرعيا ، يمكن الباى من امور منها القاء القبض على من تحوم حوله الشبهات بمجرد الظن ، وهو القانون الذى ظهر تحت اسم رسالة في السياسات الشرعية .(٣)

كانت الاجراءات التنفيذية لتلك السياسة تسير بتثبت وحذر واحتراس ، كامل الفترة بين حلول علي برغل بطرابلس ، وقيام حرب الجزائر (١٧٩٤-١٨٠٧) . وبعد الاندحار الذى سببه الجند التركي للمعركة الاولى مع الجزائريين بسبب خيانتهم ، وبعد الانتصار الذى حققته فرق الجيش ، بفضل استماتة ابناء البلاد التونسيين ، في المعركة الثانية والفاصلة ، بعد ذلك التفت حمودة باشا الى جند الترك وقرر الضرب على ايديهم نهائيا ، بل محقهم في اقرب فرصة مواتية .(٤)

١- المصدر والصفحة ذاتهما ، انظر ايضا المصدر ذاته ، ص ٤٤ .
٢- انظر فليب دوما ، اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .
٣- انظر اعلاه ، ص ١٣-١٤ .
٤- انظر فليب دوما ، اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وقد تم ذلك فعلا في سنة ١٨١١ عندما ثار جند الترك معلنين العصيان والموت لحمودة باشا . وذلك لانه نزع منهم سلطتهم الى درجة اصبحت المجابهة بين الشقين لا مناص منها .(١)

يقيم بعض المؤرخين والكتاب سياسة حمودة باشا تجاه جند الترك وضربه على ايديهم ومحقهم ، بعدة اراء تبرز مدى صواب تلك السياسة وتوضح اهميتها ومقدار نجاحها . من هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر ، مارسال الذى يؤكد ان تلك الثورة لو نجحت لكانت اتت على "... الطريقة والقاعدة الاصلاحية التي توخاها حمودة باشا في الحكم ، ولاتّت ايضا على ذلك الاتجاه الاصلاحي الجديد الملائم لامكانات تونس ، نحو الاقتصاد الزاهر والنظام ... ليس هذا فحسب بل لكانت هددت وجود الدولة والعرش التونسي ذاته".(٢) اما اوسكار فانه يرى في ضرب الباى بيد من حديد على ذلك الجند حدثا عظيما في تاريخ تونس نتج عنه امران هما جعل حد نهائي لتبعية تونس للباب العالي من جهة وارساء قواعد استقلال تونس على اسس متينة من جهة ثانية .(٣) ويرى هيجون ان ذلك الانجاز كان من اهم الاسباب التي جعلت البلاد التونسية تحتفظ لحمودة باشا بلقب " العظيم ".(٤)

أما صاحب كتاب البلاد التونسية والتمدن فانه يقيم واقعة قطع دابر نفوذ جند الترك من البلاد بانه عمل جبار قام به حمودة ليتخلص من التسلط والتبعية من الجزائريين ومن الاتراك على حد سواء . وقد نتج عن ذلك العمل

١- مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٩ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٩ .

٢- موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٩ .

٣- ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٨ ، ٤٢ .

٤- شعارات بايات تونس ، ص ٦٠ .

اعادة سيادة البلاد لاهلها ، الذين اصبحوا منذ ذلك الوقت اصحاب الكلمة العليا في شؤون دولتهم .[١] والمستشرق الفرنسي مارسال ، ينظر الى الحدث على انه كان ذا اهمية وقيمة كبيرين . وذلك لانه كان قدوة اقتدى بها ، في اصلاح جند الترك وتكوين جيوش نظامية حديثة ، كل من محمد علي باشا والي مصر سنة ١٨١١ وكذلك السلطان العثماني محمود الثاني سنة ١٨٢٦ .[٢] هكذا وبعد ان كان حمودة باشا يكتب على استحكاماته وابراجه العسكرية في العاصمة ، قبل حرب الجزائر ، ان " ... الآمر بها [الابراج] هو السلطان سليم ، وان الباني هو حمودة باشا ..." وذلك " ... سياسة مع جند الترك ، وهم الشوكة يومئذ ... "[٣] ، اصبح سنة ١٨١١ ، اثناء ثورة جند الترك الذين كانوا يدعون بحياة السلطان ويموتون تحت اعلامه ، تحطم مدافعه سوارى تلك الاعلام وتحرقها ، ويامر بالحاح شديد على وجوب استئصال ذلك الجند الثائر الى آخر فرد فيهم . وقد نفذ الجنود التونسيون والاهالي تلك الاوامر بكل دقة .[٤]

كان عدد افراد ذلك الجند المجلوب من اسواق تركية حوالي تسعة الاف تركي .[٥] وكان هؤلاء مستائين من سياسة حمودة باشا الاصلاحية في ميداني الادارة والجيش ، وذلك لانه حد من سلطتهم وامتيازاتهم بسبب عدم ثقته بهم .[٦]

١— Anonyme , La Tunisie et la civilisation , Paris, Imprimerie de Poitevin, 1867, p. 10-11 ;
سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ المؤلف المجهول ، تونس والتمدن .

٢— A. Martel , " L'armée d'Ahmed Bey", C. T., tome 4 (1956), p. 373;
سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ مارتال ، " جيش احمد باي " .

٣— ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٤— مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ٢٠١ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢ .

٥— تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر / ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ .

٦— المصدر والوثيقة ذاتهما .

وما كان منهم الا ان تعاهدوا على السوء وقرروا اغتيال الباى في وقت ذهابه الى جامع الزيتونة لاداء صلاة الجمعة ، وقرروا ايضا في حال عدم نجاح مؤمرة الاغتيال ، القيام بثورة عامة للاطاحة بعهد حمودة بقوة السلاح . والذى تم هو الامر الثاني لان احد المخبرين اعلم الباى بخطة الاغتيال تلك ، فلم يغادر القصر.(١)

في ليلة ٣٠ اوت / اب ١٨١١ اجتمع عدد كبير من جند الترك في قلعة القصبة(٢) المشرفة على العاصمة وانتخبوا واحدا منهم ليصبح دايا على تونس بعد مقتل حمودة باشا . ويقول دى فلو انهم عينوا وزراء له حتى يصبح الحكم في تونس بايديهم كما هو في الجزائر .(٣) بعد ذلك وفي الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة ذاتها ، خرج ذلك الجند من ثكناتهم وتفرقوا في احياء المدينة واسواقها ناشرين الرعب والفزع بطلقاتهم النارية . وبعد ان قتلوا بعض السكان ونهبوا الدكاكين والبيوت احتصنوا في قلعة القصبة . ومن هنالك بدأوا يطلقون المدافع اعلانا منهم الى بقية افراد جند الترك الموجودين في القلاع والحصون المجاورة بان الثورة قد قامت . ظهرت بعض الاستجابة وبدأت نار الثورة في الاشتعال وهددت بالتحول الى حرب اهلية حيث ان اكثر سكان المدينة تنادوا لمقاتلة الثائرين المخربين ، ووصلوا الى اسوار القلعة مدججين بالسلاح ، مصممين على الحرب .(٤)

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

٢- قلعة القصبة : كانت قلعة ضخمة تتسع لاكثر من ستة الاف مقاتل ، شيدها الامبراطور الاسباني شارل الخامس (ت ١٥٥٨) سنة ١٥٣٥ عندما غزا تونس؛ التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته .

٣- دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

٤- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

في تلك الظروف الدقيقة والخطرة ،حين بدأت الامور تفلت من ايدى الحكومة ، عين حمودة باشا وزيره القدير صاحب الطابع على راس بعض المماليك الخيالة وحرس الباى الخاص ،واوكل اليه مهمة مقاومة الثوار واخماد الفتن المشتعلة. وقد تمكن صاحب الطابع بالعدد المحدود من رجاله - بفضل كفاءته واستبساله - من حفظ امن احياء المدينة ومن حراسة مباني البعثات الاجنبية بتونس ومساكن جالياتهم.[1] ثم ركز الوزير كل قوته المتبقية لمحاربة العصاة ،وباستعانته ببعض ضباط المدفعية الفرنسيين والانجليز ،استطاع استنزاف ذخيرة المحتصنين وفتح ثغرات كبيرة في سور القلعة. وما ان حلت ليلة ٣١ اوت/ اب - اسبتمبر/ ايلول حتى خرج الداى المنتخب لحكم تونس بعد مقتل حمودة هاربا من القلعة بواسطة منفذ خلفي صغير مع وزرائه ورجال دولته المنتخبين ايضا ومعهم عدد كبير من الجنود. ومن الغد استسلم باقي الجنود العصاة. وفي اليوم ذاته بدأت عملية مطاردة الفارين قبل ان يصلوا الحدود الجزائرية ، وجهتهم المقصودة. وقد نجحت تلك الملاحقة واستبيحت دماؤهم في وقائع مهوله. وبالقضاء على هذه الفتنة التي ابيد فيها ما يزيد عن ثلاثة الاف جندى تركي ،تخلص الباى من اخطر اداة تخريبية ومجرمة كانت بالبلاد.[2]

٣. تعزيز الجيش بعناصر معظم افرادها تونسيون

لم تكن قضية اشراك الاهالي في جيوش الدايات والبايات العثمانيين بتونس امرا معدوما قبل تولي حمودة باشا عرش تونس. بل الواقع ان انخراط هؤلاء في الجيش جرت تجربته مرات عديدة في العهد العثماني بتونس. اهمها في اول ما فتح العثمانيون تونس،[3] وكذلك في عهد علي باشا باى (ت. ١٧٥٦)[4]. غير

١- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته.

٢- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته.

٣- بيرم ، صفوة ،ج ١ ،ص ١٣٢ - ١٣٣.

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٢ ،ص ١٥٦.

ان تجربة اولائك الحكام اثبتت ، على دعواهم ، تفوق الجندى التركي في القتال على الجندى التونسي" ... بصفة لا تقبل الجدل ولا الانكار".[1] ولما تولى حمودة باشا الحكم سنة ١٧٨٢ كانت هناك عدة تشكيلات عسكرية تونسية مختلفة الاسماء والمهمات ، بعضها ، بحكم عمل افرادها ، اقرب الى رجال الامن او الشرطة والحرس منهم الى الجيش . ومن هؤلاء ، وقد كانوا يستنفرون في وقت الحرب فقط ، الحوانب [2] والصبايحية والمزارقية.[3]

الجديد في سياسة حمودة باشا المتعلقة بامر اشراك التونسيين في الجيش هو امران : الاول تركيزه على تقوية تلك التشكيلات والاعتماد عليها بدل جند الترك . الامر الثاني احداث تشكيلات جديدة من تونسيين في معظمها للغرض ذاته ، وسنفصل الحديث عن هذين الامرين بعد الفقرة التالية .

لقد سبق وذكرنا ان هذا الاتجاه بدا تنفيذه عمليا ، على ما يظهر ، سنة ١٧٩٤ [4] ؛ غير انه زاد تأكدا ورسوخا عندما تيقن حمودة فداحة الغلطة التي ارتكبها باكثاره لجند الترك وذلك بعد ان كادت ثورتهم تذهب به وبعرشه.[5]

١ـ باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٧ .

٢ـ الحوانب : فرسان تونسيون كانوا يلتحقون بالجيش ايام الحرب مقابل مرتب يتقاضونه .انخرطوا في عملهم منذ اول الفتح العثماني لتونس ، وكذلك الصبايحية ؛ بيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ؛ انظر تعريف الصبايحية اعلاه ، ص ٥٢ .

٣ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ ؛ المزارقية كانوا يقيمون في قبائلهم داخل البلاد ، وهم فرسان يقبضون مرتبا من الجباية التي يدفعها اخوتهم بالقبيلة ، ويستنفرون وقت الحرب ايضا ؛ بيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

٤ـ انظر اعلاه ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

٥ـ التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته .

تلك الواقعة اقنعت الباى بصواب وتحتم الاعتماد على وفاء التونسيين " اولائك الذين عليهم واجب الدفاع عن اوطانهم واهلهم، بدلا من التعويل على اغراب متشردين لا هم لهم سوى نشر الفوضى والنهب والسلب".[1] وكان العمل الذى قام به الباى في هذا المضمار هو اعادة النظر في سياسته المتعلقة بالجيش وذلك " على اساس صالح ومجدى".[2] هذا وان كانت المصادر لا توفر لنا معلومات شاملة عن الكيفية التي تم بها تنظيم الجيش من جديد ، غير انها تمدنا بما يكفي لتكوين فكرة واضحة عن سياسة ذلك الباى في هذا المجال .

اشرنا اعلاه الى ان الجديد في سياسة حمودة باشا تلك يمكن حصره في امرين . الامر الاول هو التركيز على تقوية التشكيلات الوطنية التي كانت موجودة وتقويتها والاعتماد عليها بدل جند الترك . وقد نفذت هذه السياسة في هيآت عديدة من اقسام الجيش وحتى في قسم المتطوعة . ومن ذلك انه وجه عنايته بكل من الحوانب والصبايحية والمزارقية فقر بهم واهتم بهم ؛[3] واصبحوا قوة جديرة بالتقدير والاعجاب . وهم الذين دافعوا على تونس باخلاص واستماتوا في حربها ضد الجزائر حتى كتب لهم النصر. وفي تقييمهم يقول صاحب الاتحاف : " ... بهؤلاء دافع [حمودة باشا] اهل الجزائر عن الحاضرة ، وطوع العاصي وخافه القاصي ...".[4]

١- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٢- اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٤٤ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

٤- المصدر والصفحة ذاتهما ، انظر ايضا المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

ومن تلك السياسة ايضا اهتمام الباى الخاص بعسكر زواوة[1] الذين حباهم "... فاعزهم واكبر شأنهم ... واعلا مرتبتهم في الجيش" ، ومضى في سياسته بعد ان " سقط ما في يد حمودة باشا من الامل في الترك...".[2] ولزواوة هؤلاء تاريخ " مجيد " في شدة كرههم للاتراك ومحاربتهم اهم في مناسبات عديدة ، هذا " بالاضافة الى شجاعتهم المشهورة واقدامهم".[3] ويذكر التقرير الموجه لنابليون سنة ١٨٠١ ان عدد هذا الجند " اصبح " يعد اربعة عشر الف مقاتل اكثرهم من المشاة التونسيين ، يعملون بالجيش ويتقاضون مقابل ذلك اجرة. ثم يصفهم التقرير بكونهم ذوى نيات صادقة تجاه الباى ، وبكونهم " ممتازين عسكريا ومدربين جدا".[4]

١ـ عسكر زواوة : هذا النوع من الجند كان موجودا في تونس منذ الفتح العثماني ، وهو يتالف من ابناء البربر . ويذكر عثمان الكعاك ان عسكر زواوة " هم جند كتامة على عهد الفاطميين ، وجند زواوة على عهد المراديين والحسينيين بتونس ، وجند " الزواف " على عهد الفرنسيين ..." ؛ محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب : من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، المطبعة الكمالية ، ١٩٥٨ ، ص ٩٨ . اما تسميتهم بزواوة فهي نسبة الى جبال " زواوة" الواقعة قرب الحدود التونسية الجزائرية ، ولا ترجع تسميتهم كما هو شائع الى نسبتهم لقبيلة قرب مدينة الجزائر تسمى بزواوة ؛ الاب رينال " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٣٦ . ويذكر فيليب دوما ان زواوة اصلهم من جبال " وسلات " الواقعة في وسط البلاد التونسية ؛ اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٨ . ويذكر اميريت ، محقق " تقرير " رينال ، ان الوثائق الموجودة بخزينة وثائق مدينة مرسيليا ، والتي ترجع الى القرن السابع عشر ، تدل على ان عسكر زواوة كان يعمل في السلاحين المشاة والخيالة ؛ " تقرير " رينال ذاته ، ص ١٣٦.

٢ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ .

٣ـ فيليب دوما ، اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

٤ـ تقرير غفل ، تونس ، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ .

لقد كان لهذا الجند دور ملحوظ في الدفاع عن العاصمة واخماد ثورة جند الترك فيها .[١] ولعل دورهم ذاك هو الذى جعل حمودة باشا يندم على العناية التي صرفها على " بعض الجند " ، وخاصة منهم جند الترك ، وجعله يشرك معهم زواوة .[٢] وكان لزواوة بعد حمودة باشا دوراً طليعياً مفضلا في الجيش نتيجة ولائهم الصادق للبايات وشجاعتهم الموروثة وغير المحدودة .[٣] ويرجع لهم الفضل في اخماد ثورة جند الترك التي حدثت بتونس سنة ١٨١٦ ، وقد اعترف لهم محمود باى بذلك الفضل فزاد اعتناءا بشأنهم واستكثر منهم " ... واعتضد بشوكتهم ، واقامهم شجى في حلق الترك ، فكانوا عند الظن ."[٤]

ومن التشكيلات التونسية التي قواها حمودة باشا ، تماشيا مع سياسته العسكرية ، اهتمامه برجال " المخزن" الذين كانوا يكونون هيأة غير نظامية من عسكر الخيالة . وهم يتالفون من فرسان ينتمون الى مختلف القبائل التونسية ، ويشاركون مشاركة فعالة في المحال كل سنة . وكان حمودة باشا هو اول من اهتم بهم واحسن تدريبهم واستعملهم في حروبه .[٥] يذكر ابن ابي الضياف دور هذه الهيئة العسكرية ، التي يظهران بعض افرادها كانوا يقومون بحراسة قصر حمودة باشا ، في اخماد ثورة جند الترك سنة ١٨١١ ، بقوله : " ... اركب [الباى] الوزير يوسف صاحب الطابع الى تونس بمن حضر من عسة المخازنية بباردو ، وامره بجمع من بتونس من المخازنية ... ووافته فرسان المخازنية من الحاضرة والترك في شغل بنهب الحوانيت ... ".[٦]

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٥ .
٢- انظر المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٦ .
٣- فليب دوما ، اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٩ .
٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢١ ؛ انظر ايضا ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١١٨ .
٥- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته ؛ فليب دوما ، اربع سنوات في تونس ، ص ١٥٩ .
٦- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

بالاضافة الى تلك الهيات العسكرية المكونة من التونسيين والتي اهتم بها حمودة وقواها واحلها محل اجناد الترك ، بالاضافة الى ذلك حرص الباى على الالتفات الى الهيآت الشعبية من متطوعة الجيش والذين يلتحقون به في وقت الحرب كمشاة وخيالة على حد سواء . وقد كان افراد هذا الجيش الذى يتكون بسرعة فائقة وقت الحاجة يبلغون احيانا الاربعين والخمسين الف مقاتل ثلاثة ارباعهم من الخيالة .(١) وكان حمودة كلما تورط في حرب او خاض قتال ، سواء كان ضد طرابلس او ضد دايات الجزائر وبايات قسنطينة ، يصدر نداءا الى جميع القبائل بالبلاد للمشاركة في الدفاع عن تونس " واعدا اياهم بكل المغريات من غنائم واسلاب ، حيث يبيح لهم معسكرات العدو عند اتمام النصر ".(٢) وكان جيش المتطوعين هذا في عهد حمودة قبل ان يصل الى ساحة القتال ، يقسم افراده حسب القبائل المشاركة ثم يقع تنظيمهم واعدادهم للحرب .(٣)

ولم يقف حمودة باشا عند هذا الحد في الركون الى ابناء البلد في الجيش ، بل كان يسمح لجميع الاهالي باقتناء الاسلحة . غير انه كان يمنع عنهم حيازة البارود ، سواء منه الذى يصنع محليا او الذى يستورد من الخارج . وعند وقوع" اى هجوم او قيام حرب خارجية " ، ما كان على حمودة الا ان يفتح ابواب مخازن البارود ، فيهجم الناس عليها وياخذون ما يحتاجونه منها . وبذلك الاجراء يتآلف في مدة قصيرة ايضا جيش عرمرم من الاهالي الذين لا يغادرون مدنهم واحياءهم وقت المعارك .(٤)

١- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٣٦ .

٢- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٤ .

٣- ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٥ - ٧٦ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

الامر الثاني مما هو جديد في سياسة حمودة باشا العسكرية هو احداث تشكيلات جديدة في الجيش • وقد كونها من مولدى الترك الذين كان يطلق عليهم اسم " كلوغلي " (١) وتشكيلات اخرى تتالف من المماليك ومن اوروبيين اسلموا واستقروا نهائيا بالبلاد • (٢) ومن هذه الاقسام المستحدثة في الجيش ما هو من سلاح المشاة ، ومنها ما هو من سلاح الخيالة •

١ • الكلوغلي : اخذ حمودة باشا يجند جماعة الكلوغلي ، وكان منهم المشاة والخيالة ، عدد المشاة منهم كان حوالي الفي جندى • (٣) ويذكر التقرير الفرنسي المؤرخ بسنة ١٨٠١ " ان هذا الجند كان يعد بضعة الاف من اهم واقوى فرق سلاح الخيالة التونسي " • (٤) اما ابن ابي الضياف فيعلمنا ان الباى في سنة ١٨٠٩ خصص بيوتا جديدة لسكنى الفين وخمسمائة جندى " اكثرهم من اولاد البلاد ابناء الترك ، والبقية من متطوعة الترك " • (٥)

١ـ كلوغلي : كلمة تركية (Kul Oglu) ، تعني في الاصطلاح العثماني ابناء المحالين الى التقاعد من الجند ، جب وبوون ، المجتمع الاسلامي ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣١٧ • وفي تونس كان يطلق هذا الاسم (كلوغلي وكرغلي ايضا) ليدل على ابناء الذين كان اباؤهم اتراكا وامهاتهم تونسيات ، روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ • ويصفهم دى فلو بانهم ، بسبب اختلاط دمهم ، ورثوا طباع واخلاق والديهم " سواء فيما يتعلق بالعيوب والنقائص الرذيلة او الخصال والمزايا الحميدة • وبانهم كانت لهم ملامح وتقاطيع خاصة بهم ، وكذلك عادات مميزة ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٩٤ •

٢ـ الاب / ينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٧٠ ، باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٧ •

٣ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٢ ، الاب / ينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ •

٤ـ تقرير غفل ، تونس ، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ •

٥ـ اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٠ •

٢ • المماليك : هذه الفرقة العسكرية اسسها حمودة باشا ايضا ،وهي تتألف من المماليك الجراكسة والقرج ، وكذلك من الاوروبيين الذين اسلموا واصبحوا تونسيين • وقد كان هؤلاء المماليك يتمتعون بثقة كبيرة من الباى ، وحتى حرسه الخاص وحرس القصر كانوا يتألفون من خيالتهم • وكان منهم في الجيش الخيالة والمشاة على شاكلة الكلوغلي • [١] وكان لهؤلاء فضل لا يجحد في محاربة ثوار جند الترك بالعاصمة سنة ١٨١١ • [٢] وفي المدة التي قضاها فيليب دوما في تونس (١٨٥٠ ـ ١٨٥٤) كانت فرقة المماليك الخيالة هذه قد بدلت بفرقة اخرى ، واصبح "الحوانبة" هم الذين يقومون بحراسة الباى والقصر • [٣]

تلك كانت سياسة حمودة باشا في شأن الضرب على يد جند الترك واشراك التونسيين ومن يماثلهم بقسط وافر في جيش البلاد ، وفي مختلف اسلحته • وبتلك السياسة يكون ذلك الباى سعى لتونسة الجيش بعد ان حاول تونسة الادارة التونسية ، ولا يخفي ما لذلك من اهمية في بناء شخصية الدولة التونسية • وقبل ان ننتقل لموضوع اخر من سياسات ذلك الباى العسكرية ، يجدر بنا ان نكون لانفسنا فكرة عن وطنية هذا الجيش التونسي وامكاناته الحربية ، من خلال اقوال وتقييمات المؤرخين والكتاب • وذلك حتى ، عند تقييم اعمال هذا الباى فيما بعد ، [٤] نكون اقرب ما يكون الى الصواب والواقع •

---

١ ـ التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته ؛ رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ،عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ،ص ١٧٣ ـ ١٧٤ •

٢ ـ فليب دوما ، اربع سنوات في تونس،ص ١٥٩ •

٣ ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

٤ ـ انظر ادناه ، الخاتمة •

كانت للجنود التونسيين في عهد حمودة باشا جولات مشرفة ، ووقائع واعمال ستبقى صفحات ناصعة في تاريخ جيش تونس في العصور الحديثة . وهي الصفحات الكفيلة برد التهم التي كالها اكثر بايات تونس قبل حمودة باشا ، واقلها ان ابناء البلاد لا يمكن الاعتماد على ولائهم ولا على كفاءاتهم العسكرية. [١]

لقد سبق وذكرنا ان اول اصطدام وقع بين تونس واحدى جاراتها ، كان مع ولاية طرابلس سنة ١٧٩٤ وان جند الترك كانوا يفرون من خدمتهم العسكرية بتونس ويلتحقون بعلي برغل عدو تونس في ذلك العهد ، وان حمودة باشا منذ ذلك الوقت بعث بجنود تونسيين تمركزوا على الحدود التونسية الطرابلسية والحدود التونسية الجزائرية . وذكرنا ايضا ان الانتصارات التاريخية التي احرزها جند تونس على جيش الجزائر سنة ١٨٠٧ ، كانت في الدرجة الاولى من اعمال التونسيين وانجازاتهم اكثر منها من اعمال وانجازات جند الترك. [٢] وهي الحرب التي يؤكد فيها دوفواز ان فرق الخيالة التي فرسانها جميعهم تونسيون والتي تقدر باكثر من عشرين الف فارس" هي التي قدمت دماءها وشهداءها فداء للوطن". [٣]

وبنفس الشجاعة والفداء والانضباط [٤] الذى اظهره الجند التونسي في حرب الجزائر ، كانت مقاتلته لجند الترك ايام قاموا بثورتهم . وقد تمثلت في تلك المعارك مدى كراهية التونسيين لذلك الجند ومقتهم لهم . ولذا كان قتلهم

١- انظر اعلاه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٢- انظر اعلاه ، ص ٢١٤ - ٢١٥ ؛ انظر ايضا تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ ؛ انظر بعض هذا المعنى بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

٣- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ ؛ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٦ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨١٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٥١٠ .

٤- بعد ان يصف فرانك اعمال جند الترك الاجرامية اثناء خروج المحلة ورجوعها ، يقول بالنسبة للجنود التونسيين " ان اقسام الجيش المتالفة من الجنود التونسيين لا يحدثون اية ضجة ولا اية فوضى ؛ ونستطيع ان نقول اجمالا انه ، بسبب انضباطهم لا تقع ملاحظة خروجهم من المدينة ولا رجوعهم اليها" ؛ وصف البلاد التونسية ، ص ٧٥ .

للثوار بعد صدور اوامر الباى لا هوادة فيه ولا رأفة .[١] وقد انقذ جند تونس بلاده في تلك الواقعة من ثورة " كان يكتب لها النجاح بصفة قطعية لولا ولاء ومقدرة وتفاني فرق الجيش التونسيين الذين كان انشاهم وقواهم واحسن تدريبهم مخدومهم حمودة باشا ".[٢] وهكذا ، وعلى يد هذا الجيش التونسي الكفء ، استطاع حمودة باشا ان يسجل لنفسه ولبلده انتصارات وانجازات تعتبر من اروع ، ان لم تكن اروع الانتصارات التونسية في التاريخ الحديث وهي : ظفره في حرب طرابلس، انتصاره على الجزائريين نهائيا ، تحطيمه لجند الترك بصفة قاطعة ودائمة . وقد سار بايات تونس فيما بعد في نفس السياسة التي سطرها حمودة وعملوا بها فيما يتعلق بوجوب الاعتماد على العنصر التونسي في الجيش .[٣]

٤ . تسليح الجيش بأحدث العتاد الحربي الاوروبي

من مظاهر سياسة حمودة باشا الهادفة الى تدعيم الامكانات الحربية للبلاد التونسية عمله الحازم للحصول على اكثر ما يمكن من العتاد والسلاح الحربي الاوروبي الممتاز . ولانجاز غرضه ذاك اتخذ ذلك الباي جملة اجراءات وتدابير سنصفها ونتتبع خاصياتها فيما يلي .[٤]

١ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ ، مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ٢٠٠ ، اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ، دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ٢٢١ ، وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤١ .

٢ـ تقرير من سليم خوجه ، تونس، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم B ـ ٢٢٥٥٨ ، دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢٠ .

٣ـ المؤلف المجهول ، تونس والتمدن ، ص ١٠ـ١١ ، باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٨ ، مارتال ، " جيش احمد باى " ، كراريس تونسية ، ج ٤ (١٩٥٦) ، ص ٣٧٣ .

٤ـ بالملحق رقم ٤ من هذه الدراسة جدول مبين للاسلحة التي تحصل عليها حمودة باشا . وهو يشمل : نوع تلك الاسلحة (١٠ سفن حربية ، ٢٠ مدافع وبارود وعتاد " ، ٣٠ بنادق ومسدسات) ، تاريخ موافاتها تونس اعتمادا على تاريخ الاعلان عن ذلك الوصول ، اسم البلاد المصدرة لتلك الاسلحة ، صفة المعاملة (شراء ، هدية ، اسلاب ...) ، وملاحظات . كل ذلك في اطار ما توفره لنا المصادر التي رجعنا اليها من معلومات.

تتصف الاجراءات التي عمل بها حمودة في هذا المجال بالحزم والدقة بل تصل احيانا الى حد الشدة والقسوة . قد يكون اول تلك الاجراءات هو العمل بقانون يعفي جميع انواع الاسلحة المستوردة من الخارج للدولة التونسية من دفع اية رسوم جمركية .[1] ثم يخبرنا صاحب مسامرات الظريف ان الاسلحة التي كانت تصل تونس في عهد ذلك الباى كانت من " جيد الاسلحة" .[2]

منذ سنة ١٧٨٤ ،اى بعد تولي حمودة باشا العرش بسنتين ،اخذ ذلك الباى يعلم بعض الدول الاوروبية بانه سيرفض الهدايا التي كانت ترد من تلك الدول اذا لم تكن تتألف في معظمها من اسلحة وذخيرة حربية . وقد قبلت كل من السويد والدانمرك ذلك الشرط فورا ونفذاه بدقة.[3] وكذلك فعلت بريطانيا سنة ١٧٨٦ ،[4] وفرنسا وبعض الدويلات الايطالية سنة ١٧٩٠ .[5] ولما قامت الثورة

١- مجيل ،رحلة ،ص ١٣١ ؛يظهر ان هذا الاجراء كان معمولا به في تونس قبل حمودة باشا ،حيث انه ورد في صيغة شرط من معاهدة ابرمت بين تونس وبريطانيا يوم ١٩ اكتوبر/ تشرين الاول سنة ١٧٥١ . نص هذا البند كما ورد في الترجمة العربية : " الشرط ١٨ . جميع ما تأتي به التجار الانجليزية من آلات ومهمات مخصوصة الى مملكة تونس ومراسيها كمدافع ومكاحل بنادق وبارود وحبال وزفت واخشاب وما يشبه ذلك يكون معافى من جميع رسوم وعوائد الجمرك ولا يدفع عليه شيء لاصحاب الالتزامات اصلا ... فعلى ذلك وقع القول والشرط " ؛خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٤٠٥ ،كرتون رقم ٢٢٤ .

٢- السنوسي ،ج ١ ،ص٣٦ .

٣- ستانلي ،مشاهدات في مدينة تونس ،ص ٢٩ ؛ روسو ،حوليات تونسية ،ص ٢١٨-٢١٩ .

٤- رسالة من ج. تريل الى حكومته ،تونس ، اول جوان / حزيران ،١٧٨٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ .

٥- رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ٨ ديسمبر/كانون الاول ، ١٧٩٠ ،المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧ .

الفرنسية وغيرت علم بلادها لم يقبل الباى الاعتراف بذلك العلم الجديد "في البر والبحر" الا بعد عقد معاهدة جديدة ، تكلف فرنسا اموالا عظيمة ، او الاستجابة الى طلبات الباى السابقة المتعلقة بالاسلحة والعتاد الحربي ، وقد قبلت فرنسا الامر الثاني .(١) في السنة التي تلت سلم قنصل فرنسا دوفواز هدية ثمينة قدمتها حكومة فرنسا الملكية لحمودة باشا "شخصيا" . وبالرغم من ان الهدية الفاخرة ، كانت احد انفس احجار الماس ، فقد ابدى ذلك الباى رغبته الملحة للقنصل في الحصول على (un meridien à canon) مثل ذلك الموضوع في القصر الملكي بباريس(Palais - Royal de Paris) .(٢)

بالاضافة الى ذلك الالحاح للحصول على الاسلحة الحديثة كان حمودة يغرى الدول الاوروبية ، وخاصة فرنسا وانجلترا ايام حروبهما ، ويعدهما بكل التسهيلات مقابل الحصول على الذخيرة . فقد وعد فرنسا سنة ١٧٩٤ ، عندما تاخرت هذه في انجاز اتفاق سابق (تم سنة ١٧٩١) ، ينص على تقديم عتاد حربي لتونس ،(٣) بتوريد ما تحتاجه من حبوب واغذية من تونس ، وبالاستجابة الى "جميع" المطالب التي قدمتها الحكومة الفرنسية . كل ذلك مقابل بعث العتاد الحربي الذى وعدت بـه

١- رسالة من الوزير مصطفى خوجة الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٧ جوان/حزيران ، ١٧٩١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ؛ انظر المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٩٧ - ٢٠٥ .

٢- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٥ افريل / نيسان ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢١١ ؛ ولعل تلك الالة التي طلبها حمودة هي ذاتها التي قال في شانها القنصل دوفواز للباى ان الخبير الفرنسي صنع له الالة التي تميز عهده ، عن جميع عهود البايات ؛ انظر بلانتي ، رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩١ .

٣- يتكون العتاد الحربي الذى طلبه الباى من فرنسا في ذلك التاريخ من الاسلحة الاتية : سفينتين حديديتين مسطحتين لترميم السفن ، مائتي قنطار من البارود ، عشرة مدافع عيار ١٨ لبرة (اللبرة تزن ٥٠٠ غرام) القذيفة ، عشرين مدفع عيار ١٢ لبرة القذيفة ، اربعة الاف قذيفة ، سبعين منجنيق ، سبعين قاذف رمانات (tromblons de fonte) ؛ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ، تعليق رقم ٤؛ انظر وزن القنطار ادناه ، ص ٢٧٢ تعليق رقم ٥.

الحكومة التونسية ، والتي هي في اشد الحاجة اليه .[1] ولكن رد فرنسا المحبط للعزائم لم يؤثر على تصميم حمودة في الحصول على الاسلحة من فرنسا . ونجده في السنة التالية بالذات (١٧٩٥) يبعث مبعوثا خاصا لمرسيليا ليشترى لـه ثلاثمائة قنطار بارود للمدافع ، عشرين الف قذيفة مدفعية من مختلف الاحجام. وقد عقدت الصفقة ، بل دفع الباى نصف سعرها فقط والنصف الثاني قدمتـه الحكومة الفرنسية هدية له.[2]

السياسة ذاتها كان حمودة باشا ينتهجها مع بريطانيا ، فقد ضغط عليها مرات عديدة ورفض ان يبيعها حبوبا واغذية لجيوشها العاملة في اوروبا ،

١- رسالة من مصطفى خوجة الى الحكومة الفرنسية ، تونس، ٥ ماى / ايار ، ١٧٩٤، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ . غير ان فرنسا لم تف بوعدها ذاك فقد اعلمت مبعوثها هيركولي " مبعوث الجمهورية الفرنسية بتونس" بان الحكومة الفرنسية لا يمكنها ان تجيب عن الطلب ، وذلك لان ذلك الوعد كان رمزا للضعف والعجز الفرنسيين ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فانه ليس من مصلحة فرنسا ان تعود بلدان شمال افريقيا بهدايا من هذا الصنف . وكلفت الحكومة الفرنسية مبعوثها ذاك ان يقدم باسم الجمهورية للباى السفينة الحربية المسماة " le Jacobin " بجميع مدافعها ولوازمها . ويعلم الباى بانه بتلك الهدية تكون فرنسا ابرأت ذمتها من العهود المتعلقة بالعتاد الحربي ... ، تعليمات من الحكومة الفرنسية الى مبعوثها هيركولي ، باريس ، ١٥ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

٢- رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٦ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٥، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ، انظر ايضا ، رسالة من المبعوث ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٥ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٥ ، المصدر والصفحة ذاتهما ، انظر كذلك رسالة من حمودة باشا باى الى حكومة فرنسا ، تونس ، ٢٥ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٥ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

الا اذا دفعت هذه ثمن تلك الحبوب والاقوات اسلحة وعتادا حربيا .[١] وفي كثير من الاحيان كان الباى لا يسمح بالسفن البريطانية التجارية المحملة بتلك السلع بمغادرة الموانيء التونسية الا اذا ابلغ رسميا كمية الاسلحة التي سيتسلمها مقابل تلك الصفقة . وكذلك كان لا يتردد في الظروف العصيبة ان يشترط على بريطانيا انواع الاسلحة ومكان تسلمها من قبل التونسيين ، وقد تم ذلك في مالطة مرات عديدة .[٢] في سنة ١٨٠٥ بلغ الامر بحمودة مع بريطانيا ، وذلك عند ما حصلت مجاعة شديدة في جزيرة مالطة قاعدة الجيش البريطاني في البحر المتوسط عندئذ ، ان بعث مبعوثه الخاص بصحبة القنصل البريطاني في تونس الى تلك الجزيرة ليتفاوض مع السلطات البريطانية هناك على كمية الاسلحة التي ستدفعها بريطانيا مقابل الحبوب التونسية ، وان يتسلمها ، قبل ان تتم موافقة الباى رسميا .[٣] وقد تكررت تلك العملية ثانية في نفس السنة ، وكان ثمن الانتاج الزراعي التونسي المصدر دفعته مدافع قدمتها بريطانيا في وقت كانت تلك الدولة في اشد الحاجة الى كل قطعة من اسلحتها بسبب حروبها في اوروبا .[٤] وهكذا يظهر ان بريطانيا انصاعت

١ـ انظر رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣ جانفي / كانون الثاني ١٨٠١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٠ افريل / نيسان ١٨٠١ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ .

٢ـ المصدر والوثيقتات ذاتهما .

٣ـ تقرير من القنصل ذاته الى حكومته ، مالطة ، ١٩ افريل/ نيسان ١٨٠٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

٤ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٩ سبتمبر/ايلول ١٨٠٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

لطلبات الباى وشروطه فيما يختص بتشدده في قضية توفير السلاح لتونس ، ونجدها سنة ١٨٠٧ ، ووقت قيام الحرب بين تونس والجزائر ، تبعث " عدة " سفن ناقلة اسلحة وعتادا حربيا لحمودة باشا • ويعلق القنصل الفرنسي على ذلك العمل ، معتبرا اياه عملا ينال من صداقة بلاده لتونس ، بقوله :

"••• ان الانجليز لا يدخرون اية تضحية مقابل محافظتهم على العلاقات الحسنة مع بلدان شمال افريقيا ، على الرغم من كونهم [البريطانيين] في حرب مع السلطان العثماني • واني لم اخف على الباى ، منذ يومين ، انه لا يمكن الا ان يُلاحَظ له ، انه في هذا الظرف بالذات سلك [الباى] سيرة مختلفة جدا مع فرنسا •"[1]

اخر المعلومات المتوفرة لدينا ، والتي تتعلق بسياسة حمودة باشا وطرقه وشدة حرصه على تسليح جيشه بالعتاد الحربي الاوروبي ، هي : معلومة تذكر ان في سنة ١٨١١ طلب حمودة من بريطانيا اسلحة كثيرة ، مقابل قمح تونسي • وفي اخر الرسالة يقول القنصل البريطاني ان الباى اعلمه ايضا انه مستعد ، في حالة اجابة بريطانيا بالايجاب على مبتغاه ، ان يتفاوض معها في قضية عتق رقيق تابعين للتاج البريطاني موجودين في حوزته •[2] ويظهر ان بريطانيا وافقت على الطلب فقد ذكر ابن ابي الضياف في ترجمته لمحمود الجلولي " الاصيل في الخطط السياسية " انه " توجه سفيرا لمالطة سنة خمس وعشرين (١٨١١ - ١١) ، وبقي بها ما يقرب من ثلاث سنين لانشاء سفن حربية والات حرب ، واحسن السفارة ، وقضى الوطر ، وجعل ضيافة لحاكم مالطة يومئذ ، فجاءه لمحله ، وتفنن في اكرامه •••"[3] أما المعلومات

١- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧١ •

٢- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٢ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨١١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ •

٣- اتحاف ، ج ٨ ، ص ٤٢ •

الثانية فهي تؤكد سوء العلاقات بين تونس وفرنسا في خصوص استيراد الاسلحة وتعلمنا ان حمودة باشا امتنع عن تسديد دفوعات مترتبة عليه لفرنسا سنة ١٨١٢. وآعلن انه لن يدفعها الا اذا وقع تسليم الستة الاف بندقية حربية التي تم الاتفاق عليها منذ سنوات عديدة.[١]

وقبل ان ننهي حديثنا عن تسليح الجيش من المفيد ان نذكر بالمعلومات التي ذكرها قنصل بريطانيا من ان حمودة باشا منذ سنة ١٧٩٣ كان قويا غير انه " ليست له رغبة في الظهور كاقوى سلطة في شمال افريقيا ".[٢] وكذلك من المفيد ان نشير الى ما ورد في التقرير الفرنسي الذى رفع الى نابليون بونابرت سنة ١٨٠١، كتمهيد لاحتمال قيام غزو فرنسي لتونس، ذكر في هذا التقرير ان فرق الجيش بتونس "... كان الجندى فيها مسلح ببندقية، وبمسدسين في خصره". ويذكر ايضا ان " السفن الحربية التونسية اكثر قدرة واتم عدة حربية من مثيلاتها الجزائريات".[٣]

٥. انشاء مصانع حربية عصرية في تونس

من اهم معالم سياسة حمودة باشا المتعلقة بتدعيم الامكانات الحربية لبلاده انشاؤه لثلاثة مصانع حربية اعتبرها مبعوث الدولة العثمانية سنة ١٨١٥ اعظم الانجازات العسكرية في تونس.[٤]

١- رسالة من بيلون الى حكومته، ٢٩ فيفرى / شباط، ١٨١٢، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس، ٧ جوان / حزيران، ١٧٩٣، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧.

٣- تقرير غفل، تونس، ٢٦ ماى / ايار، ١٨٠١، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب ٣، ٣٠٤.

٤- تقرير من سليم خواجة الى الباب العالي، تونس، ١٠ رجب ١٢٣١/ ١٨ اوت/ اب ١٨١٥، خزينة الوثائق العثمانية، خطي هميون رقم B - ٢٢٥٥٨.

وهي معامل شيدت اولا وقبل كل شيء للتهيوء للدفاع عن حوزة بلاده من تسلط الجزائريين واستبدادهم ، واخد استقلاله عنهم .[١] وقد حمّل حمودة نفسه وشعبه الكثير من الاقتصاد والتقشف لانجاز تلك المنشات العسكرية .[٢] وهي المعامل والصناعات التي كان لها اثر فعلي في الحرب سواء في البحر او البر .

(أ) صناعة البارود

كان يوجد في العاصمة التونسية مصنع للبارود قبل ولاية حمودة باشا . ولكن يظهر ان ذلك المصنع لم يكن يلبي حاجات تونس في عهد هذا الباى المصمم على تحقيق الانجازات العظيمة والتغييرات الكبيرة التي ترمي الى ابراز سيادة البلاد واستقلالها وتحقيق تقدمها .[٣] ولعل الذى شجع حمودة على الاعتناء بتلك الصناعة بالذات هو توفر ملح البارود " بكثرة كبيرة جدا " في مناطق عديدة من البلاد التونسية .[٤]

١ـ الباجي المسعودي ، الخلاصة النقية ، ص ١٣٦ .

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٣ـ يذكر T. Shaw احد اوائل رواد الانجليز الى تونس انه في سنة ١٧٣٥ ، لما قام بزيارته ، كان " في البلاد التونسية مصنع لبارود ردىء يطلق عليه العرب اسم " الملح الحي " "live salt" ; Travels ; or , Observations Relating to several Parte of Barbary and the Levant , Oxford, the Theatre , 1738, pp. 230 - 231 ;

سنشير الى هذا المؤلف فيما بعد بـ شو ، رحلات . يطلق التونسيون على هذا النوع من البارود اسم " ملح البارود " . ويذكر روسو ان الحكومة التونسية ، اثناء حربها مع فرنسا سنة ١٧٧٠ ، اجبرت الاسرى الفرنسيين على العمل في مصنع البارود ، " وذلك حتى يعينوا بايديهم على صناعة المواد التي ستسبب الموت لمواطنيهم " ؛ حوليات تونسية ، ص ١٧٩ .

٤ـ رسالة من F. Deforgues الى دوفواز ، باريس ، ٣ مارس/ اذار ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٣١ ؛ تقرير من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، بـ٣ ، ٣٠٤ .

اسس حمودة باشا في القصبة سنة ١٧٨٧ مصنعا جديدا لصناعة البارود من ملح البارود . وهو معمل صنع خصيصا في فرنسا بطلب من حمودة باشا . ويذكر القنصل البريطاني ان فرنسا هي التي اقامته في تونس وكان يديره خبراء فرنسيون . ويضيف ان هذا المصنع كان ينتج بارودا جيدا ،غير ان التونسيين لم يتعلموا صناعتــه وذلك لسبب " هو ارادة الباى حمودة وسياسته ،وذلك حتى يكون هذا البارود الجيد مع ما يستورد من الخارج لا يستعمله احد في البلاد كلها الا الجيــش فقط ". ويذكر القنصل : " ان الباى كان يحرم على الاهالي تحريما تاما صناعة اى نوع من انواع البارود او حيازته ضمانا للاستقرار والامن الداخلي ". (١)

بعد ثلاث سنوات من تأسيسه اصبح ذلك المصنع ينتج كمية لا تقل عن مائتي قنطار سنويا ،اكثرها مكرر وحسن النوع ،غير انه لا يبلغ في جودته ذاك الذى يصنع في اوروبا . وعلى الرغم من ان الحكومة التونسية كانت تحتكر كل انتاج المصنع ،وتمنع بيع اية كمية منه للخارج ،كانت تستورد كميات وافرة من فرنسا بعد الاستحصال على رخصة من حكومة تلك البلاد .(٢) وتدل وثيقة موجودة بتونس مقدار المصاريف التي كانت تنفق على "دار البارود" تلك في شهرين من سنة ١٨٠٤ . فقد ورد فيها ان ما صرف على تلك الدار في شهر ذى القعدة / فيفرى / شباط من تلك الســنة قيمته ١١٠٨٦ ريال تونسي وكسور ،مقابل ١٢٣١٢ وكسور في شهر ذى الحجــة مارس/ اذار من نفس السنة .(٣) وقد تكون تلك الزيادة في المصاريف بين الشــهر الاول والثاني كانت تهدف الى تكثير الانتاج لحاجة ملحة الى البارود بسبب تعاظم

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ،٨ ديسمبر/ كانون الاول ١٧٩٠ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- خزينة وثائق الدولة التونسية ،دفتر رقم ٢٨٥ ،ص ٩٢ ،انظر قيمة الريال التونسي ادناه ،ص ٣١٥ تعليق رقم ١ .

احتمال قيام الحرب مع الجزائر بعد ان ضاقت الحيل وتحققت المجابهة . وقد كان الباى حريصا على ما يمتلكه من بارود حتى انه كان يخزنه جميعا في قصره بباردو . ويذكر ابن ابي الضياف حادثة وقوع حريق في مستودع الاسلحة بباردو سنة ١٨٠١ ، وفيها يصف خوف الباى وحرصه على الا تصل النار الى خزائن البارود . يورد المؤرخ ذلك بقوله : " ... وقع حريق في خزنة السلاح بباردو ، وسرى اللهيب ، وتعسر اطفاؤه

بسرعة ، ووقع الخوف من وصوله الى خزائن البارود فخرج الباى بحرمه وآله ليلا الى منوبة راجلين ، ورجع لمعالجة اطفاء النار ، ولم يكن لاهل المغرب استعداد بالات اطفاء النار ، لندور ذلك فيه ، ودام الحريق نيفا وعشرين ساعة ، ولطف الله باطفائها ...".(١)

هذا وبعد عهد حمودة باشا استمرت دار البارود في انتاجها ،غير انها صارت حوالي سنة ١٨٢٥ وبعد العهد الذى ندرسه ، تعمل كامتياز صناعي تحصل احد الفرنسيين على حق احتكاره . ولتعزيز ذلك الاحتكار منع استيراد البارود من الخارج منعا باتا .(٢)

(ب) صناعة المدافع وقذائفها

انشأ حمودة باشا مصنعا يشتمل على عدة معامل لصناعة المدافع وقذائفها وهي تشتمل خاصة على معمل لتذويب النحاس والحديد وصبه ، وآخر لصناعة القذائف لتلك المدافع .

أما مصنع التذويب والصب لصنع المدافع ، الذى اطلق عليه صاحب الاتحاف

١ـ اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٦ .

٢ـ جرينفيل ، نزهات في الجزائر وتونس ،ج ١ ،ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، وانظر وصف ذلك المصنع كما شاهده جرينفيل حوالي سنة ١٨٣٠ ، المصدر ذاته ،ج ١ ، ص ١٧٨ .

اسم " دار عمل المدافع "،[1] فقد شيد منذ اوائل عهد حمودة في جناح من قصر الحفصية .[2] وقد اعتنى الباى بذلك المصنع غاية الاعتناء ،حتى انه كان يزوره مرارا تحريضا للعمال وتنشيطا لهم .[3] وقدم في خطة " شاهد الحفصية "، وهو المسؤول على احوال ذلك المصنع ، ووظيفته كانت تعتبر من " الخطط النبيهة " ، رجالا من اكابر اعيان تونس ، وعلمائها .[4] لم يقف اهتمام الباى بتلك الدار عند ذاك الحد بل جعل التذاكر[5] شاهد الحفصية ، عند صرفها في بيت مال الدولة ، قوة توازى قوة التذاكر التي يمضيها الباى نفسه . وقد سن حمودة ذلك الاجراء " خشية التعطيل ،ولو ساعات ".[6] وهو الباى الحازم الذى لا يفرط في مناسبة الا ويستغلها للاستزادة من صنع المدافع . حتى انه في سنة ١٨٠٣ - ١٨٠٤ لما حل قحط شديد بالبلاد بعث يشترى الميرة من سلطان المغرب الاقصى فاجاب طلبه ،[7] وزاد فهادى الباى " بجانب وافر من النحاس " . فاذابه هذا وصنع به ما " ينيف ... على المائة مدفع ".[8]

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٧ ،ص ١٦٥ .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما ؛ سليمان مصطفى زبيس ،اثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي ،تونس ،مطبعة سابي ، ١٩٥٥ ،ص ٤٤ .

٣- ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٩ .

٤- المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٣٩ ،ج ٧ ،ص ١٦٥ .

٥- التذاكر : ج. تذكرة وهي ورقة الدفع تصرف من خزينة الدولة .

٦- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٩ .

٧- انظر ادناه ،ص ٤٥٦ .

٨- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ،ص ٣٩ .

يظهر ان حمودة باشا لم يكن مرتاحا لامكانات ذلك المصنع الانتاجية ، وذلك على غرار ما حصل بالنسبة لمصنع البارود ،[1] فنجده في صائفه سنة ١٧٨٧ يطلب من فرنسا السماح له بشراء ، من مدينة تولون ، كمية من المعدات والالات لتأسيس مسبك جديد للتذويب لصناعة المدافع .[2] وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، رغب حمودة من فرنسا في السماح له بالحصول على آلة لنقب وثقب المدافع ، على ان تكون تعمل بقوة الخيل ، وان تكون "تحفة رائعة من صناعات الرجال الفنيين الماهرين في هذا المجال".[3] وبعد ذلك طلب مصطفى خوجة من الحكومة الفرنسية اعلام الباى بتاريخ الانتهاء من صناعة تلك الالة ، حتى اذا تمت تجربتها والتحقق من اتقان صنعها ، تنقل الى تونس بسرعة . ثم اوصى الوزير بتحتم بعث خبير مدرب ماهر ليجمع اجزاءها ويركبها ويشغلها في محلها . وقبل ان ينهي الوزير رسالته تلك شرح مدى تعلق رغبة الباى في انجاز طلبه في اقرب وقت ممكن ومدى تأثير ذلك على العلاقات الطيبة بين البلدين في المستقبل ، ويذكر له شهرة الفنيين الفرنسيين في الاليات "وبراعتهم اللامتناهية في صناعاتهم" .[4] بعد شهرين تقريبا من ذلك التاريخ اجابت

١- انظر اعلاه ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

٢- رسالة من دى شاتوناف الى حكومته ، تونس ٦ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٧٠ . يذكر القنصل في رسالته تلك المعدات المطلوبة لانشاء ذلك المسبك ، وهي : عشرة الاف اجرة صالحة لبناء افران لتذويب المعادن ، وحزمتان من قوالب المدافع لتأسيس مسبك .

٣- رسالة من مصطفى خوجة الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، سبتمبر/ ايلول ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٨٥-١٨٦ .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما .

الحكومة الفرنسية على لسان احد كبار مسؤوليها بانها كلفت لصناعة تلك الالة " امهر فني اختصاصي في مصانع الاسلحة" . وانها ستبعث بها ساعة يتم صنعها مع احد احذق الخبراء الاكفاء .[١] وبعد مشاحنات طويلة بين البلدين نتجت عن تاخر فرنسا في انجاز صناعة تلك الالة ،[٢] وصلت اخيرا الى تونس مع خبير ماهر لتركيبها وتشغيلها ، يوم ٤ من شهر افريل/ نيسان سنة ١٧٩٢ .[٣]

وفي سنة ١٨٠١ تحصل حمودة باشا على الات وادوات اخرى " لازمة" لمصنع تذويب وسبك المدافع ، ولكن هذه المرة ليس من فرنسا بل من اسبانيا . ويذكر قنصل اسبانيا بتونس ان حمودة باشا بعث يشكر الحكومة الاسبانية التي بعثت له تلك اللوازم لمصنعه ذاك .[٤]

اما فيما يتعلق بصناعة القذائف المدفعية فقد اقام حمودة معملا خاصا لذلك الغرض سنة ١٧٩٥ . وكان هذا المعمل الذى هو فرن لتذويب وصب القذائف ، تقدمة من مبعوث الجمهورية الفرنسية لتونس هيركولي . وقد أعلم هذا

١- رسالة من Le Conte de Fleurieu (كاتب الدولة للبحرية الفرنسية) الى مصطفى خوجة ، باريس ، ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

٢- تقرير غفل ، ٢٤ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٩٩ - ٢٠١ ؛ رسالة من الحكومة الفرنسية الى المفوض العام للبحرية الفرنسية بتولون ، باريس ، ٥ مارس/ اذار ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، تعليق رقم ١ .

٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٣ افريل / نيسان ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- G. Loth , Arnoldo Soler chargé d'affaires d'Espagne à Tunis et sa correspondance (1808-1810) , Tunis , 1905, p. 37 ;
سنشير الى هذا المصدر فيما بعد ب ارنولد وسولر ، مراسلات .

دولته بان مفعول تلك الهدية كان كبيرا جدا حيث مكنته من التمتع بحظوة ومكانة مرموقين لدى حمودة باشا .[١] وقد انشيء هذا المصنع في القصبة التي تبعد عن الحفصية حوالي كيلو متر واحد .[٢]

هذا وقبل ان ننهي حديثنا عن صناعة المدافع في عهد حمودة من المفيد ان نشير الى ان ذلك المصنع الذى انفقت على انشائه كل تلك الاموال والمجهودات، كان معطلا عن العمل ومهجورا في وقت محمد بيرم الخامس.[٣] على الرغم من الاعتناء والترميم والتجديد الذى ادخل عليه في عهد أحمد باى المشير الاول .[٤]

(ج) صناعة السفن الحربية

لما زار بيسونال البلاد التونسية سنة ١٧٢٤ وجد دار صناعة السفن التونسية في " غار الملح " .[٥] وهي دار ، كما يصفها ذلك الرحالة ، قليلة التجهيز ، سواء بالنسبة للوسائل اللازمة لصناعة السفن وتحريكها أو بالنسبة لقوة المدفعية التي تحرسها .[٦] غير انه في سنة ١٧٧٦ يذكر رحالة اوروبي اخر تطور ميناء غار الملح

١ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٦ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٠ .

٢ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٣ـ صفوة ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

٤ـ انظر E. Martz , " L'industrie Europeènne en Tunisie ", R. T., no. 13 (1897), p.p.19-20 ;
سنشير الى هذا المرجع فيما بعد بـ مارتز " الصناعة الاوروبية بتونس ".

٥ـ غار الملح : كان هذا المكان المطل على البحر المتوسط ، والمشهور بمرفئه الطبيعي وبمينائه الممتاز ، اتقن وامن مرسى في شمال افريقيا قاطبة . انظر وصفه مدققا ببيسونال ، رحلة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ؛ انظر اعلاه ، ص ٤٨.

٦ـ بيسونال ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

ويذكر دار صناعة السفن فيه .[1] وقد توقفت صناعة السفن في غار الملح بصفة نهائية في عهد حمودة باشا حيث انشأ في حلق الواد ، قرب العاصمة ، دار صناعة وميناء حديثين .[2]

كانت حلق الواد ، قبل العهد الذى ندرسه ، تضم دارا لصناعة السفن ، وقد انشات تلك الدار سنة ١٧٦٤ - ١٧٦٥ سفينتي حرب ، تم جرهما الى الماء ، كما يصف صاحب الاتحاف " ... في يوم مشهور ، حضره الباى [علي باى والد حمودة باشا] ورجال دولته . وكانت السفن الحربية تصنع بحلق الوادى ... "[3] غير ان ما حصل في عهد حمودة هو اغلاق دار صناعة السفن التي كانت بغار الملح ونقل جميع معداتها الى مصنع حديث للسفن انشاه[4] في حلق الواد في

١- كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا بقلم ضابط روسي " ، المجلة الافريقية ، ج ٩٥ (١٩٥١) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ انظر اقوال الرحالة ووصفهم لذلك الميناء في مختلف تواريخ زياراتهم له ؛ المصدر والصفحة ذاتهما ، تعليق رقم ٥٥ . انظر كذلك ما كتبه الكعاك عن " دار الصناعة " في تونس في العصور الحديثة ؛ مراكز الثقافة ، ص ٩٨ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣ جانفي / كانون الثاني ١٧٩١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٥٩ ، ٦٠ ، تعليق رقم ١ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

٤- يذكر مارتز ان ذلك المصنع تأسس سنة ١٨١٠ ، وهو امر يخالف ما تذكر الوثائق التي رجعنا اليها ؛ " الصناعة الاوروبية بتونس " ، المجلة التونسية ، عدد ١٣ (١٨٩٧) ، ص ٢٠ . ومما تجب الاشارة اليه هنا هو اننا لا نعرف ان كان المصنع الذى اسسه حمودة هو في مكان المصنع القديم وعززه او هو مصنع جديد

بداية عهده بالحكم .[١] ويظهر ان انتاج ذلك المصنع الحديث كان كبيرا ، فما ان حلت صائفة سنة ١٧٩١ حتى بعث قنصل بريطانيا يخبر دولته بان الاسطول التونسي يزداد قوة بسرعة فائقة . ثم يورد سببين لذلك هما : بناء سفن جديدة في المصنع البحري بحلق الواد ، والسبب الثاني هو اختطاف السفن الاجنبية على ايدى قراصنة تونس .[٢]

وكانت فرنسا تتلقى طلبات تونس لتوفير المواد والالات اللازمة لبناء السفن في حلق الواد . وقد تعددت طلبات تونس وتنوعت ، وشملت من البضائع والالات ما راوح مائة صارٍ وكميات كبيرة من الاخشاب لصناعة السفن - وذلك من موانيء مرسيليا او تولون - والالات الضخمة الخاصة بتعويم تلك السفن وارسائها.[٣] وقد استلمت تونس طلباتها تلك مع غيرها من الجرافات المنظفة للموانيء يوم ٤ افريل / نيسان سنة ١٧٩٢ .[٤] ويغلب على الظن ان تلك التجهيزات الحديثة زادت

١- انظر رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٦ جوان / حزيران ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٦٠ ، تعليق رقم ١ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ جوان/حزيران ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- انظر رسالة من مصطفى خوجة الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ١٥ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٩٧ ؛ مذكرة من الحكومة الفرنسية الى قنصلها بتونس ، باريس ، ٢٤ اكتوبر/ تشرين الأول ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٣ افريل / نيسان ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ انظر ايضا رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جوان / حزيران ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

من مقدرة المصنع على الانتاج وقوة امكانات تونس البحرية • فقد الح ماجرا على حكومته في وجوب الانتباه الى القوة البحرية التونسية المتزايدة بكثرة • ثم يذكر حكومته بما كان اعلمها من قبل ، وهو ان حمودة باشا سيتمكن في مدة سنتين اثنتين من ان يصبح ، بفضل تقوية اسطوله الحربي واسطول قراصنته ، سيد البحر الابيض المتوسط •(١)

لم تذكر المصادر ان كان حمودة استعان بخبراء اجانب في صناعة السفن قبل شهر اوت / اب من سنة ١٧٩٤ ،غير ان المعلومات تدل على انه بدأ في جلب فنيين من فرنسا لذلك الغرض قبيل ذلك التاريخ بقليل • فقد اعلم مصطفى خوجة الحكومة الفرنسية ان تونس جلبت احد كبار صناع السفن الفرنسيين الماهرين • وبعد وصف ذكاء ذلك الخبير وكفاءاته في ميدان اختصاصه ، يذكر انه وقع الاتفاق بين الباى وبين هذا السفان لتنفيذ المشاريع المقرر انجازها ، وان ما تطلبه تونس هو الترخيص لهذا الخبير Jean Gazel بان ياتي بوالديه وابنائه والات عمله ومكتبته الى مكان عمله الجديد • واخيرا يؤكد مصطفى خوجة شدة تعلق حمودة باشا بانجاز ذلك الطلب سريعا •(٢) غير ان الحكومة الفرنسية لم تر " من مصلحتها " ان تبعث بتلك الاشياء واكتفت بان ارسلت بعض "الاثاث والمتاع" فقط •(٣)

١- تونس ، ٢٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ •

٢- تونس ،اوت / اب ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٢٤٢ •

٣- تعليمات من الحكومة الفرنسية الى مبعوثها هيركولي ، باريس ، ١٥ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٢٤٦ •

بعد وصول ذلك الخبير باربع سنوات تقريبا ، ذكر قنصل بريطانيا ان وحدات الاسطولين التونسيين ، الحربي والقرصني ، في تزايد مطرد ، وان حمودة باشا بدأ يظهر تكبرا وتجبرا متعاظمين سواء في سلوكه او في كلامه .(١) وفي سنة ١٧٩٩ كتب دوفواز يقول " ... ان الاسطول الحربي التونسي اصبح يفوق اسطول الجزائر وذلك سواء في الخبرة او العدة والعدد . وان الشيء الوحيد الذى ينقص باى تونس هو الزوارق الحربية ، وهو السلاح الذى يركز الباى على صناعته حاليا في حلق الواد ... ".(٢)

هذا وقد كانت تلك الدار تقوم باصلاح السفن الاوروبية التي تتعطل في البحار القريبة . غير ان تكاليف الاصلاح وكذلك نفقات خدمة الخبراء العاملين في ذلك المصنع جميعها تدفعها الحكومات المالكة لتلك السفن .(٣) وقبل ان تبدا حرب الجزائر بما يقرب من ثلاث سنوات زاد حمودة باشا في كميات الاخشاب المستوردة من فرنسا خاصة ، وهو الخشب المستعمل لبناء السفن ، وبذلك زاد انتاج سفن مصنع حلق الواد الحديث . بل اتخذ الباى اجراءات امن في البحر كفيلة بضمان استمرار وصول الخشب بالكميات المطلوبة الى تونس .(٤) وما ان حلت سنة ١٨١٣ الا وكان الاسطول التونسي المخصص للدفاع عن السواحل التونسية من هجوم جزائرى متوقع ، تعد وحداته اكثر من خمسين زورقا كبيراً ، جميعها مجهزة بالمدافع الكبيرة الحجم .

١- تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٤ افريل / نيسان ١٧٩٨ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ١/ ٩٥ .

٢- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان / حزيران ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٠ فيفرى/ شباط ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اكتوبر/ تشرين الاول ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

وكذلك اصبح عدد العاملين في تلك الزوارق الحربية المتينة من جند البحرية الف بحار .[١] ويذكر روسو ان عدد تلك الزوارق اصبح سنة ١٨١٤، وكانت لا تزال تهديدات الاسطول الجزائري لتونس قائمة ، سبعين زورقا حربيا متينا جميعها من صنع دار الصناعة بحلق الواد .[٢] ولما توفي حمودة ابقى لتونس " ... اساطيل لنكاية العدو في غاية المنعة ."[٣] ولعل اخر سفينة حربية بنيت بامر من حمودة باشا في ذلك المصنع ، هي " الكرويطة" التي انزلت الى الماء في اوائل صائفة سنة ١٨١٩ . وقد ذكرها ابن ابي الضياف بقوله:

" وفي شعبان من السنة ١٢٣٤ [ماي - جوان/ ايار - حزيران ١٨١٩] تم انشاء الكرويطة التي ابتدأ عملها ابو محمد حمودة باشا في اواخر امره ، وحضر ابو عبد الله حسين باي [ت. ١٨٣٥] يوم جذبها للبحر في ابهة ملكية . وكان يوما مشهودا وموكبا معدودا ، وسماها المحفوظة ."[٤]

وقد استمرت تلك الترسخانة في صناعتها بعدئذ فجلبت من الجابية سفينة اخرى سنة ١٨٢٦ ،[٥] ثم اعيد تجديد ذلك المصنع وبناء اقسام جديدة فيه ، واسندت ادارته الى مسؤول فرنسي اختصاصي في تلك الصناعة وقت حكم احمد باى المشير الاول .[٦] غير ان بيرم الخامس يذكر في كتابه ان ذلك المصنع كان " معطلا " في وقته .[٧]

١- رسالة من بيلون ، الى حكومته ، تونس ، ٢ جانفي / كانون الاول ، ١٨١٣ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

٢- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٨٧ .

٣- مخلوف ، شجرة النور ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

٤- اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

٥- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

٦- مارتز " الصناعة الاوروبية بتونس" ، المجلة التونسية ، عدد ١٣ (١٨٩٧) ، ص ٢٠ .

٧- صفوة ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وأخيرا ، وقبل ان ننهي حديثنا عن صناعة السفن في العهد الذى ندرسه ، من الواجب علينا الاشارة الى دار صناعة السفن التي كانت قائمة في مدينة بنزرت . وليس لنا عنها من المعلومات الا خبر واحد في خزينة وثائق الدولة التونسية يذكر ان لزمة تلك الدار مع درنية الحوت[1] التزمها كاهية تلك المدينة لسنة ١٢١٠/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦ بما قيمته اربعون الف ريال تونسي .[2]

٦ . اصلاح الموانئ وبناؤها على اسس عصرية

في الوقت الذى كان حمودة باشا يدعم امكاناته العسكرية وينشئ المصانع الحربية الحديثة ، ويمثل تصميمه وانجازه لدار صناعة السفن وفي خط مواز له كان الباى ينفذ مشاريع اخرى كبيرة لجعل الموانئ العسكرية الهامة اكثر كفاءة وعصرية . وقد تمثلت سياسته الاصلاحية تلك في اهم مينائين عسكريين هما ميناء حلق الواد وميناء غار الملح .

كانت مدينة تونس مفصولة عن البحر بسبخة ضحلة المياه تمتد اكثر من خمسة كيلومترات ، تمنع اى نوع من السفن كبيرة كانت او صغيرة من العبور من حلق الواد الى العاصمة . وفي ولاية حسين بن علي اول بايات الدولة الحسينية ، حفر " بوغاز " حلق الواد . فاصبحت القوارب الصغيرة تمر في ما يشبه القنال بين العاصمة وميناءها بحلق الواد والعكس .[3] وبعد مقتل ذلك الباى بحوالي عشرين سنة يذكر الرحالة تاسي الذى زار تونس قرابة سنة ١٧٥٥ ، ان ذلك البوغاز

١- الدرنية : المكان الذى يحضر فيه صياد والسمك حصيلتهم من السمك ويدفعون عليه ما يترتب من الضرائب ، والحوت هو السمك (لهجة تونسية) .
٢- دفتر رقم ٢٩١ ، صفحة ٥ : ظهر .
٣- زبيس ، آثار الدولة الحسينية ، ص ٣٧ .

كان ضيقا بصفة لا تسمح لسفينة شراعية صغيرة ، سواء حربية او تجارية ، من المرور فيه .[١] ويصف ذلك الرحالة حلق الواد بانه كان يتالف من ميناء صغير وجمرك وبعض المخازن .

لما تولى حمودة باشا عرش تونس ادخل تغييرات جذرية على كل من ميناء حلق الواد والبوغاز ، وزاد فحفر ، في طرف البوغاز الملاصق للعاصمة ، ميناء اخراً وحوضا كبيرا . وكانت جميع تلك الانجازات ايضا تحت ادارة خبراء ومهندسين اوروبيين مختصين .

في رسالة من القنصل الفرنسي بتونس سنة ١٧٩١ ورد ذكر طلب رسمي من الوزير مصطفى خوجة يسال الحكومة الفرنسية الترخيص للحكومة التونسية بالتعاقد مع ترسخانة تولون لصناعة قاربين جرافين لاستعمالهما في حفر ميناءي غار الملح وحلق الواد وجرف رمالهما ، وان الباى ينتظر الجواب .[٢] وبعد ما يقارب تسعة اشهر من ذلك التاريخ وصلت مذكرة من فرنسا لقنصلها تعلمه ان الحكومة محتارة في امر ذلك الطلب لانها في حاجة ماسة لمثل تلك القوارب للخدمة في الموانيء الفرنسية ذاتها ، وكذلك لشدة ارتفاع اسعارها . واخيرا تطلب الحكومة من قنصلها ان يستعمل جميع الطرق التي يراها صالحة حتى يجعل الباى يتخلى عن طلبه ذاك.[٣]

١ــ تاسي ، تاريخ بلدان البربر ، ص ١٥٠ ــ ١٥٢ .

٢ــ رسالة من دى شاتوناف الى حكومته ، تونس ، فيفرى / شباط ، ١٧٩١ ، بلانتي مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

٣ــ تقرير من الحكومة الفرنسية الى القنصل ذاته ، باريس ، ٢٤ اكتوبر / تشرين الاول ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

غير ان القنصل ،على ما يظهر ، لم ينجح في اقناع الباى بالتخلي عن طلب ذينك القاربين ، بل نجد دوفواز هو ذاته يسافر الى مدينة تولون ويبعث من هناك بمبعوث حكومي رسمي ومعه القاربين والاجهزة والمعدات اللازمة للعمل . ليس هذا فقط بل جاء معهما عمال فرنسيون لادارة تلك الآلات واستعمالها.[1] وبعد ان اتم اولائك العمال جرف الميناءين باتقان طلب الباى من القنصل ان يتحول اولائك العمال ومديرهم Granville المشرف على تنفيذ تلك الاشغال ،الى العمل في مصنع السفن بحلق الواد.[2] وعلى الرغم من سوء معاملة الوزير صاحب الطابع لاولائك العمال ، وعلى الرغم من استياء الحكومة الفرنسية من ذلك ، استمروا في انجاز المشاريع الموكلة اليهم.[3]

بعد الانتهاء من جرف البوغاز وحفر ميناء العاصمة حوالي سنة ١٨٠٤،[4] اوكلت مشاريع اخرى ذات طابع عسكرى لضابط هولندى مهندس M. Hombert وللضابط الفرنسي C. Frank ليقع انشاؤها في ذات المكان ، فاتما بناء ميناء العاصمة الجديد . واسس Frank انشاءات عسكرية دفاعية هامة جدا وحديثة ،اهمها تحصين مدخل البوغاز من جهة حلق الواد بتثبيت سياج من اوتاد ضخمة عن جانبي القنال . ثم رمى بمتاريس قوية من الحجارة

١- رسالة من دوفواز الى De Lacoste (القائم بالاعمال في غياب دوفواز) ، تولون ، ٣١ مارس / اذار ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٢٠٦ .

٢- رسالة من دوفواز الى حكومته ،تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٩ ،المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ٣٨٩ .

٣- رسالة من الحكومة الفرنسية الى القنصل ذاته ، باريس ، ١٩ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٣٩٨ .

٤- كانور وغرانشان " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ،ج ١٢٠(١٩١٧) ، ص ٣٣ ، فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص ٧ .

في اماكن معينة من مدخل القنال لا يعرفها الا المسؤولون المختصون بحلق الواد[١].
ويصف الاب كاروني اهمية تلك الانشاءات وحصانتها سنة ١٨٠٤ بقوله انه منذ ذلك
اليوم اصبح اى معتد مهما بلغت قوته لا يستطيع ان يقتحم " تلك الحواجز المهولة"
بدون ان يصطدم بها ، او ان يركب الخطر الشديد بتعريض نفسه لقصف مدافع
البرج ، الحديث البناء ذى المدافع ذات العيار الكبير ، اذا ما حاول الاضرار
بتلك الحواجز والدخول في البوغاز عنوة . بعد هذا الوصف يضيف ذلك الرحالة
انه من يومئذ اصبحت عاصمة البلاد التونسية تستطيع ان تنام بملء جفونها وهي
محفوظة ببحيرة ضحلة المياة تزيد دائرتها على الخمسة وعشرين ميلا تعزل المدينة
عن حلق الواد . ولا تستطيع المرور فيها الا قوارب النقل المسطحة القعر التي لا
يستعملها الا التونسيون .[٢] وحتى السفن التجارية التي تؤم البلاد التونسية من
مختلف البلدان الاجنبية فانها مجبورة على الارساء في حلق الواد .

اما الميناء الجديد فراه مجيل سنة ١٨٠٨ بعد انجاز العمل فيه على الصورة
التالية :" ميناء حديث فسيح يستوعب جميع وحدات الاسطول التونسي الذى يتكون
من خمس وعشرين عمارة بحرية حربية ... وهو في امكانه ايضا ان يحوى بجانب
ذلك ثلاثمائة عمارة بحرية تجارية ". ثم يذكر ان في خلفية البوغاز بالقرب من الميناء
الجميل " انشا الباى حوضا كبيرا متوازى الاضلاع مخصصا ليتسع للاربعة والعشرين
زورق كبير مسلحة بالمدافع التابعة لجيش البحرية التونسية ، وذلك بعد ان تنزع منها
اسلحتها .[٣]

١ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٠

٢ـ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٣٣ .

٣ـ مجيل ، رحلة ، ص ٥٨ .

هكذا وبعد ان شيدت جميع تلك المصانع والانشاءات الكبيرة في حلق الواد ،من دار بناء السفن والميناء الجديد والبوغاز ، انبثقت مما يشبه العدم مدينة عمالية كبيرة بناها حمودة باشا لعمال تلك المؤسسات الحديثة وموظفيها . ذلك بالاضافة الى مساكن الجيش، والمخازن التجارية الكبيرة .[١]

كان ذلك بالنسبة لانجازات حمودة باشا في مينائي حلق الواد والعاصمة، اما ميناء غار الملح فقد ذكرنا سابقا ان الجرافتين الفرنسيتين بدأتا بجرفه في سنة ١٧٩٢ .[٢] غير انه على الرغم من الميزات التي يتمتع بها ذلك الميناء من الناحية الطبيعية والستراتيجية فان الغمر الذى كان يرمي به نهر مجردة[٣] في مداخل الميناء كان يكلف الباى الكثير من الجهد والمال بدون احراز اى نتيجة نافعة ودائمة .[٤] ويذكر فرانك ان حوالي سنة ١٨١٢ وبعد كل المحاولات الجبارة ، كانت السفينة لا تتمكن من الدخول الى الميناء الحصين ،الذى تختبىء فيه بعض السفن

---

١ _ فيما يتعلق بوصف مدينة حلق الواد وتطورها وازدهارها في العهد الذى ندرسه انظر خاصة هيجون ، "مهمة بوتان" ،المجلة التونسية ،عدد ٥٣ (١٩٠٥) ، ص٣٧٢ ؛ مجيل ،رحلة ،ص٥٨ ، تعليق رقم ١ ، ٦٠ ، تعليق رقم ١ .

٢ _ انظر أعلاه ،ص٢٢٨ _ ٢٢٩ ، ٢٣٥ _ ٢٣٦ .

٣ _ نهر مجردة : هو اكبر نهر بتونس منبعه بجبال اوراس بالجزائر ويمر عبر الاراضي الخصبة بشمال البلاد التونسية ، ثم يصب في البحر المتوسط قرب غار الملح .

٤ _ فيما يتعلق بوصف هذا الميناء انظر الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ _ ٤ (١٩٤٨) ،ص١٣٥ ، ١٦٠ ؛ ستانلي ،مشاهدات في مدينة تونس، ص ٢٩ . وفيما يتعلق بالمجهودات التي انفقت على الميناء والاشغال التي تمت فيه في عهد حمودة باشا انظر خاصة رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس، ٢٦ جوان/ حزيران ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس، ١٢ جويلية / تموز ، ١٧٩٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص٢١٥ ؛ تقرير غفل ، تونس، ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب ٣ ، ٣٠٤ ؛ هيجون ، "مهمة بوتان" ، المجلة التونسية ، عدد ٥٣ (١٩٠٥) ،ص٣٧ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص٩ _ ١٠ .

التجارية والعسكرية ، " الا بعد ان تُميَّل على جانبها وتُكَر الى الداخل كرا".[١]
وهكذا ، وبعد وفاة حمودة باشا وقع التخلي عن ذلك الميناء شيئا فشيئا وما
ان حلت سنة ١٨٧٠ الا وصار غار الملح ، عش القراصنة والاسطول العسكرى
التونسي الحصين جدا سابقا ، والذى كان يلقي الرعب في اشجع واقسى
ربابنة السفن الاوروبية ، اصبح في تلك السنة عبارة عن قرية صغيرة تسكنها
مجموعة قليله من الاهالي "... الهادئين النزهاء ، يحملون بكل نشاط
وكد في الحقل الزراعي ...".[٢]

٧. بناء الابراج والاسوار والقشل

تماشيا مع سياسته العسكرية الرامية الى تدعيم امكانات تونس الحربية
وتنفيذا لها ، بالاضافة الى ما سبق وبيناه في هذا الباب ، وفي نفس الوقت ،
كان حمودة باشا يشيد الاستحكامات العسكرية الحديثة في مختلف النقط الهامة
والستراتيجية في البلاد . وقد شمل ذلك بناء الابراج والاسوار القشل .
وجريا على سياسته المتشددة في ان تكون جميع انجازاته في غاية الدقة والاتقان
بل على النمط الحديث ، انشأ الباى منشآته واستحكاماته هذه ايضا على النمط
ذاته.[٣] واثناء بناء تلك المنشآت كان الباى يستعمل جميع الطرق السياسية
ليتحاشى مصادمة الجزائريين او محاربتهم قبل انهاء استحكاماته الهامة.[٤] غير ان

١ـ وصف البلاد التونسية ، ص ٩ ـ ١٠ .

٢ـ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ، ص ٣٤ .

٣ـ تقرير غفل ، تونس ، ٢٦ ماى/اذار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٤ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ، ١٧٩٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ .

دهاء حمودة باشا وسياسته في مراوغة الجزائريين لربح الوقت لم تكن لتخفى على جواسيس داى الجزائر الموجودين في تونس حقيقة الامر . لذا عبرت حكومة الجزائر سنة ١٨٠٢ عن قلقها من اجراءات حمودة تلك ، وأبدت تخوفها من ذلك النمو العسكرى السريع والنتائج التي ستترتب عنه .[١] ولم يقف الامر عند هذا الحد بل جاهر الجزائريون بمعاداتهم لباى تونس لذلك السبب بعد تكرار السؤال والتوضيحات في شان تلك الاستحكامات.[٢] غير ان تخوف حكومة الجزائر وتهديداتها لحمودة باشا اعطت نتائج عكسية تماما ؛ فالذى حدث هو اصدار باى تونس لاوامر تقتضي الاسراع في تنفيذ تلك الاعمال من جهة والبدء في تشييد اخرى كان من المقرر تاخير انجازها بعض الوقت.[٣]

ان العديد من هذه المنشآت العسكرية قام بتخطيطها وتنفيذها ، كما سيتبين فيما بعد ، النقيب (capitaine) الهولندى همبير M. Hombert الذى كان يتمتع بمنزلة ومكانة كبيرتين عند الباى.[٤] وبجانب هذا الخبير الاجنبي الحاذق استعان الباى بعدد من التونسيين وبخاصة منهم محمد العربي زروق ،[٥] وغيره ممن سياتي ذكرهم عند الحديث عن تلك

١- رسالة من كلارك (H.Clark) قائم باعمال القنصلية البريطانية بتونس سنة ١٨٠٢ الى حكومته ، ٣١ اكتوبر/ تشرين الاول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧.

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ انظر ايضا ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٠.

٣- وثيقة خزينة الوثائق البريطانية السابقة ذاتها .

٤- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١ ، مجيل ؛ رحلة ، ص ٥٦ - ٥٧.

٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

الاستحكامات واحدة واحدة . وقد كلفت تلك الاعمال الخزينة التونسية اموالا طائلة تكاد لا تحصى .[١] وكانت هذه الاشغال تعتبر اسرارا عسكرية لا يسمح لاى اوروبي بالاقتراب منها . وقد حدث ان جلد احد الحراس التونسيين خمسمائة جلدة لانه سمح سنة ١٧٨٥ لاثنين من الاوروبيين بزيارة احدى المنشآت او القشل .[٢] وبلغ تعلق حمودة باشا بانجاز تلك الانشاءات حدا جعله ، قبل حرب الجزائر ، لا يتوانى عن الذهاب بنفسه الى اماكن الشغل للاطلاع على سير الاعمال على العين . يذكر ابن ابي الضياف ذلك بقوله : " وكان [حمودة باشا] يأتي غالب ايامه بنفسه ليرى العملة في بناء السور والابراج ، مبالغة في الحث على العمل ".[٣] ولم تحل سنة ١٨٠٧ ، سنة محاربته للجزائريين ، الا واصبحت مدينة تونس على الخصوص ، ذات حماية ومناعة ظاهرتين .[٤] يصف الباجي المسعودى انجازات حمودة تلك بانها كانت " ... الشاهدة بعلو همته ... ".[٥] وينعتها غيره بانها رفعت راس المملكة وشأنها .[٦] وقد خلدها ابن سلامة في ارجوزته الشعرية .[٧]

١- مجيل ، رحلة ، ص ٥٦ - ٥٧ ، ٨٧ - ٨٨ .

٢- بوارى ، رحلة ، ص ١٧٩ .

٣- اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٤- مجيل ، رحلة ، ص ٥٦ - ٥٧ .

٥- الخلاصة النقية ، ص ١٣٦ .

٦- ابن الخوجة ، " مقدمة تاريخية للمملكة التونسية " ، الرزنامة التونسية ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

٧- ابن سلامة ، الدرة النفيسة ، ص ٢-٣ .

فيما يلي سنذكر ما انجز في عهد حمودة باشا من ابراج واسوار وقشل ، سواء منها ما شيد في العاصمة او خارجها ، مع ذكر تواريخ انشائها عند توفرها ولكن قبل ان نذكر ذلك يحسن بنا ان نشير بأن اول عمل قام به ذلك الباي في شان تحصينات العاصمة هي ازالة اكوام كبيرة من القاذورات والنفايات التي تراكمت على مر الزمن في مدخل العاصمة من جهة البوغاز . وهي اوساخ طرحت هناك " حتى اصبحت ربوة يتقي بها المحارب ويقاتل عليها ، فامر بازالتها ...".[1] وتم ذلك في صائفة سنة ١٨٠٠ بعد ان قسم الباى تكاليف ذلك العمل على مالكي الابنية بالعاصمة ومنها ابنيته هو .[2] وقد انجز هذا الاجراء التحصيني العسكرى بتوصية النقيب همبير وتحت اشرافه.[3]

أ . الابراج والاسوار

في سنة ١٧٩٧ كلف حمودة باشا المهندس الهولندى همبير ببناء عدة ابراج حول العاصمة ، وسور جديد لربضي " باب السويقة " و " باب الجزيرة " ، وبتجديد ابواب المدينة .[4] واسند الباى وكالة بناء تلك المنشآت وعقودها

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٢ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٣ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١ .

٤ـ مجيل ، رحلة ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ؛ زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ ، فيما يتعلق بالسور انظر ادناه ، ص ٢٤٧ .

الى بعض التونسيين مثل محمد العربي زروق ،[1] ومحمد طاطار.[2] وقد ذكر قنصل فرنسا ان حمودة باشا كان بصدد انشاء خمسة ابراج في سنة ١٧٩٩.[3] وهذه الابراج التي اقيمت حول العاصمة هي :

١. برج باب الخضراء : هو اول تلك الابراج .[4]

٢. برج صاحب الطابع: انشيء بعد برج باب الخضراء مباشرة ، ويعرف بهذا الاسم لان الوزير صاحب الطابع هو الذى اشار على حمودة باشا ببنائه. ولكن محمد العربي زروق عارضه في ذلك محتجا بعدم لزومه.[5] فقال له الوزير: "اشرع في بنائه ، وسائر ما يصرف عليه اقبضه مني ، ولا تدخله في حساب الدولة ففعل".[6] وبعد الانتهاء عمره الوزير بالمدافع وجميع لوازمه العسكرية

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ١٣١ .

٢- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٣٩ .

٣- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ، ١٧٩٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ .

٤- يذكر القنصل الفرنسي ان هذا البرج والاربعة الاتية بعده كانت بصدد التشييد سنة ١٧٩٩ ، المصدر والوثيقة ذاتهما . ابن ابي الضياف يذكر ان هذا البرج بدأ فيه العمل في اول شهر جويلية سنة ١٨٠٢ ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ . في منسوخات السبعي ، ص ٧٨ ورد ان في اول شهر جويلية من سنة ١٨٠٢ انتهى بناء الحصن ، وهو قول يعزز قول القنصل الفرنسي . اما زبيس فيقول ان الانتهاء منه كان سنة ١٨٠١ وهو ايضا يؤكد ما ذهب اليه القنصل خلاف ما اورده ابن ابي الضياف ، انظر اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ .

٥- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٦- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٩٤ .

من أمواله الخاصة ايضا .[١] وقد اصبح يطلق على هذا البرج فيما بعد برج درب العسال[٢] ثم برج باب العسل .[٣]

٠٣ برج سيدي يحيي السليماني : بني الثالث في ترتيب ابن ابي الضياف ، وسمى كذلك لانه يوجد قرب زاوية سيدى يحيي السليماني وجامعه.[٤]

٠٤ برج باب سيدي عبد السلام : ياتي الرابع في ترتيب ابن ابي الضياف.[٥] ويذكر زبيس ان بناء هذا البرج انتهى سنة ١٨٠٢.[٦]

٠٥ برج باب سعدون : يرد الخامس في ترتيب ابن ابي الضياف .[٧]

٠٦ برج باب خالد : ويعرف ايضا ببرج سيدى قاسم الجليزى.[٨]

٠٧ برج السيدة المنوبية : هذا هو آخر تلك الابراج ، يذكر ابن ابي الضياف ان حمودة باشا رسم هذا البرج غير انه لم يشرع فيه.[٩] وانه ذكره في رسم احباسه على الابراج .[١٠]

١- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ انظر ايضا المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٩٤ .

٢- محمد بن الخوجة ، " مقدمة تاريخية للمملكة التونسية" ، الرزنامة التونسية ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

٣- زبيس ، آثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٥- المصدر والصفحة ذاتهما .

٦- زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ ؛ وفي منسوخات السبعي ، ص ٧٨ ، انه تم في اول جمادى الثانية ١٢١٧/اول سبتمبر/ايلول سنة ١٨٠٢ .

٧- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ وفي منسوخات السبعي ص ٧٨ ، انه تم في اول رجب سنة ١٢١٧ / ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٠٢ .

٨- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ وفي منسوخات السبعي ، انه انتهى العمل فيه يوم اول شعبان سنة ١٢١٧ / ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٠٢ .

٩- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

١٠- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ؛ وفي منسوخات السبعي ، ص ٧٨ ان العمل فيه انتهى في شهر رمضان من نفس السنة ديسمبر / كانون الاول ١٨٠٢ - جانفي/ كانون الثاني ١٨٠٣ .

٨ • ويذكر زبيس ان ذلك الباى اقام قلعة سنة ١٨١٣ في الجهة الغربية من القصبة •[١]

اما في حلق الواد فقد انشا حمودة سنة ١٧٩٧ برجا كبيرا يطلـــق عليه اسم برج حلق الواد ،[٢] بعد ان كان ذلك الموقع بتحصيناته ووسائل دفاعه القديمة ، كما يذكر قنصل بريطانيا سنة ١٧٩٣ ، عاجزا عن رد اى هجوم اوروبي •[٣] ويذكر الرحالة البريطاني مجيل سنة ١٨٠٨ ان حلق الواد هـــو موقع حصين جدا " بابراجه " ومدافعه القوية الحديثة ، وكذلك بسبب اقامة منجنيق ضخم يطلق مقذوفات من الحجر •[٤] والعديد من تلك الانشـاءات العصرية الدفاعية في حلق الواد شيدت بتخطيط المهندس فرانك واشرافه •[٥] وبعد ان يصف ابن ابي الضياف انجازات حمودة العسكرية بحلق الواد يعلق بقوله : " ••• ولم يجد من بعده [من بعد حمودة من البايات] ما يزيد في حلق الوادى ، باعتبار حالة البلاد ، الا ابنية للسكنى "•[٦]

في شهر جوان / حزيران ١٨٠٦ كلف حمودة باشا احد كبار رجال دولته وهو محمد العربي زروق بتجديد قصبة مدينة الكاف وحصونها •[٧] وفي السـنة

١ـ اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ •

٢ـ تقرير من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي/ كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ •

٣ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

٤ـ رحلة ، ص ٥٧ ؛ انظر ايضا جرينفيل ، نزهات في الجزائر وتونس ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ •

٥ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٨ •

٦ـ اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ •

٧ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٦ •

التالية اعلم القنصل البريطاني اوغلاندر حكومته ان برجا جديدا بتلك المدينة هو في اخر مراحل انشائه .[١] ثم في سنة ١٨١٣ بني حمودة قلعة اخرى في الجهة الجنوبية الغربية من تلك المدينة .[٢]

بعد ان ذكرنا الابراج التي انشأها حمودة في المدن والمواقع ذات الاهمية الحيوية والاعتبار الاول بالنسبة للدفاع عن العاصمة ، بعد ذلك يجدر بنا ان نشير الى الابراج الاخرى التي اصلحها حمودة او انشأها في اماكن اخرى من البلاد . غير انه مما تجدر اشارته هنا هو ان هذه المعلومات التالية قد انفرد بذكرها صاحب كتاب اثار الدولة الحسينية . يذكر ذلك المؤلف ان حمودة باشا اتم بناء " برج خليفة " سنة ١٧٩٥ في جزيرة جربة ، وهو البرج الذى بدأ في انشائه ولم يتمه علي باشا الاول سنة ١٧٤٥ .[٣] اما في منوبة[٤] فقد بنى حمودة باشا سنة ١٧٩٨ برجا كبيرا ، زاد فيه فيما بعد احمد باى وصيره قشلة للخيالة سنة ١٨٣٩ .[٥] وكذلك شيد عدة حصون على سور مدينة سوسة ، وتم ذلك تحت اشراف المهندس همبير .[٦] واخيرا صير حمودة " قصر الرباط "[٧] الذى كان مستعملا لتعليم الطلبة في مدينة المنستير[٨]

١- تونس ، ١٨ فيفرى / شباط ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/٧٧ .

٢- رسالة من بيلون الى Duc de Bassano ، تونس ، ٦ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٨١٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٥١٠ - ٥١١ ؛ زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٥ .

٣- زبيس ، ص ٣٢ .

٤- منوبة : ضاحية من ضواحي العاصمة .

٥- زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٣ .

٦- المصدر والصفحة ذاتهما ؛ انظر موقع مدينة سوسة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

٧- قصر الرباط : كان في الاصل حصنا رومانيا جدد بناؤه في العهد الاسلامي ولا يزال قائما الان .

٨- المنستير : انظر موقع هذه المدينة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

صيره معقلا مسلحا بعد ان نقل الطلبة الى زاوية احد الصلحاء في تلك المدينة.[١]
ويذكر ابن ابي الضياف ان حمونة باشا كان " ... مَهْمَا تم برج " عمّره بمدافعه
وحماته من العسكر ...".[٢]

ب . الاســـوار

في اليوم الرابع من شهر جويلية / تموز سنة ١٨٠٢[٣] شـرع حمودة باشا
في بناء سور جديد لمدينة تونس ،[٤] وكلف المهندس الهولندى بالاشـراف
على بنائه .[٥] وقد اكد دوفواز قوة ذلك السور عندما وصفه بـ" السور الشامخ "
الذى شيد ، كما يقول ، لتحصين المدينة قبل الحرب مع الجزائر (١٨٠٧).[٦]
وكذلك فعل بوتان ، الذى زار تونس في مهمة خاصة سنة ١٨٠٨.[٧] وقـد
ظل ذلك السور الجديد في متانته ، يحمي مدينة تونس ويحصنها ، كما
يشير الضابط السويسرى لما زار تونس سنة ١٨٤٢.[٨]

١- زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٣ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨.

٣- هذا التاريخ ذكره ابن ابي الضياف ، المصدر والصفحة ذاتهما ، واما زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ ، فيقول ان ذلك السور تم بناؤه سنة ١٧٩٧ ، وفي منسوخات السبعي ، ص ٧٨ ، ورد ان الانتهاء من بناء السور كان فـي سنة ١٨٠٢ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٥- زبيس ، اثار الدولة الحسينية ، ص ٣٤ .

٦- تقرير من القنصل الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤.

٧- هيجون ، " مهمة بوتان " المجلة التونسية ، عدد ٥٤ (١٩٠٥) ، ص ٣٧٣-٣٧٤.

٨- جولة في تونس ، ص ٧٦.

هذا بالنسبة لمدينة تونس العاصمة ،اما داخل البلاد فقد جدد حمودة باشا سور حلق الواد واتم تحصينه على يدى المهندس همبير ، وكذلك مدينة سوسة وقد شيد ذلك المهندس على السورين الابراج و غيرها من التحصينات.[١] اما مدينة الكاف فقد جدد حمودة سورها واصلحه سنة ١٨٠٦.[٢] وفي بنزرت جدد الباى السور ايضا ،وذلك "... لما وقع فيه من خراب المدافع والبونية ... وتم في اقرب زمان".[٣]

ج . القشـــل

من اهم ما يمتاز به عهد حمودة باشا ،ومن ابرز مظاهر سياسته العسكرية ، هو تشييده لعدة قشل ودور في العاصمة امتازت عن غيرها بالاتساع والضخامة.[٤] وقد بنى الباى تلك القشل لجنده من الاتراك ،على غرار قشل مدينة الجزائر وشاكلتها .[٥] ويجدر بنا ،قبل ان نذكر تلك القشل ،ان نشير الى امرين هامين يتعلقان بسياسة حمودة باشا في هذا المضمار . الامر الاول هو ان ذلك الباى ، لشدة تعلقه بعسكره ورغبة منه في زيادة تاكيد تقديره لهم ، اتخذ لنفسه مسكنا في احدى تلك القشل . والامر الثاني هو ان ذلك الباى شيد قصرا فخما قبالة مدخل القصبة بالعاصمة وبالقرب من القشل الجديدة

١ـ زبيس ،آثار الدولة الحسينية ،ص ٣٥ .

٢ـ الباجي المسعودى ،الخلاصة النقية ،ص١٣٦ ؛ابن ابي الضياف ،اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ ،ج ٧ ،ص ١٣١ .

٣ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص٣٦ .

٤ـ باسيت ،تعريف بتونس ،ص ١٣٠ .

٥ـ تقرير من بيلون الى حكومته ،تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ،خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ،مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠.

وذلك " ... لمساكنة جنوده بالحاضرة". [1] هذه القشل هي الاتية مرتبة على غرار الترتيب الذى ذكره ابن ابي الضياف ، وقد شيدت جميعها في السنوات ١٨٠٢ - ١٨٠٤. [2]

١. قشلة البشامقية : [3] وهي التي اتخذ حمودة باشا فيها بيتا لنفسه مع جند الترك. [4] ويذكر صاحب الاتحاف انابا عبد الله الحاج محمد بوثور (ت. بين السنوات ١٨١٠ - ١٨٢٠) وهو من اعيان العاصمة ، هو الرجل الكفؤ الامين الذى قدمه الباى لبناء هذه القشلة "... فاحسن القيام ، ووفي المرام". [5] وقد تحولت سنة ١٨٨٠ الى مستشفى كبير اطلق عليه اسم " المستشفى الصادقي " ، ولا زالت كذلك. [6]

١- السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٦ ؛ كان هذا القصر في الاصل دارا لحمودة باشا المرادى (ت. ١٦٧٥) عاوضها حمودة باشا الحسيني وانشأ قصره الجديد عليها ؛ المصدر والصفحة ذاتهما . والقصر الان يسمى رئاسة الحكومة . وهو يضم بين جدرانه رئاسة الحكومة ووزارة الخارجية ، وعدة مصالح اخرى متنوعة مثل خزينة وثائق الدولة التونسية والبروتوكول والشعائر الدينية وغيرها . وقد كان ذلك القصر قبل سنة ١٩٥٩ يضم ايضا وزارة الداخلية .

٢- اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ يذكر ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٥-٧٦ ان تلك القشل بنيت في السنوات ١٨٠٧ - ١٨١٠ .

٣- البشامقية : انظر معنى الكلمة اعلاه ، ص ١٩٥ تعليق رقم ٢ .

٤- انظر اعلاه ، ص ١٩٥ .

٥- اتحاف ، ج ٧ ، ص ٨٣ .

٦- الصادقي : نسبة الى الصادق باى (ت. ١٨٨٢) .

٢• قشـــلة العطارين : وكّل الباى في بنائها احد اعيان البلاد وهــو الحاج ابو الحسن علي الشِـفّي (ت• ١٨١٢) ، كان تاجر طِيبْ في ســـوق العطارين الذى توجد فيه القشـــلة • يذكره صاحب الاتحاف بقوله : •••وكان وجيها فاضلا ،خيرا صلبا في الحق ، انتخبه الباى [لذلك العمل] ••• وثوقا بأمانته ،ووفّي بما يجب لديانته •" (١) وقد اصبحت هذه القشلة فيما بعــد دار الكتب القومية التونسية (٢)، وادارة الاثار معا • (٣)

٣• قشـــلة الزنايدية : تولى وكالة بنائها والنظر في شؤونها الحـــاج محمد المبــزع (ت• ١٨٣٢) • (٤) اصبحت فيما بعد مقرا للمدرسة الصادقيـــة عند تاسـيسها ثم صارت محل جمعية الاوقاف • (٥)

٤• قشـــلة سوق الوْزَر : حلت محلها الان مدرسة للبنات بنهج ســيدى صابر • (٦) وقد اوكل الباى بناء هاتين القشلتين الى رجلين من عيون العاصمة هما الحاج احمد القسنطيني (ت• ١٨١٩) والحاج محمد بن الامين(ت• ١٨٤٥) • (٧)

١ـ ابن ابي الضياف ،ج ٧ ،ص ٨٣ ،انظر ايضا ج ٣ ،ص ٣٨ •

٢ـ باسيت ، تعريف بتونس ،ص ١٣٠ ؛ مانتران ، " العلاقات التونسية العثمانية" ، كراريس تونسية ،ج ٧ ، ((١٩٥٩) ،ص ٣٢٨ ، تعليق رقم ٢٧ •

٣ـ زبيس ، آثار الدولة الحسينية ،ص ٣١ •

٤ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٨ ، انظر ايضا ،ج ٨ ،ص ١٤ •

٥ـ زبيس ، اثار الدولة الحسينية ،ص ٣١ •

٦ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٨ ؛ زبيس ، آثار الدولة الحسينية ،ص ٣١ •

٧ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٨ ،ج ٨ ،ص ٥٩ ،ص ١١٩ •

٥ـ قشلة سيدى عامر : انشاها حمودة باشا قرب سوق البلاط بالعاصمة ، وكان اوكل بناءها الى الحاج احمد بن عمار باش حانبه .[1] وقد اصبحت في عهد الحماية الفرنسية محلا " للجمعية الخيرية الفرنسية ".[2] وجمع الباى في تلك القشل ما يقارب الاحد عشر الف جندى .[3]

بالاضافة الى تلك القشل شيد حمودة باشا لفرقة من جيش المولدين سنة ١٨٠٩ مائة دار اسكن فيها منهم الفين وخمسمائة رجل .[4] وكذلك اسس مائتي دار اخرى سنة ١٨١٣ لجنده ، وجعل في كل دار منها خمسة وثلاثين عسكريا .[5] اما جند زواوة فقد اقام لهم " عدة فنادق بالارباض ".[6]

وهكذا نرى مبلغ استعدادات حمودة باشا في تدعيم الامكانات الحربية للبلاد التونسية وتعزيزها ، وهي انجازات عسكرية كان لها الاثر الفعلي في تحقيق اهدافه السياسية بالنسبة للحروب سواء في البحر او البر . وبالتالي في جعل تونس بلادا ذات سيادة ومنعة .

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٢ـ زبيس ، آثار الدولة الحسينية ، ص ٣١ .

٣ـ السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٦ .

٤ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

٥ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٥ .

٦ـ السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٦ .

ج • في مجـــال الامــن والاســـتقرار

من مظاهر سياسة حمودة باشا في الداخل اهتمامه بحفظ الامن ونشـــر روح الاطمئنان والاستقرار في بلاده • وقد شملت انجازاته في هذا الميدان ضمان الامن لجميع سكان تونس على مختلف مللهم : التونسيون المسلمون منهم واليهود ، والنصارى وهم الاجانب الاوروبيون القاطنون بتونس • ولعل الدافـع الحقيقي لسياسة حمودة باشا في هذا المجال كان ، كما يذكر فروجيا ، هــو اقتناع ذلك الباى بان لا ازدهار لتونس بدون امن واستقرار ، وان لا امن ولا استقرار ما دامت البلاد يحكمها باى تونس وداى الجزائر معا •[1] واذا اعتمدنا هذا القول تكون حرب حمودة باشا للجزائر ووضعه حدا نهائيا لتســـلط الداى على تونس ، يكون ذلك دافعا من دوافع نشـــر الامن في تونس ، وهو في اقل تقدير امر يبرهن لنا بكل وضوح على الاهتمام البالغ الذى اولاه ذلك الباى لقضيـــة نشـــر الامن والاطمئنان بين سكان بلاده •

وقد اعتمد حمودة باشا عدة طرق واجراءات لتحقيق مبتغاه ، وهـــي الطرق والاجراءات التي ســـنذكرها فيما يلي :

١ • وضع حد لفوضى جند الترك وجرائمهم المخلة بالامن في عهده

كانت الجرائم التي ارتكبها جند الترك في البلاد ، في عهود البايـــات والدايات السابقين لحمودة وكذلك في اوائل عهده ، امرا لا يوصف ولا يدخل تحت حصر •[2] ولم

١ـ فروجيــا ، " العملة الحسينية ، رقم ٣ " ، المجلة التونسية ، عدد ١٧ (١٩٣٤) ، ص ٧٣ •

٢ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ •

يكن لينجو من شـرهم في العهد الذى ندرسه لا الاهالي المسلمين،[1] ولا اليهود ولا الاجانب النصارى .[2] ولم يقف امرهم عند ذلك الحد بل اشتد الى درجة امتناع حمودة باشا نفسه عن الذهاب الى عاصمته لاداء صـلاة الجمعة في الجامع .[3] وكذلك شمل اجرامهم اضطهاد القناصل ومحاولـة اغتيالهم .[4] وقد كان حمودة باشا لا يكل في الضرب على ايديهم قصد ايقاف تلك الفوضى عند حدها . فكان يتولى تكسير شوكتهم اما بالتعذيب والجلـد او النفي ،وفي احيان كثيرة بالقتل .[5] وكانت سجون هؤلاء المشاغبيـن المجرمين قائمة داخل حصون القصبة ، اما تنفيذ حكم الموت فيهم فيتم على طريقتين داخل القصبة ايضا . الطريقة الاولى هي الخنق ، والطريقة الثانية هي ادخال حبل مطلي بالصابون في عنق المتهم ثم يمسك رجلان بذلـك الحبل ويشدانه اليهما في وقت يكون رجلان اخران يسحبان حبلا ثانيـا ربط في يدى ورجلي المتهم الى الاتجاه المعاكس لمن يمسك بحبـل الرقبة ،ويستمر الشد حتى الموت . وفي كلتا الطريقتين ،سواء الخنـق او الشـنق ، ينفذ عملية القتل رجال اقوياء من الجالية الاوروبية القاطنـة بتونس ،خاصة منهم اليونان ،وذلك لتحاشي قتل المسلم بيد مسلم آخر.[6] وقـد نقصت جرائم هؤلاء الجند تدريجيا في تونس حتى توقفت بعد القضـاء على ثورتهم سنة ١٨١١.[7]

١- انظر خاصة ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص٥٦ ،ص٨٠ - ٨١ ،ج٧ ، ص٧١ ؛فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص٧٤ - ٧٥ .

٢- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته ؛فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص٥٣ ،٦٤-٦٥ .

٣- التقرير الغفل المذكور اعلاه ذاته .

٤- فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص٩٣ ؛انظر جرائم جند الترك اعلاه ،ص١٩٨-٢٠٠ .

٥- فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص٦٤-٦٥ ؛ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ، ص٨١ ،ج ٧ ،ص٧١ .

٦- فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص١٠ ، ٦٤-٦٥ .

٧- مقديش ،نزهة الانظار ،ج ٢ ،ص٧٢ .

٢ ٠ ايقاف نشاطات السودان المسيئة للامن والاخلاق في تونس

كان علي باشا الاول (ت٠ ١٧٥٦) الوحيد في الدولة الحسينية الذى اتخذ لنفسه حراسا من السودان ٠ وقد اطلق عليهم اسم "البوابة" ، " وتانق في خيلهم وسلاحهم وملبسهم ، حاكى بهم " عبيد البخارى"[١] في السلطنة الشريفية المغربية " ،ليس هذا فقط بل استعان بهم حتى في حروبه ٠[٢] وبعد وفاة على باشا صار هؤلاء السودان يكونون هيئة اجتماعية خاصة ذات تقاليد وانظمة وادارة ومحاكم خاصة بهم.[٣] في سنة ١٨٠٠ اصبح هؤلاء يمثلون بؤرة فساد تهدد المجتمع التونسي وتقاليده ، وتعصف بأمنه وسلامة افراده ٠ وقد بلغ فسادهم حدا

١ـ عرف محققوا كتاب الاتحاف " عبيد البخارى" بقولهم : " ويسمى "جيش البواخرة"، كونه مولاى اسماعيل سلطان المغرب(١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) من بقايا العبيد ونسبوا الى البخارى لانه تعاهد معهم على الدفاع عن السنة النبوية المجموعة في صحيح البخارى" ، المصدر ذاته ،ج ٢ ، ص١٢٢ ٠

٢ـ المصدر والصفحة ذاتهما ٠ ورد في منسوخات السبعي ،ص٧٤ـ٧٥ ما نصه " وفي سنة ١١٥١/١٧٣٨ ـ ١٧٣٩ ٠٠٠ امر الاميرعلي باى باتخاذ حراسا من السودان عوض الترك والعرب حيث ان الامير علي باى المذكور يعلم ان سبب هذه المحنة هي دسائس العربان ويعلم بانهم راضعوا لبن النفاق ومتأزرين بالخيانة ولا عهد لهم بل يميلوا مع القوى ويبيعوا دينهم بالمال ٠ واما ابعاده للترك لعلمه انهم غير راضين عليه ٠٠٠ لانهم يحبوا ان تكون جميع السلطه والتصرف في ايديهم ٠٠٠ فهذا سبب اختصاص علي باى بالسودان وجلب جانب عظيم منهم بتونس واعانتهم على بناء مساكن لهم والسماح لهم ببناء نوادى لهم كل نادى يسمى كوفة يجتمع فيه السودان ويدبروا فيه خططهم ٠٠٠"

٣ـ انظر مجيل ، وصف البلاد التونسية ،ص ١١٥ ـ ١٢١ ٠

جعل احمد التنبكتي يرفع رسالة الى حمودة باشا مؤرخة بـ ٢ رجب سنة ١٢١٥/ ٢٠ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٠٠ يكشف فيها الاخطار الجسيمة التي يقوم بها هؤلاء في الاخلال بالامن واشاعة الفوضى والتفسخ في المجتمع التونسي . يصف صاحب الرسالة اعمال السودان بانها " فتنة لا يجوز لاحد تمر في قلبه رائحة الايمان ان يسكت عنها " ويرميهم بالكفر . بعد ذلك يصف صاحب الرسالة كيف افسدوا النساء واذ لوا الرجال ، وكيف " ... وكلوا ... الاهالي المسلمين الجيفة واخذوا اموالهم وفسقوا في نسائهم ... " . وفي اخر الرسالة يوجه التنبكتي الكلام الى حمودة باشا قائلا : " فيجب عليك ايها الامير وجوبا فرضيا ان تأخذ " دار كوفة " وتهدمها ... وان تمنع اجتماعهم وان تجعل عليهم ناظرا ... وان تامر ببعد النساء عن الوصفان السود ... وان تعلم بذلك سوسة وصفاقس والقيروان بهذا العمل ... وانت تعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا ظهرت الفتن وسكت العالم فعليه لعنة الله والسلام " . [(١)]

يظهر ان تلك الرسالة احدثت مفعولها في نفس حمودة باشا فأمر بالضرب على هؤلاء السودان المخربين المشعوذين ، [(٢)] ولم تحل سنة ١٨٠٧ حتى شاهد شاتوبريان اولائك السودان بعد العز الذى كانوا فيه ، يعيشون مشردين بائسين في سقائف ابواب العاصمة لامورد لهم الا التسول . [(٣)]

١ـ هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر ، ص ١ ـ ١١ .

٢ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١٧ ؛ في منسوخات السبعي ، ص ٧٥ ان " دار كوفة " وشوكة السودان " ازالها الامير حمونة باشا " .

٣ـ رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٠٣ تعزيـز قـوة الشــرطة

بجانب التطهيرات السابقة المتعلقة بسياسة حمودة باشا في نشر الامن على سكان بلاده ، نجده يقوم بانجاز اخر هام ، في الميدان ذاته ، وهـو تعزيز قوة الشـرطة في المدن وبالخصوص في العاصمة ٠ وقد بلغت جدارة رجال تلك الشرطة ، التي كانت تضمن امن السكان وتسهر عليه دون الحد من حرياتهم ، حدا مكنها من تطبيق النظام الكامل في عاصمة بلغ عـدد سكانها حوالي سنة ١٧٨٠ ما يقارب ثلاثمائة الف ساكن ٠ (١) وقد كان الاهالي يتعاونون مع الشـرطة ويلتجئون اليها في قضاء النوازل المستعجلة ، وعند طلب النجدة ٠ (٢) وكان المسـؤول عن تلك الشرطة في العاصمة هو " شيخ المدينة " ، وهي خطة لم يتولها الا تونسيون من اهل البلاد ٠ (٣) اما مفاتيح ابواب العاصمة فانها كانت تبيت عند الاغة ٠ (٤) واستمرت حراسة المدينـة على المنوال الذى كان في عهد حمودة وفي العهود التي تلته الى سنة ١٨٤٦ ٠ (٥)

١- الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٤ ، ١٦٧ ٠

٢- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٠ - ٦٢ ٠

٣- تقرير من Billon الى حكومته ، تونس ١٨ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٩ ٠ يذكر فرانك ان المسؤول عن الشرطة هو " رئيس الشرطة " ، وصف البـلاد التونسية ، ص ٦٠ ، ٦٢ ٠ اما ابن ابي الضياف فيستفاد من سياق كلامه ان تلك الخطة كانت " لشيخ المدينة " ، وهو تأكيد لما كان ذكره القنصل الفرنسـي من قبل ، انظر اتحاف ، ج ٧ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ٠

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٥ ٠

٥- انظر المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، الكساندر دوما ، رحلة ، ج ٣ ، ص ٧٩ ٠

٤٠ اصدار حمودة باشا لاوامر واحكام تحد من الجرائـــم

(أ) أوامر تنظم عمل باعة اليهود المتجولين وتحميهم من اغتيال الاهالي لهم .

يذكر فرانك ان عدد اليهود القاطنين بتونس العاصمة في العهد الـذى ندرسه لا يقل عن العشرين الف يهودى . وهو رقم يزيد بكثير عن اعـداد اليهود الموجودين في اية عاصمة اخرى من عواصم بلدان شمال افريقيـــا .[1] وبما ان اكثر يهود تونس كانوا يتعاطون التجارة ،سواء منهم الرجال والنساء ، فقد كان عدد الباعة المتجولين منهم كثيرا . وهؤلاء الباعة بالخصوص كانت تحبك ضدهم مؤامرات قتل واغتيال داخل بيوت الاهالي عند عرض بضاعتهم للبيع ، فيفقد البائع او البائعة مع البضاعة . ومنعا لتكرار حصول تلـــك الحوادث اصدر حمودة باشا امرا نفذ حالا ،يقتضي اجبار جميع اليهود على الذهاب اثناء البيع اثنين اثنين ،وان يدخل واحد الى بيوت الاهالي ويبقى الاخر خارجها . وبهذا الاجراء الموفق ،يذكر الرحالة ،توقفت عمليات الاغتيال تلك بصفة نهائية.[2]

(ب) تشـددة في عقاب المجرمين والســراق

مما اشتهرت به سياسة حمودة باشا في مجال تحقيق الامن في البلاد تشدده في عقاب المجرمين والسراق . ومن مظاهر حزم الباى في هذا المجال، كما يذكر كاروني سنة ١٨٠٤ ، ان العقوبات كانت تنفذ في يوم اصدار الحكم

١- فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص ٩٥ .

٢- المصدر ذاته ،ص ٩٦ .

ولعل في يوم حصول الجريمة او السرقة .[1] وكان الباى لا يرأف في تنفيذ الحكم حتى وان مات المعذب اثناء الجلد ، اما في حوادث السرقات فان جزاءه هو قطع احدى يدي السارق ليبقى مميزا على جميع الاهالي .[2] وقد كانت في تونس سجون خاصة للمجرمين العاديين واخرى لكبار المجرمين ، ومن النوعين ما هو خاص بالمسلمين واليهود ، ومنها ما هو خاص بالنصارى فقط.[3] واكبر سجون المسلمين في ذلك العهد كان في جزيرة قرقنة[4] تضم ما يزيد عن الستمائة سجين ومبعد نساء ورجالا ، ومن هؤلاء من حكم عليهم بالنفي الى هناك مدى الحياة ، ولم يكن الباى يقدم لهؤلاء الا الخبز فقط .[5]

ومن مظاهر الشدة التي كانت تمثل سياسة حمودة باشا في هذا المضمار هو انه اوقف الحصانة التي كان يتمتع بها كبار المجرمين عند التجائهم الى بعض الجوامع او مقامات الاولياء المعينة ، اوقفها ذلك الباى عند حدها . اذ صار حمودة يأمر باغلاق مدخل الجامع او الزاوية ببناء حائط على بابه ، وتكون النتيجة اما استسلام المجرمين في حال اختيار الخروج من المكان عندما يشتد بهم الجوع والعطش ، او ان يموتوا داخله .[6] وقد كان عدد

١- كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧)، ص ٤٤ .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما .

٣- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٠ ؛ بوعجي ، " سيرة " ، المجلة التونسية ، عدد ١٦٧ (١٩٢٧) ، ص ٤٥ تعليق رقم ٤ .

٤- جزيرة قرقنة : تقع قرب مدينة صفاقس شرق البلاد التونسية ، انظر موقع هذه الجزيرة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ من هذه الدراسة .

٥- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٣ .

٦- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ .

تلك الجوامع التي يقع الالتجاء اليها في اوائل عهد حمودة باشا اربعة فقط في كامل البلاد التونسية ، وكانت الارض المجاورة للجامع ، الى مسافة متعارف عليها ، تمنح الامان لليهود والنصارى. غير ان هؤلاء ، بعد تعطيل العمل بتلك العادة ، صاروا يلتجئون الى القنصليات الاجنبية خاصة منها الفرنسية والبريطانية.[1] ومن مظاهر تلك الشدة ايضا منعه الناس من امتلاك البارود حفظا للامن.[2]

نذكر فيما يلي بعض الامثلة التي نستخرج منها فكرة صحيحة عن العقوبات الصارمة التي كان حمودة باشا ينزلها بالمخلين بالامن سواء منهم المسلمين او اليهود او النصارى .

في سنة ١٧٩٥ عصا احد رجال اولاد مساهل من ماجر[3] واسمه حامد بن شريفة ، والتحق به عدد اخر من البدو والعربان ممن " يطلب الرزق بسيفه وسنانه " ، فاخل بالامن حيث " افسد الزرع ، واخذ الماشية ، وعطل الطرق " .[4] فما كان من حمودة باشا الا ان استعمل الحيلة في القبض عليه ليتحاشى محاربته . وعندما تم له ذلك سجنه ثم جرد لقوم حامد بن شريفة خمسمائة فارس مختارين من المحلة غزوا اولاد مساهل ونهبوهم واستاقوا " مالهم من الظهر والانعام " . ولم ترجع محلة حمودة باشا الى العاصمة الا بعد ان عملت فيهم السيف حتى قبل اعيان تلك القبيلة بنزوحها الى ضواحي مدينتي القيروان والحاضرة.[5] وبذلك ، كما يذكر ابن ابي الضياف: "... انكسرت شوكتهم ، وزالت وطأتهم ، وخاف امثالهم ، وتمهدت العافية بتلك الجهة ".[6]

١ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٥ .

٢ـ انظر اعلاه ، ص ٢٢٣ .

٣ـ ماجر : عروش مقيمة غرب البلاد التونسية على مقربة من الحدود الجزائرية ، انظر ذلك الموقع على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

٤ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣١ .

٥ـ انظر المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

٦ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

أما مثال تعذيب الباى لمستحقي العقاب من اليهود فلا شك انه كان من اشد الاحكام التي اصدرها حمودة باشا واقساها . فقد حدث في صائفة سنة ١٧٨٤ ان جلب يهودى من سكان العاصمة الى بيته ربانا راغوصيا (ragusais) ، وذلك ليقضي وطره مع احدى بنات تونس المسلمات مقابل مالٍ يدفعه لليهودى . وعندما كان الرجلان يتجادلان حول مقدار ذلك المال داهم " رجال البوليس " الدار وقامت هيعة الاهالي حولها .(١) وكان حكم حمودة باشا من الغد في القضية صارما الى حد لا نجد له مثيلا في تاريخ تونس : حكم باعدام الربان الراغوصي ، وبوضع الامرأة التونسية في كيس واغراقها في البحر ، اما اليهودى فقد حكم عليه بالحرق حيا ، وقد نفذت جميع تلك الاحكام فورا .(٢)

فيما يتعلق بالاوروبيين القاطنين بتونس نذكر من احكام حمودة باشا التي نفذت في مستحقي العقاب منهم الامثلة التالية : قضية الربان الراغوصي التي انتهت بقتله شر قتلة على الرغم من المساعي المختلفة ، ويظهران معظمها قام بها قنصل فرنسا ، للتخفيف من الحكم ،(٣) وكذلك على الرغم من نصائح الوزير الاول مصطفى خوجة للباى بالتريث في تنفيذ الحكم في الربان خوفا من ذيول القضية مع الدول الاوروبية فيما بعد .(٤) وفي سنة ١٧٩٣ حصل ان دخلت ميناء تونس احدى السفن الفرنسية ونزل منها بعض المسلحين وهددوا بنشر

١- رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ١٠ جويلية / تموز ، ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ؛ وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢- رسالة من ديسبارون المذكورة اعلاه ذاتها ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١٣ ؛ وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٣- رسالة من ديسبارون المذكورة اعلاه ذاتها .

٤- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

الفوضى والشغب والتعدى على افراد بعض الجنسيات الاوروبية الاخرى المقيمين في تونس ، والذين كانوا في الميناء عندئذ . وبتدخل من قنصل فرنسا وبايعاز حثيث من الباى تم حالا ارجاع الامور الى نصابها . غير ان الباى لم يكتف بذلك بل بعث الى الحكومة الفرنسية برسالة سنة ١٧٩٤ يحذرها فيها بانه اذا حصل ما يعكر أمن تونس مرة ثانية من قبل الفرنسيين ، سواء منهم المقيمين بتونس او العابرين ، فانه سيحاكم المذنب ، بمحضر القنصل الفرنسي ، او يطرده من البلاد التونسية بدون رجعة .[1]

في سنة ١٨١٣ سرق بعض الارقاء الاوروبيين اكياسا مملوءة اقمشة من قصر الباى وباعوها . وبعد ان اهتم الباى بالقضية بنفسه استطاع ان يلقي القبض على التجار الذين اشتروا تلك المسروقات وجميعهم من اوروبيين . وكان حكم حمودة باشا عليهم هو تعويض ثمن الاقمشة ثم طردهم من البلاد نهائيا .[2]

بقيت حادثتان تتعلقان بالامن وليس لدينا تواريخ محددة لوقت حدوثهما . الحادثة الاولى ارتكب فيها احد بحارة نابلي جريمة قتل فيها واحدا من جند الترك في تونس ، وصدر فيه حكم الباى بالاعدام فورا . وعلى الرغم من ان القاتل هرب واحتمى بالسفينة التي يعمل فيها وهي بريطانية ، بعث حمودة باشا كوكبة من الجند مدججين بالسلاح وانزلوه من السفينة مكبلا في الاغلال ثم قتل .[3]

١- رسالة من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٢٩ جويلية / تموز ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

٢- رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٨١٣ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤١ .

٣- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٨٣ .

الحادثة الثانية ارتكبها جنوى استقر بتونس منذ زمن طويل ، ويتمتع بحماية فرنسية ؛ وصورة الواقعة ان هذا الجنوى لطم يهوديا بظهر يده . ولما قدم اليهودى شكوى للباى حكم هذا على المدعى عليه بقطع يده او بترك البلاد في مدة لا تتجاوز الاربع والعشرين ساعة .(1)

٥٠ اجراءات اخرى خاصة بالاجانب

اقام حمودة باشا بعض الاجراءات المشددة تتعلق بالاجانب الاوروبيين الذين يحلون بتونس او يقطنونها . اول هذه التدابير يذكره قنصل بريطانيا بتونس سنة ١٧٩٢ ؛ وهو ان الباى الزم السلطات التونسية بالجمارك بمنع اى اجنبي من الدخول الى البلاد التونسية او الخروج منها بدون جواز مرور مختوم بخاتم حمودة باشا نفسه . وهذا الامر ، كما يضيف القنصل قائلا هو جديد من نوعه لان الختم على الجواز لم يكن محصورا في ختم الباى فقط .(٢) التدبير الثاني الذى اتخذه الباى في هذا الخصوص ذكره قنصل بريطانيا ايضا سنة ١٨٠٥ . وهذا الاجراء كما يذكر القنصل ، يقتضي تكليف اغا حلق الواد العسكرى ، مسوءولية " مراقبة المسافرين والتثبت في هوياتهم ورخص السفر او الدخول وكذلك جوازات السفر..." ؛ وذلك بعد ان كانت تلك المهام بيد " رئيس الجمرك" وهو موظف مدني .(٣)

١- وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٧ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ١٦ ، فيفرى/ شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- تقرير من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ١٩ ، افريل/ نيسان ، ١٨٠٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

يظهـر ان كل تلك التشـديدات التي اتخذها حمودة لمراقبة الاجانـب في تونس لم تكن كافية ،فقد ذكر مجيل ان الباى كلف رجالا لتتبع كل فـرد اجنبي في تونس ومراقبته مراقبة دائمة .(١)

٦٠ قيـام حمودة باشا بتفقد احوال امن عاصمته بنفسه ليلا

يذكر وليد ان حمودة باشا ، على الرغم من جميع تلك الاجراءات التـي اتخذها والسـياسة الحازمة التي سار عليها في حفظ امن بلاده ،على الرغـم من ذلك كان حاذرا يخاف من خداع المسؤولين عن الامن. ولهذا،كما يضيف المؤرخ ، تنكر حمودة " مرات عديدة في ثياب خشنة ونزل ليلا يتفقد معظـم شوارع مدينة تونس ، وخاصة منها تلك التي يتردد عليها المجرمون والاشرار". وكم من مرة شاهد الباى اثناء تفقداته تلك" ظلم اولائك المتسلطين وتعدياتهم على الابرياء من الاهالي". وكان الباى في تلك الظروف والاحوال يسعى خفية لتحديد هوية مرتكب المخالفة او الجريمة بكل دقة ، واذا لم يتمكن يرصـده من بعيد الى ان يتعرف على المكان الذى يدخله . وكم من تلك المخالفات كشـف الباى ذاته مرتكبيها ونالوا جزاء ما صنعت ايديهم .(٢)

قبل ان ننتهي من الحديث عن سـياسة حمودة باشا في مجال الامـن والاستقرار ، من المفيد ان نستعرض بعض ما ذكره المؤرخون والكتاب عن حالة الامن في العهد الذى ندرسه . يقول الاب رينـال : " ... ان القناصل ومـن يتبعهم من بحارة وتجار وعمال اجانب يتمتعون جميعا بمعاملة مناسبة مثل اية

١– رحلة ،ص ٦٣.

٢– انظر وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ،ص ٤٧ – ٤٩.

معاملة يمكنهم ان يتمتعوا بها في البلدان العريقة في التمدن . ان الامن مضمون لجميع السكان بالتساوى ، وذلك سواء في الموانيء او المدن او الارياف ، وان الاجنبي في تونس لا تلحقه اية اهانة او مهانة او مسبة ، مثل ما تلحقه باستمرار في بلدان شمال افريقيا الاخرى." [١] ويذكر ايضا ان الفلاح التونسي اينما استقر في بلاده يشعر بالامن والاستقرار ولهذا السبب بدات اراضي البلاد القاصية تنمو خضرة وزرعا وخيرا . [٢] ولعل ما يقارب ذلك كان وضع الجالية الفرنسية في تونس سنة ١٧٩٩ ، على الرغم من حالة الحرب القائمة بين البلدين بسبب غزو نابليون لمصر . والفضل في ذلك كما يذكر القنصل دوفواز راجع الى التدابير التي اتخذها الباى لحمايتهم . [٣]

القنصل البريطاني اوغلاندر لا يخفي اعجابه بالامن المستتب بالبلاد التونسية ، وهو ما اعلم به حكومته سنة ١٨٠٤ . [٤] وفي السنة ذاتها يذكر الاب كاروني ان الوسائل المتخذة في تونس لحفظ الامن هي على سهولة ادارتها ناجعة . [٥] وفي سنة ١٨٠٨ اخبر دوفواز حكومته ان شجارا نشب بين احد رعايا دولته وبين احد الاهالي في حي داخل المدينة بعيد عن القنصلية . وان آغا تونس

١- " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٨ ، انظر اعلاه ، ص ١٠٦ .

٢- المصدر ذاته ، ص ١٦٩ ، انظر ايضا ص ١٣٥ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ٤ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، انظر في الموضوع نفسه ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .

٤- رسالة الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر / ايلول ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٥- كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٤ .

اقتلع ذلك النصراني من بيته وجلده دون معرفة القنصل . ولما اعلم القنصل حمودة باشا بتلك الحادثة غضب الباى اشد الغضب ووعد القنصل بان مثل تلك الحادثة لا تقع في تونس ثانية . ولم يكتف الباى بذلك بل بعث برسالة رسمية الى دوفواز يعتذر عن ذلك الحادث ويؤكد تألمه من جهة ، ومن جهة اخرى يعلمه بانه اصدر اوامر " مشددة جدا " لعدم تكرار مثل تلك الحادثة.(١) وقد ذكر الطبيب فرانك ، الذى قضى في تونس مدة طويلة (١٨٠٦-١٨١٢؟) ، بعض الحوادث التي وقعت فيها اعتداءات من قبل جند الترك على الاجانب الاوروبيين.(٢) غير انه في مقدمة كتابه يؤكد على ان الاجانب بتونس كانوا جميعا اذا قورنوا بمواطنيهم في مدن شمال افريقيا الاخرى ، يتمتعون بتقدير وامن كافيين ، خاصة منهم الاطباء.(٣) وينهي فرانك ملاحظاته عن الامن بتونس بقوله ان البلاد التونسية لم يسبق لها قط في تاريخها ان تمتعت باستقرار شامل وبازدهار كما في عهد حمودة باشا . ويضيف ان التونسي لم يشعر بالامن الداخلي والخارجي-من اعدائه خارج البلاد - وباستقلاله مثل ما تم له في عهد ذلك الباى.(٤) يوجز مقديش الذى توفي سنة ١٨١٣ اهم مميزات عهد حمودة بقوله "... وقام بالامر[حكم البلاد] احسن القيام فأمنت البلاد واطمانت العباد ...

١- تونس ، ٤ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٨ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٩ ، وملحق بالوثيقة النص الاصلي لرسالة الاعتذار التي بعث بها الباى للقنصل مؤرخة بيوم ٢٧ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٨.

٢- انظر وصف البلاد التونسية ، ص ٧٣ ، ٩٣ - ٩٤.

٣- المصدر ذاته ، ص ٣.

٤- المصدر ذاته ، ص ٧٠.

ادامه الله في امن وعافية وثبت على نهج العهد والتقوى اقدامه." [١]

اما ابن ابي الضياف فقد فصل لنا الحديث عن حالة الامن في تونس ووصفها في اماكن عديدة من كتابه وجميعه يدلنا على استتباب الامن بالبلاد وانجازات حمودة باشا في ذلك المجال. [٢] وصاحب مسامرات الظريف يصف حمودة باشا بكونه "... خلف للبلاد ماثر ومفاخر لا يحصيها عدد بسبب ما عنده من الغيرة والحمية الوطنية واعمال الفكر في امن البلاد وثروتها وله في ذلك اخبار لا يفي بها غير تاريخ مستقل." [٣] واخيرا يصف بينيون الفترة التي حكمها حمودة باشا بانها تعتبر من اهدا الفترات في العهد الحسيني بالنسبة للثورات والامن الى سنة ١٨٣٠. [٤]

١- نزهة الانظار، ج ٢ ، ص ٧٢ .

٢- انظر على سبيل المثال لا الحصر، اتحاف، ج ٣ ، ص ١٣ ، ١٩ ، ٨٠-٨١ ج ٧ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٣- السنوسي ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

٤- باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

د • في المجال الاقتصادى : تعزيز امكانات البلاد الاقتصادية

من المفيد قبل الشروع في بحث مظاهر سياسة حمودة باشا في المجال الاقتصادى ، ان نذكر امرين هامين يمكناننا منذ البداية من تكوين صوره مقيمة لسياسة حمودة باشا وموضحة للظروف الصعبة التي تم فيها تعزيز امكانات البلاد الاقتصادية • هذان الامران هما وصف حالة خزينة الدولة لما تولى حمودة باشا العرش اولا ، ثم وصف الاوبئة والقحوط والمجاعات التي اصابت البلاد التونسية بصورة غير اعتيادية في عهد ذلك الباى ايضا •

لما تولى حمودة باشا العرش لم يجد في خزينة ابيه من المال ما يفي بمرتب الجند ، ويرجع صاحب الاتحاف ذلك الى شدة شفقة علي باشا على رعيته •[١] غير انه هناك اسبابا اخرى بعضها بعيد وبعضها قريب تسببت في ضعف اقتصاديات البلاد التونسية وبالتالي في قلة مال الدولة سنة ١٧٨٢ •[٢] وكان اول ما افتتح به حمودة عهده " النظر في شان المال اذ لا سلطان الا بمال ••• " ، واعلم وزراءه ان من رأيه ايجاد طريقة اصلح من تلك التي سلكها ابوه فيما يتعلق بالسياسة المالية ، مع ملاحظة " مراعاة اسباب النمو في الجباية ••• "[٣] وقد احدث حمودة قانونا جديدا للجباية جرى به العمل في عهده وفي عهد بعض من تولى العرش بعده •[٤]

١ـ ابن ابي الضياف ، ج ٣ ، ص ١٢ •

٢ـ انظر المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ، انظر اعلاه ، ص ١٧٤ ، ١٧٨ •

٣ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢ ـ ١٣ •

٤ـ انظر ادناه ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ •

أما الامر الثاني وهو الاوبئة والقحوط فكادت ان تكون متواطة سنة بعد سنة. وهي الكوارث الطبيعية التي احدثت في تونس من الموت والخراب ما كاد ان يأتي على العديد من سكان تونس في عهد حمودة باشا . واذا ما استعرضنا تلك الاوبئة والجوائع مع ذكر الخسائر التي اوقعتها في البلاد ، كما ذكرتها المصادر، يمكننا تصور تاثيرها على وضع تونس الاقتصادى في تلك الفترة التاريخية ، وبالتالي يمكننا ان نقدر سياسة حمودة في هذا الميدان وانجازاته حق قدرها .

١. في سنتي ١٧٧٧ — ١٧٧٨ : اول وثاني سنة لتولي حمودة ولاية العهد ، حل وباء جارف ومجاعة شملا البلاد باسرها ، مات فيها خلق كثير وماشية عديدة ، بجانب ما نتج من نزوح الاهالي الى العاصمة والمدن بحثا عن القوت . (١)

٢. سنة ١٧٨٣ : اول سنة من ولاية حمودة العرش وقع طاعون في البلاد اهلك العباد والماشية ، ويذكر المؤرخ الصفاقسي ان في مدينته وحدها مات حوالي خمسة عشر الفا "... وفي النساء اكثر منه ... في الرجال ... الزنج لم يبق منهم الا النادر الذى لا يعد ". (٢)

١— ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ؛ في منسوخات السبعي ، ص ٧٧ ورد وصف هذا الحدث كما يلي : "... وقعت المجاعة الكبرى العظيمة بتونس وما يتبعها من المدن والقرى حتى اكل العباد بعضهم بعضا ثم انتشر الطاعون فقتل بالعباد فتكا ذريعا ذهب فيه ربع السكان".

٢— مقديش ، نزهة الانظار ، ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ في منسوخات السبعي ، ص ٧٨ ورد وصف هذا الطاعون كالاتي : "... وقع الطاعون الجارف الذى مات بسببه اكثر اعيان هذه البلاد وعلماؤها ... مات فيه جميع اهل الخير والصلاح واهل العلم والصنايع ...".

٠٣ سنة ١٧٨٤ : بدأ الوباء يظهر بالبلاد في شهر جوان/ حزيران ،[١]
ويوم ٣٠ اوت / اب كتب القنصل ديسبارون يقول ان ذلك المرض قتل العديد
من السكان خاصة بمدينة الكاف .[٢] والقنصل البريطاني يعلمنا ان بعض القرى
لم يبق فيها من سكانها احد بسبب موتهم .[٣] اما الاب رينال فبعد ان يذكر
ان هذا الوباء جاء الى تونس من مدينة الاسكندرية على طريق الحجاج ، يقول
ان ضحاياه عددهم مائة وخمسة وثمانين الف فرد .[٤] وبعد ست وعشرين سنة
من حدوث الوباء بعث بيلون تقريرا تجاريا يشير فيه الى ان ما يقارب ثلث
سكان البلاد التونسية ماتوا سنة ١٧٨٤ ،[٥] وان انتاج تونس وتجارتها الخارجية
لا زالت متأثرة بتلك الكارثة .[٦]

١- رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .

٢- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ٣٠ اوت / اب ، ١٧٨٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

٣- رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٥ سبتمبر / ايلول ١٧٨٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٤ ، ١٦٩ .

٥- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣٠ جويلية / تموز ، ١٨١٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٨٩ .

٦- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٤ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨١٠ ، خزينة الوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٩ .

٠٤ سنة ١٧٨٥ : فيها ارست سفينة بمدينة سوسة آتية من اسطنبول ، وقد كانت حاملة اناسا مصابين بالطاعون ، ومن تلك المدينة انتشر الوباء في كامل البلاد التونسية .[1] ويذكر القنصل ج. تريل ان جميع القناصل الاوروبين وجالياتهم اقفلوا مكاتبهم ومراكز شركاتهم التجارية ومنعوا اى اتصال بهم على الاطلاق .[2] وقد تألم الرحالة بوارى لمازار تونس في تلك السنة ورأى انه كان يشاهد من النعوش والقبور اكثر مما كان يراه من الاحياء اثناء ذلك الوباء . وان مدينة طبرقة اقامت جبانتين جديدتين لموتى طاعون تلك السنة .[3]

٠٥ سنة ١٧٩٠ : رجع الوباء بكل شدة الى تونس ، وقتل الكثير جدا من اهم رجال البلاد العاملين النشطين ، وبعد ان عم البلاد بسرعة مذهلة خلف وراءه " مئات الالاف من القتلى " ، بجانب ارتفاع فاحش في الاسعار وفي مرتبات موظفي قنصلية بريطانيا التونسيين يقدر بمائة وخمسين في المائة .[4]

٠٦ سنة ١٧٩٢ : ظهر الوباء ولكنه كان خفيفا ، "القناصل والحكومة اتخذوا الاجراءات اللازمة للوقاية ".[5]

١- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٣٠ .

٢- من القنصل الى حكومته ، تونس ، ١٨ ماى / ايار ، ١٧٨٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- بوارى ، رحلة ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ١٩١ ، انظر ايضا المصدر ذاته ، ص ١ ، ٢ ، ١٩ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ، انظر ايضا رسالة القنصل ذاته ، تونس ، ١٥ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته .

٥- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ٢٦ جوان / حزيران ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٠٧ ١٧٩٤ : اعلم ماجرا انه سمع ان الوباء ظهر في الجزائر منذ شهر اوت/ آب سنة ١٧٩٣ ، ويتوقع حلوله بتونس اذا وصل الى مدينة قسنطينة.[١] ويذكر القنصل في رسالة اخرى مؤرخة ب ١٢ مارس/ اذار من سنة ١٧٩٤ ، ان الوباء وصل تونس و الموتى كثيرون وان اجراءات الوقاية اتخذت جميعها ."[٢]

٠٨ ١٧٩٥ : في اول هذه السنة انتشر الوباء مجددا بتونس ،[٣] وفي بداية الصيف بدأت تقل وطأة ذلك الوباء ، وشرعت الحركة التجارية ترجع الى معتادها .[٤]

٠٩ ١٧٩٧ : يصف ماجرا في احدى رسائله هذا الوباء بانه عم البلاد بسرعة وبقوة مذهلة حتى انه قتل اربعة الاف شخص في مدة اربعة ايام في مدينة تونس وحدها .[٥] وفي رسالة ثانية يعطي القنصل ذاته احصاءات ضحايا ذلك الوباء ، الذي دام ثلاثة اشهر فقط ، وهي : عشرون الف تونسي ، سبعمائة يهودي ، مائة وخمسون مسيحي .[٦]

١- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ٢٢ اوت / اب ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ١٢ ، مارس/ اذار ، ١٧٩٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧.

٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ٥ ، فيفري/ شباط ، ١٧٩٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ .

٤- رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ٦ ، جويلية / تموز ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .

٥- رسالة من ماجرا الى حكومته ، نابلي ٢٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧.

٦- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ١٨ جويلية / تموز ، ١٧٩٧ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧.

١٠. ١٨٠٣ : في هذه السنة حصلت مجاعة كبيرة بتونس كان سببها كما يذكر ابن ابي الضياف : احتباس الغيث ، ووقوع القحط الشديد " وتعسر الاتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ ....".[١] وقد بعث حمودة باشا باحد كبار علماء تونس وهو ابو اسحاق ابراهيم الرياحي كسفير عنه لدى سلطان المغرب الاقصى لجلب الميرة من هناك ، ونجح ذلك السفير في مسعاه.[٢] وعند وصول تلك المؤن باعها حمودة باشا باقل من ثمنها ، واعطى بعضها للعاجزين دون ثمن.[٣] ولم يكتف بتلك الميرة من المغرب بل بعث سفن عديدة الى البحر الاسود لاستجلاب الحبوب ، ومنع صنع الكماليات من المآكل مثل البقصماط (biscuits) والمقرونة وما شابههما.[٤] اما الميرة للجالية الفرنسية بتونس فقد ارسلت من فرنسا وقدرها ثلاثمائة قنطار[٥] من الدقيق.[٦]

١- اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩.

٢- المصدر والصفحة ذاتهما ؛ انظر الدناه ، ص ، ٤٥٦ .

٣- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٨ فيفرى / شباط ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧.

٥- القنطار يشتمل على مائة رطل او لبرة كل رطل يزن خمسمائة غرام . الرطل الذى كان مستعملا في تونس في ذلك العهد لوزن البضائع الثقيلة وفي التجارة بالجملة كان يطلق عليه الرطل العطارى وهو يزن ٥٠٤ غرامات . اما القنطار العطارى فقد كان يزن مائة رطلا او ما يعادل خمسين كيلوغراما تقريبا ، انظر ؛ Direction du Commerce et du Travail, Poids et mesures en Tunisie , Tunis , Imprimerie Central, 1931 , p. 5, M. Legendre , Survivance des mesures traditionnelles en Tunisie, Presses Universitaires de France , Paris, 1958 , pp. 37-38.

٦- رسالة من وزير خارجية فرنسا الى دوفواز ، باريس ، ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٨٠٤ ، بلانتي مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٦١ .

ويذكر مجيل انه بسبب ذلك القحط كان السكان يموتون بالالاف جوعا ، وكذلك المواشي .[١] ويقول ايضا ان النتائج السيئة التي تولدت بسبب ذلك القحط كانت كبيرة جدا خاصة في ما يتعلق بالانتاج الزراعي والصناعي . وكذلك اثر كثيرا على تجارة تونس الخارجية نتيجة القيود الجديدة التي اصبحت تفرض بصرامة على توريد الحبوب من اوروبا .[٢]

هذا وقد تكون ظروف البلاد تلك ، من فراغ الخزينة ومن اوبئة وقحوط ، بالاضافة الى الاموال العظيمة التي كانت تصرف على انجاز مخططات حمودة باشا الاصلاحية في مختلف الميادين ، لعل كل ذلك فرض على الباى ان يتخذ لنفسه سياسة اقتصادية من اوائل مظاهرها عدم اتلاف المال والبعد عن السرف .[٣] وقد بلغ ذلك حدا نسب به الى الشح ، وفيه يقول صاحب الاتحاف : " ومن اخباره [حمودة باشا] انه يكره السرف في غير مصلحة معتبرة ، حتى نسب الى شح ... ".[٤]

بعد هذه التوطئة التوضيحية الضرورية نرجع الان الى بحث سياسة ذلك الباى في الميدان الاقتصادى . وهو الموضوع الذى سندرسه مقسما الى المجالات التالية : ١ . في المجال الزراعي ، ٢ . في المجال الصناعي ، ٣ . في المجال التجارى .

١- رحلة ، ص ٦٦ .

٢- المصدر ذاته ، ص ١٣٧ ، ١٨٢ - ١٨٥ ؛ في ما يتعلق بالاوبئة في تونس في القرنين السابع عشر والثامن عشر هناك دراسة قيمة انظرها : P. Sebag , "La peste dans la Regence de Tunis XVII^e et XVIII^e siècles", I. B. L. A. vol. 28 (1965), pp. 35-48.

٣- انظر امثلة على ذلك بـ مجيل ، رحلة ، ص ١٠٢ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٢ ، ٧٦ - ٧٧ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٧٦ ؛ انظر اعلاه ، ص ٨٩ .

١٠ في المجال الزراعي : تشجيع زيادة الانتاج وتحسينه

كانت زيادة الانتاج الزراعي للبلاد التونسية احدى اهم شواغل حمودة باشا منذ ان تولى العرش.[١] ويمكننا ، من خلال ما توفر لدينا من معلومات في هذا الصدد ، ان نذكر الطرق التي توخاها ذلك الباى للوصول الى هدفه في زيادة الانتاج ،على الرغم من الكوارث الطبيعية التي ذكرناها سابقا .

(أ) حثه على العمل ونبذ البطالة : اشتهر حمودة باشا " في تاريخ تونس " بشدة حبه للعمل وتشجيعه للناس على الكد والجد.[٢] وقد ذكر صاحب الاتحاف هذه الخصلة الحميدة ووصفها في اماكن عديدة من كتابه ، ومنها قوله : " ومن اخباره [حمودة باشا] انه يقول في مجالسه علنا ،ويشتهي ان ينقل عنه : " لا ابغض احدا من اهل بلادنا الا البطال الذى لا نفع فيه للوطن ، ولو برعي البقر".[٣] ومنها ان الباى " كان يباشر الفلاحة بهنشير المرناقية ،[٤] ويركب غالبا في كل اسبوع ، ليقتدى به غيره في مباشرة اموره ... بل ربما وسع بها على الضعفاء من اهل تلك الجهة ، فكان يبيع لهم الحبوب والانعام لاجال واسعة ،بقيمة الحال ،ويسلفهم عند الاحتياج ".[٥]

١- تقرير من دوفواز الى حكومته ،تونس ، ٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ،ب٣ ، ٣٠٤ .

٢- الوثيقة والمصدر ذاتهما .

٣- ابن ابي الضياف ،ج ٣ ،ص ٧٨ .

٤- المرناقية: اسم لمزرعة كبيرة تقع شمال مدينة تونس .

٥- المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٧٨ .

وجريا مع مبدئه ذاك كان ايضا " يكره التصدق على الفقير القادر على التكسب ببدنه ويقول : " ان طلب الرزق بالاسباب الممتهنة لا يكسبه معرة ، ولا مذلة توازي مذلة السؤال ". "[1] ومن اقوال ذلك الباى الذى " كانت البطالة في ايامه سبه " : " لا تعير الرجال بالخدمة ، انما العار بالبطالة ".[2] وقد كان الاعراب لا يحبون العمل بالزراعة بدعوى الانفة والعار .[3]

(ب) تحسين الانتاج : على الرغم من امتياز المنتوجات الفلاحية التونسية وجودتها سعى حمودة باشا لزيادة تحسينها باستعمال الطرق العلمية الحديثة . فقد ذكر محقق رحلة مجيل ان في عهد حمودة كان بتونس فرنسيون يقومون بتجارب لتحسين الانتاج الزراعي التونسي . وكذلك كان منهم من يجرى تجارب ترمي لتغيير رائحة لحم الخروف التونسي المصنان ، بسبب كثرة شحمه وكثافة صوفه .[4] وقد حدث ، بعد سنة ١٨٠٧ ، ان الباى ، تطبيقا لسياسته في زيادة الانتاج ، امر بمنع ذبح البقر والغنم والمعز في البلاد التونسية .[5]

١- المصدر والصفحة ذاتهما .

٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

٣- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

٤- رحلة ، ص ٦٤ ، تعليق رقم ٢ ، وص ٦٦ .

٥- المصدر ذاته ، ص ٧١ .

بعد هذا ، ليس بالمستغرب ان نرى وزير حمودة باشا وقائد جيشه اثناء حرب الجزائر سنة ١٨٠٧ يعمل كل جهده للمحافظة على مزروعات وخيرات البلاد التونسية .[١] ذلك الزرع الذى ، كما يقول الاب رينال ،عم البلاد التونسية باخضراره في معظم عهد حمودة ، بفضل امن شامل ، وسياسة واضحة وثابته ، بعد ان اهملت الزراعة في كامل البلاد ما عدا بعض الاراضي حول المدن فقط .[٢]

(ج) تامين اسعار مربحة واسواق خارجية للانتاج الزراعي التونسي

من الطرق التي طبقها حمودة باشا في سياسته الرامية الى زيادة الانتاج تامين اسعار مربحة للمزارعين تشجيعا لهم ومكافأة . وقد بدأت هذه المعالجة الجديدة " للقفز بالانتاج " بعد ان هدأ القتال بين تونس والبندقية حوالي سنة ١٧٨٧ .[٣] ولعل الخبر الذى يذكره ذلك القنصل من ان الباى كان يشترى احيانا الكثير من حبوب المحصول التونسي من المزارعين باسعار اعلى مما هي متداولة في السوق ، ليرجع ويبيعها في الخارج فيما بعد ، واحيانا يخسر فيها ، لعل ذلك مظهر لسياسته هذه .[٤] وفي رسالة اخرى بعث بها القنصل سنة ١٨٠٢ اعلمنا ان اسعار الحبوب التونسية المعدة للوسق في ازدياد مستمر منذ سنة ١٧٨٥ ؛ وان ذلك يصدق حتى في السنوات التي يكون فيها المحصول

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

٢- الاب رينال ، " تقرير " المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٩ .

٣- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٠ افريل / نيسان ، ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ، ص ٤٢ .

٤- تونس ، ١٠ جويلية / تموز ، ١٧٩١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

كبيرا جدا ،مثل ما كان سنة ١٨٠٢ .[١] وقد اكد القنصل ذاته تلك المعلومات مرة ثانية سنة ١٨٠٤ ؛ واعلمنا ايضا ان الباى منع التجار الاجانب من ابتياع الحبوب من المزارعين التونسيين قبل استواء المحصول وذلك للغبن الشديد الذى كان يصيبهؤلاء في تسعير ثمن حبوبهم . وكذلك حتى يستطيع المزارع العمل بيسر بالنسبة لسنته الزراعية التالية .[٢]

يظهر ان تلك السياسة العملية ذات المكافأة العاجلة للمزارع،ادخلت نشاطا وروحا جديدتين في الزراعة في تونس . غير أن الذى يجب ذكره هنا هو ان حمودة باشا كان اول من سمح ،في العهد العثماني ، بتصدير المنتوج الزراعي التونسي الى اوروبا بصفة مباشرة ورسمية وعلنية .[٣] على ان ماجرا يقول ان كلمة السر في بداية ازدهار الزراعة التونسية هو ادارة حمودة باشا المنظمة وسياسته الواضحة ومصالحته للدول ،وهي بالتالي الامور التي اوجدت الاسواق الخارجية .[٤] ويرجع لوغران سبب ازدهار الزراعة والتجارة الخارجية التونسية الى انتهاء الحرب التونسية - البندقية ،ويعتبر ان الصلح بين تينك الدولتين (١٧٩٢) كان بداية الانطلاق .[٥] وعلى كل ، فان "مصالحة الدول" ،بما فيها البندقية ، كان امرا واقعا سنعرض الى تفصيلة في محله من هذه الدراسة .[٦] والثابت لدينا ،اعتمادا على الوثائق ، ان انتاج تونس الزراعي على كثرته كان ، بسبب شدة

١- تونس ، ٧ سبتمبر/ايلول ، ١٨٠٢ ،المصدر ذاته ، ملف ٦/ ٧٧ .

٢- تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٤ ،المصدر ذاته ،ملف ٥/ ٧٧ .

٣- انظر ادناه ،ص ٢٩٩ ، ٣٠١ .

٤- تونس ، ١٠ جويلية / تموز ١٧٩١ ،المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧ ،فيما يتعلق بوضوح سياسة حمودة باشا في هذا الباب انظر ايضا ابن ابي الضياف ،اتحاف، ج ٣ ، ص ٩٣ .

٥- لوغران ،دراسة تاريخية لتونس ،ص ٤٢ .

٦- انظر ادناه ،ص ٤٣٨ - ٤٥٨ .

الطلب الخارجي ، يجد الاسواق المتلهفة على الحصول عليه . يذكر القنصل البريطاني في احدى رسائله الهامة (سنة ١٧٩٢) ما معناه "... بسبب التصدير الى الخارج على يد التجار الاجانب ، ازدهرت البلاد التونسية اقتصاديا . لقد عم الناس حماس شديد ، بل لهفة عارمة على تعميم زراعة الحبوب على مختلف انواعها ، وكذلك الزيتون . وذلك لما لهذه المنتوجات من ارباح طائلة بسبب ازدياد الطلب الخارجي المستمر ، بسبب تضاعف الكميات المصدرة سنة بعد سنة ." ثم يذكر القنصل بعض الاحصاءات المتعلقة بعدد السفن التي ارست في موانيء تونس سنة ١٧٩١ لنقل الحبوب بقوله : "... فرنسا استعملت ٣٠٨ سفن تجارية ... اسبانيا استعملت ٦٤ سفينة ... وهو امر عظيم جدا اذا قورن بان هذا البلد ، قبل ١٤ سنة مات اهله جوعا ."(١) وفي السنة التالية ذكر القنصل ذاته ان "... السواحل التونسية من مدينة صفاقس الى مدينة عنابة جميعها اهراءات قمح لمدينتي مرسيليا وتولون ...".(٢)

في سنة ١٨٠٢ ذكر ماجرا ان كميات القمح المنتجة في تونس لا يمكن لاحد ان يعرفها ، حتى الباى ذاته ، وكذلك لا احد يعرف مقدار الكميات المبيعة منه في الخارج . ويرجع القنصل السبب في ذلك الى ضخامة الكميات غير المحدودة من الحبوب ، سواء منها المنتجة او الموسقة .(٣) وبعد ذلك يصف الصعوبات الجمة التي كانت تعترضه ليؤمن لبلاده الكمية المطلوبة من تونس من

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ١٦ ، فيفرى/ شباط ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ٨ ، افريل/ نيسان ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- تقرير من القنصل الى حكومته ، تونس ٣٠ ، سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

الحبوب بسبب شدة طلب اوروبا للمواد الغذائية • ثم يؤكد ان الحمولات التي تحصل عليها يرجع الفضل في حجزها الى "••• اخلاق الباى حمودة باشا الحميدة" ، هذا مع ملاحظة ان النوع الممتاز من القمح لا يباع الى الخارج •[١]

وقد عدد فرانك انواع المواد الزراعية التي تباع الى الخارج من تونس وهي متنوعه ، ويؤكد في ذلك على اهمية الحبوب بجميع انواعها وزيت الزيتون والتمور •[٢] ويذكر دوفواز بعد وفاة حمودة بحوالي ثلاثة اشهر ان تونس تبيع زيت الزيتون والحبوب الى مصر والى جميع البلدان الاوروبية •[٣]

(د) اصدار قوانين جديدة لوضع حد للفوضى التي كانت سائدة في مجال الضرائب والاداءات الموظفة على الزراعة

ذكرنا سابقا ان حمودة باشا لما تولى العرش طلب من وزرائه ايجاد طريقة اصلح من تلك التي سلكها ابوه فيما يتعلق بالجباية •[٤] وبعد مدة قصيرة عاد فذكر الباى وزراءه بطلبه قائلا : " قد طلبت منكم تدبيرا في شأن الجباية يناسب الوقت والحال ، وانا انتظره منكم •"[٥]

كانت ولاية العمال [القياد] قبل عهد حمودة باشا تتم بتعيين من الباى ، وكانت خطة العامل تشمل " قود طاعة الرعية ، وخلاصة اموال الجباية" • وكان هذا التعيين يتم بدون اداء اي شيء مالي ، لا للباى ولا لغيره ، لا ظاهرا ولا خفيا •

١ـ المصدر والوثيقة ذاتهما •

٢ـ وصف البلاد التونسية ، ص ٥٥ •

٣ـ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ •

٤ـ انظر اعلاه ، ص ٢٦٧ •

٥ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٦ •

وكان العامل يستخلص من اهل عمله العشر من مداخيل الزراعة وهو ما كان يسمى " بالخلاص" ،[١] وكذلك الزكاة الشرعية المرتبة على المواشي .[٢] غير ان العمال كانوا يستعملون طرقا اخرى عديدة لاخذ اموال الناس . من تلك الطرق ما كان يسمى " بالضيفة " وما كان يسمى " بالوهبة " .[٣] وكان البايات لا يرون حرجا في اعمال القياد تلك ، وهو الامر الذى يقول فيه صاحب الاتحاف : " ... والملوك يغضون الطرف عن ذلك ، لا سيما اذا لم ترفع لهم الشكاية ، لما يأخذونه من العمال عند الحاجة ... " .[٤] ثم يضيف قائلا " ... ولا شك ان ما يؤخذ منهم [من العمال] نزر يسير بالنسبة لما يتاثلونه من اموال الرعايا ، فتجدهم لاجل ذلك يتقربون لرجال الدولة ، ويستميلونهم بالهدايا ، فيذكر كل واحد [من رجال الدولة] صاحبه من العمال بالنجابة والامانة . " .[٥]

لما تولى حمودة باشا واراد تغيير ذلك الترتيب الجبائي ، استقر رأيه على تطبيق نظام جديد اقترحه وزيره وكاتبه حمودة بن عبد العزيز . وهو نظام يقتضي تولية العمال على مشارطة مالية ، على ان تكون وراء سيرة العمال في اعمالهم مراقبة من الدولة .[٦] وعلى الرغم من ان الوزير الاول مصطفى خوجة استنكر ذلك التنظيم[٧] وقاومه فقد نفذ ، واصبح لا يتولى عامل الا على يد يوسف صاحب الطابع ، وهو الرجل الذى اوكلت له مهمة ادارة شؤون العمال بعد هذا التغيير .[٨]

١ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥ .

٢ـ P. Bernard , Les anciens impots de l'Afrique du Nord , Paris , Saint-Raphael et Paris , 1925 , p. 15.

٣ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٥ ، وانظر مدلول هذين الاصطلاحين بالمصدر والصفحة ذاتهما .

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥ ـ ١٦ .

٥ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٦ .

٦ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٧ـ انظر اعلاه ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

٨ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

وبهذا الترتيب الجديد اصبح للدولة مدخول جديد كان يطلق عليه اسم "الاتفاق"، وهو مجموع ما يدفعه العمال لصاحب الطابع سرا ، ويقدرها صاحب الاتحاف بكونها كانت اموالا عظيمة . غير ان المؤرخ يعلق على هذا "الاتفاق" بانه "... وان كان جسرا لظلم الرعية ، الا انه مشروط عادة وعرفا بحد معلوم وهو ضجيج اكثر الرعية ..."[1] ويقدر فرانك ما كانت تجنيه الدولة من "الاتفاق" بانه كان يفوق ما تجمعه الدولة من جباية الاعشار "الخلاص".[2] وقد بقي العمل بهذا التنظم في جمع الجباية وتولية العمال حتى سنة ١٨٥٥ ،عندما وقع سن قانون جديد اخر للجباية.[3]

بجانب هذا الاجراء الادارى كان حمودة باشا لا يتأخر في رد ظلم العشارين للاهالي عند استيفاء "الخلاص".[4] وكان يخفف من الجباية على العربان ، بل "ربما يسقطها في سنين الجدب".[5] هذا وكان ايضا ،جريا على ما سنه ابوه وجده ، يسمح للمزارعين الذين كان يظلمهم ملتزموا مزارع الدولة وذلك بالاستيلاء على اطراف اراضيهم "بدعوى انها للدولة"، يسمح لهم باقامة الدعاوى على الدولة . فصار المتضررون "يطلبون وكيله [وكيل حمودة باشا] ويحاكمونه وينتصفون منه ، وهو [الباى] ينظر ، مسلما غير متحرج".[6]

١ــ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص١٧ .

٢ــ وصف البلاد التونسية ،ص٦٦ .

٣ــ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص١٩ .

٤ــ انظر امثلة على ذلك بالمصدر ذاته ،ج ٣ ،ص٧٩ ــ ٨٠ ،ج ٧ ،ص٣٦ .

٥ــ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص٨٦ .

٦ــ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص٨٧ .

٢ • في المجال الصناعي

(أ) حثه على تشجيع الصناعات المحلية

عندما ارتقى حمودة باشا عرش تونس حرص على تشجيع الصناعات التونسية ، والح في ذلك حتى صار ذلك الحرص جانبا من جوانب سياسته الاقتصادية • وقد تبينت سياسته في تشجيع الصناعات التونسية في مظاهر مختلفة • من تلك المظاهر ان حمودة باشا ،جريا على سيرة البايات قبله ،لبس الطيلسان الكشمير المستورد من الخارج[1] ولم تمض مدة طويلة حتى " رأى الباى ان جميع رجال دولته [يلبسون] مثله "،[2] بل رأى كثرة رواج ذلك النوع من اللباس في الاهالي ايضا •[3] عند ذلك " تيقن " الباى المضار التي تحصل للصناعة المحلية نتيجة تفضيله لغيرها • و"••• فطن لكساد صناعة البلاد ورواج السلع الخارجية•••".[4] وما ان حل العيد حتى وجد حمودة باشا الفرصة مناسبة لايقاف تلك العادة المخربة ، وقبل تلقى وفود المهنئين من اكابر رجالات الدولة والاعيان لبس طيلسانا من صنع جربة وألبس رئيس الكتبة مثله ايضا • وخرجا بذلك اللباس لتلقي وفود التهنئة ولصلاة العيد •[5] بعد ان يذكر بيرم تلك الواقعة يضيف قائلا : "••• وكان

١- السنوسي ،مسامرات الظريف ،ج ١ ،ص ٣٧ - ٣٨ •

٢- المصدر والصفحات ذاتها •

٣- بيرم ،صفوة ،ج ٢ ،ص ٤ •

٤- السنوسي ،مسامرات الظريف ،ج ١ ،ص ٣٧ - ٣٨ •

٥- بيرم ،صفوة ،ج ٢ ،ص ٤ ، السنوسي ،مسامرات الظريف ،ج ١ ،ص ٣٧-٣٨ •

في اثناء اقبال الاعيان على هنائه يلتفت الى رئيس الكتبة ويقول جهرة نعم الشال .[١] هذا صنع بلادنا فما لنا ولاضاعة اموالنا خارجها . والاعيان يسمعون وهم لابسون للشال الكشميرى فودوا ان لم يكونوا لبسوه من الخجل حتى ان من سمع منهم قبل الدخول عليه ازالة واستعار من غيره الشال الجربي وانكفوا من ذلك التاريخ عن الكشميرى وله [لحمودة] وقائع عديدة مثل هاته وهو في الحقيقة اعقل فروع ذلك البيت [الحسيني] ..." .[٢]

يذكر ابن ابي الضياف عدة وقائع تتعلق بسياسة حمودة باشا في هذا الباب[٣] وهو الذى يصف حمودة باشا بقوله :

" وله في حب الوطن ، وهداية اهله الى طرق النجاح آثار مشهورة ، منها انه لا يتباهى الا بعمل البلاد ، من لبس نسجها شعارا ودثارا ، كنسج سوسة والجمامات والجريد وجربة ، وما يصنع بالحاضرة من نسج الحرير الصرف والمختلط ."[٤] بعد ذلك يعلمنا صاحب الاتحاف نجاح خطة الباى في جعل الناس يلبسون مصنوعات تونس ، بقوله ان الناس لم يلبثوا ان اقتفوا اثر الباى في ذلك " والناس على دين اميرهم ...".[٥]

١ـ الشال هو ذاته الطيلسان ؛ بيرم ، صفوة ،ج ٢ ،ص ٤ .
٢ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ،ص ٤ـ٥ .
٣ـ انظر اتحاف، ج ٣ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
٤ـ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٧٧ .
٥ـ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٨٨ .

بجانب هذا المظهر اتخذ تشجيع حمودة باشا للصناعات المحلية مظاهر اخرى منها انه حصر الهدايا التي تقدم له في المناسبات ، سواء كانت تلك الهدايا من المسؤولين — او من سكان المدن والقرى والقبائل — حصر تلك الهدايا في المصنوعات المحلية التي ينتجونها ،خاصة المنسوجة منها .[1] وكذلك من مظاهر تشجيع الباى للصناعات المحلية ان الهدايا التي كان يبعث بها الى الدولة العثمانية والى بعض الدول الاوروبية كانت تتكون في معظمها من المنتوجات الصناعية التونسية .[2] هذا ومن تلك المظاهر ايضا عمل حمودة باشا على توفير المواد الخام والاولية التي تحتاجها الصناعات التونسية في صناعاتها . وقد كان الباى يحقق ذلك عن طريق المعاهدات التجارية مع بعض الدول الاوروبية . ويتمثل ذلك خاصة في استيراد الصوف الرفيع من اسبانيا لصناعة الشاشية .[3] ويضيف زمرلي الى هذه المظاهر المشجعة من قبل الباى للصناعات التونسية حمايته لتلك الصناعات المحلية وتقويتها من جهة ،ومن جهة ثانية ايجاد الاسواق الخارجية لها بفضل صداقاته ومعاهداته مع الدول .[4]

والى جانب تلك السياسة المشجعة للتصنيع من قبل الباى ،هناك بعض اسباب اخرى ساعدت في تنفيذ تلك السياسة وانجاحها . ومن هذه الاسباب كما يذكر

١— انظر اللوائح المبينة للهدايا التي تسلمها حمودة باشا من الاهالي من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨٠٥ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ،دفتر رقم ٢٦٩، ص ٣٢ .

٢— انظر المصدر ذاته ،دفتر رقم ٣٤٨ ،ص٦ .

٣— رسالة من القنصل ج . تريل الى حكومته ،تونس ، ١٤ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤— " يوسف صاحب الطابع" ، المجلة التونسية ،عدد ٢١ (١٩٣٥) ،ص٤٦ .

Atger ، وجود الاندلسيين المتقدمين بثقافتهم وصناعتهم ومهارتهم في تونس.[١] ومنها ايضا ، كما يذكر الزمرلي ، الدور التشجيعي الذى لعبه يوسف صاحب الطابع في هذا المجال ، وخاصة دوره في تشجيع اهل الحرف الذين لهم صناعات صغيرة محلية .[٢] واخيرا نذكر تلميح فرانك الى نشاط الرقيق الاوروبي في تونس بالنسبة للصناعات اليدوية البسيطة في ذلك التاريخ .[٣]

(ب) أهم الصناعات التي ازدهرت في ذلك العهد

الصناعات التي ازدهرت في تونس ، في العهد الذى ندرسه متعددة ومتنوعة سنتحدث على اهمها فيما بعد . غير اننا لا ندرى الى اى حد كان هذا الازدهار مرجعه عهد حمودة باشا . وهذا لاننا لا نستطيع مقارنتها بما قبلها وبعدها ، لان المعلومات ، في اغلب هذه الصناعات ، لا توفر لنا ذلك . من تلك الصناعات المزدهرة صناعة الخزف والسجاد .[٤] والجلد والصناعات المكونة من الجلد وصناعة الحلفاء .[٥] وجميع هذه الصناعات كانت تصدر منها الى الخارج كميات كبيرة تدر على البلاد التونسية اموالا طائلة .[٦]

١— A. Atger, Les corporations tunisiennes , Paris , Arthur Rosseau, 1909 , p.19 .

٢— زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٦ .

٣— فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٢٩ .

٤— تقرير غفل ، تونس ، ١٧٩٤ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ١٩٤ — ١٩٦ .

٥— كانور وغرانشان ، " الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٨ . والحلفاء نبات تضع من الحصر وغيرها . وحديثا صار يصنع منه الورق الجيد ؛ انظر تعريفا لهذا النبات بـ دوزى ، قاموس ، مادة " حلفاء وحلفة ".

٦— كانور وغرانشان " الاب كاروني " المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٨ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٧٦ .

أما اهم تلك الصناعات واكثرها ازدهارا في عهد حمودة باشا فهي :

(أ) صناعة الشـاشية : كانت هذه الصناعة موجودة في تونس منذ حكم الحفصيين ولكنها كانت ضعيفة ،غير ان في عهد عثمان داى (حـ١٥٩٨ـ١٦١٠) ، لما قدم اللاجئون الاندلسيون الى تونس ، اعانهم عثمان على صناعة الشـاشية ، فزادت صناعتها وكثرت ثروة البلاد بسببها .[١] في سنة ١٧٢٤ يذكر الرحالـة بيسونال ان عدد الاهالي الذين يعملون في هذه الصناعة اكثر من خمسة عشر الف نسمة .[٢] واستمرت صناعة الشاشية في الازدهار وزيادة الاتقان ، حسب ما وصفها شاهد عيان سنة ١٧٧٦ .[٣] ولما تولى حمودة باشا الحكم اهتم ،كما يذكر ماجرا بهذه الصناعة واولاها عناية خاصة ،وزاد في تشجيعها وتمويلهـا وحمايتها . والذى حمس حمودة باشا على كل ذلك هو اسعار تلك الطرابيش المغرية والمتزايدة كل سنة ؛ هذا بالاضافة الى اسواقها المنتشرة في اكثر بلدان الاسلام .[٤] وقد بلغ اهتمام حمودة بهذه الصناعة حدا جعله يعقد معاهدة صلح من اسبانيا لتأمين الصوف الممتاز لتلك الصناعة .[٥]

١ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٢ ،ص ٣١ .

٢ـ رحلة ،ج١ ،ص ٧٦ ـ ٧٧ . " بقلم ضابط روسي "

٣ـ كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا " ،المجلة الافريقية ،ج ٩٥(١٩٥١) ،ص١٣٨ .

٤ـ تقرير من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٤ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٧٧/٥ ؛ انظر وصف ازدهار تلك الصناعة والثروات التي تدرها على تونس بـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ،ص ٨٤ ؛مجيل ،رحلة ، ص ١٧٠ .

٥ـ انظر اعلاه ،ص ٢٨٤ ؛ انظر تفصيلات هامة تتعلق بهذه الصناعة بـ
M. V. Fleury , " Les industries indigenes de la Regence", R.T., no. 10 (1896), p. 175.

ومما يدل على اهمية الشـواشين في عهـد حمودة باشا مركزهم الاجتماعـي وعلو الخطط التي كانت تسند لرجال تلك الصناعة ،[1] وكذلك الادارة المكلفـــة بضبط شؤون صناعة الشـواشي وبيعها في الداخل والخارج .[2]

وفي أواخر عهـد حمودة ظهـرت بداية علامات كساد تلك الصناعة الهامـــة التي كانت في اول عهـده ، تعتبر اكبر مورد لتونس في تجارتها الخارجية .[3] وقد أورد القناصل والرحالة والمؤرخون اسبابا عديدة لتقهـقر تلك الصناعة . اول هؤلاء القنصل ماجرا الذى يرجع التقهـقر الى الاوبئة التي افنت ثلاثة ارباع الاختصاصيين العاملين في ذلك الميدان ، ثم تأسيس فرنسا لمصنعين حديثين للشاشية بها .[4] ثم يذكر القنصل قلة جودة الشاشية الفرنسية بالنسبة للتونسية ، الا انها ضاربـت على الصناعة التونسية وغزت اسواقها .[5] اما طبيب الباى فرانك فانه يعزو ذلك التقهـقر الى احتكار الوزير يوسف صاحب الطابع لجلب الصوف من الخارج وبيعـه في الداخل ، وهو أمر نتج عنه فساد صناعة الشاشية وبالتالي ركود بيعها فـي الخارج .[6] اما الرحالة مجيل الذى اكد اهمية تلك الصناعة بالنسبة لاقتصـاد

١- انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٦ - ٣٧ ، ج ٧ ، ص ٢٠ ، ١٢٤ ، ج ٨ ، ص ٢٥ .

٢- خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٢١ ، ص ٦ .

٣- رسالة تريل المذكورة اعلاه ذاتها .

٤- اول مصنع للشاشية بفرنسا انشيء بمدينة مرسيليا ، الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ - ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٦ .

٥- تقرير من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٥ . ويذكر القنصل ايضا ان رئيس مصنع الشاشية بفرنسا ومديره هو يهودى تونسي ، كان تعلم تلك الصناعة واتقنها قبل ان ينتقل الى فرنسا .

٦- وصف البلاد التونسـية ، ص ٨٤ .

تونس ككل ، والذى ذكر ان عدد العمال العاملين فيها كان يزيد عن الخمسين الف ؛ فيرجع عامل تقهقرها الى المصنع الذى اقامته فرنسا ، والى مصنع اخر مماثل انشيء بنجاح في مدينة ليغورنة الايطالية .[1] الاب رينال يرجع السبب الى مصنع مرسيليا ومصنع ليغورنة كما ذكر مجيل غير انه يضيف ذكر مصنعين اخرين لنفس الصناعة احدهما شيد في مدينة اوليان (Orleans) والثاني بمدينة جنوة .[2] بالنسبة لابن ابي الضياف لم يذكر اى تقهقر لتلك الصناعة قبل حلول سنة ١٨٢٨ ، وهي السنة التي عزل فيها محمد العروسي الاندلسي الذى كان متوليا لخطة " امين التجار والشواشية ".[3] اما بيرم فيرجع السبب الى المصانع الحديثة التي انشئت في اوروبا وما احدثته من هبوط في الاسعار ، وكذلك الى عدم ادخال اى تجديد في المصانع التونسية والاتها القديمة . فكانت النتيجة كما يقول بيرم ، ضعف في الانتاج مع غلاء في التكاليف .[4]

(٢) صناعة النسيج

سبق وذكرنا ، عند بحثنا لحث حمودة باشا وتشجيعه للصناعات المحلية ، كيف اهتم حمودة باشا بترويج لبس المنسوجات التونسية ، وما نتج عن تلك السياسة من تخلي المسوءولين والاهالي عن شراء المنسوجات المستوردة .[5] وعندما زار الرحالة ديفونتان العاصمة التونسية سنة ١٧٨٣ وجد صناعة النسيج تنحصر في الاصناف التالية:

١- رحلة ، ص ١٦٩ - ١٧٢ ، انظر ايضا ص ١٣٩ - ١٤٠ .

٢- " تقرير " المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٦ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

٤- صفوة ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

٥- انظر اعلاه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

نسج الكتان ، ونسج الحرير والصوف .[١] وبعد ذلك التاريخ بسنتين (١٧٨٥) يصف الرحالة المجهول الرواج الذى اتخذته تلك الصناعة بقوله : " تونس [العاصمة] ملأى بالصناع ، يصنعون الاجواخ الحسنة جدا والبالغة الدقة والنعومة . . . ".[٢]
في السنة ذاتها يذكر بوارى انه رأى عدة رجال في تونس يلبسون ثيابا صوفية " . . . بلغت من اتقان الصنع ونصاعة بياضها ما يجعل المشاهد يحسبها ، في اول وهلة ، نسيجا قطنيا (Mousseline) جيد الصنع . . . ".[٣]
بعد تسع سنوات من زيارة الرحالين السابقين قدم تقرير من تونس الى الحكومة الفرنسية حول الهدايا التي يمكن ان تقدم الى حكام شمال افريقيا . وقد وردت معلومات هامة بين صفحات التقرير تصف مقدار تقدم صناعة الاقمشة على اختلاف انواعها في تونس ، وخاصة منها الاجواخ المذهبة ، وغيرها من الاجواخ المزركشة والمتنوعة .[٤]
ولم تفت فرانك ملاحظة ذلك الازدهار الذى دخل على صناعة النسيج التونسي ، فقد ذكر ان مصانع النسيج هي منتشرة في اغلب احياء تونس العاصمة . وهي مشاغل تنتج منسوجات صوفية متقنة وبعضها شفوف (des gazes) ، وكذلك المنسوجات الحريرية .[٥]

١ـ رحلة ، ج ٢ ، ص ١٥ ـ ١٦ .
٢ـ رحلة عبر شمال افريقيا ، ص ١٥١ .
٣ـ رحلة ، ص ٣٢ .
٤ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٧٩٤ ، خيزنة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .
٥ـ وصف البلاد التونسية ، ص ١٠٠ .

لم تقتصر تلك الصناعة على مدينة تونس ، بل ازدهرت في مراكز عديدة اخرى من البلاد ، من اهم تلك المراكز جزيرة جربة • وهي المكان الذى تصنع فيه الشالات الممتازة ، بل ادق شالات شمال افريقيا واتقنها •[١] وبجانب الشالات كانت جزيرة جربة تصنع الكثير من المنسوجات الصوفية الفاخرة والشهيرة من اهمها البرانس والبطانيات و" الفراشيات والوُزَر " •[٢] وقد درت تلك الصناعات على الجزيرة من الارباح ما جعلها ، كما يصفها الاب رينال ، " تتمتع بارفع مستوى معيشة في افريقيا جميعها ••• "•[٣] وبجانب جزيرة جربة اشتهرت منطقة مدينة توزر بمصانع المنسوجات الصوفية المتقنة الصنع •[٤]

(٣) صناعة الحلي

بجانب الصناعات السابقة ازدهرت في عهد حمودة باشا صناعة الحلي ، وقد اكد تقرير سنة ١٧٩٤ المرفوع للحكومة الفرنسية ازدهار تلك الصناعة في تونس وخاصة منها ترصيع المصوغ بحجر الالماس الكبير الحجم •[٥] غير ان صناعة الحلي من معدن الفضة كان معظمه في يد التجار والصناع اليهود ، سواء في العاصمة أو خارجها •[٦] وقد اشتهرت في تلك الفترة عدة مصنوعات مطروزة بالذهب

١ـ تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٢٦ ماى/ ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ •

٢ـ مجيل رحلة ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ •

٣ـ " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ •

٤ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٨ •

٥ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٧٩٤ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ١٩٤ •

٦ـ ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ٨ـ٩ •

والفضة ، من ذلك محافظ الجيب ، والسوق (bottes) ، والسروج ، وبيـــوت الفشــك (جبخانة) ، والحميلات ، والاغماد والاقربة ، والطبنجات وغيرها .(١) هذا وقد اورد ابن ابي الضياف ذكرا لسكين " مرصع الغمد والقبضة " كان صنــع بتونس خصيصا لحمودة باشا .(٢)

(٤) صناعــة العطـــور

كانت الاشـجار المزهرة في البلاد التونسية كثيرة وممتازة الانواع الـــى حد جعل الاب رينال يرشح معظمها بكونها اجمل ما يوجد في العالم . واختص بالذكر منها شجر البرتقال والورد . وكان التونسيون قد استطاعوا الحصول علـــى زهرة برتقال قوة اريجها يفوق اريج زهور مالطة الشهيرة . اما الورود التونســـية فقد اعطت " ماء ورد " وعطرا ، لا يقلان جودة الا بمقدار يسير عن تلك التـي توجد في بلاد الهند الغالية الثمن . وقد حول التونسيون تلك المتع العطرية الى امكانات تجارية ومصالح اقتصادية .(٣) ويؤكد الاب رينال على ان عطـــور الورد كانت اهم انواع العطور التونسية المصدرة الى الخارج بكميات كبيـــرة .(٤) ولجودة تلك العطور وقيمتها التجارية في الخارج خصص لها الطبيب فرانك فـــي كتابه صفحتين لوصفها والتعريف بصناعتها وتعداد اسواقها الاجنبية وذكر اسعارها المربحة .(٥)

١ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٥ .

٢ـ اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

٣ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٥ .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ٤٨ ـ ١٣٥ .

٥ـ وصف البلاد التونسية ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ، وفيما يتعلق باسعار تلك الصناعة الرائجة في الاســواق الخارجية انظر ايضا مجيل ، رحلة ، ص ١٦٣ .

٣ . في المجال التجـــارى

(أ) ســـياسة حمودة باشا التجارية في الداخـــل

اهتمامه بتنشـــيط التجارة في الداخل

من مظاهر سياسة حمودة باشا في الداخل تنشيطه للتجارة في داخل بلاده . وقد اتخذت تلك السـياسة مظاهر عديدة نتج عنها انتعاش تجارى في الداخـل والخارج على حد سواء .(١) وهو الباى ، صاحب هذه السـياسة ، الذى يصـف صاحب الاتحاف عهده بقوله : " واقبلت الناس في دولته على الفلاحة والمتاجـــر والصناعات ، وكثر العمران ، ونمت الاموال ، وظهرت الثروة ." (٢)

ومن مظاهر ذلك التنشيط الاجراء الذى اتخذه جمودة باشا يمنع به التجـار الاجانب من ابتياع المحصولات الزراعية ، برسم وسقها للخارج ، من المزارعين مباشرة ، بل يجب ان يتم ذلك بواسطة تجار تونسيين . وقد اتخذ الباى هذا التدبيـــر لسببين هما ضمان ربح للتجار المحليين على كل صفقة من ناحية ، ومن ناحية ثانيـة حماية الفلاح من الغبن الذى كان يحصل له عندما يبيع كل محصوله أو جزءا منه قبل وقت الحصاد باثمان بخسة .(٣) ولئن كان التجار اليهود القاطنون بتونـــس معتبرين تونسيين وتمتعوا بقسط وافر من فوائد ذلك الامر العلي ، حيث كانت لهم

١- تقرير من ماجرا الى حكومته ، بليرم ، ٣٠ سبتمبر/ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ فيما يتعلق بسياسة حمودة باشا في ميدان التجارة الخارجية انظر ادناه ، ص ٢٩٤-٢٩٦ .

٢- ابن ابي الضياف ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

٣- تقرير ماجرا المذكور اعلاه ذاته ؛ انظر امثلة للغبن الذى كان يحصل للفلاح من جراء بيعه لمحصوله في الشتاء ، حيث يذكر القنصل ان خسارة الفلاح لم تكن لتقل عن ١٨ ٪ من سعر المنتوج لو بيع بعد حصاده ؛ من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٠ افريل / نيسان ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

امتيازات خاصة في الاتجار مع الخارج كما سياتي[1] فان حظهم في التجارة من الداخل كان محدودا . فقد وجدت وثيقة في خزينة وثائق الدولة التونسية ، وهي عبارة عن امر اصدره حمودة باشا مؤرخ بشهر ربيع الثاني من سنة ١٢٠٣ـ ديسمير/ كانون الاول ١٧٨٨ ، يتعلق بتحديد البضاعة التي يسمح لليهود الاتجار فيها في الداخل . وهي كما وردت في الاصل : " ... جميع ما يكال بالذراع ويوزن بالميزان من حرير وغيره ولا يتجاوزون لبيع غيره مما هو مخيط... فها نحن حكمنا لهم بمقتضى ذاك من غير زيادة ولا نقصان حكما تاما عليه العمل ان شاء الله والسلام من الفقير الى ربه حمودة باشا باى وفقه الله."[2]

إلى جانب ذلك نشط الباى التجارة الداخلية التي تتم عن طريق القوافل التجارية التي كانت عاملة في البلاد جنوبا وشمالا . وكان لها فضل في ترويج البضاعة وتنشيط التجارة .[3] وكذلك بنى " قنطرة طريق بنزرت " التي ربطت اخصب جهة تزرع فيها الحبوب بشمال تونس بالعاصمة ، وهي القنطرة التي استغرق بناؤها ما يزيد عن الخمس عشرة سنة ، وتمت سنة ١٨٠٠ بعد ان صرف الباى على اقامتها اموالا كثيرة .[4] ومن مظاهر اهتمام حمودة باشا بتنشيط التجارة الداخلية بناؤه لسوق تجارية بتونس هي من احسن اسواق العاصمة ضخامة وموقعا ان لم تكن احسنها جميعا .[5]

١ـ انظر ادناه ، ٣٠٠ .
٢ـ ملف رقم ٣ ، كرتون رقم ١ .
٣ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٢٣ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٦٨ .
٤ـ انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٢١ ، ص ٢ـ٥ .
٥ـ مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ج ٢ ، ص ١٦٨ ؛ باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٣٠ ؛ زبيس ، آثار الدولة الحسينية ، ص ٣٨ .

وقبل أن ننهي حديثنا عن اهتمام حمودة باشا بالتجارة الداخليـة يجـب ان نشير الى ان الوزير يوسف صاحب الطابع كانت له هو الاخر مآثرة في هذا الباب • يذكر ابن ابي الضياف ذلك بقوله : " وله عند الكثير من اعيان المملكة والحاضرة اموال لها بال على وجه القراض ، يتجرون بها معتمدين جاهـه ، حتى ان الفقير القادر على عمل التجارة اذا استقرضه راس مال يهش لذلك ، ولا يتوقف ، ولا ياخذ الا ثلث الفائدة من اموال قراضه ، ترغيبا للناس فـي العمل ، وفي الاخذ من عنده ، ويقول : " القليل في الكثير كثير ". "(١)

(ب) سـيـاسـته التجاريـة من الخـارج

(١) تشـجيعه التونسيين على تولي شوءون التجارة الخارجية

كان غالب التونسيين في اول عهد حمودة باشا لا يهتمون بالاشتغال بالتجارة الخارجية ، بل كان همهم منصبا على العمل في حقل الزراعة •(٢) ليس هذا فقط بل كانوا ، كما يذكر القنصل البريطاني ، يكنون حقدا متأصلا للتجـار الاوروبيين العاملين في ذلك الحقل في بلادهم • وسبب ذلك هو اعتقادهـم " ان اولائك التجار الاجانب كانوا السـبب في تفقير البلاد وما هم الا سراقا"، وهو شعور منتشر في كامل البلاد التونسية • وان الناشئة من التونسيين ، نتيجة تكرار سماعهم لمثل تلك الاقوال ، يصيرون هم ايضا يعتقدونها صحيحة • ويمضـي القنصل قائلا " ••• ان الاهالي لا يقدرون معنى التجارة الخارجية واثرها فـي ازدياد ثروة البلاد مرات عديدة كما حصل فعلا في تونس •••".(٣)

١ــ اتحاف ، ج ٧ ، ص ٩٦ ــ ٩٧ •

٢ــ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٩٦ •

٣ــ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

غير اننا نلاحظ فيما تلا من عهد حمودة باشا ان عناية التجار التونسيين بالتجارة الخارجية تبدل تماما ،وان كنا لا نملك معلومات كثيرة عن الطريقة التي اتخذها الباى وكبار رجاله لتحبيب المواطنين الاشتغال في هذا الميدان . ويمكننا ان نقرر ايضا ان ذلك تم بعدة طرق . احد هذه الطرق هو اعطاء الباى رخص تصدير الحبوب او الزيت لبعض التونسيين ، وهؤلاء يبيعونها بدورهم "... لغير اهل المملكة من التجار ..." فيحصل ربح للتجار التونسيين من تلك العملية .[1] الطريق الثاني هو اعفاء " اهل المملكة " من دفع الضريبة المقررة على تصدير الحبوب والزيت من تونس" ... وانما يدفع السراح غير اهل المملكة من التجار..."[2] الطريق الثالث ، كما يذكر قنصل فرنسا ، هو تخفيض الباى لمعلوم الجمرك على التجار التونسيين فيما يتعلق بالبضائع التي يستوردونها من فرنسا ، وبعد ان كان ذلك المعلوم ١١٪ اصبح ٥،٥٪ فقط . وذلك في الوقت الذى ارتفعت الرسوم الجمركية التي يدفعها التجار الاجانب ثلاثة اضعاف ما كانت عليه سابقا . ولم يخف قنصل فرنسا استياءه من ذلك الاجراء الذى فسر غايته بكون الباى يريد " ... تكريه الاوروبيين من الاتجار في مملكته ، وحصره في ايدى وزيره وبعض الضباط الاقوياء ."[3]

من تلك الطرق ايضا ، وهو الرابع في تعدادنا ، ما نتج عن الاحتكاك بين التجار الاجانب والتونسيين من تاثير في هذا الباب . فقد ذكر فرانك ان الاوروبيين عامة والفرنسيين خاصة هم الذين فتحوا عيون التونسيين على اهمية

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

٢- المصدر والصفحة ذاتهما .

٣- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨٠٨ ، بلانتي، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ .

الاتجار مع الخارج والارباح الطائلة التي تنجر عنها . ويضيف ان الخبرة التي تكونت للتونسيين من جراء احتكاكهم بالتجار الاوروبيين علمتهم طرق واساليب المهنة ، واصبحوا يقومون بجميع الاجراءات اللازمة لذلك النشاط بانفسهم ، بعد ان كانوا يجهلونها .(١)

كنتيجة لتلك الطرق التشجيعية وللخبرة التي حصلت للتونسيين ،اصبحت تلك التجارة محصورة في غالبها في يد الباى ووزيره وبعض الضباط والتجار الاقوياء . وهم الذين كانوا يسيطرون ، كما يذكر دوفواز ، سنة ١٨٠٨ "...على اكثر من ثلاثة ارباع تجارة تونس [الخارجية] ".(٢) اما فرانك فبعد ان يصف شدة انتشار ظاهرة اهتمام التجار التونسيين بالتجارة الخارجية ، بما فيهم الباى ذاته ووزيره يوسف صاحب الطابع ، يقول " ... ان التونسيين العاملين في هذه المصلحة اصبح عددهم يفوق المائة وخمسين تاجرا كبيرا ...". في حال ان المؤسسات التجارية الفرنسية العشرين التي كانت عاملة في التجارة الخارجية بتونس في اول عهد حمودة باشا صار عددها الان خمسا فقط . وان هذه المؤسسات الخمس الباقية كانت تعمل "... جريا على العادة لا للارباح ." (٣) اما مجيل فيذكران تلك المؤسسات الفرنسية لم يبق منها الا اثنتين فقط ، كلتاهما لاتنجزان من المعاملات التجارية مع الخارج في السنة الكاملة ما كانت تنجزه سابقا احدى المؤسسات في مدة شهر واحد . ويضيف ذلك الرحالة " ان مؤسسات الايطاليين ايضا لم يبق منها في تونس الا مؤسسة واحدة او اثنتين جنويتين ينحصر عملهما

١- وصف البلاد التونسية ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ انظر طريقا آخرا من هذه الطرق ادناه ، ص ٢٩٩ .

٢- رسالة دوفواز المذكورة اعلاه ذاتها .

٣- انظر فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٨٢ - ٨٤ .

في الاتجار بالخمر وبيعه للجاليات وللرقيق الاوروبيين الموجودين بتونس". واخيرا يؤكد ذلك الرحالة على ان سبب ذلك هو تسلم التونسيين ، سواء منهم المسلمين اليهود ، مصلحة الاتجار مع الخارج .(١)

في يوم ١٦ سبتمبر/ ايلول من سنة ١٨١٤ ، اى في اليوم الثاني من موت حمودة باشا ، كتب دوفواز ، وهو في طريقه الى تونس من مدينة تولون الفرنسية وقبل ان يعلم بذلك الحدث المفاجيء ، كتب الى حكومته يحذرها من ان التجارة الخارجية التونسية تهدد بالانتقال برمتها الى ايدى التجار التونسيين . ويرجع القنصل اللوم في ذلك ، بالنسبة لفرنسا ، الى بعض " الممثلين التجاريين الفرنسيين بتونس " ، الذين ما ينفكون بسبب المنافسة بينهم ، يحدثون اضرارا كبيرة لوطنهم بتعليمهم لحمودة باشا ووزرائه ، سواء في المجالات السياسية او التجارية . وهي امور"... مما يهمنا ان نبقيهم جاهلين لها ..." وقبل ان ينهي دوفواز رسالته تلك يذكر بحكمة الترتيب القديم الذى كان يمنع قبل قيام الثورة الفرنسية " كل اتصال بين اى فرنسي وقصر باردو ، دون الحصول على ترخيص مستعجل من القنصل".(٢)

هذا ومن الجدير بالملاحظة ايضا في هذا المجال ان في عهد حمودة باشا ، واثناء تمرس التونسيين بالعمل في التجارة الخارجية ، نجد في الوثائق والمصادر اشارات تدل على عدم اقتصار التجار التونسيين على تصدير الانتاج التونسي الى الخارج او استيراد البضائع الاجنبية من الخارج وهم ببلادهم ؛ بل

١ـ رحلة ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

٢ـ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٥٢٤.

صاروا يؤمون البلدان الاوروبية بانفسهم للاتجار "... وهو امر مستحدث في المملكة التونسية ".[1] وقبل ان يذكر القنصل هذه المعلومة الهامة نجد في خزينة وثائق الدولة التونسية ما يثبت ذلك التطور ويؤكده . فقد ورد في بنود المعاهدة التي عقدت بين تونس واسبانيا سنة ١٧٩١ بندان يتعلقان بموضوعنا هذا . البند العاشر من النص المترجم للعربي للمعاهدة ينص على : "... ويجب على التونسيين المسافرين لبلاد اسبانيا ان يذهبوا راسا الى بورط [ميناء] ماعونة لاجراء القرانطينة ... وبعد ذلك يتوجهوا الى مالقة او البقانية او بارسلونة ويباشروا البيع والشراء..." اما البند الخامس والعشرون فقد ورد فيه :

"... وعندما احد تجار تونس وملحقاتها يريد السفر لبلاد اسبانيا يجب عليه اخذ بصابورط من قنصر [قنصل] اسبانيا المقيم في تونس كما يجب على التونسيين القاصدين اسبانيا والمقيمين في خارج الايالة [البلاد التونسية] في بلاد الاسلام او النصارى اخذ بصابورط من قناصر اسبانيا المقيمة في تلك البلاد ليعرفوا انهم تجار تونس...".[2]

بعد ذلك ، في اواسط ربيع الاول ١٢١٣ - اواخر اوت/ اب ١٧٩٨ ، امر حمودة باشا قنصل فرنسا بتونس ان يعطي " باصبرتا" لاحد التجار التونسيين ليدخل بسفينته لموانيء فرنسا للاتجار ،[3] اما فرانك فيذكر ان تجار تونس في فرنسا كان لهم تاثير على التجارة بين البلدين .[4] وقد كان من هؤلاء التجار ، كما تثبته وثيقة تونسية ، من يتاجر سنة ١٨٠٩ بين مدينة ازمير التركية وبين فرنسا ؛

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ١٦ ، فيفرى/ شباط ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧.

٢- ملف رقم ٧٠٥ ، كرتون ٢٥٤ .

٣- غرانشان ، وثائق تتعلق بالقرصنة التونسية ، ص ٦ .

٤- وصف البلاد التونسية ، ص ٨١ .

وبشان نشاط هذا التاجر طلب قنصل فرنسا بتونس من زميله بازمير اعلامه بكل البضائع والمنتوجات التي يشتريها الحاج ابراهيم المسدى ليرخص له بالدخول الى الموانيء الفرنسية وبيعها.[1]

هذا وقبل الانتقال الى القسم التالي من هذا الفصل يجب ان نشير الى انه من زمن حسين بن علي، اول البايات الحسينية، كان الباى مع بعض عماله (قياده) وكبار تجاره يحتكرون بعض منتوجات البلاد، فيشترون كميات كبيرة جدا منها ويبيعونها فيما بعد " بطريقة غير مباشرة الى البلدان الاسلامية بدون ان يكشفوا عن حالهم علانية ".[2] اما في عهد حمودة باشا فقد اصبح الباى مع وزيره يوسف صاحب الطابع وكبار المقربين اليه يحتكرون العديد من الاصناف الاستهلاكية سواء منها التي تنتج محليا او تستورد من الخارج؛ ويباشرون التجارة الخارجية علانية ومع الدول الاوروبية.[3] وقد خصلت لهؤلاء ثروات طائلة من وراء تعاطيهم لتلك التجارة.[4]

١- رسالة من بيلون الى زميله بازمير M. Fourcade، تونس، ٢٨ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٩، خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم ٨١، كرتون رقم ٢٠٦؛ انظر ادناه ص ٣٢٠-٣٢١ ما يدل على قيام تاجر تونس بنشاط تجارى على طريق البحر مع المغرب الاقصى، وعمل حمودة باشا على حماية مصالح ذلك التاجر وتشجيعه.

٢- بيسونال، رحلة، ج ١، ص ٨٢.

٣- تقرير غفل، تونس، ٢٦ ماى / ايار، ١٨٠١، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب ٣، ٣٠٤٤؛ وانظر ايضا خاصة فيما يتعلق بتجارة يوسف صاحب الطابع وحجمها، رسالة من دوفواز الى حكومته، تونس، ٣٠ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٠، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ٤١٨؛ وفيما يتعلق باحتكارات الباى نفسه انظر مجيل، رحلة، ص ١٨٠ - ١٨١، ١٤٠ - ١٤١.

٤- انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ملف رقم ١٢٧، كرتون ٢٠٨؛ وانظر تقديرات ثروة يوسف صاحب الطابع وطريقة تكوينه لها بابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٧، ص ٩٤، ٩٦.

ومن أبرز من تمتع من التونسيين بامتيازات كبيرة في التجارة التونسية الخارجية ، بعد الباى نفسه ووزيره يوسف صاحب الطابع وبعض الضباط والتجار ، هم اليهود فقد كانت لهم ، كما يذكر قنصل بريطانيا ، شركة غنية جدا اسمها Giornata ساهم في تكوين رأسمالها اربعون يهوديا من اغنى التونسيين في ذلك الوقت . تمكنت تلك الشركة "... من الحصول على حقوق واسعة في شراء الانتاج التونسي وبيعه في الخارج . ومقابل ذلك الامتياز كانت تدفع كل سنة للباى ما قيمته ٢٤٥٠٠٠ ريال تونسي [(١)] او ما يساوى ١٦٣٣٣ جنيه أسترليني . بالاضافة الى ١٧٠٠٠ ريال تونسي تقريبا تقدم بصفة اقمشه وحرير والبسة للقصر...". [(٢)]

١ـ انظر قيمة الريال التونسي ادناه ص ٣١٥ .

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ١٦ فيفرى / شباط ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ بشان هذه الشركة وغناها وقوة نفوذها التجارى وامتيازاتها والمواد التي تصدرها والبضاعة التي تستوردها من الخارج انظر خاصة : ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٠ ؛ تقرير من ماجرا الى حكومته ، بليم ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته تونس ، ٢٠ سبتمبر / ايلول ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ تقرير من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٧ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٩٥ — ٩٦ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٥٨ — ١٥٩ ، ١٧٧ — ١٨١ ؛ الاب رينال ، " تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧١ .

(٢) ســـياسة حمودة باشا التجارية مع اوروبا

أهم الخصائص التي اتصفت بها سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا هي الامور الاتية : اولا ، فتح باب تصدير الحبوب التونسية ، وخاصة القمح ، الــى اوروبا على اوسع امكاناته . وذلك بعد ان كان بيع تلك المنتوجات الى اوروبــا " ممنوعا شعبيا وحكوميا ". [1] وقد تملص حمودة من الحضر المضروب علــى بيع الحبوب الى الخارج " بتستره تحت دعوى ان ذلك الانتاج موجــه للدول الاسلامية بالمشرق ..." وقد كانت فرنسا هي اول الدول التــي استغلت تلك الفرصة الى اقصى حدودها . [2]

الامر الثاني هو ايجاد اسواق واسعة ومتزايدة للانتاج التونسي بتلك القارة ، وقد نجح الباى ، كما يذكر القنصل ذاته ، في ايجاد تلك الاسواق بصفة ، " ليس فقط لم يبلغها والده بل تعدت ما كانت تصدره غير تونس من دول شمال افريقيا ...". [3]

الامر الثالث هو عمل حمودة باشا الدائم على تجنب " الاسباب التــي تنتج انكماشا في هذا المجال ...". [4] ومن اهم انجازات ذلك الباى لتجنب حدوث ذلك الانكماش تحاشيه الدخول في حروب مع الدول الأوروبية بعقــد

١- تقرير من ماجرا الى حكومته ، بليرم ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ ويشير القنصل في نفس الوثيقة الى ان اول من سمح ببيع القمح الى اوروبا بصفة رسمية ولكن بكميات قليلة وفــي فترات متقطعة هو علي باى والد حمودة .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما .

المعاهدات معها ، اولا ،[١] وتقوية اسطول قرصنته[٢] واسطوله الحربي[٣] لصيانة تلك المعاهدات وضمان امن بلاده واسطوله التجارى ثانيا .[٤] هذا بالاضافة الى عمله على زيادة الانتاج الزراعي التونسي ونشر الامن ببلاده .[٥] الانجاز الرابع هو تجنب حمودة باشا التدخل في الخلافات والتكتلات والحروب التي كانت دائرة رحاها بين الدول الاوروبية في عهده ، وقد اكد الباى موقفه ذاك باعلانه " الحياد التام " بين تلك الدول المتناحرة .[٦] الانجاز الخامس هو اعطاء الباى ، كما ذكر في رسالة كتبت سنة ١٧٩٥ ، رخص تصدير المنتوجات التونسية الى جميع الدول الاوروبية ، حتى وان كانت بعض تلك الدول عدوة لتونس مثل جنوة ونابلي ومالطة .[٧] وقد كانت رخص التصدير هذه صالحة للسنة التي تليها ان لم يتم استعمالها في سنة الحصول عليها .[٨] الانجاز السادس هو جعل الريال

١ـ المصدر والوثيقة ذاتهما .

٢ـ انظر اعلاه ، ص ١٥١ ـ ١٦٣ .

٣ـ انظر اعلاه ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٩ .

٤ـ تقرير القنصل ماجرا المذكور اعلاه ذاته بشأن محافظة حمودة باشا على تطبيق نصوص المعاهدات التجارية بدقة بالمذكرة التي بعثتها الحكومة الفرنسية الى مندوبها هيركولي ، باريس ، ١٥ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

٥ـ انظر فالينزى ، " العلاقات التجارية بين تونس ومالطة " ، كراريس تونسية ، ج٤٣ (١٩٦٣) ، ص ٧٣ ، ٨٠ ـ ٨١ .

٦ـ انظر اعلاه ، ص ٣٦٦ ، ٤٣٨ـ٤٣٩ .

٧ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ، رسالة من الحكومة الفرنسية الى F. Beaussier احد موظفي القنصلية الفرنسية بتونس ، باريس ، مارس / اذار ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

٨ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ افيفرى / شباط ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

الاسباني " Piastre d'Espagne " أو الفرنك الفرنسي العملتين المعتمدتين في التعامل التجارى مع الدول الاوروبية غالبا ، وذلك لتحاشي الخلافات في تقدير قيمة العملة .[1] الانجاز السابع هو محافظته على امن التجار الاجانب ببلاده وذلك في ارواحهم واموالهم ،[2] ومن ابرز الامثلة على هذا الامر هو انه لما امرت الدولة العلية حمودة باشا باعلان الحرب على الفرنسيين لما غزا نابليون مصر امتثل الباى للامر و"... قطع الخلطة مع القنسل وارسل سفنه الحربية لاعانة الدولة".[3] غير انه كما يضيف المؤرخ:

" ... تحفظ للغاية على اموال التجار الفرنساويين في بلده ولم يتعرض لسفنهم التجارية حتى قال تجار الفرانسيس اذ ذاك نحن بلا قنسل احسن حالا من وجود القنسل . واعلم الباشا [حمودة] الدولة [العثمانية] بسبب تلك المعاملة وهو كثرة الخلطة التجارية المتقادمة الموجبة لاشتراك مال التونسيين مع مال الفرنسيس فلو تعرض لاموالهم لكان تعرضا لمال التونسيين ايضا . وانتقمت عليه من بعض الجهلاء من الداخل والخارج . وعند وقوع الصلح عرفها نابليون الاول وصارت بينهما مهادات واعتراف بالكمال".[4]

١- تقرير من الحكومة الفرنسية الى مبعوثها بتونس L'Allemand ، ١٨٠٦ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٢- انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٣ ؛ انظر اعلاه ، ص ٢٥٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ .

٣- بيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

٤- المصدر والصفحة ذاتهما .

بشأن علاقات حمودة باشا التجارية مع الدول الغربية يمكننا ان نخص منها فرنسا ،بريطانيا ،اسبانيا ،بعض الدويلات الايطالية ، امريكا،الدانمرك ، السويد ،المانيا .

لما تولى حمودة باشا الحكم كانت فرنسا تتمتع بامتيازات تجارية كبيرة بتونس، ومنها انها وبريطانيا كانتا تتمتعان بتخفيض ضرائبي في الجمرك قيمته ٣٪ مقابل ٥٪ تدفعه بقية الدول الاجنبية .[١] وأهم ما كانت المؤسسات التجارية الفرنسية تصدره الى بلادها من تونس هي الحبوب وخاصة منها القمح .[٢] وكان ذلك كامتياز تجارى تتمتع به الشركة الفرنسية المرسيلية الكبيرة المسماة بالشركة الملكية لافريقيا .[٣] ولما زار ستانلي (١٧٨٤) وبوارى (١٧٨٥) تونس وجدا تلك الشركة مع غيرها من المؤسسات التجارية الفرنسية وسعت تجارتها والمواد المتاجر بها ،[٤] واصبحت تورد لتونس عدة اصناف من السلع خاصة منها الصوف الاسباني لصنع

١- فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص ٨٣ ؛انظر ادناه ،ص ٣٠٩ .

٢- فيما يتعلق بعلاقات تونس التجارية مع فرنسا قبل عهد حمودة باشا انظر اعلاه ، ص ٥٨ - ٥٩ ؛وانظر ايضا خاصة : تقرير غفل ،تونس، سبتمبر/ايلول ، ١٧٤٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ،ص ١٥٥ - ١٥٧ ؛تقرير غفل ،تونس ، ١٧٨٠ ، المصدر ذاته ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ،ص ١٧٦ - ١٨٧ ؛ مجيل ،رحلة ،ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛باسيت،تعريف بتونس،ص ١١٠ .

٣- بوارى ،رحلة ،ص ١٧ - ٢٠ .

٤- المصدر ذاته ،ص ١٨ .

الشاشية والبن ، السكر ، البهارات ، الثياب والكتان . وتصدر من تونس الحبوب والزيت والحرير.[1] ولم تمض ست سنوات على تولية حمودة باشا العرش حتى ازداد التبادل التجاري بين الدولتين زيادة كبيرة وسريعة ، كما يذكر القنصل الفرنسي . ومن اللائحة الموضحة التي بعث بها القنصل الى حكومته يمكننا ان نتبين حجم التجارة التونسية - الفرنسية ونقارنها بتجارة تونس مع الدول الاخرى، وهي لائحة تمثل التبادل التجاري التونسي مع الخارج لسنة ١٧٨٧ :[2]

استيرادات من مرسيليا الى تونس	٥ر٢٣٩ر٦٤٩	ليرة[3]
صادرات من تونس الى مرسيليا	٤ر٦٢٩ر٦٠٣	=
استيرادات من البلدان الاجنبية الاخرى الى تونس	٢ر٠٩٩ر٧٥٠	=
صادرات من تونس الى البلدان الاجنبية الاخرى	٣ر٠٩٥ر٦٦٥	=

١- ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١١ ، ١٥ .

٢- رسالة من دي شاتوناف الى حكومته ، تونس ، جانفي / كانون الثاني ، ١٧٨٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ؛ وقد رد وزير خارجية فرنسا برسالة الى القنصل بتونس يعبر له فيها عن رضا الحكومة الفرنسية بمركز فرنسا التجاري بتونس ، ويحثه على العمل على زيادة مربح فرنسا من ذلك التبادل ؛ رسالة من وزير خارجية فرنسا الى القنصل ذاته ، باريس ، ٢٩ مارس/ اذار ، ١٧٨٨ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

٣- الليرة (livre) : احدى وحدات العملة الفرنسية المستعملة في العهد الذي ندرسه . اما قيمة الليرة بالنسبة للعملة التونسية فقد كانت غير قارة . يذكر هيجون ان في سنة ١٧٧٠ كانت قيمة الريال التونسي تساوي ضعفي قيمة الليرة الفرنسية تقريبا ؛ انظر شعارات بايات تونس ، ص ٢٠ . انظر قيمة الريال التونسي ، ادناه ، ص ٣١٩ تعليق رقم ١ ، وقيمة المحبوب ادناه ، ص ٣٧٦ تعليق رقم ٣ .

في سنة ١٧٩٣ بعث دوفواز الى حكومته لائحة موضحة اخرى تمثل التبادل التجارى بين تونس والخارج لسنة ١٧٩٢ . ويمكننا ان نتبين منها حصة فرنسا الكبيرة من تلك التجارة ، وازدياد صادرات تونس اليها ، وازدياد تجارة الدول الاخرى مع تونس . ورد في اللائحة الموضحة ما يلي[1]:

استيرادات من مرسيليا الى تونس	٥٫٨٧٨٫٠٣١	ليرة
صادرات من تونس الى مرسيليا	٧٫٧٥١٫٣١٨	=
مجموع التجارة الفرنسية	١٣٫٦٢٩٫٣٤٩	=
تجارة الدول الاجنبية الاخرى مع تونس	٦٫٩٨٤٫٠٠٣	=
الميزان التجارى في صالح فرنسا يساوى	٦٫٦٤٥٫٣٤٦	=

غير ان هذا الوضع التجارى الممتاز الذى كانت تتمتع به فرنسا في تجارة تونس الخارجية تدنى كثيرا ، ولصالح غيرها من الدول خاصة بريطانيا كما سيأتي ، بسبب مقتل لويس السادس عشر واعلان الجمهورية بفرنسا . فقد اعتبر حمودة باشا ذلك التغيير في الحكم موجبا لفسخ المعاهدات المعقودة بين البلدين ، وبالتالي تحتم عقد معاهدات جديدة ، وهو امر رفضته فرنسا مدة.[2]

ولما اعلنت القطيعة بين البلدين بسبب تلك الاحداث قلل حمودة باشا من تجارة فرنسا مع تونس ، وهو امر حرم فرنسا من اكبر مورد للحبوب من الخارج.[3] غير ان الباى "الذى لا يقدر الا مصالحه" ، كما يذكر القنصل البريطاني ، بعث بعد حوالي

١ــ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ١٠ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

٢ــ انظر اعلاه ، ص ٢٥١.

٣ــ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ افريل / نيسان ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

أربعة اشهر من قيام الخلاف مع فرنسا بسفينتين من القمح الى تولون . ومن هنا كان القنصل ينصح لدولته " بوجوب احتلال موانيء تونس وتوقيف المدد من الحبوب الى فرنسا . وبذلك يتحقق امران لبريطانيا هما : ازدهار التجارة البريطانية في تونس من ناحية ، ومن ناحية ثانية الحكم بالموت جوعا على الجيوش الفرنسية المحاربة باوروبا ...".(١) هذا ويظهر ان حمودة باشا كان راضيا عن التغيير الذى احدثه في سياسته التجارية مع فرنسا ، فقد بقيت فرنسا تبذل مساعيها لارجاع المياه الى مجاريها مع الباى . وقد بلغ اهتمام فرنسا باصلاح الوضع مع حمودة باشا جدا جعلها تعرض عليه ، كما يقول مجيل ، بناء ميناء تونس الجديد على حسابها ولكن الباى رفض العرض .(٢) في سنة ١٧٩٥ عقدت اتفاقية جديدة مع فرنسا ورجعت مؤسساتها التجارية الى العمل كعادتها غير ان الحكومة الفرنسية كانت تعبر عن استيائها بسبب عدم بلوغ استيراداتها من تونس الى المقادير التي كانت تحصل عليها قبل القطيعة .(٣) وفي سنة ١٨٠١ رغّب التقرير الذى كتب لنابليون عن احتلال تونس " التي خصبها زود جنوب فرنسا دائما ايام القحط بما يحتاجه من موؤن ، وكذلك زوده بالمواد الاولية من اصواف وجلد وزيوت وشمع الخ . لتشغيل مصانعه ...".(٤)

مما تجب ملاحظته هنا هو ان مشروع غزو تونس من قبل فرنسا لم يتم ، وان حمودة باشا لم يتراجع في سياسته التجارية مع فرنسا بعد ان تأثرت بالقطيعة .

١- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رحلة ، ص ٦١ .

٣- تقرير من جيرو الى حكومته ، تونس ، ٧ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .

٤- تقرير غفل ، تونس ، تونس ، ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

غير ان فرنسا لم تياس من السعي حتى انها عرضت على الباى ، في سنة ١٨٠٢ استعدادها للالتزام بشراء كل ما هو برسم البيع للخارج من الحبوب التونسية .(١) وهكذا او منذ تلك السنة توجهت تجارة تونس الخارجية خاصة في الحبوب ، على الرغم من القحط والمجاعات التي تلت ، الى غير فرنسا من الدول ، وقد حصلت بريطانيا منها على نصيب الاسد خاصة منذ سنة ١٨٠٧ عن طريق جزيرة مالطة .(٢) ويرجع مالون سبب تحول التجارة الخارجية التونسية من مرسيليا الى مالطة للحصار الاقتصادى الذى ضرب على فرنسا من قبل بريطانيا .(٣) وما ان حلت سنة ١٨١١ حتى اصبح قنصل فرنسا بتونس يعلم حكومته بانه "... يظهر ان التجارة التونسية - الفرنسية ستتوقف نهائيا في القريب العاجل ... وانه يجب على فرنسا ان تتخذ قرارا عاجلا بارجاع هؤلاء الفرنسيين الى وطنهم الام ."(٤) ومن تلك السنة الى سنة ١٨١٣ ورسائل قنصل فرنسا تكرر الشكوى من سياسة الباى نحو فرنسا ، وكثرة اعداء فرنسا في تونس ، والدعوة الى تأديب الباى بالقوة .(٥)

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، بليرم ، ١٣ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢- انظر تقرير ، من الحكومة الفرنسية الى L'Allemand ، تونس ، ١٨٠٦ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤٥ ؛ مالون ، تاثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٩ ؛ انظر اهمية التبادل التجارى مع مالطة بفالينزى ، "العلاقات التجارية بين تونس ومالطة" ، المجلة التونسية ، عدد ٤٣ (١٩٦٣) ص ٧٣- ٨١ .

٣- مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٩ .

٤- رسالة من بيلون ، تونس ، ١٢ ماى / ايار ، ١٨١١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

٥- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ٢٨ اوت / اب ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠ ؛ القنصل والمصدر ذاته ، ١٥ سبتمبر/ ايلول ١٨١١ ؛ القنصل والمصدر ذاته ، ٢٠ جانفي / كانون الثاني ١٨١٣ .

اما بالنسبة الى بريطانيا فقد كانت تتمتع بنفس التخفيض الضرائبي في الجمرك الذى كانت تتمتع به فرنسا ، وهذه القيمة هي ٣٪ مقابل ٥٪ تدفعها الدول الاجنبية الاخرى.[1] غير ان تجارة تونس مع بريطانيا الى اول عهد حمودة باشا كانت غير ذات اهمية البتة " بل يمكننا ان نقرر ان تونس كانت مجهولة بالنسبة لكثير من البلدان الاوروبية ومنها بريطانيا على الرغم من صداقة الدولتين...".[2] ولما زار الرحالة الانجليزى ستانلي تونس سنة ١٧٨٤ ، تأسف شديد الاسف، مقابل ازدهار تجارة فرنسا الكبير مع تونس ، من انه لا توجد فيتونس " مؤسسة تجارية بريطانية واحدة من اى مستوى كانت ".[3]

غير ان ذلك الوضع بدأ يتغير بسرعة منذ سنة ١٧٨٨ ، وذلك نتيجة تولي سفن وتجار اجانب نقل البضاعة البريطانية تحت العلم البريطاني.[4] ولما حل القنصل ماجرا في مركزه بتونس سنة ١٧٩٠ لم يجد غير تاجر بريطاني واحد.[5] وفي السنة التالية وردت اول اشارة من القنصل يعلم فيها حكومته بان حمودة باشا " يشجعنا على تقوية التبادل التجارى مع تونس...".[6] وبعد حوالي الشهر الواحد من

١- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٨٣ ؛ هذا الرسم الذى تدفعه السفن البريطانية على بضائعها المستوردة الى تونس او المصدرة منها وقع التنصيص عليه في الفصل السابع عشر من المعاهدة التي عقدت بين البلدين سنة ١٧٥١ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٤٠٥ ، كرتون رقم ٢٢٤ .

٢- تقرير غفل ، ١٧٨٠ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ، ص ١٧٦ - ١٨٧ .

٣- مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٥ .

٤- تقرير من كلارك الى حكومته ، تونس ١٠ ، اوت/ اب ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٥- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢٠ افريل/ نيسان ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٦- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ١٠ جويلية / تموز/ ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

ذلك التاريخ خطا حمودة باشا خطوة جريئة اخرى في هذا المجال ، اذ طلب من ماجرا ،في حالة عدم رغبة التجار البريطانيين من الاقامة بتونس، "توجيه نداء الى التجار اليونانيين وجلبهم من بلدهم للعمل في التجارة تحت حماية القنصل البريطاني ....".(١) بعد ذلك قوي اهتمام بريطانيا بالتجارة مع تونس ، وكان هدف الانجليز من ذلك ،زيادة على الرغبة في مزاحمة فرنسا في ذلك السوق ، قطع المدد الغذائي عليها وتجويع جيوشها .(٢) وقد وجدت تلك السياسة البريطانية تجاوبا مع رغبات الباى الذى اصبح هو ايضا يريد ان يجد تعويضا عن السوق الفرنسية بعد ان صعب على فرنسا وعلى سفنها التنقل في البحر الابيض المتوسط بسبب سيطرة اساطيل بريطانيا على ذلك البحر ، وهو الوضع الذى ساد في البحر المتوسط منذ حوالي سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠٨.(٣) وكان موقف حمودة باشا وتجاوبه مع بريطانيا في هذا الباب يتسم بالواقعية وبعد النظر. فقد حصل ايضا ان في الفترة ١٧٩٨ - ١٨٠٨ اتفقت بريطانيا مع بلدان شمال افريقيا على الا يتم نقل تجارة تلك البلدان وسلعها الا على سفنها الخاصة بها، والا صادرتها بريطانيا جميعا .(٤) وقد طبقت بريطانيا ذلك الاتفاق في اغلب الاحيان على الرغم من احتجاجات وتهديدات حمودة باشا المتكررة .(٥) ومما تجدر

١- رسالة من القنصل ذاته ،الى حكومته ،تونس ، ١٢ اوت / اب ، ١٧٩١ ،المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧.

٢- رسالة من القنصل ذاته ،الى حكومته ،تونس، ٣١ جويلية / تموز ، ١٧٩٣ ،المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧.

٣- مجيل ، رحلة ، ص ١٦٤.

٤- المصدر والصفحة ذاتهما .

٥- انظر رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ٩ جوان / حزيران ، ١٧٩٨ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٤/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته ،تونس ، ١٥ فيفري/ شباط ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ،ملف ٣/ ٧٧.

ملاحظته هنا ان احتجاجات الباى وتهديداته تلك لم تؤثر في المنهج الذى اتخذه في توجيه سياسته التجارية الخارجية لصالح بريطانيا بدل فرنسا . فنجده يلبي طلبات تلك الدولة الملحة للحصول على الحبوب التونسية وقد انجز الباى تلك الصفقات سنة ١٨٠١ " من مخازنه الخاصة " ، لان الحبوب لم تكن متوفرة بكثرة في تونس . و"حتى لا يعلم العامة بذلك" ، اتفق الباى مع البريطانيين على ان يتم تبادل تلك الحبوب " مقابل مدافع واسلحة حربية بين السلطات البريطانية وممثل الباى في مالطة".[١] وقد استمرت كمية التبادل التجارى بين الدولتين في تزايد مستمر خاصة عن طريق مالطة ، وكذلك الميزان التجارى لصالح تونس طوال السنوات ١٨٠١ ـ ١٨١٤ .[٢] وقد حافظت تونس على مركزها ذاك في تجارتها مع بريطانيا على الرغم من تعدد اصناف السلع التي كانت تستوردها تونس من تلك الامبراطورية .[٣] وكذلك على الرغم من عمل بريطانيا منذ سنة ١٨٠٤ على جعل تونس " سوقا لاستهلاك المصنوعات البريطانية ...".[٤] هذا وقد

---

١ ـ رسالة من القنصل ذاته ، الى حكومته ، تونس ، ٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٨٠١ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢ ـ المصدر والرسالة ذاتهما ؛ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ، انظر فالينزى ، " العلاقات التجارية بين تونس ومالطة " ، كراريس تونسية ، ج ١١(١٩٦٣) ص ٧٧ ـ ٨٣ .

٣ ـ المصادر والمراجع المذكورة اعلاه ذاتها ؛ انظر الرسائل من ماجرا الى حكومته ، ٢٥ فيفرى / شباط ١٨٠٢ ؛ ١٣ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ؛ ٣٠ سبتمبر/ايلول ١٨٠٢ ؛ ١٣ جوان / حزيران ١٨٠٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٤ ـ تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ فيما يتعلق بانواع البضائع التي تستوردها تونس من بريطانيا انظر مجيل ، رحلة ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ـ ١٩٩ .

صاحبت سياسة حمودة باشا في التجارة الخارجية المفضلة للبريطانيين على حساب الفرنسيين [1]، تقريبه لهؤلاء ،على حساب الفرنسيين ايضا ،حتى في حظوتهم وتفضيلهم بقصر باردو .[2]

بعد ان ذكرنا سياسة حمودة باشا التجارية مع فرنسا وبريطانيا ، وهـــي السـياسة التي تميزت بنظره لمصلحة تونس التجارية وتقويتها قبل اى اعتبار آخر، بعد ذلك يمكننا ان نضيف بعض اهم مظاهر سياسة ذلك الباى التجارية مع غير ذينك البلدين . بالنسبة لاسبانيا استمر وضعها التجارى مع تونس كما كان قبل عهد حمودة باشا ، وهو يتمثل في شراء اسبانيا للتـن التونسي بصفة خاصة .[3] غير ان حمودة باشا ،تماشيا مع سياسة توسيع مجالات بلاده التجارية مع الدول الاوروبية ، قوى علاقاته التجارية مع تلك الدولة بداية من سنة ١٧٩٠ . يصف قنصل بريطانيا سياسة الباى تلك مع اسبانيا بانها " ... خدمت مصالح الباى التجارية وحققت له رغباته مع اسبانية ..." ثم يضيف قائلا " ان تلك السياسة ، عمليا ستؤثر كثيرا على تجارة فرنسا مع تونس ،ويصدق ذلك بالخصوص علـــى استيراد الصوف الاسباني والصبغ القرمزى اللذين كانا يستوردان عن طريق فرنسا ".[4] ويذكر القنصل ان في مدة شهر فقط دخلت الى موانيء تونس احدى وثلاثـون

١- رسالة من دوفواز الى حكومته ،تونس ، ٩ ماى/ ايار ، ١٨٠٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٤٨٣ .

٢- مالون ،تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ،ص ١٣٩ .

٣- الاب رينال، " تقرير" ، المجلة التونسية ،عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ،ص ١٦٠-١٦١ .

٤- رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ٢٤ جويلية / تموز ، ١٧٩٠ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ .

سـفينة اسبانية لنقل الحبوب التونسـية " وهو امر لم يسبق له مثيل بين البلدين ..."[١]
وزاد الباى فكرس تنشيط تجارة بلاده مع اسبانيا في معاهدة سنة ١٧٩١.[٢] وقد
بلغت تجارة تونس ، خاصة في الصوف ، مع اسبانيا حدا جعل قنصل فرنسـا
في تونس يطلب من حكومته للضغط على باى تونس ، احتلال مدينة لقنت(Alicante)
الاسبانية التي كانت تؤمن حاجيات تونس من الصوف لصناعة الشاشية.[٣] غير ان
شـيئا من ذلك لم يحدث بل زاد حجم التجارة بين البلدين وتنوعت السـلع
المتبادلة بينهما.[٤]

من مبادرات حمودة باشا في ميدان التجارة الخارجية عقده معاهدة صلـح
مع امريكا سنة ١٧٩٧ بعد ان ساءت العلاقات بين البلدين مدة. واشتملت المعاهدة
على اتفاقات تتعلق بتشجيع التبادل التجارى بين البلدين المتصالحين.[٥] وقـد
تم انجاز حمودة باشا لتلك الاتفاقات ، وهو الاول من بابه بين تونس وامريكـا ،
على الرغم من المساعي الحثيثة والمركزة التي قامت بها فرنسا عن طريق ممثلهـا

١ـ تونس ، ٢٠ اوت/ اب ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧.

٢ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٠٥ ، كرتون رقم ٢٥٤ ؛ انظر مجيل ، رحلة ، ص ١٧٢ ، ١٩٦ ؛ انظر ادناه ، ص ٤٤٢.

٣ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اوت/ اب ، ١٨١١ ، خزينة وثائـق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤٠.

٤ـ رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ٦ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٨١٣ ، المصدر ذاته ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤١.

٥ـ انظر ادناه ، ص ٤٤٣.

بتونس لاحباط انجاز ذلك الاتفاق . ومن جملة تلك المساعي تخويف فرنسا للباى من ان اتمام الصلح مع امريكا سينتج كارثة على اسواق الحبوب التونسية في جنوبي اوروبا ، وذلك لان تجارة امريكا الخارجية مع البلدان الاوروبية تتمثل في غالبها في تصدير الحبوب اليها . وزاد هيركولي فحاول اقناع الباى بان عدم ابرام المعاهدة " سيدر على تونس مكاسب قرصنية هذا الشتاء لا تقدر بسبب ان الامريكان سيدخلون المتوسط اتكالا منهم على الصلح المبرم اخيرا مع داى الجزائر ".[1]

بعد عقد تلك المعاهدة " استمر ازدياد حجم التجارة المتبادلة بين تونس والولايات المتحدة سنة بعد سنة ..." وهو امر رجع بفوائد عظيمة على تونس، وقد ازعج ذلك الوضع الجديد فرنسا بقدر ما ازعج انجلترا.[2] يذكر ماجرا في نفس التقرير انطباعاته عن مدى تأثير المعاهدة مع امريكا على صادرات الدول الاوروبية الى تونس . ومنها ان "الامريكان وجدوا طريقهم الى البلاد التونسية الخصبة ، وان تجارتهم فيها تتزايد بفضل ما لديهم من منتوجات الهند الشرقية والهند الغربية".[3] ويذكر مجيل الذى زار تونس سنة ١٨٠٩ ان تجارة الولايات المتحدة مع تونس مزدهرة ، ويضرب لنا مثالا على ذلك بان بن المارتنيك (Martinique) المستورد من امريكا هو اكثر رواجا في تونس من بن مخا (Moka) المستورد من الجزيرة العربية . ويذكر ايضا ان وجود ذلك البن بكثرة سبب انخفاض سعره في البلاد .[4] وفي سنة ١٨١٠ يقدر قنصل فرنسا بتونس البضائع الامريكية المعروضة

١ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٦ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

٢ـ تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٣ـ المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤ـ رحلة ، ص ١٩١ .

للبيع في تونس بما يقارب الخمسمائة الف ريال (piastres)[1] وهو كثير كما يذكر القنصل ، وذلك بالاضافة الى " السفن الامريكية العديدة الراسية في الموانيء التونسية ، والعاملة في الخطوط الكبرى لتجارة الولايات المتحدة مع الخارج "[2].

(٣) سياسته التجارية مع الدول الاسلامية

كانت لحمودة باشا مع الدول الاسلامية ، مثل ما كانت له مع الدول الاوروبية وامريكا ، سياسة تجارية واضحة ترمي الى تشجيع وتقوية الروابط التجارية . وقد ظهر اثر تلك السياسة في علاقاته التجارية بعدة دول اسلامية نخص بالذكر منها الدولة العثمانية ومصر في المشرق ، وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب الاقصى في المغرب .

كانت تجارة تونس مع دول المشرق الاسلامي قائمة منذ قبيل عهد حمودة باشا ، غير ان هذه التجارة كانت قليلة وضعيفة .[3] وعندما تولى حمودة باشا العرش شجع التجارة مع تلك الدول ، وحددت تعرفه الجمرك على البضائع المستوردة من تلك الدول الى تونس بـ ٥٪ على التجار التونسيين العاملين في تلك التجارة ، "مقابل ١١٪ كان التجار ذاتهم يدفعونها على قيمة سلعهم المستوردة من اوروبا "[4].

١ـ كان الاوروبيون يطلقون على الريال التونسي اسم piastre ، هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص ١٦ ـ ١٧ . يذكر الطبيب فرانك ان الريال التونسي كان يساوي ٤٠ر١ فرنك فرنساوي ، انظر وصف البلاد التونسية ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

٢ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ٢٨ ، اوت / اب ، ١٨١٠ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٩ .

٣ـ دي ساسي ، تاريخ بلدان البربر ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ـ ١٨١ ، انظر ايضا الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ٨١ .

٤ـ مجيل ، رحلة ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

ولعل ذلك كان من اهم اسباب ازدهار تجارة تونس مع شقيقاتها بالمشرق . فقد ذكر الاب رينال ان " الجزائر وطرابلس الغرب والاسكندرية واسطنبول وسالونيك وازمير كانت تجارتها جميعا مع تونس في نشاط كبير ، والمبيعات المتبادلة بينها وبين تونس ترتفع اثمانها الى مقادير مالية كبيرة". ويذكر ذلك المؤلف مقدار اهمية تلك التجارة بقوله : " ... يمكننا ان نقيم تلك الاهمية اذا علمنا ان السفن التجارية العاملة بانتظام في ذلك الميدان يزيد عن المائتين في كل سنة ...".[١] ويصف فرانك ذلك النشاط من التجارة الخارجية التونسية بانه كان " مهما جدا ".[٢] اما مجيل فيستفاد من قوله ان الميزان التجاري كان في صالح تونس بما قيمته سبعة ملايين ريال في السنة ، وذلك مما تصدره تونس من صنف الشاشية وحده..*[٣] واهم ما كانت تصدره تونس لدول المشرق الاسلامي الشاشية والحبوب والزيوت،[٤] وكذلك السكر المستورد من امريكا خاصة من Havana .[٥] اما ما تستورده تونس من تلك البلدان فيتآلف من القطن[٦] والحلي المرصع بالالماس[٧] وحجر

١- الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص١٧٦ .

٢- وصف البلاد التونسية ، ص٧ .

٣- مجيل ، رحلة ، ص١٧٠ .

٤- الاب رينال ، تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص١٧٦-١٨١ .

٥- مجيل ، رحلة ، ص ١٩٣ .

٦- رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ١٩ اوت / اب ، ١٨٠٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

٧- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٦٣ .

الشـب .[1] اما من الجزيرة العربية خاصة فقد كانت تونس تستورد " البن الحجازى ".[2]

بالنسـبة لتجارة تونس مع مصر بالخصوص توفرت لدينا معلومات قيمة يمكننا ان نوجز اهمها فيما يلي . اتصفت تلك العلاقات بين الدولتين بزيادة النشاط وتضخم حجم المبادلات خاصة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ثم رجعت القهقرى بعد وفاة حمودة باشا بقليل .[3] واهم ما كانت تستورده تونس من مصـــر في عهد حمودة باشا " ... الغزل والكتان والقماش وغير ذلك من البضائـع ".[4] وكذلك كميات كبيرة من الادوية (ومصنوعات اخرى يحتاجها التونسيون "،[5] وما قامت الحرب بين حمودة باشا في اول عهده والبندقية الالحماية تجارته في مصـــر والبحر الابيض المتوسط .[6] في سنة ١٧٩٨ يذكر قنصل فرنسا بتونس ان التجار التونسيين الذين " جميع ثرواتهم موجودة في مصر" وقت غزو نابليون لها ، يبلـــغ ستمائة تاجر .[7] وبتقرير للقنصل ماجرا مؤرخ بسنة ١٨٠٢ ذكر ان اعظم قســم

١ـ مجيل ، رحلة ، ص ١٩٣ .

٢ـ المصدر ذاته ، ص ١٩١ .

٣ـ انظر رايموند ، " تونسيون ومغاربة في القاهرة" ، كراريس تونسية ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ـ ٣٥٠ .

٤ـ مقديش ، نزهة الانظار ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

٥ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٦ـ انظر ادناه ، ص ٣٧٢ ـ ٤٧٣ .

٧ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ٢٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٩٨ ، بلانتـــي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

لتجارة تونس مع المشرق الاسلامي في عهد حمودة باشا هو مع مصرعن طريق ميناء الاسكندرية .[١] في سنة ١٨١٢ كان لحمودة باشا وكيل بالاسكندرية يخبره عن احوال تجارة تونس وسفنها بتلك البلاد ،[٢] وهي سفن تذهب محملة بالانتاج التونسي ، وترجع محملة بالسلع المصرية .[٣] وبعد ان كان عدد السفن العاملة في التجارة بين تونس والمشرق الاسلامي ، ومصراهم مراكزها ، حوالي المائتي سفينة في السنة الواحدة ،[٤] اصبحت سنة ١٨٧٠ لا تزيد عن الخمسة فقط .[٥]

هذا من جهة سياسة حمودة باشا التجارية مع دول المشرق الاسلامي ، اما سياسته مع دول المغرب: طرابلس الغرب والجزائر والمغرب الاقصى ، فاننا لم نعثر على اية اشارة تفيدنا ان تجار تونس كانوا يتمتعون أو لايتمتعون بالاداء الجمركي المخفض (٥٪) على البضائع المستوردة من تلك البلدان ، على غرار مستورداتهم من دول المشرق الاسلامي . غير اننا نعلم ان تونس كانت تتمتع بمركز جغرافي هام بالنسبة للقوافل التجارية العاملة بين جناحي العالم الاسلامي الغربي والشرقي .[٦] اهم نشاط تجارى بين تونس وولاية طرابلس الغرب كان ،

١ـ تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٤٣١ ، كرتون رقم ٢٣١ .

٣ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ٦ اكتوبر / تشرين الاول ١٨١٣ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤١ .

٤ـ الاب رينال ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٦ .

٥ـ رايموند ، " تونسيون ومغاربة في القاهرة " ، كراريس تونسية ، ج ٧ (١٩٥٩) ، ص ٣٥٠ .

٦ـ المصدر ذاته ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢ .

منذ قبل عهد حمودة باشا واستمر في عهده ، هو بيع وشراء العبيد . غير ان ما تجدر ملاحظته هنا هو ان تونس كانت سنة ١٧٢٤ تستورد العبيد من فَزّان بولاية طرابلس كما يذكر الرحالة بيسونال ،[1] ومن اول عهد حمودة باشا سنة ١٧٨٤ اصبحت تلك الولاية هي التي تستورد العبيد من تونس " باعداد وفيرة جدا ".[2] وفي سنة ١٨٠٩ يذكر مجيل ان تونس تستورد من جارتها الشرقية كميات كبيرة من جذر الفوّة (garance) ، التي كانت تمتاز عن تلك الاتية من أزمير بالطراوة والنظافة والرخص في السعر .[3]

بالنسبة للجزائر نلاحظ ان حمودة باشا شجع ازدياد تجارة تونس معها على الرغم من المشاحنات بين البلدين وتسلط الجزائر على تونس منذ امد قبل ولاية حمودة . وبعد ان كانت تونس تستقبل بين الثماني والعشر قوافل تجارية " ضعيفة " سنويا من قسنطينة كما يذكر الاب رينال ،[4] اصبحت سنة ١٨٠٩ تستقبل ما يقارب ذلك العدد من القوافل شهريا لا سنويا .[5] وبعد ان كانت تلك القوافل تجلب الى تونس الغنم والبرانس[6] والعملة للبيع ، وبثمن تلك البضائع تشترى من تونس الشالات والادوات المعدنية ، والاقمشة والحلي ومواد البقالة والشواشي . اصبحت تلك التجارة كما يذكر مجيل " كبيرة الاهمية والفائدة بالنسبة للتجارة التونسية ." وأصبحت الجزائر لا تمثل سوقا من أهم الاسواق لتونس فقط بل موردا هاما جدا للتجار التونسيين ،[7] وصارت ما تستورده تونس

١- رحلة ، ج ١ ، ص ٧٩ .

٢- الرحالة المجهول ، رحلة عبر بلدان شمال افريقيا ، ص ١٥٨ .

٣- رحلة ، ص ١٦٢ .

٤- " تقرير " ، المجلة التونسية ، ج ٣ - ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٦ .

٥- رحلة ، ص ١٦٣ .

٦- برانس : ج . برنس .

٧- رحلة ، ص ١٦٢ .

من الجزائرعن طريق تلك القوافل يشمل بالخصوص الشمع وجلود الحيوانات والماشية والحيوانات الوحشية والغنم • وبثمن تلك المبيعات ، التي كان تجار تونس يبيعونها بدورهم الى الخارج ، يشتري تجار الجزائر من تونس الاجواخ والكتان والموسلين (mousseline) والحرير سواء منه المشغول أو الخام و (marchandises coloniales) والشواشي والادوية والعقاقير والعطور والتوابل • هذه بالاضافة الى الكميات الهائلة من الحبوب •[1] وكان الكثير من مبيعات تونس للجزائر يتألف مما يستورده تجار تونس من الخارج •[2] وقد بلغت تلك التجارة مع الجزائر حدا جعل " كل فرد في تونس يلعن الحرب مع الجزائر ويتمنى توقفها حالا ... " بسبب ما احدثته من اضرار نتيجة توقف ذلك النشاط التجارى لمدة محدودة •[3]

بشأن التجارة بين تونس والمغرب الاقصى المعلومات المتوفرة لدينا قليلة • فقد ذكر بيسونال الذى زار تونس سنة ١٧٢٤ ان عدة قوافل تجارية مغربية كانت تؤم تونس كل سنة • واحدة من تلك القوافل كانت تأتي من مدينة فاس ويطلق عليها التونسيون اسم " قافلة المغاربة " ، كانت تجلب معها من السلع صبغة الزنجفر والنقود الذهبية والبرانس والنحاس ، وتأخذ معها من تونس عدة مصنوعات اهمها الشواشي والحرير •[4] وفي عهد حمودة باشا كانت المغرب تستورد من تونس صبغة القرمز ،[5] وتونس تستورد منها سفاسر[6] الحرير •[7] ومن الجدير بالذكر في

١ـ المصدر ذاته ، ص ١٦٣ •

٢ـ المصدر ذاته ، ص ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ •

٣ـ المصدر ذاته ، ص ١٦٣ ، انظر بعض التفاصيل الاخرى بالمصدر ذاته ، ص ١٦٥ـ ١٦٧ ، ١٨٨ •

٤ـ بيسونال ، رحلة ، ج ١ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ •

٥ـ مجيل ، رحلة ، ص ٢٠٠ •

٦ـ سفاسر : ج• سفسارى وهو نوع من الاثواب الحريرية او الصوفية او القطنية كانت نساء تونس يلتحفن به عند خروجهن من بيوتهن الى الطريق •

٧ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٦٩ ، ص ٢٨ •

هذا الباب ان لدينا معلومة وضحت لنا حقيقتين اثنتين : الاولى هي ان احد التجار التونسيين اسمه محمد مريفي كانت له تجارة في المغرب • وان هـذا التاجر كان استأجر سفينة تجارية أجنبية لنقل بضائعه من مدينة تطوان الـى مدينة ليغورنة ، وفي طريقه مر بجبل طارق حيث اشترى كمية من الســـكر • الحقيقة الثانية التي افادتنا بها هذه المعلومة هو مدى حرص حمودة باشـــا على تأمين السلامة للتجار التونسيين العاملين في الخارج • فقد حدث ان محمد مريفـي ، وهو في طريقه الى ليغورنة استولى عليه احد القراصنـــة الفرنسيين بدعوى ان حمولة سـفينة التاجر التونسي ملك للبريطانيين اعدائهم • ولما اشتكى ذلك التاجر لحمودة باشا من تعدى الفرنسيين ومصادرتهم لبضاعته ، بعث حمودة باشا برسالة باسمه الى الحكومة الفرنسية يدعوها فيها الافراج عن الســفينة وحمولتها وتسليمها الى التاجر التونسي والا امر قراصنته بالاسـتيلاء على جميع السفن الفرنسية العاملة في موانيء دول عدوة لتونس، "وهو امر يخالف علاقات الصداقة الخالصة التي سادت بيننا ويعارض المعاهدات المبرمة بيننا •••" وسـلم الباى الرسالة للمتضرر نفسه ليسلمها الى الحكومة الفرنسية بباريس •[1]

(٤) ســياسة حمودة باشا التجارية مع افريقيا الســوداء

اهتم حمودة باشا بتوطيد التجارة التونسية مع بعض الدول الافريقيـــة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى • وهي تجارة كانت موجودة قبل عهد حمودة باشا وتتم عن طريق القوافل التجارية البرية في الغالب ،والقليل منها يحصل عن طريق

١ـ رسالة من حمودة باشا باى تونس الى الحكومة الفرنسية ،تونس ، ١٣ ماى/ايار، ١٧٩٨ ، بلانتي ،مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ •

مضيق جبل طارق ثم افريقيا الغربية .[١] ويخبرنا فرانك ان هذه التجارة قد ازدهرت في عهد حمودة باشا "ازدهارا عظيما"[٢] الى حد اصبحت فيه مدينة تونس بالنسبة لافريقيا "المركز الذى لبورصات مرسيليا وامستردام ولندن وباريس بالنسبة لاوروبا ..." .[٣] وقد اكد لنا الرحالة ذاته ان تجارة تونس مع افريقيا السوداء صارت في عهد حمودة ذات اهمية "تفوق بكثير اهمية جميع القوافل التجارية الجزائرية والتونسية الداخلية مجتمعة" .[٤] ولعل من اهم الاسباب التي دفعت الباى الى تعزيز تجارة تونس مع داخل افريقيا هو حاجة الدولة الملحة للحصول على معدن الذهب بأي طريقة كانت . وذلك بعد ان استولى الجزائريون في سنة ١٧٥٦ وفي عهد علي باى والده (١٧٥٩ ـ ١٧٨٢) "على جميع ثروات تونس من ذلك المعدن واخذوها معهم الى الجزائر والى خزائن داياتهم ..." .[٥] كما أن الجزائريين كانوا يأخذون الى بلادهم معظم الذهب الذى تأتي به القوافل الافريقية الى تونس .[٦] وقد نتج عن قلة توفر الذهب بتونس لتلك الاسباب ان لم تصك أية عملة ذهبية بالبلاد طوال مدة تقارب القرن (١٧٥٦ ـ ١٨٥٥) .[٧]

---

١ ـ تقرير من ر. تريل الى حكومته ، تونس ، ٦ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٧٨٨ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣ / ٧٧ .

٢ ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧ .

٣ ـ المصدر ذاته ، ص ١٠٣ .

٤ ـ المصدر ذاته ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

٥ ـ فروجيا ، "العملة الحسينية ، رقم ٣" ، المجلة التونسية ، عدد ١٧ (١٩٣٤) ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

٦ ـ المصدر والصفحات ذاتها .

٧ ـ المصدر والصفحات ذاتها .

لسبب من الاسباب اهتمت الحكومة البريطانية بمعرفة كل ما يتعلق بتجارة تونس مع داخل افريقيا ،قد يكون الداعي لذلك هو نجاح تلك التجارة والاموال التي تدرها على تونس بما في ذلك التبكر ،وقد يكون ايضا لمعرفة الحقائق والاحصائيات المتعلقة بتجارة العبيد التي كانت تتم عن طريق تلك القوافل ايضا، اذ ان بريطانيا كانت في تلك الاثناء بصدد اعداد قانون منع الاتجار بالعبيد . وعلى كل حال فان التقرير الذى اجاب به ر. تريل على مطلب حكومته يعتبر من اهم المصادر عن تلك القوافل وتجارتها وطريقها ومراكزها ...[1]

يذكر تريل ان عدد تلك القوافل خمس او ست سنويا ،تجلب من العبيد من مختلف البلدان الافريقية ما يقرب من الف وثلاثمائة عبد . وتجلب معها كميات وافرة من السنا (Senna) (حوالي الف قنطار)[2] ، ومن ريش النعام ، ومن اسنان الفيل ،[3] والصمغ (gum) ، وهي مواد ، كما يذكر تقرير فرنسي ، كثيرة المربح بالنسبة للتجار التونسيين .[4] وقد كانت تلك القوافل تقضي في توغلها داخل بلدان افريقيا مدة تتراوح بين الشهرين والخمسة اشهر.[5] وكانت تونس تصدر من السلع التي تأتيها عن طريق تلك القوافل الافريقية الى الخارج : تصدر العبيد الى المشرق الاسلامي[6]، وريش النعام الى مدينة ليغورنة .[7] اما في داخل تونس فان سوق العبيد المزدهر كان يقام

١- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٣ فيفرى/ شباط ، ١٧٨٩ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧.

٢- ثمن القنطار يتراوح بين الثلاث جنيهات استرلينية والاربعة ، المصدر والوثيقة ذاتهما ، انظر وزن القنطار اعلاه ، ص ٢٧٢ تعليق رقم ٥ .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤- كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ١٠ - ١١.

٥- رسالة القنصل ر. تريل المذكورة اعلاه ذاتها ، انظر ايضا ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٠ - ١١.

٦- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١٧.

٧- المصدر ذاته ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

كل يوم جمعة في مكان مخصص له .[1]

اما ما كانت تصدره تونس من منتوجاتها الى افريقيا بواسطة تلك القوافل فهو يتألف من الاجواخ والكتان والموسلين ، والحرير الخام والمشغول ، والجلود الجاهزة لصناعة الاحذية ، ومواد البقالة ، وصبائغ مختلفة لصباغة الحرير " من هذه الصبائغ فقط كانت تونس تصدر ما يزيد عن الخمسين قنطار سنويا الى داخل افريقيا ".[2]

(ج) وصف الازدهار الاقتصادى

قبل ان ننهي حديثنا عن سياسة حمودة باشا الاقتصادية وانجازاته في ذلك المجال ، من الفائدة ان نذكر بعض المقولات والاوصاف التي اوردها الكتاب والمؤرخون في تصوير تلك الحياة بتونس في العهد الذي ندرسه . وسنوردها حسب ترتيب كتابها زمنيا .

يقول ستانلي الذي زار تونس سنة ١٧٨٤ :

" ان اسواق تونس مزودة بكل لوازم الحياة بمقدار وافر: لحم الخروف والبقر سعر الرطل الانجليزى منه بنس انجليزى واحد ، الدجاج ونحوه من الطيور الداجنة متوفرة جدا خاصة منها الحمام الذى يمتاز بلذة فريدة ورخص كبير ... كميات عظيمة من الخبز تباع في كل مكان . وكل تلك السلع تراقب دائما من قبل رجال الشرطة خاصة فيما يتعلق بنوع البضاعة وسعرها وصحة كيلها أو وزنها ... ".[3]

١ـ انظر وصف ذلك السوق وصفقات البيع والشراء التي تتم فيه ب ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ١٠ ـ ١١ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١١٨ .

٢ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٢٢ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ١٦٦، ٢٠٠ .

٣ـ مشاهدات في مدينة تونس ، ص ٦ ـ ٧ .

وبعد ان يذكر الرحالة ذاته توفر الخضار بجميع انواعها بكثرة دائر العام يؤكد ان العامل اليومي " يستطيع ان يعيش كامل يومه على اكل الخبز واللحم والخضار بمقادير كافية بل تزيد على حاجته بسعر لا يتعدى الثلاث بنسات انجليزية ". وان مترجم القنصلية البريطانية اكد له انه وافراد عائلته المتكونة من اربعة انفار لا تتعدى مصاريفهم الخمسة والعشرين جنيها استرلينيا سنويا.(1) ثم يضيف قائلا: " ان اراضي هذه البلاد هي من احسن واخصب الاراضي في العالم وان اي تشجيع مركز لزيادة الانتاج الفلاحي يجعل منها اعظم اهراءات لاوروبا ...".(2) في سنة ١٧٩٣ كتب ماجرا يقول ان تزايد ازدهار الزراعة والتجارة في تونس وظهور الثروات الكبيرة فيها مكنت الباى من تعزيز قواه العسكرية الى حد لم يسبق له مثيل في تونس.(3) بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ذكر قنصل فرنسا ان " جميع ما تستورده تونس من الخارج لا يمكن ان تتعدى قيمته ثلث ما تصدره تلك البلاد الى الخارج ...".(4) اما فرانك فيركز على وصف خصوبة الاراضي التونسية ويقول " ... ان الحبة الواحدة من الشعير عند زراعتها تنبت ثمانين قصبة ،كل قصبة منها تتفرع من اعلى الى اكثر من فرع ، كل فرع يحمل سنبلة وافرة الحبوب ".(5) وجاء شاتوبريان فخصص حوالي الصفحتين مما كتبه عن مشاهداته في تونس سنة ١٨٠٧ لوصف جمال البساتين المحيطة بتونس العاصمة ووفرة منتوجها.(6)

١_ المصدر ذاته ،ص ٧_٨ .

٢_ المصدر ذاته ،ص ٣٦.

٣_ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٧ جوان / حزيران ، ١٧٩٣ ،خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧.

٤_ رسالة من جيرو الى حكومته ، تونس ، ١٧٩٦ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ،ص ٢٠٣ _ ٢٠٦.

٥_ وصف البلاد التونسية ،ص ٥١ _ ٥٢.

٦_ رحلة ،ج ٢ ،ص ٢٠٨.

ووصف الرحالة الانجليزى التاجر مجيل ازدهار تونس الاقتصادى في عهد حمودة باشا بتزويده ايانا ببعض الارقام الموضحة لذلك الازدهار، فقد ذكر ان مداخيل الدولة التونسية تصاعدت في ذلك العهد الى ان بلغت اربعة وعشرين مليون ريال تونسي [١] وهي مقادير عظيمة من المال " لم تبلغها بل لم تقاربها مداخيل تونس في عهود البايات السابقين جميعا". [٢] ويقول الرحالة في مكان آخر من كتابه ان كميات القمح التي تنتجها تونس تفوق في مجموعها الكميات التي تنتجها جميع بلدان شمال افريقيا الاخرى مجتمعة . [٣] وان سياسة حمودة باشا التجارية مع الخارج بعثت نشاطا ايجابيا جديدا في الدولة نتج عنه " ازدياد عظيم " في تصدير الانتاج التونسي . [٤] وفي وثيقة تونسية ورد ان فرنسا كانت دائما مدينة للباى حمودة باشا بمبالغ عظيمة كانت تلك الدولة تسددها لتونس اقساطا . [٥] في نفس السنة ذكر قنصل فرنسا ان " مدينة تونس بسبب موقعها الجغرافي ، وبفضل انتاجها الكبير ستكون اعظم مدينة تجارية واوفرها ثروة بشمال افريقيا ...". [٦] اما مؤرخنا ابن ابي الضياف فيذكر

١ـ يذكر مترجم تلك الرحلة ان ذلك المبلغ يساوى حوالي اربعين مليون فرنك فرنسي في ذلك الوقت ؛ رحلة ، ص ٨٧ ، تعليق رقم ١ .

٢ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٣ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٥ .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

٥ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، سنة ١٨١٥ ، ملف رقم ٣٣ ، كرتون رقم ٣، وثيقة رقم ٤/١ .

٦ـ تقرير من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ١٨١٥ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

ان البلاد التونسية سنة ١٨٠٧ "... كانت ... في شباب عمرانها وثروتهـا".[١]
وفي مكان آخر يقول ان في عهد ذلك الباى " اقبلت الناس... على الفلاحة والمتاجر والصناعات ، وكثر العمران ، ونمت الاموال ، وظهرت الثروة ."[٢] ويذكـر ايضا "... وفي دولته [حمودة باشا] رجع للمملكة عمرانها ، بل زاد ، بعد تلـك الحروب المتقدمة زمن ابيه وجده ، وما وقع من نهب البلاد واباحتها مـرارا ، كما تقدم تفصيل ذلك ."[٣] وعندما ذكر ذلك المؤرخ الطاعون الذى اصاب تونس سنة ١٨١٨ يقول "... وهذا الطاعون هو اول التراجع الذى وقع فـي هذه الايالة بعد وفاة المرحوم ابي محمد حمودة باشا لانه نقص به من الايالة قدر النصف ، وبقيت غالب المزارع معطلة لا انيس بها ."[٤]

١- اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٣ .
٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
٣- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٦ .
٤- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

هـ • في المجـال الاجتماعي والصحـي والديني والفكـري

١ • الاجتماعي : عمله على تطهير المجتمع من الرذائـل

المعلومات التي وردت في الاصول عن هذه النواحي قليلة ، ولكن حاولنا بقدر الامكان ان نجمع الخيوط الخفيفة التي وجدناها • لقد كانت لحمودة باشا تدابير اصلاحية استهدفت تغيير بعض المظاهر الاجتماعية السيئة التي كانت سائدة في البلاد عندئذ • من ذلك ضربه على شعوذة حرس السودان وجندهم الذين نشروا الرذائل والالحاد في صفوف الاهالي بتونس•[١] بالاضافة الى ذلك نجد بعض المعلومات القليلة التي توضح بعض اعمال ذلك الباى للحد من شرب الخمر والزنى والضرب على بعض العادات الاجتماعية البالية •

(أ) تشدده من أجل الحد من شرب الخمر والزنـى

كانت هاتان الرذيلتان منتشرتين في بعض الاوساط الشعبية التونسية ، وقد عمد حمودة باشا على محاربتهما بشدة • بالنسبة لشرب الخمر بدأ الباى بذاته اذ حرمه على نفسه منذ بداية توليه عرش البلاد التونسية •[٢] ورغبة في تعميم ذلك الاصلاح على بقية افراد شعبه دعاهم الى نبذ تلك العادة السيئة اقتداء به ،[٣] ثم حرمها واصبح يعاقب كل من يشرب الخمر•[٤]

١ـ انظر اعلاه ، ص ١٤ـ١٥ ، ٢٥٤ـ ٢٥٥ •
٢ـ انظر اعلاه ، ص ٩٠ ، ٩٢ ـ ٩٣ ، ١٠٧ •

٣ـ كانور وغرانشان ، " رحلة الأب كاروني ، " المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٨ •
٤ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٧ ـ ٧١ •

لا ندرى مدى استجابة الاهالي لهذا النهي والتحريم ،غير ان الاب بوارى الذى زار تونس سنة ١٧٨٥ ذكر ان التونسيين كانوا "... لا يرفضون احتساء الخمر اذا ما قدم اليهم في السر ...".[١] ولعله بسبب استمرار تعاطي تلك الرذيلة في البلاد نجد حمودة باشا ينتهج سياسة صلبة فيما يتعلق باستيراد الخمر من قبل الاجانب القاطنين بتونس ،وفي التحذير على بيعه للمسلمين . فقد ذكر الاب كاروني ان الرسوم التي كان التجار الاجانب يدفعونها على الخمور المستوردة من الخارج ، لسد حاجات النصارى واليهود ،كانت تبلغ نصف سعرها ان لم تتعداه .[٢] وقد كان الباى شديد القسوة على من يهرب الخمر الى تونس او يبيعها للتونسيين .[٣]

اما بالنسبة لرذيلة الزنى والدعارة فان مقاومة حمودة باشا لهما كانت في غاية الشدة ،خاصة على المرأة المسلمة وغير المسلمين من الرجال حسب ما اوردته المصادر . وكانت احكامه في هذا المجال معروفة وصارمة وهي انه عندما تكون الجانحة مسلمة توضع في كيس وتغرق حية في البحيرة قرب مدينة تونس ، ثم تعرض جثتها على الجمهور لتكون عبرة لمن يعتبر .[٤] اما العقاب الذى يسلط على الرجل الزاني فهو قطع الرأس فورا اذا كان غير مسلم ،ولم يحد حمودة باشا عن ذلك الحكم الا مرة واحدة في حياته حيث اكتفى بطرد المتهم ، وكان احد اطبائه الاجانب ،من تونس نهائيا .[٥]

١ـ رحلة ،ص٣٨.

٢ـ كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ،المجلة التونسية ،عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٨ .

٣ـ بوغجي ، " سيرة " ،المجلة التونسية ،عدد ١٦٧ (١٩٢٧) ،ص ٤٣ ،وانظر ايضا فرانك ،وصف البلاد التونسية ،ص ٨٣ ـ ٨٤.

٤ـ " رحلة الاب كاروني " ،ص ٤٤ ـ ٤٥.

٥ـ المصدر والصفحة ذاتهما ،وانظر اعلاه ،ص ٢٦٠ ، فيما يتعلق بقضية الطبيب الذى اطرد من تونس انظر ادناه ،ص ٣٣٦ .

(ب) ضربه على بعض العادات البالية

كانت في تونس بعض عادات اجتماعية سيئة جرت مجرى التقليد • وقد عمل حمودة باشا على تطهير بلاده منها • أحد انجازاته في هذا المجال هو منع اللعب برؤوس قتلى الحرب الاجانب، وتفصيل ذلك انه في سنة ١٧٩١، واثناء الحرب التونسية - البندقية، انسحب البنادقة في واقعة من الوقائع وابقوا وراءهم اربعة جنود موتى واربعة احياء • فأخذ التونسيون الموتى وقطعوا رؤوسهم وبعثوا بها الى العاصمة حيث لعب بها الرجال مثل ما يلعبون بالكرة • ولما سمع حمودة باشا بذلك استبشع ان يحصل ذلك الامر في عهده، واستنكره استنكارا شديدا ومنع ممارسة ذلك العمل البشع منعا باتا •[1] ومن انجازاته في هذا المجال سماحه ليهود تونس بركوب البغال والحمير بعد ان كان ذلك ممنوعا عليهم •[2] ومن انجازاته ايضا ابطاله لعادة " غولة رمضان " ، وهي عادة اختص بها جند الترك، ايام عناية حمودة باشا بهم • وصفتها كما يذكر صاحب الاتحاف انه

> " ••• في شهر رمضان تخرج منهم [من جند الترك] طائفة بالليل بمشاعل ولعب يسمى في البلد " غولة رمضان "، فيأتون باردو ويبقى بابه مفتوحا الى خروجهم، ويحسن اليهم بمال • ويأتون منازل الاعيان من اهل الحاضرة ورجال الدولة بذلك اللعب ويدفع لهم رب المنزل شيئا من المال، ظاهرة احسان وهم يعتقدونه ضريبة، فأبطلها على الناس من هذه الثورة [ثورة جند الترك سنة ١٨١١] •••".[3]

١- رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس، ١٤ سبتمبر/ايلول ١٧٩١، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧•

٢- فرانك، وصف البلاد التونسية، ص ٩٥ •

٣- ابن ابي الضياف، ج ٣، ص ٥٧•

٢ • في المجال الصحي : عمله على حفظ الصحة بالطرق الحديثة

قبل ان نبحث سياسة حمودة باشا في المجال الصحي من المهم ان نعرف الوضع المنحط الذى كانت عليه تونس في هذا المجال في بداية عهد ذلك الباى • ولعل خير من يمدنا بايضاحات دقيقة في هذا الموضوع الاب بوارى ، وهو عالم في الطبيعيات والاعشاب زار تونس لاغراض علمية • في رسالة منه الى استاذ طبيب وزميل له في جامعة السربون بباريس يقول بوارى سنة ١٧٨٥ :

" ترغب ان تعرف يا طبيبي العزيز ان كان ما يزال في هذه البلاد ، التي انجبت اباء علم الطب ، بعض الاطباء العباقرة المشهورين • انه يسهل علي ان اجيب عن سؤالك بكلمتين • العرب لا يعرفون من الاطباء غير الطبيعة (la nature) ولا من الادوية غير تلك التي يمليها عليهم الجهل او الاعتقادات الباطلة والخرافات • هؤلاء العرب الذين اخرجوا للناس في ما مضى العديد من الرجالات المهرة في شفاء الانسانية من الامراض والمشقات ، يجهلون الان حتى عظمة ماضيهم وانهم كانوا سلموا لشعوب اخرى المشعل الذى هم انفسهم اوقدوه • بل ، تخلوا عن الالتجاء الى علم الطب في معالجة امراضهم وذلك بسبب الجهل والازدراء والاستخفاف • " (١)

هذا ما ذكره الاب بوارى اما الطبيب فرانك فيعلمنا عن حالة الاطباء التونسيين في ذلك العهد بقوله ان هؤلاء ، سواء منهم المسلمين او اليهود ، كانوا يصيرون اطباء بعامل الصدفة فقط • وذلك لان مهنة الطب كانت فيهم وراثية يتسلمها الابناء من الاباء • ويصفهم فرانك بانهم جهلاء تماما ، لا يعرفون من

١ـ رحلة ، ص ١١٣ ـ ١١٤ •

كتب الطب الا كتاب ابن سينا وبعض المخطوطات القديمة . بعد ذلك يذكر ذلك الرحالة ان عدد هؤلاء الاطباء بالعاصمة التونسية كان ٢٥ على الاقل ، على رأسهم رئيس يطلق عليه " حكيم باشي "،وهو مثلهم في الجهل وعدم الدراية . ويختم الطبيب وصفه بقوله ان جميع هؤلاء مشعوذون وهم خطر على الصحة العامة .(١)

يظهر ان حمودة باشا قد احس بالوضع السيء الذى كانت عليه مهنة الطب في بلاده ، فنراه ينتهج سياسة ترمي الى اصلاح ذلك الوضع باستعمال طرق حديثة لحفظ الصحة . اهم هذه الطرق هي :

(أ) جلبه لاطباء من اوروبا وعمله على احترامهم وتبجيلهم

ان المصادر والمراجع التي رجعنا اليها في كتابة هذه الدراسة لم تذكر من الاطباء الاجانب الذين كانوا يعملون بتونس قبيل تولي حمونة باشا العرش سنة ١٧٨٢ الا طبيبا واحدا هو Bruno Jourdan الفرنسي الجنسية ، وقد كان يشغل وظيفة " الطبيب الاول " لعلي باشا سنة ١٧٨١.(٢)

في عهد حمودة باشا ،ومنذ سنة ١٧٨٣ ،نجد الاطباء الاجانب ، سواء منهم من كان يقوم برحلة علمية الى تونس او من كان يقيم فيها بقصد مباشرة مهنته ، يتكاثرون على مر السنين . اول هؤلاء ديفونتان صاحب الرحلة التي رجعنا اليها مرات عديدة في كتابة هذه الدراسة ،وقد اقام في تونس مدة سنتين (١٧٨٣ - ١٧٨٥) يبحث عن غريب النباتات . ومن الجدير بالملاحظة

١- وصف البلاد التونسية ،ص ١٣٦ - ١٣٨ .

٢- ذكر هذا الطبيب المؤرخ روسو ،حوليات تونسية ،ص ١٩٣.

ان حمودة باشا قدر مواهب ذلك الطبيب وأعانه على بلوغ المقصود من رحلته العلمية فسمح له بمصاحبته اثناء خروج المحلة داخل البلاد التونسية وهو شرف لم ينله احد من النصارى قبله .[١] وقد ذكر نائب القنصل الفرنسي ديسبارون ان الطبيب العالم ديفونتان كان يحكم العديد من المرضى التونسيين .[٢] وفي سنة ١٧٨٤ ايضا يذكر روسو انه كان لحمودة باشا طبيب من رعايا البندقية هو S. Gazzo .[٣] بعد حوالي تسع سنوات من ذلك التاريخ ذكر قنصل بريطانيا ان حكيم الباى الخاص كان ايطالي الجنسية وانه عالجه في وعكة صحية ألمت به .[٤] ومن سنة ١٧٩٥ ،أو قبلها بقليل ،استقر بتونس الطبيب الجنوى Mendrici [٥] الذى اصبح سنة ١٧٩٧ طبيب الباى الخاص ايضا .[٦] وقد بقي هذا الطبيب يعمل في تونس الى سنة ١٨١٤ حين اتهم بالاشتراك في تسميم حمودة باشا ،وقد نال جزاءه بقطع رأسه مع شريكه M. Stinca ،[٧] حسب زعم سيالف .

١ـ انظر اعلاه ،ص ٢٢ ـ ٢٣ .

٢ـ رسالة من ديسبارون الى حكومته ،تونس ، ١٥ جويلية/ تموز ، ١٧٨٤، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١٤٠ .

٣ـ حوليات تونسية ،ص ٢٠٣ .

٤ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ٢٠ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٣/ ٧٧ .

٥ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ،تونس ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٢٥٧ .

٦ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ،تونس ٥ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٧ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٣٢٥ .

٧ـ رسالة من سيالف الى حكومته ،تونس ، ٢١ سبتمبر/ايلول ، ١٨١٤ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٥٤١ .

هذا وما ان حلت سنة ١٨٠٦ حتى استقر بتونس الطبيب الرحالة المشهور L. Frank صاحب كتاب وصف البلاد التونسية الذى رجعنا له كثيرا في كتابة هذه الدراسة . وقد اقام في تلك البلاد من سنة ١٨٠٦ الى حوالي سنة ١٨١٢ يعمل كطبيب لحمودة باشا ثم كرئيس للاطباء.(١) وفي سنة ١٨٠٩ لما زار مجيل تونس وجد طبيبا جراحا اوروبيا ملحقا بخدمة الباى والعائلة الحاكمة.(٢) ولعل هذا الجراح هو الطبيب الجراح Zehler ، من مدينة ستراسبورغ، الذى عمل مدة طويلة كطبيب للجيش التونسي كما يذكر فرانك.(٣)

من هؤلاء الاطباء ايضا الطبيبان L. Gay و M. Lombard اللذان كانا يعملان في تونس سنة ١٨٠٩ ،وكانا يشرفان على تمريض الاب A. Poggi ايام اسره بتونس.(٤) وقد صار Gay فيما بعد طبيب الباى الخاص،(٥) واستمرت اقامته في تونس الى سنة ١٨٢٣ ،السنة التي توفي فيها وهو حكيم الباى الاول.(٦) اما M. Lombard الذى اظهر حمودة باشا رغبة في ضمه الى خدمته فقد

١ـ انظر اعلاه ،ص ٢٨ـ٢٩ . لهذا الطبيب ترجمة مطولة بـ مارسال ، موجز تاريخ تونس ،ص ١ـ٢ .

٢ـ رحلة ،ص ٩٦ ـ ٩٧ .

٣ـ وصف البلاد التونسية ،ص ٧٥ .

٤ـ بوغجي ، " سيرة " ،المجلة التونسية ،عدد ١٦٧(١٩٢٧) ، ص ٥٤ .

٥ـ اميريت ، " اسطول تجارى شمال افريقي " ،كراريس تونس ،مجلد ٣(١٩٥٥) ، ص ٣٦٩ .

٦ـ L. Billey , " Medecins francais en Barbaric 1816-1817 ", R. T., no- 45 (1941), p. 195.

سفر الى بلده فرنسا سنة ١٨١١ بعد ان رفض بيلون رغبة الباى تلك.[١] في سنة ١٨٠٩ ايضا استقر بتونس الطبيب J.F. Lombard وقد يكون ابن الطبيب M. Lombard المذكور اعلاه . كان عمله في الاساس تطبيب افراد الجالية الفرنسية بتونس ، غير انه عين حكيما للباى في شهر افريل/نيسان من سنة ١٨٢٣ وذلك بعد وفاة الطبيب Gay .[٢] بالاضافة الى جميع هؤلاء الاطباء يذكر القنصل دوفواز ان طبيبا اخر من نابلي يدعى Ronchi كان يعمل في خدمة حمودة باشا سنة ١٨١١ .[٣]

بعد هذا العرض للاطباء الاوروبيين الذين كانوا يعملون بتونس في عهد حمودة باشا وعددهم لا يقل عن العشرة يمكننا ان نقدر سياسته في هذا المجال بالمقارنة مع عهد والده الذى لم نعثر فيه الا على اسم طبيب اوروبي واحد .

هذا ومن الظاهر ان معظم هؤلاء الاطباء كانوا ملحقين بخدمة الباى وعائلته وجيشه . غير ان هذا لا ينفي ان بعضهم كان يعالج ، في بعض الاحيان ، غير تلك الطبقة المحظوظة كما وقعت الاشارة في ما سبق . وقد حصلت الفائدة ايضا من وجود هؤلاء الاطباء الاجانب بتونس من جهة ان العديد من المسلمين واليهود قد لازموا الاطباء الاجانب ونشطوا في تعلم مهنتهم .[٤] وبذلك كان هؤلاء التونسيون يتعلمون فن الطب الحديث عن الاطباء الوحيدين الذين كانوا يمارسون مهنة الطب في تونس بطريقة علمية . وكان هؤلاء الاجانب لا يتبعون رئيس الاطباء التونسي " الحكيم باشي " اداريا .[٥]

١- رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢ جويلية // تموز ، ١٨١١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٩٥ .

٢- Billey , "Medecins francais en Barbarie ", R.T. , no-45, p. 195.

٣- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١١ اوت/ اب ، ١٨١١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

٤- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٥- المصدر والصفحات ذاتها .

وقد كان حمودة باشا شديد الاحترام لهؤلاء الاطباء الأوروبيين ، بل كان يتخذ من معظمهم نصحاء له يستشيرهم في العديد من شؤونه.[١] ولتصور مدى احترام ذلك الباى لاولائك الاطباء يمكننا ان نورد بعض الامثلة الموضحة. من ذلك انه في سنة ١٧٨٤ والحرب على اشدها بين تونس والبندقية ، أمر الباى بترحيل جميع افراد الجالية البندقية من تونس . وقد نفذ الامر فعلا ولم يستثن منه الا شخص بندقي واحد في البلاد التونسية هو الطبيب Gazzo.[٢] ومن ذلك ايضا ان حمودة باشا علم بان احدى نساء القصر كانت لها علاقات مريبة مع احد الحكماء الاوروبيين . وعلى الرغم من ان حكم الباى في هذا معروف وهو قطع راس المتهم فورا ، فقد تخلى عن حكمه ذاك ، واكتفى بانهاء عمل ذلك الطبيب وطرده من البلاد .[٣] ويذكر مجيل ايضا ان حمودة باشا كان يقدم الهدايا والعطايا لهؤلاء الاطباء قبل رجوعهم الى بلدانهم.[٤]

ويظهر انه بسبب معاملة الباى الحسنة للاطباء الاجانب وتكريمه لهم ، كان الاهالي يعاملونهم بالتقدير والاحترام . فقد ذكر الاب بوارى ان هؤلاء الاطباء كانوا يستقبلون بكل ترحاب من قبل الاهالي . ويضيف قائلا ان الاوروبي اذا كانت مهنته الطب ضمن لنفسه زيادة الامن والسلامة بتونس.[٥] وما يذكره الطبيب فرانك يتفق مع ما اورده بوارى مع اضافة انهم بسبب مهنتهم تلك كانوا يلقون كل التقدير والاحترام من قبل التونسيين.[٦] وهو الذى يذكر ايضا ان

١ـ تتفق معظم المصادر التي وقع الرجوع اليها على هذا الامر.
٢ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٠٣ .
٣ـ مجيل ، رحلة ، ص ٩٧ .
٤ـ المصدر والصفحة ذاتهما .
٥ـ بوارى ، رحلة ، ص ١١٤ .
٦ـ وصف البلاد التونسية ، ص ٥٣ .

العديد من الارقاء الاوروبيين الذين كان القراصنة التونسيون يستولون عليهم من الاطباء والرهبان والرجال المثقفين ، وان هؤلاء كانوا يلاقون معاملة خاصة تنم عن احترام الاهالي لهم حتى القراصنة .[1]

(ب) تشدده في استعمال الطرق الحديثة للوقاية من عدوى الوباء

بعد ان تولى حمودة باشا عرش تونس بسنة واحدة ، اى سنة ١٧٨٣ ، حل بتونس طاعون جارف اهلك العديد من العباد والماشية بالبلاد التونسية جميعها .[2]

واثناء تلك الكارثة ثم بعدها اتخذ حمودة باشا عدة اجراءات حديثة للوقاية من الوباء والحد من العدوى . ومعظم تلك الاجراءات كانت مبادءات منه لم يسبقه اليها احد من حكام تونس . سنقسم تلك الاجراءات ، التي كانت تمثل الطرق الحديثة للوقاية ، الى قسمين : قسم تذكر فيه الاجراءات التي اتخذها لمنع تسرب العدوى من الخارج الى تونس . وقسم تذكر فيه الاجراءات التي اتخذها للوقاية في الداخل والحد من العدوى .

(١) اجراءاته لمنع تسرب العدوى من الخارج

قبيل عهد حمودة باشا كانت توجد كرنتينة في البحيرة قرب حلق الواد لمراقبة السفن الاتية من المشرق فقط ايام ظهور الوباء هنالك . واذا ثبت تلوث بالوباء تحجز السفينة وركابها في الكرنتينة مدة خمسة عشر يوما كعمل احتياطي .[3]

١ــ المصدر ذاته ، ص ١٢٨ .

٢ــ انظر اعلاه ، ص ٢٦٨ .

٣ــ رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ١ جوان/ حزيران ١٧٨٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

غير ان ذلك الاجراء كان اجراء حكم عليه الطبيب ديفونتان سنة ١٧٨٣ بانه قليل الفائدة نظرا الى عدم وجود ما يماثله في موانيء المدن الاخرى على طول السواحل التونسية ، والتي تستقبل جميع السفن بدون تمييز.(١)

يظهر ان حمودة باشا كان غير مطمئن لذلك الاجراء الاحتياطي ،او شعر بقلة فائدته كما شعر الطبيب ديفونتان ،فنراه سنة ١٧٨٤ يحدث بعض التغييرات المفيدة في هذا الميدان . فقد اعلمنا القنصل البريطاني تريل ان حمودة باشا امر بتطبيق ذلك الاجراء الاحتياطي ، لا على السفن القادمة من الشرق فحسب ، بل على جميع السفن القادمة من الجزائر ومن طرابلس الغرب ايضا ، وان يتم فحص تلك السفن بكل دقة وعناية .(٢)

وفي سنة ١٧٩٠ يذكر القنصل البريطاني ماجرا ان عمل " الكرنتينات" اصبح يطبق حتى على سفن بعض البلدان الاوروبية مثل راغوصا . غير انه يصف تلك الاعمال الوقائية بالكرنتينات بانها " سخيفة " لان العمال الذين كانوا مكلفين بتطهير البضاعة الموجودة بالسفينة كانوا يمسكونها بأيديهم .(٣) بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات ورد تقرير للحكومة الفرنسية يعلمها بان " الحكومة التونسية اقامت تدبيرا صحيا جديدا لوقاية الاهالي من الاوبئة . ويقتضي هذا التدبير وجوب فحص جميع السفن القادمة الى تونس من الخارج . وذلك يتم في الكرنتينات التي تراقب السفن وتفحصها بكل دقة وصرامة ." ثم يؤكد القنصل ان جميع السفن ترضخ لهذا الامر" حتى تلك الاتية من بلدان متقدمة مثل فرنسا التي يتمتع اهلها بصحة جيدة دائما.(٤)

١- ديفونتان ، رحلة ،ج ٢ ،ص ٥٦ .

٢- رسالة ج. تريل المذكورة اعلاه ذاتها .

٣- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس، ١٥ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ١٨٠٥ ،خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب٣ ، ٣٠٤ .

(٢) اجراءاته للوقاية والحد من العدوى في الداخل

أيام وباء سنة ١٧٨٣ اتخذ حمودة باشا اجراءات متشددة بقصد الحد من انتشار عدوى ذلك الوباء . في اول ظهور ذلك الوباء "... المعروف عند اهل الحاضرة بالوباء الكبير..." اصدر حمودة باشا امرا وقائيا يقتضي "... حرق ثياب الموتى وكسوة بيوتهم وغلقها ، وغسل الغرباء بالمقابر ، وسجن مرضاهم بمخازن القلالين". [1] وقد نفذ حمودة باشا امره ذاك باجتهاد على الرغم من ضجة الناس " من حرق ثيابهم". غير ان بعض الادباء ورجال الدين عارضوا اجراءات الباي تلك . وقد اورد صاحب الاتحاف أرجوزة لاحد الادباء المعارضين لاجراءات الباي تلك يقول فيها :

وقال أهل الفضل والعرفان	نفّوض الأمر الى الرحمان
الخالق المصور القدير	ليس لفعل غيره تأثير
أمرنا بالذكر والدعاء	وهو الذى ينجي من الوباء [2]

أما العلماء وعلى رأسهم المفتي ابو العباس احمد البرانسي (ت. ١٧٨٣) [3] فقد ابلغوا الباى رأيهم في اجرائه ذاك وهو "... ان لا يجمع على الناس مصيبتي النفس والمال ، والواجب الاستسلام لقضاء الله وقدره" وأضافوا ان " من ورثة هؤلاء الاموات ايتام وارامل ، وان رأيت ذلك من الطب فلورثة الموتى ان يطلبوا ثمن ما حرق لهم". [4] وقد اشتد نكير هؤلاء على حمودة باشا

١ــ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٤ .

٢ــ المصدر والصفحة ذاتهما .

٣ــ ترجم له ابن ابي الضياف بالاتحاف ، ج ٧ ، ص ١٣ .

٤ــ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٤ ــ ١٥ .

" وكرروا مراسلته مع شيخ المدينة المأمور بحرق الثياب " الى ان تراجع الباى عن أمره الاصلاحي ذاك . وينهي ابن ابي الضياف حديثه ، الذى يفهم منه انه يحبذ رأي رجال الدين ، عن هذه الحادثة بقوله : " ومن المقدور لا يغني المحذور ".(١)

وهكذا تخلى حمودة باشا عن تنفيذ اصلاحه ذاك بضغط من رجال الدين ، كما يقول صاحب الاتحاف الذى لم يذكر لنا ان كان من العلماء من يؤيد الباى في ذلك الاجراء . على ان القضية رجعت الى بساط البحث بين العلماء في سنة ١٨١٨ . وقد اجتهد فيها العلماء وافترقوا الى قسمين : قسم يرى بالاحتفاظ والاخذ بوسائل الوقاية ، وقسم " لا يرى هذا الاحتفاظ ويرى التسليم الى مجارى القدر ، ومن المقدور لا يغني الحذر ...".(٢)

يغلب عن الظن ان حمودة باشا اتخذ قرار التخلي عن اجرائه الاصلاحي ذاك مجاراة لرجال الدين . اما هو شخصيا فقد كان ينفذ " جميع" النصائح الطبية التي كان يسديها له القناصل الاوروبيون ، ومنها عدم الاتصال بمن خارج القصر ، للوقاية من العدوى الوبائية . وقد اتخذ الاجراءات الحديثة اللازمة سواء بالنسبة له او لمن يسكن قصره.(٣) ولم يكتف الباى بتنفيذ نصيحة القناصل تلك وهي النصيحة التي تقيه هو وحاشيته من كوارث الوباء ، بل نفذ نصيحة اخرى اسداها له هؤلاء اثناء طاعون سنة ١٧٨٥ . وتقتضي وجوب دفن الموتى في عمق لا يقل عن المترين بعد ان كانت جثث الموتى تكاد

١- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥ .

٢- انظر تفاصيل القضية بالمصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٢٧-١٢٩ .

٣- فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ١٣٠ .

تظهر من تحت طبقة رقيقة من التراب . وقد كان القناصل لاحظوا ان تلك المقابر كانت تزود البلاد بالكثير من الابخرة والروائح المتعفنة . وبعد ذلك استمر العمل بذلك الاجراء الصحي وصار عادة معمولا بها في البلاد التونسية.[(1)]

بجانب تلك الاجراءات الصحية الزم حمودة باشا ، لاغراض صحية اوعمرانية ، اصحاب العقار الخارب في اطراف العاصمة بسبب الاوبئة والقحط " باصلاح الخراب او البيع ان عجزوا" ، وقد غصبهم الباى على ذلك " لدفع الضرر". ولما تحيل بعضهم بتحبيس عقاره امر حمودة باشا القاضي الحنفي "بنهي الشهود [الكتاب العدول] عن كتب تحبيس في عقار الا عن اذنه". وهكذا كان العمل " فصار من يريد التحبيس يطلب اذنا من الباى للقاضي ليأذن العدول بكتبه ، بعد ان يثبت لديه ان العقار لا خراب فيه ، وانه على الحالة الكاملة المنتفع بها ."[(2)]

٣ . في المجال الديني

(أ) تحبيذه الاجتهاد في الشؤون الدينية

كانت لحمودة باشا غيرة شديدة على الدين الاسلامي [(3)] "وتعظيم للشريعة المطهرة ...".[(4)] ومما يدل على تدينه " احياؤه" سنة ١٨٠٥ ،[(5)] كما يذكر استاذ الاثار بتونس زبيس ، لمسجد بالعاصمة لا يزال يعرف باسم مسجد حمودة باشا . وكذلك تجديده لزاوية سيدى عبد القادر الجيلاني بمدينة الحمامات .

١- المصدر ذاته ، ص ١١ ، ١٣٠ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٨٧.

٣- مارسال ، تاريخ تونس ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ فروجيا ، " العملة الحسينية ، رقم ٣" ، المجلة التونسية ، عدد ١٧ (١٩٣٤) ، ص ٨٢ ؛ وانظر بعض الامثلة على ذلك في ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ - ٨٨.

٤- اتحاف ، ج ٣ ، ص ٨٧.

٥- آثار الدولة الحسينية ، ص ١١.

وبناؤه لقبة على قبر احد الصالحين بمدينة المرسى قرب العاصمة .(١)

غير ان تدين حمودة باشا واحترامه لاحكام الشريعة والتقيد بها (٢)لم يمنعاه من اتباع سياسة انفتاح تعتمد ،مرات عديدة ، على الاجتهاد في الامور الدينية لايجاد الحلول المناسبة لها . ويصدق ذلك خاصة في الامور التي لها علاقة بالمصلحة العامة كما سيأتي . اما الامور الدينية التي تدور حول قضايا شرعية بحتة مثل الحكم على مدى شرعية دعوة الوهابيين ومناقشتها والرد عليها ، فقد احالها الى العلماء ورجال الدين وهم الذين اخذوا موقفا موحدا يرفضها رفضا باتا . وكلف حمودة باشا القاضي عمر المحجوب(ت١٨٠٧) الرد على رسالة كان تلقاها الباى من محمد بن عبد الوهاب(ت١٧٩٢) صاحب تلك الدعوة وفيها يدعو الناس للدخول في مذهبه . ومما حرره القاضي في الرد قوله : " ... اما اهل هذه الاصقاع ، والذين بأيديهم مقاليد هذه البقاع ،فهم اجدر ان يكونوا من اخواننا ،وتمتد ايديهم الى خوانها ،لصحة عقائدهم السنية ،واتباعهم سبل الشريعة المحمدية ، ونبذهم للابتداع ،وانقيادهم للاجماع وسبيل الموءمنين" وورد في الرسالة قوله مهددا امام الوهابيين:" ...وان اطلت في لجة الغواية سبحك وشيدت في الفتنة صرحك ،واختلت عارضا رمحك ، فان بني عمك فيهم رماح ،وما منهم الا من يتقلد الصفاح ،ويجيل في الحرب فائز القداح ".(٣) وقد كتبت عدة رسائل اخرى في الرد على الوهابية منها رسالة العلامة اسماعيل التميمي (ت. ١٨٣٢) المسماة " المنح الالهية في طمس

١- المصدر ذاته ،ص١٩ ، ٢٠ ؛ انظر بعض استنتاجات الموءرخ مارسال تتعلق بتدين حمودة باشا ،تاريخ تونس،ص٢٠١ - ٢٠٢ .

٢- ابن ابي الضياف ،اتحاف،ج ٣ ،ص٨٧.

٣- انظر المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٦٠ - ٧٥.

الضلالة الوهابية ".[١] وعندما وردت اخبار تغلب العثمانيين على الوهابيين استبشرت البلاد وأطلقت " مدافع الحاضرة سرورا بذلك".[٢]

أما في ما يتعلق بعمل حمودة باشا بسياسة دينية تحبذ الاجتهاد في الشؤون الدينية فقد ظهر لنا ذلك من عدة قضايا سبقت في هذه الدراسة. منها عمله بـ" رسالة السياسات الشرعية" التي الفها المفتي محمد بن حسين بيرم بطلب من الباى ذاته . وهي الرسالة التي اعتمد مؤلفها في تقريرها على الاجتهاد في الاحكام الشرعية . وقد تمكن حمودة باشا بفضل تلك الرسالة من القاء القبض على من تحوم حوله الشبهات ،اعتمادا على مجرد الظن. وهو امر كان ممنوعا شرعا الى ان تتم البينة الشرعية . وعمل حمودة باشا بهذة الفتوى خاصة في شأن ابعاد الاتراك عن السلطة.[٣] وقد حاول ذلك الباى الحصول على فتوى شرعية من المفتي نفسه يعتمدها في حربه لعلي برغل بطرابلس الغرب ، غير ان المفتي لم يستجب لتلك الرغبة واجابه بقوله : " هذا أمر سياسي، انفع الاشياء فيه استعانتك باهل الرأى ورؤوس الجند واكابر الدولة ،واما العلماء فلا تجد عندهم فائدة لك ، ولا تؤمل منهم فتوى تعتمدها في الحرب بين المسلمين ....".[٤] وعلى الرغم من ذلك الامتناع نفذ حمودة باشا امر الحرب ضد طرابلس .

١ـ المصدر ذاته ج ٣ ،ص ٦٣ ـ ٦٤ .

٢ـ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٦٠ ،٧٥ .

٣ـ انظر اعلاه ،ص ١٣ ـ ١٥ .

٤ـ المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٦٣ .

بجانب ذلك عمل الباى بالاجتهاد في المجال الديني عندما اتخذ اجراءه الشديد الذى يقتضي " ... حرق ثياب الموتى [بالوباء] ، وكسوة بيوتهم وغلقها...".[1] وعلى الرغم من معارضة رجال الدين لذلك الاجراء وضغطهم على الباى الى ان تراجع عنه ، فان الباى كان يعمل ، هو وحاشيته ، على حسب القواعد الصحية الحديثة لاتقاء العدوى . ليس هذا فقط بل أمر ، كما مر معنا ، بوجوب دفن الموتى في عمق لا يقل عن المترين .[2] وكذلك الاجراء الذى اتخذه الباى بمنع تحبيس العقار الخارب ، بسبب الوباء والقحط ، الا باذن شخصي منه .[3]

هذا وقد ظهر عدد من العلماء في عهد حمودة باشا ممن يروى عنهم أو يمكن ان يستنتج انه كان لهم اجتهاد . نخص بالذكر منهم ، بالاضافة الى المفتى محمد بن حسين بيرم ، ثلاثة هم :

١. علي خليف (ت. ١٨١٦/١٧) : كان " عالما عاملا " من مدينة صفاقس يذكره صاحب الاتحاف ويقول كان " له نظم في تحريم الدخان ".[4]

٢. محمد زعفران (ت. ١٨١٩) : كان " عالما فقيها معظما تدرج في الخطط العلمية وولي القضاء ببلده المنستير ، فأقام رسم الحق ". عرضت على هذا القاضي قضية شرعية حكم فيها " بغير المشهور من مذهب الامام مالك " وبعد انقضاء سنتين على تنفيذ ذلك الحكم رجع القاضي ونقض حكمه ، وبين اسباب غلطه . يذكر المؤرخ ما حصل بعد ذلك بقوله : " فاشتكى المحكوم عليه للمجلس الشرعي بباردو ، بين يدى الباى ، وتأمل المجلس في الحكم ، فأثنوا على صاحبه بمتانة الدين ، وايثار الحق عن حظ النفس ، وعظمت منزلته ، ونقل لخطة الفتوى بسوسة ...".[5]

١- انظر اعلاه ، ص ٣٣٩-٣٤٠ .
٢- انظر اعلاه ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
٣- انظر اعلاه ، ص ٣٤١ .
٤- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١٠٤ .
٥- المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١١٥ .

٣- اسماعيل التميمي : كان من علماء جامع الزيتونة ومدرسيه ، واولاه حمودة باشا خطة قضاء مدينة تونس سنة ١٨٠٦ ، ثم نقل لخطة الفتوى سنة ١٨١٦ . يذكره صاحب الاتحاف بقوله :

" وكان هذا الفاضل من علماء هذه الامة المحمدية ، آية الله في الحفظ والثبات ، آخذا مأخذ المجتهدين في تعليل المسائل الفقهية ، بمدارك اصولها الشرعية ، ويصرح بانه من اهل الترجيح ، ولم ينكره احد عليه ، بل يعتمدون ترجيحه عند تسليم الدليل . ويستفتي من حاضرة العلم فاس ، ومن قسنطينة والجزائر وطرابلس ، ويجيب بالكتابة ".(١)

(ب) ابطاله لبعض العادات والبدع الدينية

ومن تدابير حمودة باشا الدينية ابطاله لبعض التقاليد والبدع ذات الطابع الديني او العقائدي التقليدي التي كانت تجري في تونس . من تلك التقاليد ان خطة امامة الجامع الاعظم ، جامع الزيتونة ، كانت محصورة في عائلة البكري يتوارثها الابناء عن الاباء مدة تفوق المائة سنة "... غير معتبر فيها الا هذا النسب". وفي سنة ١٨١٢ توفي الشيخ علي البكري ، امام الجامع ، وكان "لا يحسن قراءة ولا معرفة بفرائض الصلاة" . فتكلم الناس بشأن تقديم ابنه القاصر عوضه ، غير ان حمودة باشا اعترض ذلك التقديم بشدة وقال : "لا تبقى امامة جامعنا الاعظم ملعبة بين الجهال والاطفال ، واقدم من لا يتكلم في تقديمه مسلم ، وهو شيخ الشيخ ، الجامع بين شرفي النسب والاكتساب ، ابو محمد حسن ابن الامام الشيخ عبد الكبير الشريف [ت. ١٨١٩](٢)" . يصف ابن ابي الضياف وقع قرار الباي

١- المصدر ذاته ، ج ٨ ، ص ١٢ .

٢- انظر ترجمته بالمصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٦٩ - ٧٢ .

ذاك على مستمعيه بقوله : " فوجم كل من سمعه " ثم " اعطى [الباي] القوس باريها ، وقدم للمحراب صاحبه ، وللمنبر فارسه ".(١)

ومن تلك التقاليد التي ابطلها الباي تحكيم المذهب الحنفي - وهو المذهب الذى كان عليه البايات ومن جرى مجراهم ممن يرجع نسبهم الى الاتراك العثمانيين - في ثبوت اهلة الشهور . وامر باعتماد المذهب المالكي في ثبوت تلك الاهلة قائلا : " كلهم على هدى من ربهم ورحمة ، ويسعنا تقليد امام دار الهجرة ، لا سيما واهل مذهبه اكثر اهل المملكة ". ومنذ ذلك الحين باشر القاضي المالكي ذلك الامر واستمر العمل عليه في ما بعد .(٢)

اما في ما يتعلق بالبدع التي ابطلها الباي فاهمها ما يأتي :

١. البدع التي كان يمارسها افراد طائفة السودان بتونس والتي وصفها التنبكتاوى في رسالة منه الى حمودة باشا مؤرخة بسنة ١٨٠٠ ، بأنها بدع اثبتت شرك السودان وافسدت على الناس دينهم . وفي الباب الثاني من الرسالة يذكر المؤلف بعض اسماء الهتهم ، ومن هذا الباب قوله :

" اعلم [الكلام موجه الى حمودة باشا] اجارنا الله واياك من الشرك الاكبر والاصغر ان اصنام هؤلاء العبيد لا تنحصر بعدد وانما اذكر ما امكن لي في ذلك من الصور والالات والمطامير والديار التي بها الصور والالات والمطامير فمن ذلك سلطان الهتهم - شركند - وهو الذى في دار كوفة وهي الدار التي يجتمعون فيها في شعبان كاجتماع الناس في بيت الله الحرام في اشهر الحج وفيها ايضا مصور يزعمون ان فيه حية ويزعمون ان شركند هذا هو سلطان جن البلاد والعمار وفي تلك الدار صور وايات وامور لا تعد ولا تحصى

١- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، انظر ايضا المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٧١ .

٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

و - عريفة - تلك الديار ما سمعت كلمة الشهادة عند احد ابدا الا خاصمته واصل دار كوفة هي حبس عن معتقة اسمها كوفة . وعندهم صنم يقال له - شرك يحوار - وهو دون الاول في الرتبة بزعمهم لان هذا سلطان في بلاده فقط وهو بمنزلة القائد مع الباشا وهو في دار جماعة يحوار وبعد هاذين الدارين لهم عجايز يعبدونها ويسمون كل واحدة منهن عجوزا، وينسبونها الى فلان ويقولون لها عجوز الفلانتي وهي في دار سكتى ودار بمقر وفي كل دار من هذين مطمور والات لهو يقال لها كمبرى ويعبدون تلك الالهية ويذبحون لها ولا يمسها احد منهم الا على وضوء كامل كما قال الله تبارك وتعالى في حق كتابه ... ويزعمون ان كمبرى هذه نزلت من السماء وانها كانت عند بلال رضي الله عنه اعوذ بالله من هذه المقالة التي لا يفوه بها من في قلبه رائحة الايمان ولهم كذلك في غير هذين الدارين من الديار كدار بيليك ونف وزكزك وكن وسير ولهم ايضا عجائز ومطامير في كل دار من ديارهم في دار جنفر آلة تدعى دنوف ويذبحون لها ويدهنونها بالدم وفي رأس كل خادم [عبد] جن يذبح له ويسجد له كما يأتي في الصفة ان شاء الله تعالى والحاصل ان لكل دار جماعة مطمورة والهة تعبد وهذا كله معلوم ومشاهد لا يمكن لاحد انكاره ... ومن عباداتهم ايضا انهم يشربون الدماء عند ذبحهم لالهتهم ويزعمون ان الجان هم الذين يشربون ذلك الدم ولو لم يكن في هذه الفتنة غير هذا لوجب تغييرها لحرمة الدم الخارجة عند الذبح لقوله تعالى ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير...﴾[1]...

١- قرآن كريم ،سورة المائدة ،آية رقم ٣ .

وبعد ان يورد صاحب الرسالة طرق عباداتهم وشركهم يرد على مبادئ اولائك العبيد ومعتقداتهم واحدة واحدة محتجا بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية والادلة الشرعية . ثم يقول :

" فيا أيها الامير السعيد اعلم أنه ليس في بلاد المسلمين كافة حبس محبس للاصنام ومنع ذلك في بلادك اولى واليق لكثرة مدح الناس لك وثنائهم عليك بالخير خصوصا على منابر المسلمين سدد الله أمرنا وامرك واعلم ايضا يا سيدى والله ان تغييرك لهذا المنكر اعظم لك اجرا من بناء الف مسجد والف مدرسة واعطائك كل يوم الف دينار للمساكين ومجاهدتك النصارى وكيف لا يكون هذا اعظم اجرا من بناء المساجد وما والاه وحفظ ايمان المسلم واجب واوكد من غيره و... حفظ البلاد والديار العامرة اهم من تعمير الديار الخالية ولا يخفى عليك ان هذا المنكر قد شاع وعمت به البلوى الا ترى يا اميرنا ان كثيرا من نساء المسلمين دخلت في زمرتهم في هذا المنكر ... كما انه ايها الامير أن ضعاف الرجال دخلوا معهم في هذا المنكر ايضا واعلم يا سيدى عمل هؤلاء العبيد خراب هذه الديار حيث انهم اكلوا اموال بلادك ظلما وزورا وعدوانا حيث انهم يأخذون اموالا طائلة لا تحصى ولا تعد من النساء لعبادة الجان ...".(١)

وقد أوقف حمودة باشا بدع السودان هذه عند حدها ومنعهم من مزاولة شركهم ، ولم تمض الا بضع سنوات على كتابة رسالة التنبكتاوى حتى اصبح اولائك السودان مشتتين في البلاد يعيشون على السؤال في سقائف ابواب مدينة تونس .(٢)

١- هتك الستر ص ٢-٤ ، ١٠ - ١١ .

٢- انظر اعلاه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

٢ • البدعة الثانية التي أبطلها حمودة باشا سنة ١٨٠٢ هي ما كان يقوم به " بعض الرعاع من العامة " ليلة عاشوراء بقصد التكسب • وقد كان هؤلاء " يحملون شبه رأس انسان ويدورون به في الازقة والحارات بمشاعل ...". وخلال ذلك كانوا يطلقون البواريد والمحرقات • وقد افتى بعض العلماء " بان هذا من فعل الشيعة من اهل البدع ، يتذكرون به مصرع سيدنا الحسين رضى الله عنه بكربلاء في عاشوراء ، وقد كان ذلك في دولة بني عبيد من ابناء فاطمة رضي الله عنهما ." [١]

٣ • البدعة الثالثة التي ابطلها الباى هي كسر الحجر الذى كان " الجهال " يذبحون به الذبائح ويلقونها في الماء • ومن هؤلاء من كان " يشترط عدم التسمية " عند ذبح تلك الذبائح • كان هذا الحجر ، المعروف " بكرسي الصلاح " ، يوجد في ضاحية شمالية من ضواحي مدينة تونس مطلة على البحر يطلق عليها اسم " سيدى ابي سعيد " • تم ابطال هذه البدعة بفتوى من المفتي ابي العباس احمد البارودى (ت• ١٨١٤) • [٢] وقد حضر حمودة باشا بنفسه تنفيذه امر كسر ذلك الحجر • [٣]

(جـ) حرية المعتقد لغير المسلمين بتونس

كان حمودة باشا يعمل على عدم التدخل في الشؤون الدينية للمسيحيين المقيمين ببلده • يذكر الطبيب فرانك ان ممارسة المسيحيين لطقوس ديانتهم بتونس كانت في عهد حمودة باشا حرة تمام الحرية • [٤] وكان هؤلاء وحتى الارقاء منهم يؤمون كنائسهم اى وقت ارادوا ، وكانوا يتكاثرون فيها خاصة

---

١ — ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٦ •

٢ — انظر ترجمته بالمصدر ذاته ج ٧ ، ص ٨٦ — ٨٩ •

٣ — المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٩ •

٤ — وصف البلاد التونسية ، ص ٩٠ •

في عيدى الميلاد والفصح .[١] غير ان السماح لكنيسة القنصلية الفرنسية بتونس بدق اجراسها لقداس يوم الاحد قد توقف العمل به منذ قيام الثورة الفرنسية . واصبح يتلى القداس في تلك الكنيسة بدون دق اجراس.[٢]

ولعل من ابرز مظاهر عدم تدخل او عدم اهتمام حمودة باشا بشؤون غير المسلمين بتونس ، سواء افرادا او جماعات ، هو عدم تحمسه او اطرائه لمن كان من هؤلاء يعتنق الدين الاسلامي . فاذا قارنا ما فعله والد حمودة باشا الذى اجرى على عدد من اليهود ، كانوا اسلموا ، وعلى ابنائهم جرايات ورزقا في كل شهر واعتبرت له " من الحسنات المخترعة التي لم يسبق اليها".[٣] وعلمنا ان رجلا مسيحيا مؤهلا " qualifié " اراد ان يدخل الاسلام على يدى حمودة باشا فأثناه هذا عن قصده . وبعد ان الح المسيحي في قبول مطلبه تساءل عن سبب عدم اطراء الباى له وتقدير عزمه . فكان جواب الباى: " بالنسبة لي ، عندما يقطع ذنب خنزير ، يبقى الخنزير كعادته خنزيرا".[٤] اذا قارنا تينك الحادثتين علمنا مدى اختلاف التدبيرين في هذا المجال بين على باشا وابنه حمودة باشا .

ومما يستدعي النظر انه ، بالرغم من عدم الاهتمام هذا ، كان عهد حمودة باشا ، كما يذكر مجيل ، العهد الذى اسلم فيه اكبر عدد من المسيحيين على

١- كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٥٠ .

٢- المصدر ذاته ، ص ٤١ .

٣- ابن عبد العزيز ، التاريخ الباشي ، ص ٥٠٧ .

٤- كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص ٤٥ .

الاطـلاق .[١] بعد ذلك يعلل الرحالة البريطاني سبب تلك الظاهرة بانهـا ترجع الى " رغبة هوءلاء في ان يصبحوا مواطنين تونسيين ، وهم لا يرغبون فـي الرجعة الى اوطانهم قط لان حياتهم بتونس احسن مما هي في بلدانهم ".[٢] ثم يذكر ان حتى الرقيق المسيحي ذاته هو عند المسلمين بتونس اسعد بكثير منهـم عند المسيحيين في اوروبا . وذلك " ... لان المسلمين يمتلكون الرقيق بعد غنـى وثروة والاوروبيون يمتلكونه ليصيروا اغنياء " ، وهو سبب تشبثهم بالبقاء في تونس .[٣]

٤ . في المجال الفكـــرى

تقدم المعلومات المتوفرة لدينا عن تدابير حمودة باشا في المجال الفكـــرى مادة تمكننا من وصف تلك التدابير بانها كانت ، هي الاخرى ، اصلاحية متنورة في العديد من مظاهرها . واهم تلك المظاهر هي احترامه للعلماء ، واستحداث طرق تعليمية ومواد جديدة في مجال التعليم في عهده ، واطلاعه على الحضـارة الغربية وبداية تأثر التونسيين بها .

(أ) احترامـه للعلماء

قبل ان نبحث هذا القسم والقسم الذى يليه من سياسة حمودة باشا فـي المجال الفكرى من المفيد ان نشير الى امرين اثنين . الامر الاول هو ان الحيـاة العلمية بتونس رأت ازدهارا عظيما في عهد علي باشا والد حمودة باشا . فقـد بنى عدة مدارس واجرى على العلماء المدرسين الرواتب العالية ومنح الطلبـة اعانات كثيرة دائمة ، سواء منهم من كان في العاصمة او خارجها . وبلغ اهتمـامه بتشجيع تحصيل العلم حد اعفاء الطلبة من الخدمة العسكرية .[٤] يصف ابن ابـي الضياف انجازات علي باشا تلك بقوله :

١- رحلة ، ص ٨٥ - ٨٦ .

٢- المصدر ذاته ، ص ٨٦ .

٣- المصدر ذاته ، ص ٨٤ .

٤- انظر ابن عبد العزيز ، التاريخ الباشي ، ص ٤٤١ - ٤٥٣ ، ٥٠١ - ٥٠٢ .

" وهو الذى أحيا رسوم العلم بعد عفائها ، وأيقظ أجفان طلبته بعد اغفائها ، بالتفاته الى اهل العلم بالصلات المتوالية ، والاكرام والتعظيم والمجالسة والمسامرة ، بحيث لا يخلو مجلسه منهم . واكتسب بذلك ملكة ومشاركة ، لا سيما في الحديث والفقة والتاريخ. ووزع دخل الجزية بتمامه بين المدرسين والمتأهلين من الطلبة ، وقدم لها وكيلا مخصوصا من اهل العلم ، وزادهم من فواضل الاوقاف في طرق البر ، واعتمد ما جرى به العمل عند الايمة المالكية ، من الفتوى بجواز ذلك ، بحيث لم ينقطع عمل المحبسين بعد موتهم . وفعل مثل ذلك في مدن المملكة ، بالقيروان وسوسة وصفاقس والمنستير وباجة والكاف وقفصة ، غير ان القيروان لما لم تكن مسكنا لاهل الذمة ، رجع لعلمائها جزية أهل الذمة بجربة... وأوقف اوقافا نافعة على المدرسين ، باق بها عمله " (١)

وكانت نتيجة سياسة على باشا تلك ما يذكره ابن عبد العزيز بقوله :

" ... واكثر مولانا [علي باشا] ايده الله تعالى من الجرايات والاوقاف لأهل العلم بحضرته ، فكثر طالبه فيها ، وارتحل اليها الناس في طلبه من الآفاق ، ونفقت به اسواقه ، وزخرت بحاره ، ففيها اليوم من الجهابذة النقاد ، والفحول الذين تضرب اليهم أكباد الابل ، جماعة لا يشق غبارهم ، ولا يجارى مضمارهم ." (٢)

١ـ اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

٢ـ التاريخ الباشي ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

الأمر الثاني الذى تجدر الاشارة اليه هو ان الوباء الذى اجتاح البلاد التونسية في السنة الثانية من تولي حمودة باشا العرش ،اى سنة ١٧٨٣،[١] افقد تونس العديد من علمائها . وهي كارثة يذكرها مقديش بقوله "... ومات اكثر اهل الخير والصلاح وحملة القرآن العظيم واكثر الفقهاء والعلماء واسودت الدنيا في اعين ابنائها وأيس الناس من حياتهم ...".[٢]

بعد ذكر هذين الأمرين يمكننا ان نلاحظ في تدابير حمودة باشا الفكرية احترامه للعلماء . وهو على المرجح امتداد لما كانت عليه تدابير ابيه التي عاشها حمودة نفسه . وقد تكون تلك التدابير ازدادت قوة عندما رأى الكثير من هؤلاء يفنون اثناء وباء سنة ١٧٨٣ . فسعى جهده للابقاء على حالة الازدهار العلمي التي كانت تونس تتمتع بها في عهد والده ، وزاد على ذلك تشجيعه على الاخذ من الحضارة الغربية الحديثة .

ومن باب احترام حمودة باشا للعلماء ما يمكننا ان نستدل عليه من مقارنة صيغة امرين عليين . أولهما الذى صدر سنة ١٧٨١ ، قبل توليه العرش بسنة واحدة ،وهو خال من ذكر اسم العلماء والفقهاء ؛[٣] وما ورد في الامر الذى صدر سنة ١٧٩٣ ،وهو مصدر باسم " العلماء الاعلام والفقهاء الكرام".[٤] ومن هذا

١- انظر اعلاه ،ص ٢٦٨.
٢- نزهة الانظار ،ج ٢ ،ص ٨٠.
٣- في سنة ١٧٨١ كانت تلك الاوامر تصدر كالاتي : "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . الى من يقف على امرنا هذا من المفتيين والقضاة والكواهي والاغوات والقياد والخاص والعام سدد الله احوال الجميع امابعد ..."؛ انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٩٨٧ ،كرتون رقم ٨١ مكرر.
٤- في سنة ١٧٩٣ اصبحت تلك الاوامر العلية تصدر على النحو التالي : "الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم . الى من يقف على امرنا هذا من العلماء الاعلام والفقهاء الكرام والمفتيين والقضاة والكواهي ... سدد الله امر الجميع ووفق الكل لصالح القول وحسن الصنيع اما بعد ..."؛ انظر المصدر المذكور اعلاه والملف والكرتون ذاتها.

الباب ايضا استثناء حمودة باشا لاهل المجلس الشرعي سنة ١٨٠٦ من الاداء الذى الزمه على " سائر الناس من الزوايا وغيرهم، لدفع اعشار حبوبهم بالرابطة..." وذلك لتوفير الخبز للعسكر قبل حرب الجزائر بقليل .[١] ومنه ايضا حسن معاملته للعلماء وقضاء حاجاتهم .[٢] وقد كان حمودة باشا، مثل والده ، يجالس بعض كبار العلماء ويشارك في مناقشاتهم . يذكر صاحب الاتحاف ذلك بقوله :
"... وكان الامير [حمودة باشا] ... يحب مباحثة اهل المجلس الشرعي [وهو مجلس يضم عددا من المفتيين والقضاة العلماء] بحضرته ، ليستفيد ويشارك... وكان يقول " اقوى الاسباب في تفقهي الشيخ منصور المنزلي" ... وكان حمودة باشا يعطل المجلس اذا كان لهذا الشيخ عذر يقتضي تخلفه...".[٣]

وثمة حادثة وردت تفيد ان حمودة باشا ضاق ذرعا من انتقاد احد العلماء لاجراء من اجراءات سياسته . وهي الخطبة البليغة التي القاها العالم عمر المحجوب انتقد فيها الباى " لسوء ما ارتكبه من منع بطانته من التزوج ، ايثارا لمصلحة خدمته على مصلحتهم ...". وقد اثارت تلك الخطبة الباى " وكاد ان يقوم قبل الصلاة ، لولا اناة فيه ، قيدت طبيعة غضبه ، فأسرها في نفسه...".[٤]

اما في ما يتعلق باعانة الباى لطلبة العلم فيظهر انه كان مقتنعا ان الرواتب التي تصرف لهم من عهد والده كانت كافية . وقد وردت في خزينة وثائق الدولة التونسية قائمة بالرواتب التي كان يدفعها حمودة باشا للعلماء

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٢ـ انظر امثلة على ذلك بالمصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٢٠ .

٣ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٤ .

والطلاب .[١] وبما انه ليس لدينا ما يدل على ان حمودة باشا قد بنى مدارس جديدة او استحدث اى اصلاح جديد في هذا المجال فقد نستنتج ان هذه الرواتب هي استمرار لما كان يدفعه والده. غير انه من الجدير بالذكر هنا ان وزير حمودة باشا يوسف صاحب الطابع هو الذى تصدى في العهد الذى ندرسه لبناء المدارس والكتاتيب العديدة واجرى الجرايات الوافرة على رجال العلم وعلى الطلبة والتلاميذ وبنى جامعا لا يضاهيه في حلقات الدروس التي تلقى فيه الا جامع الزيتونة .[٢]

(ب) استحداث طرق تعليمية ومواد حديثة للتعليم في عهده

لا توفر المعلومات المتيسرة لدينا مادة كافية توضح لنا تدابير حمودة باشا في مجال التعليم . غير أن ما يمكننا تقريره هو ان بعض النزعات الاصلاحية قد تمت في عهد ذلك الباى على ايدى بعض العلماء كما سيتضح لنا في مايلي.

أورد ابن ابي الضياف اشارة واحدة مقتضبة قد تعطينا خيطا بسيطا عن ميول حمودة باشا الاصلاحية في مجال التربية . هذه الاشارة وردت بترجمة ابي الحسن علي الجزيرى (ت. ١٨٠٠) ، وفيها يذكر المؤلف انه يحكى ان علي الجزيرى الذى كان " شجاعا مهيبا ، خيرا وجيها ، ذا جد وحدة ..." كان بمكتبه بالعاصمة لما سمع معلما أفرط في ضرب صبي صغير بحجة انه " لم يحفظ". فقال الجزيرى لذلك المعلم : " أن بنيته لا تطيق هذا المقدار ، ولعلك ايها المؤدب لم تعلم معنى الضرب" ، ثم قام وجلد بنفسه ذلك المعلم " وأوجعه".

١- انظر قائمة الرواتب التي كان يدفعها حمودة باشا للمشائخ والعلماء والطلبة بخزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٨٥ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

٢- بشأن المدارس والكتاتيب التي بناها يوسف صاحب الطابع والمنح التي كان يقدمها للمعلمين والتلاميذ انظ خاصة ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧، ص ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛ أما بشأن جامع صاحب الطابع والتعليم فيه وجرايات العلماء والطلبة فيه فانظر خاصة المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥٩ ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ج ٧ ، ص ٩١ ، ٩٤ ؛ الكعاك ، مراكز الثقافة ، ص ١٠٥ .

بعد ان يذكر المؤرخ هذه الحادثة يعلمنا ان الباى سمع بذلك " ولم ينكرها عليه [علي الجزيري]". [1] يمكننا ان نستخلص من هذه الحادثة مدى استنكار البـاى لسلوك ذلك المؤدب ، اذ لم يمر بنا ان جلد رجل مؤدبا حافظا للقـران ولم ينكرها عليه الامير أوغيره ·

اما بالنسبة للطرق التعليمية الجديدة في عهد حمودة باشا فمن الملاحظ انها جرت على ايدى مدرسين اثنين اولهما في الاهمية العالم ابراهيم الرياحي (ت· ١٨٥٠). [2] استحدث هذا العالم طريقة في التدريس هذه كيفيتهـا : ينقل الدرس كما ورد في الكتاب المقرر" ويمليه من حفظه" ، بعد ذلك " يقـرر ما يظهر له ، ثم يسرد كلام المصنف على كيفية تبعث النشاط في النفـس" ، وان " فحول العلماء ··· " من بعده اتخذوها طريقة في القاء دروسهم. [3] بعد ذلك اشتهر ابراهيم الرياحي وطريقته الجديدة في التدريس حتى بلـغ صيته البلاد المصرية ، ومنها قصده ابن اخي امير سنار من ارض الحبشـة حيث " تاقت نفسه الى كيفية التدريس بتونس ، وملأ سمعه خبر شيخنا العلامة ابي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فأتاه من مصر ومعه حرمه ، وقال له : " ما قادني لهذه الحاضرة الا اسمك··· ". [4]

هذه المحاولات الاصلاحية على اهميتها عند الرياحي كانت قد سـبقتها محاولات العالم الكاتب حسن الشريف (ت· ١٨١٩) · [5] من اشهر الطلبة الذين اخذوا عليه العلم الشيخ ابراهيم الرياحي ذاته · يصف صاحب الاتحاف طريقة

١ـ اتحاف ، ج ٧ ، ص ٣٧·

٢ـ انظر ترجمته بالمصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٧٣ ـ ٨٢ ، وانظر ادناه ، ص ٤٥٦·

٣ـ المصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٧٤·

٤ـ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٢٤·

٥ـ انظر ترجمته بالمصدر ذاته ، ج ٧ ، ص ٦٩ ـ ٧٢·

حسن الشريف الجديدة بقوله : "... انه كان يفاكه تلاميذه في الدرس ،خشية سآمتهم ،واذا بحث احدهم بحثا ،يحسن الاصغاء اليه ، ويعيده للطلبة بأوضح عبارة ،ويقول لهم : " هل ظهر لاحدكم جوابه ؟" ،واذا اجاب أحد يصغي اليه ،ويعيده ايضا ، تدريبا لتلاميذه على المباحثة ،وتلذذا بنجابتهم ، فاذا خرج احدهم عن ادب البحث ، يقطع المباحثة ،ويجيب التلميذ ، ويقبل على درسه." [1] يظهر ان تلك الطريقة الحديثة النافعة لم تنل رضا بعض معاصرى حسن الشريف ، فقد وجه له احدهم لوما على طريقته تلك في التدريس ونعتها بانها " لا تناسب مناصب الشيوخ " ، فكان رد المدرس على ذلك اللائم : " انت ترتاح بالمعاركة بين الديوك ، وانا ارتاح بمقارعة الرجال بسيوف العقول". [2] هذا ويظهر ان تلك الطريقة لقيت قبولا لدى المدرسين فيما بعد فقد ذكر ابن ابي الضياف ،وهو طفل صغير بصحبة والده ،انه رأى المدرس حسن الشريف يلقى درسا في علم الحديث "... وسائر مدرسي الجامع أمامه". [3]

في ما يتعلق بالمواد الحديثة التي كانت تدرس في عهد حمودة باشا فهي علوم الفلك والطبيعة (physique) والموسيقى ، كان معظمها يعلمها العلامة ابراهيم الرياحي بجامع الزيتونة . [4] اما مواد علوم المساحة والهندسة فقد كان يدرسها العالم المدرس محمد الفاسي (ت. ١٨١٧) بجامع الزيتونة ايضا ،وذلك بعد ان ارتحل هذا المدرس عن مسقط راسه فاس بالمغرب الاقصى واستقر بتونس العاصمة . [5]

١- المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ٧٠.

٢- المصدر والصفحة ذاتهما .

٣- المصدر والصفحة ذاتهما .

٤- M. S. Mzali, "Une dissertation de Sidi Brahim Er Riahi sur une question de physique", R. T., no. 126(1618), pp. 124-127.

٥- انظر ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٧ ،ص ١٠٢ - ١٠٣ .

هذا وقبل ان ننهي الحديث عن هذا القسم من المهم ان نذكر ان ذلك الباي لم يشجع الحركة الشعرية التي كانت قد اينعت في عهد والده علي باشا . فقد مر بنا ان حمودة باشا كان لا يحب الاسراف حتى اتهم بالشح .(١) وانه كان " لا يفتح اذنا لاطراء المادحين ويقول : "من مدحك بما ليس فيك ، جدير ان يذمك بما ليس فيك ، وانا اعلم به من نفسي ، وحالة بلادي ، وتصرف الملوك تابع لحال المملكة ، ويقبح بالانسان ان يجهل مقداره ويتعدى اطواره" (٢). وليس من شك في ان صفات حمودة باشا هذه تبعد الادباء وخاصة الشعراء عن معايشته ، وهو امر يفضي الى كساد سوق الشعر والادب عادة . يصور الهادي الغزي ، في رسالته التي تحصل بها على شهادة الدكتوراه ، الحياة الشعرية في عهد حمودة باشا بقوله :

"... وقد سرى في مجموع شعر المديح المتهافت هذا الخيط من نور الانبعاث الشعري ارهاصا ببداية ظهور نهضة شعرية وقد اينعت الحركة الشعرية في ايام علي باشا الثاني . وفي عهد حمودة باشا شابها ما يشبه الركود اذ تلاشت الروح الحماسية او كادت . ولعل ذلك يرجع الى ان حمودة باشا لم يعايش الادباء والشعراء ولم يكن يجالسهم على نحو ما كان يفعل ابوه . ولئن وجدنا شعر محمد بن سلامة (٣) يزين عهد حمودة باي فان فن المديح اتخذ احيانا اسلوب التقرير التاريخي لتسجيل مآثر هذا الامير على نحو ما نجد عند الشاعر محمد قلالة القيرواني في قصيدة له طويلة :

١- انظر اعلاه ، ص ٢٧٣ .

٢- المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٧٧ ؛ انظر اعلاه ، ص ٨٨-٨٩ ، ٢٧٣ .

٣- محمد بن سلامة هو صاحب العقد المنضد ، والدرة النفيسة ؛ انظر اعلاه ، ص ١٩-٢٠ .

زمني سقاك اللـه غيث اياد　　وحباك دهرا وابل الاسعاد

لله درك من زمان ما نجـا　　زمن السرور برأفة ووداد

أوقاتك الغراء تضحى كأنها　　غـرر وتحجيل بخيـر جواد

محفوفة بالامن والاسعاد في　　كل المراد الحاضر والبادى

فيك الشريعة مستقيم حكمهـا　　والعلم محتفل بأهل النادى

...

ويمضـي في نظمه الى ان يقول :

لتونس فخر بدولته التـي　　ايامها في الدهر كالاعياد

عقدا تنظم حصنها وثغورها　　ومساجد الصلوات للعبـاد

وازال منها الجور ممن يجتنى　　لشـفائه جورا من الاوغـاد

حتى تبدت ذات صيت سارفي　　مدن واقطـار ذوات بعاد ."

بعد هذا يصف الغزى حالة الشعر بعد حمودة باشا بقوله :

" وما ان جاءت دولة عثمان باى [اخو حمودة] حتى رأينا المديح يتحول الى نظم مجرد ولعل ذلك يرجع الى ان هذا الباى لم يكن له حظ كبير من المعزة بالقياس الى سلفه . وقـد أهمل شأن الشعراء ووضع حجابا بينه وبين الناس لضعـف ادراكه ... لذلك ضعف الشعر وأصيب بالركود ...".(1)

١ـ الهادى حمودة الغزى ، الشعر العربي في تونس على عهد الحسينيين ١٧٠٥ـ ١٨٨١ ، رسالة للحصول على درجة الدكتوراه باشراف الدكتور شوقي ضيف بجامعة القاهرة ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، ١٩٦٩ . والرسـالة هي مخطوط يشتمل على ٢٧٥ صفحة ، انظر ص ٤٠ ـ ٤١ .

(ج) اطلاعه على الحضارة الغربية وبداية تأثر التونسيين بها

كان حمودة باشا مطلعا على بعض مظاهر الحضارة الغربية ، وقد تمكن من ذلك بواسطة طرق عديدة • منها ما سبق ذكره: من معرفته لبعض اللغــات الاوروبية وهي لغة الاجانب القاطنين بتونس التي هي عبارة عن اللغة الايطالية محرفة ، وفهمه للغة الفرنسية ،[(١)] واستعانته بالخبراء المثقفين في ميادين مختلفة،[(٢)] ونصائح القناصل له خاصة في المجال الطبي ،[(٣)] وكذلك اعجابه بنابليون بونابرت واطلاعه على فتوحاته وقانونه (Code Napoleon) ،[(٤)] واطلاعه على ما تنشره جريدة l'Ambigu اللندنية [(٥)] وغيرها من الجرائد الاوروبية[(٦)]، وبواسطة سفرائه ومبعوثيه لتلك البلدان • [(٧)] بالاضافة الى تلك الطرق اطلع حمودة باشــا وحاشيته على الحضارة الغربية وتفوق انظمتها من خلال ما كان يخبره به التجــار والمسافرون التونسيون وكذلك أحد امراء المغرب الاقصى عند مروره بتونس الى بلده سنة ١٨١١ •[(٨)]

١ـ انظر اعلاه ، ص ٨٠ـ٨١ •
٢ـ انظر اعلاه ، ص ٨٧ـ٨٨ ، ١٣٦ـ١٣٨ ، ١٨١ ـ ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ـ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ •
٣ـ انظر اعلاه ، ص ٣٤٠ـ٣٤١ •
٤ـ انظر اعلاه ، ص ٨٣ •
٥ـ انظر اعلاه ، ص ١٤٩ تعليق رقم ٣ •
٦ـ انظر رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٢٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٤ ، بلانتي، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١٤٢ ؛ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٤/ مارس/ آذار ، ١٨١٣ ، المصدر ذاته ج ٣ ، ص ٥٠٦ ؛ رســالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ٣، فيفرى / شباط ، ١٨١٤ ، المصــدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥١٤ •
٧ـ انظر ادناه ، ص ٤٥٠ ـ٤٥٨ •
٨ـ انظر ابن ابي الضياف ، اتحاف ، خاصة ج ٣ ، ص ٧٩ ، ٥١ ـ ٥٢ ، ج ٧ ، ص ١٦٢ •

هذا وان كنا نعرف ان حمودة باشا كان مطلعا على تلك الحضارة ومتأثرا بها وراغبا في الافادة منها ، فاننا لا نعرف بالضبط مدى اهمية الدور الذى لعبه شخصيا في ترويج بعض مظاهر تلك الحضارة المتفوقة في بلده ٠ان المعلومات شحيحة جدا في هذا المجال وتكاد تكون معدومة ٠ ونظرا لهذا فان امر كشف سياسة ذلك الباى في هذا الباب وتوضيحها شيئا غير ميسور الان ٠

قد يمكننا اعتبار الطرق المختلفة والعديدة التي أطلعت حمودة باشا على معطيات الحضارة الغربية وتفوقها داخلا في تصوير اهمية الدور الذى لعبه ذلك الباى شخصيا في التعريف ببعض مظاهر تلك الحضارة المتقدمة في بلاده ٠

ومن المعلومات القليلة الاخرى التي لها علاقة بهذا الدور الذى لعبه الباى ما ذكره ديسبارون سنة ١٧٨٤ من ان حمودة باشا بعد اطلاعه على ما نشرته الجرائد الاوروبية في شأن المناطيد (كرات الهواء « globes aerostatiques ») الح كثيرا ،" ٠٠٠ وهو الباى الذى يظهرانه من المستحيل ارضاء حب اطلاعه وولوعه بمعرفة الاشياء" ،على ضابطين فرنسيين ، صادف ان مرا بتونس ، ان يصنعا له منطادا ٠ وبعد توسل ديسبارون الى الضابطين ،وهما اختصاصيان في صنع المناطيد ،صنعا للباى منطادا من الورق استغرق تركيبه اثنى عشر يوما ٠ كانت مقاييس حجمه كالاتي : محيطه ٤٠ قدما ، علوه ٢٤ قدما ٠ وبعد ان عين الباى موعد اطلاق المنطاد حضر بنفسه لمكان الاطلاق ليشاهده ٠ بعد ذلك يصف ديسبارون دهشة الباى والمشاهدين بقوله ان الدهشة والسرور بلغا حدهما الاقصى لما رأت الاعين ذلك المنطاد يرتفع رويدا رويدا ويغيب في السحب ٠ ويذكران الباى كان يتبع بعينيه ذلك المنطاد مدة طويلة ٠ بعد ذلك قدم حمودة باشا تشكراته لديسبارون بأبلغ الالفاظ واجملها شاكرا صنيعه ، ثم استقبل الضابطين الفرنسيين وانعم عليهم بعطاء سخي ٠[1]

١- رسالة من ديسبارون الى حكومته ،تونس، ٢٠ سبتمبر/ايلول ، ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ١٤٢ ٠

وقد أورد مجيل ورينال احكاما ذهبا فيها الى ان حمودة باشا تأثر بالحضارة الغربية ، وبالتالي عرف بها في بلده . ذكر الرحالة البريطاني مجيل ان حمودة باشا لما شعر بوجود علاقة مشكوك فيها بين احد الاطباء الاوروبيين العاملين في تونس واحدى نساء القصر، لم ينفذ الباى حكم الاعدام في الطبيب ولا اغرق المرأة المتهمة في بحيرة تونس . وكل ما فعله ولاول مرة يحصل ذلك في عهد حمودة باشا ، هو انهاء عمل ذلك الطبيب في تونس وترحيله الى بلده ، اما المرأة فكان عقابها ابعادها عن فراشه الى الابد . يعلق مترجم رحلة مجيل الى الفرنسية على هذا الاجراء " المتمدن" من الباى بقوله " انها ظاهرة اعتدال قل من البايات من يستطيع تطبيقها ... انها خطوة عظيمة نحو المدنية الغربية".[(١)]

اما الاب رينال فيقول ان من قصر الباى بدأت حركة التمدن والتحضر. فيه بدأ الادب واللياقة والفضل ، ومنه تسربت هذه الصفات التمدنية الى العاصمة ثم منها ، وببطء الى بعض جهات البلاد التونسية .[(٢)]

بعد هذا فان التدقيق في المعلومات التي اوردها بعض الرحالة والقناصل والمؤرخين وتحليلها ومقارنتها يمكننا من معرفة مدى تأثر التونسيين بالحضارة الغربية في العهد الذى ندرسه.

اتفقت المصادر على ان البلاد التونسية في عهد حمودة باشا كانت اكثر بلدان شمال افريقيا مدنية وتقدما . غيران هذه المصادر تختلف في تحديد اسباب ذلك التمدن ذى الطابع الاوروبي من جهة ، وتختلف في ذكر الطرق التي انتقل بواسطتها الى تونس . اول ما يشير الى ذلك تقرير غفل كتب سنة ١٨٠٥ ، وفيه يذكر ان سبب تمدن تونس وتقدمها عن بقية بلدان شمال افريقيا هو الاوروبيون الذين اعتنقوا الاسلام ، ومواطنوهم المسيحيون الذين كانوا يعملون في قصر الباى

١ـ مجيل ، رحلة ، ص ٩٧ وتعليق رقم ١ .

٢ـ " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ـ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥١ .

وقصور الاعيان . هوءلاء " هم الذين اخذوا معهم عاداتهم وتمدنهم واذواقهم الاوروبية وادخلوها الى المجتمع التونسي ".(١) اما الرحالة فرانك فيرى ان سبب ذلك التمدن ذى الطابع الاوروبي يرجع الى كثرة عدد الاوروبيين المقيمين بتونس، وهي العاصمة التي يقيم فيها اوروبيون اكثر من اية عاصمة اخرى في شمال افريقيا ؛ وكذلك الى تجارتها الواسعة مع اوروبا ، وقربها من سواحل هذه القارة .(٢) وفي مكان اخر من رحلته يوءكد فرانك على اهمية تأثير الارقاء الاوروبيين العاملين في خدمة التونسيين في مجال التمدين هذا .(٣) واخيرا يذكر الرحالة الدور التمديني الذى كان يتم على ايدى الاسرى والارقاء التونسيين في اوروبا عندما يسرحون ويرجعون الى بلدهم .(٤)

اما عن مقدار ما انتقل الى تونس من مظاهر الحضارة الغربية في العهد الذى يهمنا فالمعلومات المتوفرة لا تمكننا من تحديده ، غير اننا سنورد ما وجدنا من هذا القبيل في المصادر التي رجعنا اليها . نوردها على علاتها حتى تظهر معلومات اخرى تعطينا فكرة اوضح . ورد في الوثائق الفرنسية انه سنة ١٧٧٧ كان سليمان آغا سفير تونس الى فرنسا لا يعرف استعمال الشوكة والسكين عند الاكل وان الرجل الفرنسي المكلف بمرافقة ذلك السفير من قبل الحكومة

١ـ تقرير غفل الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب ٣ ، ٣٠٤٦ .

٢ـ وصف البلاد التونسية ، ص ٨٩ .

٣ـ المصدر ذاته ، ص ١٠٠ .

٤ـ المصدر ذاته ، ص ١٠١ .

الفرنسية وجد صعوبة في تعليمه استعمال الشوكة والسكين .[١] وفي عهد حمودة باشا يذكر الرحالة فرانك (كان في تونس ١٨٠٦ - ١٨١٢؟) انه كان بالعاصمة التونسية رجل فرنسي وزوجته يصنعان الشعر المستعار ويبيعانه للنساء .[٢] وفي سنة ١٨١٥ يذكر قنصل فرنسا دوفواز ان سكان تونس الميسورين متأثرون بالحضارة الاوروبية خاصة في ما يتعلق بأثاث بيوتهم وطرق تسليتهم .[٣]

١- كانور وغرانشان ، سفارة سليمان آغا ، المقدمة ص ٨ .

٢- وصف البلاد التونسية ، ص ٩٤ .

٣- تقرير من القنصل الى حكومته ، تونس ١٢ جانفي / كانون الثاني ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ .

الفصل السادس

مظاهر سياسة حمودة باشا الخارجية

بعد ان بحثنا المظاهر التجارية لسياسة حمودة باشا الخارجية ، نفرد هذا الفصل للمظاهر السياسية لسياسة حمودة باشا الخارجية . كانت سياسة ذلك الباى الخارجية تستهدف تحرير تونس من التسلط الخارجي من جهة ، ومن جهة ثانية وضع البلاد في مرتبة الدول ذات السيادة والاحترام في ذلك الوقت . وقد توخى الباى تحقيق اهدافه الخارجية تلك عن طريقين : طريق الكفاح والحرب ، وطريق تنمية الصداقات مع الدول .

وقبل ان نبحث في ذينك الطريقين كمظهرين مميزين لسياسة الباى الخارجية ، سنذكر اولا الخطوط العامة التي اتصفت بها سياسته الخارجية كتوطئة لهذا القسم من البحث . وسيقع ذكر هذه الخطوط على حسب اهميتها وجدواها في علاقاته الخارجية بالنسبة لمصلحة تونس ، مع الارتباط قدر الامكان في اعتبار التسلسل التاريخي واصلية المصادر التي ذكرتها .

من أهم الخطوط العامة لسياسة حمودة باشا الخارجية تنسيق تلك السياسة مع احداث تونس سواء منها الخارجية او الداخلية . وذلك ليضمن خدمة الميدانين السياسيين بتكامل يضمن النجاح في التنفيذ . وقد ظهر ذلك جليا خاصة في حدثين من أهم الاحداث التي ميزت عهد حمودة باشا . الحدث الاول هو حربه مع الجزائر ، التي لم يعلنها الا بعد ان سوى خلافاته مع معظم الدول في الخارج ،[1] وهيأ لها اسباب النجاح في الداخل .[2] والحدث

١- انظر ادناه ، ص ٤٤٠ - ٤٤٦ .
٢- وذلك بالضرب على يد الاتراك في الادارة والجندية والاعتماد على التونسيين وتقوية امكانات البلاد العسكرية .

المشابه الثاني هو انه لم يبدأ محاربته لجند الترك وافنائهم الا بعد ان " ضمن سلامة علاقاته الخارجية ووضع البلاد الداخلي الجيد ...".(١)

ومن الخطوط العامة لسياسة حمودة الخارجية عمله الدائم على حفظ العلاقات الطيبة مع حكام الدول الاوروبية ، مع " سعي حثيث ومستمر لتوطيد صداقاته معهم ، وذلك سواء بواسطة قناصلهم المعتمدين لديه" أو بواسطة سفرائه ومبعوثيه المتعددين .(٢)

ومن تلك الخطوط العامة ايضا اقامة علاقاته الخارجية على اساس مصلحة بلاده في الدرجة الاولى . ولهذا السبب كانت علاقاته خاصة مع فرنسا وبريطانيا ، اعظم دولتين بالنسبة لمصالح تونس ، تتصف بعدم الاستقرار على وتيرة واحدة . فقد كانت الحروب طاحنة بين الامبراطوريتين في معظم عهد حمودة باشا ، وفازت كل منهما بانتصارات كبيرة وهزائم مريرة . وبين هذه الوقائع الحربية الجسام في اوروبا وخارجها ، وبين عدم وضوح النتيجة النهائية لتلك الحروب وعدم تبين المنتصر من المهزوم بين الدولتين ، كان حمودة باشا يحاول ضمان مطحة تونس من خلال معطيات الاحداث ، مع تشبثه بموقف الحياد بين القوى المتصارعة . وبسبب سياسة حمودة الخارجية تلك اورد قنصل بريطانيا انه وقنصل فرنسا في سنة ١٧٨٧ كانا يتهمان الباى في مراسلاتهما بأنه " في الواقع" حليف للدولة الاخرى .(٣) وفي الرسالة ذاتها يشير تريل على حكومته ببعث الهدايا الفاخرة الى الباى كما فعلت مع باشا طرابلس وداى الجزائر او ان تغلق قنصليتها بتونس.(٤)

١- مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٨ .

٢- فروجيا ، " العملة الحسينية ، رقم ٣" ، المجلة التونسية ، عدد ١٧(١٩٣٤) ، ص ٨٦ ؛ فيما يتعلق بالسفراء والمبعوثين التونسيين لدى الدول الخارجية انظر ادناه ، ص ٤٤٠ - ٤٤٦ .

٣- رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٦ سبتمبر/ايلول ، ١٧٨٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما .

بعد ذلك التاريخ ببضع سنوات يظهر ان قنصلي الدولتين العظيمتين كونا لانفسهما فكرة متشابهة ايضا في الحكم عن سياسة حمودة باشا الخارجية . فقد ذكر ممثل فرنسا بتونس في تقرير له " ان اعظم وامتن ركيزتين دائمتين في ما يتعلق بجميع علاقاتنا الدبلوماسية مع هذه البلاد هما : المال والقوة".(١) وفي سنة ١٨٠٠ كتب القنصل البريطاني يقول : "... يا جلالة الملك تستطيعون ان تعتمدوا على عهدى وتوكيدى بان كل ايمان وكل ثقة هما على نهايتهما مع هذا الباى [حمودة باشا]، وانه يدير سياسته الخارجية فقط حسب الظروف والحالات التي يستوجبها الوقت الراهن للاحداث ..."(٢) ويضيف في نفس الرسالة مؤكدا انطباعه السابق فيقول : " ... بما ان حكومة هذه البلاد ليست لها صداقة دائمة ولا عرفان بالجميل ثابت مع اية دولة مسيحية ايا كانت، وانها لا تتأثر الا بالخوف والمصلحة فقط، فان حمودة باشا اعترته برحاء (paroxyms) الذعر عدة مرات اثناء التطورات الاخيرة في الحرب [بين بريطانيا وفرنسا] ".(٣)

هذا وعندما ترجح مصلحة تونس مع احدى هاتين الدولتين المتحاربتين، يميل الباى الى الجانب المنتصر في سياسته الخارجية . وقد حدث ذلك التغير مرتين في عهد حكمه . المرة الاولى حصلت سنة ١٨٠٥ عندما ضغط، يعاونه في ذلك قنصل فرنسا المنتصرة على قنصل بريطانيا ماجرا واحدثا له من المشاكل في تونس ما وجد نفسه فيها مجبرا على مغادرة مركزه دون

---

١ - تقرير من دوفواز الى حكومته، تونس، ١٧٩٣، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥)، ص ١٩٨ .

٢ - تقرير من ماجرا الى حكومته، تونس، ٣٠ اوت / آب، ١٨٠٠، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٤/ ٧٧ .

٣ - المصدر والوثيقة ذاتهما .

اعلام الباى ؛ فما كان من الباى الا ان حجر عليه الرجوع الى مركزه " جريا على مطحته [الباي] التي كانت آنئذ مع فرنسا ". [١] المرة الثانية حصل عكس ذلك التغير ، فقد ذكر قنصل بريطانيا انه لما خسر نابليون حروبه في روسيا ورجع مهزوما ، احدث ذلك تغييرا ملحوظا في سياسة حمودة باشا الخارجية وذلك لمصلحة بريطانيا على حساب فرنسا . [٢]

ومن هذا القبيل ايضا كانت سياسة حمودة باشا تجاه الولايات المتحدة . فقد كان غير متحمس لعقد معاهدة مع تلك الدولة الحديثة ، فلم يقدم على ذلك الا بعد ان عقدت جميع دول شمال افريقيا معاهدات معها . ولم تتم المعاهدة بالنسبة لتونس الا كما يذكر هركولي بضغط من الجزائر، [٣] يوم ٢٤ اوت/ آب ١٧٩٧ . [٤]

١- تقرير من ماجرا الى حكومته ، ١٩ افريل / نيسان ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٩ مارس/ اذار ١٨١٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٦/ ٧٧ .

٣- رسالة من هيركولي الى حكومته ، الجزائر ، ٢٨ سبتمبر/ ايلول ١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٩٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٣ ، كرتون رقم ٢٠٥ . عقدت معاهدات دول شمال افريقيا مع الولايات المتحدة في التواريخ التالية : مع المغرب في ٢٨ جوان / حزيران ١٧٨٦ ؛ مع الجزائر في ٥/سبتمبر/ ايلول ١٧٩٥ ؛ مع طرابلس الغرب في ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٩٦ .

٤- يوجد النص الرسمي للمعاهدة التونسية - الامريكية باللغتين الانجليزية والتركية مع ترجمتها العربية بخزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٨٥ ، كرتون رقم ٢٥٢ .

زد على ذلك ، كما يذكر ماجرا ، حالة "التشنج " الشديدة التي وصلت الى حد الاستعداد للحرب بين تونس والولايات المتحدة بسبب الحصار الاقتصادى الذى ضربته هذه على تلك اثناء حصول العداوة بينهما سنة ١٧٩٩ . اضف الى ذلك الخلافات التي ثارت بين تونس والولايات المتحدة بسبب رغبة هذه في تنقيح بعض بنود المعاهدة التي رأتها مجحفة في حقها ، وهي خلافات بلغت حدا جعلت الاسطول الامريكي سنة ١٨٠٣ يهدد بقصف العاصمة التونسية ؛[1] وجعلت حمودة باشا من ناحيته يطرد قنصل تلك الدولة من عاصمته .[2] وكذلك في سنة ١٨٠٥ حين طالبت امريكا بتنقيح المعاهدة ذاتها تحت الضغط المسلح بواسطة اسطولها في البحر المتوسط .[3] على الرغم من جميع تلك الاحداث الجسام التي جرت بين الدولتين وجد الباى ، في نفس السنة ، ان الظروف تغيرت واصبح من صالحه ان يوطد العلاقات مع الولايات المتحدة ؛ وبعث بسفير يمثله الى واشنطن حيث حل الخلافات القائمة بين الدولتين .[4] اما الظروف التي احدثت هذا التغيير المفاجيء في سياسة حمودة باشا تجاه امريكا فهي اشتداد الحرب بين الدول الاوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا وتأثير ذلك على امن التجارة عبر البحر المتوسط .

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ مارس/ اذار ، ١٨٠٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٣ سبتمبر/ايلول ، ١٨٠٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٩٣ .

٣- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٧ اوت / اب ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٤- المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ فيما يتعلق بهذه السفارة انظر ادناه ، ص ٤٤٣ .

وزادت الحالة تأزما عندما اصدرت بريطانيا قرارات ومراسيم (سنتي ١٨٠٤ـ١٨٠٥) استهدفت تحطيم تجارة الدول المحايدة مع فرنسا • وقد نتج عن هذه القرارات ضرب الحصار الاقتصادى على بريطانيا من قبل نابليون سنة ١٨٠٦ ، وهو الحصار الذى منع السفن المحايدة من الدخول الى الموانيء البريطانية • وعادت بريطانيا فشددت الحصار الاقتصادى على فرنسا ومنعت سفن الدول المحايدة من الدخول الى اى ميناء حليف لنابليون او تابع له • تلك هي الظروف التي جعلت حمودة باشا يستخدم جميع امكاناته السياسية والحربية لضمان تقوية العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة ، بل استطاع ان يحمي ، "وهو أمر لا يصدق" ، الاسطول التجارى الامريكي في المياه الاقليمية التونسية • وبذلك الاجراء القوى والجرىء شيد حمودة باشا عهدا جديدا في تاريخ التبادل التجارى بين تونس والولايات المتحدة ، خاصة بين السنوات ١٨٠٥ ـ ١٨١٣ ، على الرغم من نابليون وبريطانيا العظمى • [١]

ومن الخطوط العامة لسياسة حمودة باشا الخارجية ايضا انتهاجه سياسة الشدة والقسوة مع الدول عندما يكون الامر يتعلق بمصالح دولته العليا أو سيادة بلده واستقلالها • وقد رأينا في اماكن مختلفة من هذه الدراسة بعض ظواهر هذه السياسة • [٢] ويمكننا ان نضيف الى تلك الظواهر ما ذكره القنصل البريطاني من ان حمودة باشا كان " اذا ما اراد مشاكسة احدى الدول الاوروبية للضغط عليها تصرف معها بما لا يتفق ونص المعاهدة المبرمة بينهما" • وعندما " تعمل تلك الدولة على معاقبة الباى على سوء تصرفه ذاك " عطل الباى العمل بالمعاهدة تماما " وطلب تجديدها على بنود جديدة في صالحه ، مع دفع جديد

١ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٥ جوان/ حزيران ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ •

٢ـ انظر اعلاه ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٩ •

وهدايا جديدة عالية التكاليف" .[١] ومن هذا الباب ايضا ان الباى كان يتشدد مع بعض القناصل الى حد يجعلهم يتركون البلاد .[٢] ويذكر فرانك ان حمودة باشا كان يظهر عظمة وشدة في قبوله للقناصل الاجانب و" يوجب عليهم القيام بالتشريفات اللازمة وهي في معظمها شديدة عليهم وعلى الدول التي يمثلونها ...".[٣]
ويحدد ماجرا تاريخ ممارسة الباى لسياسة الشدة في معاملته " السياسية " للدول الاوروبية بسنة ١٨٠٠ . ويذكر ان السبب في ذلك هو سقوط La Valette عاصمة جزيرة مالطة في يد البريطانيين . ويصف حمودة باشا عندئذ بانه صار " يمارس سياسة مكيافلية ، بلغ فيها من الشدة والصرامة ما لم اره قبلا في حياتي".[٤]

وقد لحقت المضرة ، بسبب سياسة الباى هذه ، خاصة بكل من الدانمرك اذ انه من اجل خلاف على عتق رقيق ترك قنصل الدانمرك تونس وصادر الباى حمولة خمسة سفن دانمركية تقدر قيمة بضاعتها بمليون ريال تونسي؛[٥] وكذلك حصلت مضرة كبيرة لدولة السويد؛[٦] و دولة اسبانيا التي طالبها

١ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ جانفي/ كانون الثاني ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧.

٢ـ انظر ادناه ، ص ٣٧٢ .

٣ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٩١ ـ ٩٢.

٤ـ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت/اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧.

٥ـ ارنولد وسولر ، مراسلات ، ص ٣١ .

٦ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٢ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧.

الباى بتغيير قنصلها بتونس لعدم امانته في معاملاته المالية مع التونسيين ، وعلى الرغم من تهديدات ملك اسبانيا لتونس لم يجد بدا من تغيير قنصله .(١)

في بعض الاحيان تبلغ سياسة الشدة هذه حدا اعلان الحرب على بعض الدول . غير ان ما يجب التأكيد عليه هنا هو ان حمودة باشا كان لا يبت في اعلان الحرب ولا يتخذ قرارا نهائيا بشأنها " الا بعد ان يستنفذ جميع وسائل التصالح والتوفيق ..." (٢)

أ. توخي حمودة باشا طريق الكفاح لبلوغ اهدافه

هذا الوجه الكفاحي الحربي الذى يمثل منتهى الشدة في سياسة حمودة باشا في علاقاته السياسية الخارجية ، كان يرمي الى تركيز هيبة الدولة وتحرير تونس من التسلط الخارجي وهو ما سنفصل احداثه ووقائعه فيما يلي .

١. حرب البندقية (١٧٨٤ ـ ١٧٩٢) .

أعلن حمودة باشا الحرب على البندقية دفاعا عن سيادة تونس وحماية لتجارها وتجارتها الخارجية .(٣) فقد حدث في عهد علي باشا والد حمودة من ان بعض التجار التونسيين استأجروا سنة ١٧٨١ سفينة بندقية لنقل سلعهم

١ـ رسالة من كلايك نائب ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ رسالة من نائب القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣١ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ؛ انظر ايضا خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ ؛ انظر ادناه ، ص ٣٧٤ ، ٣٩٩ ، ٤٢٥ .

٣ـ رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ يذكرنا هذا السبب الاصلي لقيام حرب البندقية بالتهديد الذى اصدره حمودة باشا لفرنسا سنة ١٧٩٨ من انه سيعلن الحرب على جميع السفن الفرنسية التجارية التي تخرج من موانيء عدوة =

من مدينة الاسكندرية الى بلدهم • ولما كان المركب في عرض البحر وقع في ركابه مرض الوباء •[1] وعندما وصل المركب الى مدينة صفاقس منعه والي المدينة من الارساء بها وامره بالاتجاه الى العاصمة حيث الكرنتينة • وفي العاصمة استبطأ القبطان البندقي انجاز المعاملات اللازمة بالدخول الى الكرنتينة فأبحر الى مالطة حيث عاملت السلطات والاهالي هناك التجار التونسيين بكل قسوة واحرقوا حمولة السفينة •[2] طالب حمودة باشا حكومة

= لتونس ، اذا لم تطلق سراح السفينة الناقلة لسلع وبضائع تخص احد التجار التونسيين ، والاتية من المغرب الاقصى ؛ انظر اعلاه ، ص ٣٢٠-٣٢١ • ومثل هذه الحادثة حصلت ايضا بين تونس وبريطانيا سنة ١٧٩٨ ، وذلك عندما استولت السفن البريطانية على سفينة تونسية وهي في طريقها من مرسيليا الى بلدها • وقد اشتدت الازمة بسبب تلك السفينة بين البلدين حتى هدد حمودة باشا بمحاربة جميع سفن بريطانيا في البحر الابيض المتوسط • ولم ترجع العلاقات بين الدولتين الى مجراها الطبيعي الا بعد ان اطلقت بريطانيا السفينة بدعوى انها كانت تعتقد انها سفينة تركية عثمانية ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٩ جوان / حزيران ١٧٩٨ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٥ افريل / نيسان ١٧٩٨ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ •

١- مقديش ، نزهة الانظار ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ •

٢- رسالة من ج• تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ سبتمبر/ ايلول ١٧٨٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ فيما يتعلق بتفاصيل اخرى لهذا الحادث انظر رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٩ سبتمبر/ ايلول ١٧٨٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٧ •

البندقية بتعويض التجار التونسيين لان السفينة كانت في امان صنجق تلك الدولة حتى تبلغهم تونس . غير ان الخلاف طال فتساهل حمودة باشا في مطالب التعويض " تفاديا للحرب لسبب ميله الى الحلول السلمية ".[1] ثم زاد الباى في تساهله وبعث برسالة الى مجلس الاعيان البندقي واعطاهم اجلا قدره ستة اشهر للبت في التعويض ، الا ان البنادقة استمروا في التسويف . فتعكرت العلاقات بين البلدين ، وزاد في ذلك التعكير حدوث اعمال استفزازية عدائية اخرى قام بها اسطول البندقية ضد الحمولات التجارية التونسية ، من اهمها اغراقه لسفينة بندقية عليها بضاعة تونسية ، وعدم سماح القبطان البندقي للتونسيين بانقاذها . فأصبح حمودة باشا يطالب تلك الدولة بتعويض مضاعف للخسائر التي اصابت التجار التونسيين .[2] وامام امتناع البندقية المتواصل عن اجابة مطالب تونس اعلن الباى الحرب على تلك الدولة يوم ١٧ جانفي /كانون الثاني ١٧٨٤ لاجبار البندقية على احترام الدولة التونسية ، كما أنه أعلن الحرب على الاسطول البندقي العامل في البحر المتوسط .[3] وامر قراصنته بالاستيلاء على سفن البندقية " تأخذ ما تقدر عليه ... على العادة في ذلك العصر ... ".[4] وقد كان ذلك بعد ان اتخذ الباى الاجراءات الدفاعية اللازمة " ليس في ميناء حلق الواد فقط ، بل ايضا في بنزرت وسوسة وموانيء سواحل تونس الاخرى ... ".[5]

١- رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٥ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- المصدر والوثيقة ذاتهما .

٣- رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٥ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٨٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٤- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

٥- روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

بعد خمسة ايام من اعلان تونس الحرب ، اى يوم ٢٢ جانفي / كانون الثاني ١٧٨٤ ، امر حمودة باشا قبطان الاسطول البندقي المفاوض le chevalier Querini وجميع افراد حملته بترك البلاد التونسية ومياهها الاقليمية في مدة اربع وعشرين ساعة . ولما حلت صائفة سنة ١٧٨٤ وصل الى ميناء تونس القبطان الجديد للاسطول البندقي ايمو (C. Emo) ، ولم يكن احد يعرف ان كان مجيء ذلك القبطان للمفاوضات او للحرب . غير ان الباى اغتنم تلك الفرصة وقدم لايمو اقتراحات جديدة بواسطة قنصل البندقية بتونس ولم يقبلها القبطان ، فأعلمه حمودة باشا انه سيتابع الحرب حتى تحصل تونس على تعويض مناسب لخسائرها .[1] عند ذلك اتجه القبطان مع سفن حملته الى مدينة سوسة وقصفها مدة ثمانية ايام قتل اثناءها رجال من الجانبين وتهدم ثلاثون بيتا في المدينة . ثم رجعت الحملة الى البندقية لقضاء فصل الشتاء . وفي يوم ١٩ جويلية / تموز من العام التالي (١٧٨٥) رجعت الحملة من جديد وقصفت مدينة سوسة ثانية ولكن بدون نجاح ، وفي يوم ١٣ اوت / آب زادت الحملة توغلا جنوبا وقصفت مدينة صفاقس ولم يوفق الهجوم ايضا . بعد ذلك رجعت الى حلق الواد يوم ٢٨ سبتمبر / ايلول وقصفته قصفا شديدا لمدة ثلاث ليال بدون تأثير على القشلة . بعد ذلك انسحب الاسطول وانقطعت اخباره .[2] وفي سنة ١٧٨٦ عاود الاسطول البندقي الكرة ، ولكن القبطان ايمو وجد ان دفاع تونس ما زال شديدا وتصلب الباى اشد فشعر ذلك القبطان بعدم نجاح مهمته ، وكتب الى الباى ، عن طريق القنصل البندقي ، يهدده بوجوب قبوله لمطالب البندقية والا هدم كل حصون حلق الواد . وكان

---

١ _ رسالة القنصل تريل المذكورة اعلاه ذاتها .

٢ _ رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ١٤ سبتمبر / ايلول ، ١٧٨٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ ، رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، اول ديسمبر كانون الاول ، ١٧٨٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

جواب الباى " ان الصلح هو في دفع كل خسائر تونس ، وأنه اذا هدمت حصون حلق الواد ستكون دولة البندقية مجبرة على اعادة بنائها من جديد ".[١] وكان رد الباى هذا على القبطان ايمو من الشدة لدرجة جعلت "كل من يعلم به يتعجب لجرأته".[٢] وما كان من ايمو الا ان نفذ تهديده وبدأ بقصف حصون حلق الواد ، غير ان الوزير الاول مصطفى خوجة تدخل بالحسنى بين القبطان وحمودة باشا " العنيدين" وأوقف القصف وفتحت مفاوضات جديدة. ولم يكتب لهذه المفاوضات النجاح لمطالبة الباى بتعويض قدره اربعة اضعاف ما كان يطالب به في الاول (من ١٤ الف sequins الى ٦٠ الف sequins).[٣] عندئذ انتقل ايمو باسطوله وقصف مدينة صفاقس ثم توجه الى الشمال وقصف بنزرت قصفا شديدا تضررت المدينة بسببه كثيرا لتسطحها وانكشافها على البحر.[٤] بعد ذلك رجع الاسطول المهاجم جنوبا وقصف يوم ٢٤ سبتمبر ايلول ١٧٨٦ مدينة سوسة • ولم تؤثر جميع تلك الاحداث والخسائر في عزيمة حمودة باشا الذى صمد بشجاعة واصبح يطالب البندقية بتعويض قيمته مائة الف محبوب(sequins).[٥]

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٤ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٩٠، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- روسو ،حوليات تونسية ،ص ٢٠٧ - ٢١٠.

٣- المصدر ذاته ،ص ٢١٠ - ٢١٢؛ كان الاوروبيون يطلقون اسم sequin على العملة الذهبية التونسية المسماة ب" محبوب" • كان يزن المحبوب في العهد الذى ندرسه حوالي ٥٠ر٣ غرامات؛ هيجون ، شعارات بايات تونس ،ص ١٧؛ فيما يلي سنعرب كلمة sequin الى كلمة محبوب •

٤- رسالة من ج• تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ سبتمبر/ ايلول ١٧٨٦، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧.

٥- رسالة من القنصل ذاته ، تونس ، ٢ مارس/ اذار ، ١٧٨٧ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧؛ فيما يتعلق بوقائع الحرب بين تونس والبندقية مع التفاصيل الوافية انظر بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، وغيرها من الصفحات.

عندما بلغت وقائع الحرب ذلك الحد وقعت امور اثرت في الوضع المتعلق بتلك الحرب • اول تلك الامور موت القبطان ايمو فجأة في جزيرة مالطة وهو القائد الذى كان حمودة باشا يعتبره عدوا شخصيا له • ثاني تلك الامور اعادة البندقية النظر في تلك الحرب الضروس التي كلفتها مليون محبوب" بسبب التحصين والدفاع اللذين لم يكن يتخيلهما البنادقة عند بداية الحملات "(١)، ثالث تلك الامور ظهور تهديد " جدى " من جانب الجزائر لمحاربة تونس •(٢) تلك الامور اوجدت وضعا جديدا بالنسبة لحمودة باشا ، فمن جهة اراد ان يستغل الوضع الناجم عن الامرين الاولين الى اقصى حد لمصلحته ، ومن جهة اخرى رأى ان ينهي تلك الحرب خوفا من ان يقع في مأزق محاربة عدوين في وقت واحد • لهذا قبل حمودة باشا اجراء مفاوضات جديدة مع البندقية وهي المفاوضات التي انتهت بعقد معاهدة صلح بين الدولتين المتحاربتين في يوم ٢ ماى/ايار سنة ١٧٩٢ • من شروط تلك المعاهدة شرط يوجب على البندقية دفع اربعين الف محبوب كتعويض و " هدايا ثمينة جدا تقدم لحمودة باشا ".(٣) غير ان دوفواز اعلم حكومته بان المبلغ الذى تم الاتفاق عليه هو ثمانون الف محبوب تدفعها البندقية بالاضافة الى الهدايا التي سيجلبها معه قنصل تلك الدولة الجديد بتونس • ويذكر القنصل ذاته ان المعاهدة لن توضع موضع التنفيذ الا بعد ان تقدم البندقية ما عاهدت عليه ؛(٤) وقد اشار القنصل في رسالة اخرى الى ان قبطانا

١ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص٢١٢ •

٢ـ المصدر والصفحة ذاتهما •

٣ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ؛ انظر نص المعاهدة بالمصدر ذاته ، ص٥٦٢ •

٤ـ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٥ ماى/ايار ، ١٧٩٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص٢١١ •

بندقيا حل بتونس وقدم بعض الهدايا لضباط الباى وانتهت الخلافات التي كانت قائمة بين الدولتين .[1]

تلك هي تطورات تلك الحرب ووقائعها اما نتائجها فقد كانت في اغلبها لصالح حمودة باشا . من اهم تلك النتائج : اولا توطيد هيبة تونس في الخارج بالصلابة التي اظهرها الباى اثناء تلك الحرب ، وبنجاحه في الحصول على مبتغاه من التعويض على السفينتين التونسيتين وعلى خسائر الحرب ، بل بما يفوق ما كان يطالب به .[2] ثانيا خرج حمودة باشا من تلك الحرب وبلاده " اقوى واغنى بكثير مما كانت عليه اول الحرب " ، بل يرى القنصل ان ذلك الباى خرج من تلك الحرب وهو " اقوى حكام شمال افريقيا غير انه لا يرغب في الظهور بذلك المظهر ... " .[3] ثالثا ان معاهدة الصلح التي كلفت دولة البندقية تعويضات كبيرة وهدايا غالية ، بعد تسع سنوات من الحرب ، تلك المعاهدة " احدثت اثرا اقل ما هو في مصلحة راية البندقية " .[4] وبعد ان وضعت تلك الحرب اوزارها وهي الحرب التي احدثت اضطرابا كبيرا في تجارة تونس الخارجية ، وهدمت ثروات العديد من التجار الاجانب المقيمين في تونس ؛[5] بعد ذلك اتجه عزم حمودة باشا على صرف جميع امكاناته الى تحقيق الازدهار الاقتصادى في بلاده ، وتنظيمه وتدعيمه .[6]

١ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٥ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٧ جوان/ حزيران ، ١٧٩٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣ـ المصدر والوثيقة ذاتهما .

٤ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٥ ماى/ ايار ، ١٧٩٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢١١ .

٥ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٠٠ .

٦ـ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ، ص ٤٢ .

٢٠ محاولات حمودة باشا للحد من تبعيته للدولة العثمانية

ذكرنا فيما سبق بعض أوجه تبعية تونس للدولة العثمانية منذ سنة ١٥٧٣ ، اذ كانت تعتبر ولاية من جملة ولايات تلك الامبراطورية .[١] ومن صفات تلك التبعية كما يذكرها ابن ابي الضياف :

"... الطاعة والدعاء على المنابر ، ونقش اسمائهم [اسماء السلاطين العثمانيين] على الدنانير والدراهم . ولملوكها [تونس] الاذن في تصرفهم بالمصلحة ، شأن ولاية التفويض الشرعية من الدولة العلية العثمانية ... ودخلها [تونس] لمصالحها ، يرفعون [حكام تونس] منه شيئا للدولة بحسب الاستطاعة اظهارا لطاعتهم ، يسمونه "الهدية" تفاديا من التلفظ بالاداء ، لما تستشعر عامتها في ذلك من معنى "الجزية"".[٢]

وقد استمر حكام تونس ، منذ ان دانت تونس للسلاطين العثمانيين ، في تطبيقهم لتلك الاجراءات اجمالا بما فيهم حمودة باشا .[٣] غير ان الذى تميز

١_ انظر اعلاه ، ص ٤٤_٤٥ .

٢_ اتحاف ، ج ١ ، ص ٣٠ _ ٣١ .

٣_ لقد تطرق العديد من الكتاب الى وصف وبحث شؤون العلاقات بين تونس والدولة العلية في العهد العثماني . ومن اهم هؤلاء كونور وغرانشان ، سفارة سليمان اغا ، ص ٧٤ ؛ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٥٦ _ ٥٧ ؛ الاب رينال ، "تقرير" ، المجلة التونسية ، عدد ٣_٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٣ ؛
R. Mantran, "Documents turcs relatifs a l'armée tunisienne", C.T., tome 4(1956), pp. 359-372 ; الكاتب ذاته "La titulature des beys de Tunis au XIX^e siècle d'après les documents d'arcives turcs du Dar el-bey", C.T., tome 5 (1957), pp. 341-348 ;

ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ١ ، ص ٣٠ _ ٣١ ، ج ٦ ، ص ١٣ _ ٣٠ ؛ بيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٣٢ _ ١٤٦ ؛ هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص ١٥ _ ١٦ ؛ فروجيا ، "العملة الحسينية ، رقم ٣" ، المجلة التونسية ، عدد ١٧ (١٩٣٤) ، خاصة الصفحات ٨٣ _ ٨٥ ؛ مانتران ، "العلاقات التونسية العثمانية" ، كراريس تونسية ، ج ٧ (١٩٥٩) ، خاصة الصفحات ٣١٩ _ ٣٢٩ .

به عهد حمودة باشا عما سبقه من العهود هو عدم تمسك ذلك الباى بـ" الطاعة" للباب العالي في اغلب الاحيان خلافا لسابقيه ؛[١] وهو ما سيتبين لنا جليا في دراستنا لعلاقاته مع الباب العالي .

وقبل ان نبدأ في بحث ذلك الموضوع يجدر بنا هنا ان نشير الى بعض الامور التي لها صلة بالعلاقات التونسية - العثمانية في عهد حمودة باشا . الامر الاول هو ضعف الدولة العثمانية في عهد ذلك الباى .[٢] الامر الثاني هو ان تبعية تونس لتلك الدولة كانت تغلب عليها الصبغة الدينية ، حتى ان رجال الدين بتونس كانوا شديدى التمسك بالبيعة التي في اعناقهم للسلطان العثماني .[٣] اما التبعية او " الطاعة " السياسية فهي التي عمل حمودة باشا على التخلص منها ، بل كافحها الى ان كون لتونس شخصية سياسية ذات صبغة مستقلة عن اسطنبول كما سيتبين لنا فيما بعد . الامر الثالث هو ان الدول الخارجية ، وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا ، لم يكن لها مواقف سياسية محددة في الغالب بشأن تبعية تونس للدولة العلية او استقلالها عنها . بيد ان ما يجب ذكره هنا هو ان تلك الدول ، عدا " الامبراطورية [النمساوية] وبروسيا وروسيا " كما

١- يمكننا ان نستثني من ذلك واقعة واحدة حصلت سنة ١٧١٥ ، وذلك عندما بعثت الدولة العثمانية باسطولها لميناء غار الملح حيث قام باظهار قوته ليؤثر على حسين بن علي باى (مؤسس الدولة الحسينية) فيرجع الى " طريق الصواب طريق الخضوع للسلطان العثماني " وقد نجح الاسطول في مهمته ؛ مانتران ، " العلاقات التونسية العثمانية " ، كراريس تونسية ، ج ٧ (١٩٥٩) ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

٢- انظر اعلاه ، ص ١٤٠-١٤٩ .

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ١٣٦ - ١٣٧ .

يستنتج من رسالة لدوفواز، كانت تعقد معاهداتها مع تونس مباشرة .[١] ويمكننا ان نخص بالذكر من تلك الدول فرنسا التي كانت منذ القرن السابع عشر، تعقد معاهداتها مع ليبيا وتونس والجزائر مباشرة وبدون الرجوع الى موافقة الباب العالي " باعتبار كونها بلدانا مستقلة سياسيا ".[٢] ولم تتخذ فرنسا وبريطانيا منهجا سياسيا واضحا وموقفا جازما من استقلال تونس الا بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ ، حين اصبحت فرنسا تعمل على تأكيد استقلال تونس عن الدولة العلية ، وبريطانيا تعارض ذلك الاستقلال.[٣] الامر الرابع هو ان اللغة الرسمية للمعاهدات بين تونس والدول الاجنبية كانت اللغة التركية بجانب لغة الدولة الاجنبية صاحبة العلاقة .[٤]

فيما يلي سنستعرض هذه الاحداث حسب تسلسلها التاريخي . ففي سنة ١٧٨١ ، عندما كان حمودة باشا مشاركا لابيه في الحكم ، طلب السلطان العثماني بواسطة مبعوث خاص كعادته[٥] من الحكومة التونسية ان تكف قراصنتها عن التعرض

١- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٤ مارس/ اذار ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

٢- باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١١٠ - ١١١ .

٣- انظر تفصيل ذلك وأسبابه ببيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

٤- رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١ افريل/ نيسان ، ١٧٩٨ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ ، رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ١١ ماي/ايار ، ١٨١١ ، المصدر ذاته ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ .

٥- جرت العادة بان يرسل السلطان العثماني مبعوثا خاصا لدول شمال افريقيا كلما اراد ان يملي على حكام تلك الدول اوامر جديدة سواء اكانت تتعلق بعلاقات تلك الدول بالبلدان الاجنبية ، او بعلاقاتها ببعضها . وكان هؤلاء الحكام ، في الغالب ، يعملون بالتعليمات الجديدة ويتقبلون توسط اولئك المبعوثين . من أمثلة ذلك قبيل عهد حمودة باشا وساطة الباب العالي في الحرب بين تونس وفرنسا سنة ١٧٧٠ وقبول علي باشا لتلك الوساطة ، انظر

للسفن النمساوية في البحر المتوسط . غير ان التعليمات صدرت من قصر باردو بان ذلك الامر لا يمكن لتونس ان توافق عليه رسميا الا بعد ان تعقد معاهدة مع النمسا وان تمضي الجزائر عليها قبلا ؛ وقد اتخذت تونس هذا الموقف لعلمها ان الجزائر رفضت الصلح مع النمسا . ولم يوقع حمودة باشا الصلح رسميا مع النمسا الا في شهر جانفي / كانون الثاني سنة ١٧٨٤ .[١] ومن ذلك انه لما توفي علي باشا وتولى حمودة العرش قطع النذر الذى كان عبارة عن كميات من الزيت يبعثها والده للجزائر . فبعث داى الجزائر الى السلطان العثماني يشتكي عمل الباى . وعلى الرغم من ان السلطان ارسل مرسولا " فخصوصا في النازلة من اهل القلم بمكتوب يحرص فيه على وصل الاخوة الاسلامية بالتعاون على البر " امتنع الباى عن القبول بدعوى " ان اهل المملكة ابوا ذلك ، وانفوا منه ، ورأوه ضريبة ... " . وقد أيده في ذلك " رجال الدولة واعيان الجند " حيث قالوا للمبعوث " السلطان اولى منا باعانة المسلمين ... " .[٢]

في سنة ١٧٨٩ وصل مبعوث خاص من السلطان ، وهو في حرب ضد اليونان ، يطلب من حمودة باشا ان يبعث " رجال بحريته الشجعان " ليلتحقوا بالاسطول العثماني في بحر ايجة لمحاربة قراصنة اليونان .[٣] بيد انه يظهر ان رد حمودة باشا على ذلك

روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٨١ ؛ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٢ - ٢١٣ . وكذلك ما حدث سنة ١٧٧٥ ، عندما حاربت تونس بجانب الدولة العلية ضد الدولة الروسية ، بعد ان اقنعها المبعوث العثماني بذلك ؛ انظر كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا بقلم ضابط روسي " ، المجلة الافريقية ، عدد ٩٥ (١٩٥١) ، ص ١٢٢ - ١٣٠ . هذا بالاضافة الى التدخلات الجريئة التي قام بها مبعوث الدولة العلية لتونس والجزائر سنة ١٧٨٠ ، والتي كانت ترمي الى فرض رقابة صارمة على حكام الدولتين ؛ انظر خزينة الوثائق العثمانية ، دفتر مهمات ، ١٧٨٠ ، رقم ١٨٠ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

١- روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ؛ انظر ادناه ، ص ٤٤٢ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٧٦ .

٣- خزينة الوثائق العثمانية ، دفتر مهمات ، اواخر ربيع الاخر ١٢٠٣ / اواخر جانفي / كانون الثاني ، ١٧٨٩ ، رقم ١٨٨ ، ص ٥٢ .

الطلب لم يكن ايجابيا ، فنراه يبعث في شهر نوفمر/ تشرين الثاني من السنة ذاتها بهدية كبيرة الى السلطان حرستها خمس سفن مسلحة من تونس الى اسطنبول .(١) غير ان تلك الهدية الى السلطان لم تمنع حمودة باشا من اخذ حذره من المبعوث العثماني سنة ١٧٩٢ ، بطريقة اعتبرها القنصل ماجرا شائنة جدا في حق الدولة العلية . فقد اجبر الباى مبعوث السلطان على نزع سلاحه قبل الدخول عليه ، ولما لم يمتثل ، امر حمودة باشا حرسه بنزع ذلك السلاح بالقوة " جريا على قانون نزع اسلحة جميع الاتراك قبل دخولهم عليه". ولما احتج المبعوث العثماني وهدد بابلاغ ذلك للسلطان رد عليه الباى بانه عليه ان يذهب الى سيده ويعلمه ان حمودة باشا " امير ذو سيادة في تونس".(٢) وبعد ان يذكر القنصل هذه الحادثة "العجيبة" كما يقول ، يصف تصرفات حمودة باشا حيال سفراء الدولة العلية " سواء في الاحتفالات او المحادثات" على انها "تصرفات حاكم تام الاستقلال عن تلك الدولة ". ثم يضيف ان تلك التصرفات الاستقلالية كان يعمل بها ايضا عند قبوله للسفراء والقناصل الاجانب. وفي الرسالة ذاتها اكد ذلك القنصل ان حمودة باشا " مستقل استقلالا تاما عن الدولة العثمانية ..." وان الدولة العثمانية تسعى الى ارجاعه " كما كان تابعا لها سابقا " وبعد ان يذكر القنصل "ان لا شيء تبقى ذا لون عثماني في باردو الا القفطان المهدى من السلطان" ، يقول "ان تونس حافظت على استقلالها من الدولة العلية حتى اثناء حربها مع البندقية".(٣)

١- رسالة من ر. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٨٩ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٦ فيفرى/ شباط ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٣- المصدر والوثيقة ذاتهما .

بعد سنة ١٧٩٣ وصف ماجرا حمودة باشا بان لديه من العبقرية والمقدرة الذهنية ما يجعله يحقق آماله ،وأنه " لا يريد ان يظهر كأقوى حاكم في البلدان الشمال افريقية...".(١) ثم بعد ذلك بعام واحد بعث السلطان سليم الثالث برسالة على يد مبعوث له يخبر باى تونس بأنه مستاء من مشاركة التونسيين في المعارك بين المتقاتلين في طرابلس الغرب ، ويدعوه الى وضع حد لهذه التدخلات وعدم اعانة شق على آخر . ثم يضيف "... ولازم اوامرى تطاع... وباى تونس بالاخص يجب ان يعمل على اساس اوامرى هذه...".(٢) تلك كانت تعليمات الحضرة العلية شديدة ومحددة ،غير ان حمودة باشا لم يصغ لتلك التعليمات بالنسبة للتدخل في شؤون ولاية طرابلس ، بل احتل جيشه يوم ٢٠ جانفي/كانون الثاني ١٧٩٥ عاصمة تلك الولاية عندما لم يعترف بولاية علي برغل الذى عينه الباب العالي على طرابلس ، والذى كانت قد احتلت فرقة من جيشه/جزيرة جربة التونسية . ولم ينثن الجيش التونسي عن تلك العاصمة الا بعد ان طرد الوالي الجديد وارجع القرمانليين الى عرشهم .(٣) وقد كان اجراء حمودة باشا هذا يهدف الى عدة اهداف من اهمها تحاشي جعل بلاده محصورة بين سلطتين تركيتين : الجزائر وطرابلس الغرب . وقد اصلح حمونة الوضع السيء بينه وبين الدولة العلية الناتج عن غزوه لطرابلس بارسال هدية فاخرة سنة ١٧٩٥ مع مبعوثه يوسف صاحب الطابع الى السلطان العثماني بدعوى تهنئته بعرش السلطنة ، وللاعتذار عن احداث طرابلس.(٤) ويقول مادينا ان حمونة لم يبعث بالهدية ايام حربه لطرابلس

١- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس، ٧ جوان/ حزيران ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- رسالة من السلطان سليم الثالث الى باى تونس وداى الجزائر ، اسطنبول ، اوائل ذى القعدة ١٢٠٨/ اوائل جوان / حزيران ١٧٩٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، دفتر مهمات ، رقم ٢٠٠ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

٣- ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ، ص ١٢٩ ، انظر ادناه ، ص ٣٩٥-٤٠٠ .

٤- انظر ادناه ، ص ٤٠٢-٤٠٤ .

لعدم خوفه من السلطان ؛ غير ان الدسائس لعبت في اسطنبول لعبتها لدى السلطان خاصة من القبطان حسن باشا ، صديق علي برغل ؛ وكان ذلك هو سبب بعث حمودة للهدية بعد مدة طويلة من تاريخ الحملة .[1]

لا شك انه ليس خلوا من المغزى ان نرى مبعوث الجمهورية الفرنسية هيركولي يهدى حمودة باشا ، باذن من حكومته ، تحفا منتقاة " مثل تلك التي تبعث للسلطان العثماني ".[2] وليس خلوا من المعنى ايضا ان نعلم ان رسالة الشكوى التي اعدها سفير فرنسا باسطنبول للباب العالي للضغط على باى تونس لضمان مصالح فرنسا ، وان كانت ارهبت يوسف صاحب الطابع بعض الوقت ؛[3] فانها ، بعد ان علم بها حمودة باشا ، كما يذكر في رسالة منه لفرنسا ، لم يولها اية اهمية ونعتها بأنها " محض افتراء" من مبعوث الجمهورية الفرنسية هيركولي عن القنصل دوفواز بعد ان اشتدت العداوة بينهما .[4] وبعد حوالي شهر ونصف من تاريخ تلك الرسالة يذكر القنصل واقعة حصلت بين الباى وحكومة اسطنبول بسب استيلاء قراصنة تونس على سفينة يونانية يعلوها علم عثماني . وهي حادثة لا تدل على عدم الطاعة فقط بل على تحدى الباى للدولة العلية . يذكر القنصل ان بعد الاستيلاء على السفينة بعث الباب العالي احد المفوضين العثمانيين واسمه اسحاق باى وهو يحمل "امـــرا" باطلاق سراح " الاميرالنابوليتاني Paterno" الذى صادف ان كان في تلك السفينة التي كان جميع ركابها من اليونانيين رعايا السلطان العثماني . غير ان الباى لم ينصع لتلك الاوامر ولم يطلق الامير Paterno الا بعد ان قبض

١- مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغل " ، المجلة التونسية ، عدد ٦٤ (١٩٠٧) ، ص ٣١ .

٢- رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جوان/حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

٣- انظر اعلاه ، ص ١١٤-١١٦ .

٤- رسالة من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ١٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٧ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

" مبلغا هائلا من المال قدره مليونان وستمائة الف ليرة ".[1] وعلى الرغم من ان السلطان بعث برسالة اخرى يؤكد فيها وجوب اطلاق ركاب السفينة وقبطانها " Alexi " الذين ما زالوا اسرى في تونس والذين هم " من اهالي الدولة العثمانية " ، وكونه امر وزير البحر العثماني حسين باشا بالعمل على اطلاق سراحهم ، وعلى الرغم من " نصح " السلطان لحمودة " بألا يحيد عن التنبيهات السلطانية ... وان يعمل كما هو مبين اعلاه ... "،[2] على الرغم من كل ذلك أبقى الباى جميع هؤلاء ارقاء في تونس.[3]

عندما غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨ بعث السلطان العثماني ثلاثة رسل واحد لكل بلد من بلدان شمال افريقيا (طرابلس الغرب ، تونس ، الجزائر) ، يحذرها من الفرنسيين ، ويعلن قرب وصول فرمان مفصل فيما يجب عمله حيال الغزاة.[4] في يوم ٢٠ اكتوبر / تشرين الاول من السنة ذاتها وصل الفرمان المنتظر الذى ورد فيه :

" ان الصداقة القائمة منذ امد بعيد مع فرنسا انقطعت بسبب حملتها على مصر. ان أوامري [السلطان العثماني] قد صدرت للجزار باشا [5] بتجهيز جيش قوامه مائة الف مقاتل وبالزحف على بونابرت . قواتي البحرية تستعد للاقلاع [الى مصر] بلدان

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٣ ديسمبر/كانون الاول ، ١٧٩٧ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

٢ـ رسالة من السلطان سليم الثالث الى حمودة باشا ، ١٢١٣ / ١٧٩٨ ، خزينة الوثائق العثمانية ، على اميرى ، سليم الثالث ، رقم ٢٠٨ .

٣ـ رسالة قنصل فرنسا المذكورة اعلاه ذاتها .

٤ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٥ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ .

٥ـ احمد الجزار باشا والي مدينة عكا بفلسطين (ت ١٨٠٤) .

شمال افريقيا يجب ان تقطع كل منبع للموءونة لفرنسا . امنعوا الحملة البحرية التي بصدد الاعداد بتولون ، استحوذوا على سفنهم وتجهيزاتها الحربية وابعثوا الينا بالوثائق التي تجدونها . احجزوا الفرنسيين كرهينة ... وابعثوا بالقوات البحرية لتوحد مع قواتنا". [1]

لاسباب دينية [2] واخرى محلية (ارضاء لرجال الدين والجند الترك) وبضغط من داى الجزائر نقض حمودة باشا الصلح مع فرنسا واعلن عليها الحرب ، بل ارسل بعض سفنه الحربية لاعانة الدولة العلية . [3] غير ان حمودة باشا لم يتغير في مجمل علاقاته مع فرنسا ، وقال لقنصل فرنسا انه كان مجبرا على اعلان الحرب "اسميا وشكليا فقط" . [4] وقد استطاع الباى ان يثبت قوله فعليا فلم يتعرض لمصالح الفرنسيين ببلاده ، ولا الى ممثليهم ولا الى اشخاصهم بأذى ، عكس ما جرى في الجزائر وفي عدة ولايات عثمانية اخرى . [5] وقد اوضح حمودة باشا للسلطان

١- رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٨ ، بلانتي، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٢-٣٣ ؛ مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٤ .

٣- مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٤-١٣٦ . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان ظاهرة اعانة تونس للدولة العلية بسفن حربية وقت الحروب كان معمولا بها من قبل بايات تونس قبل عهد حمودة باشا وبعده . فقد وقع ذلك سنة ١٧٧١ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، وكذلك سنة ١٨٢١ ؛ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٣٥ ، وسنة ١٨٢٦ ؛ المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٨٥ ، وسنة ١٨٤٢ ؛ المصدر ذاته ، ج ٤ ، ص ٥٨ .

٤- مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٥- رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ ؛ N. Faucon, La Tunisie depuis et avant l'occupation française, 2 vols., Paris, Plon, 1893, vol. 1, p. 171;

سنشير الى هذا الموءلف فيما يلي دفوكون ، تونس عند وقبل الاحتلال الفرنسي .

العثماني الاسباب التي دعته الى ان ينتهج تلك السياسة حيال الفرنسيين .[1] وفي شهر جوان / حزيران ١٧٩٩ أعلم القنصل الفرنسي حكومته بأن مبعوثا عثمانيا جاء " يطلب نقل جميع الفرنسيين " الى اسطنبول ؛[2] وكالعادة لم ينفذ حمودة ذلك الطلب السلطاني واكتفى بوضع افراد الجالية الفرنسية تحت حراسة مشددة مدة تزيد عن السبعة عشر شهراً .[3] وفي سنة ١٨٠٠ عقدت تونس صلحا منفردا مع فرنسا غير ان الدولة العلية دعتها لاعلان الحرب على فرنسا ثانية، ونفذ حمودة باشا تلك الرغبة ؛ ولكن بعد ان أظهر لمبعوث السلطان غضبه وسخطه من الفرمانات العثمانية ، وبعد ان أبقاه ينتظر المثول بين يديه خمسة وعشرين يوما .[4] ولم تتم معاهدة صلح نهائية مع فرنسا الا بعد ان عقد الباب العالي الصلح مع تلك الدولة سنة ١٨٠٢ .[5] وبعد ذلك ارجع الباى لفرنسا امتيازاتها السابقة وقرب القنصل الفرنسي بقدر ما ابعد القنصل البريطاني .[6]

هذا ولم نعثر في المصادر التي رجعنا اليها ما يدلنا على موقف الدولة العثمانية من تصفات حمودة باشا غير الممتثلة لارادة السلطان في قضية غزو نابليون لمصر سوى اشارة واحدة ادلى بها الباى نفسه الى دفواز عندما أعلمه

١- انظر اعلاه ، ص ٣٠٣ .

٢- رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان/حزيران ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ رسالة من الحكومة الفرنسية الى القنصل ذاته ، باريس ، ٤ اوت / اب ، ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حمودة باشا ، تونس ، ١٩ ماى/ايار ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٤٠٥ .

٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٩ جانفي /كانون الثاني ، ١٨٠١ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٢٠ .

٥- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٦- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت/اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

ان قبطان باشا العثماني نعته في احدى رسائله " بانه اصبح فرنسيا ".[1] أما حمودة باشا فكما فعل عندما تأزم الموقف بينه وبين الباب العالي بسبب حملته على طرابلس الغرب ، بعث هذه المرة ايضا بهدايا فاخرة الى اسطنبول على يد رسوله " فوق العادة " محمد الريس ، الذى كلف بشرح الاسباب التي دعت الباى الى اعادة ربط الاتصال مع فرنسا .[2]

لم يغير حمودة باشا سياسة التصلب وعدم الالتزام بالطاعة لاوامر السلطنة العثمانية بل استمر فيها قدما . فقد اظهر في صائفة سنة ١٧٩٩ قلة استعداده لتلبية مطالب اخرى اتى بها مبعوث عثماني تستوجب أمرين : دفع عون مادى للباب العالي ، وعتق جميع اليونانيين الارقاء بتونس .[3] هذا وكان حمودة باشا يسمح للقنصليات الاجنبية المعتمدة لديه ان ترفع اعلام بلدانها على مباني مراكزها بالعاصمة على مرأى من مبعوثي السلطان ورسله ، خلافا لترتيبات داى الجزائر التي تقصر السماح برفع الاعلام على بيوت سكنى القناصل خارج العاصمة فقط .[4]

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٠٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

٢ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٩ جانفي/ كانون الثاني ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤١٩ .

٣ـ انظر رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٢ جويلية / تموز ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ رسالة من الحكومة الفرنسية الى القنصل ذاته ، باريس ، ١٩ سبتمبر/ ايلول ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .

٤ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٧ ديسمبر/ كانون الاول ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤١٧ .

هذا ولما ازدادت العداوة بين تونس والجزائر وتحققت المصادمة سنة ١٨٠٧ ارسل السلطان العثماني مبعوثا بدرجة " ضابط سامي " ليتوسط بين البلدين ويحل الاشكال والخلاف بينهما • غير ان حمودة باشا لم يقبل تلك الوساطة فرجع المبعوث من حيث اتى بدون زيارة الجزائر" واعتبر مهمته غير ناجحة".[١] واثناء حرب الدولة العثمانية لفرنسا سنة ١٨٠٧ ايضا امرت الدولة العلية دول شمال افريقيا بدورها بوجوب اعلان الحرب على فرنسا • ولكن ، كما يذكر القنصل ، " باى تونس تضايق من ايقاف معاهداته مع فرنسا واحتج على تدخلات تلك الدولة في شؤونه احتجاجا شديدا".[٢] في تلك السنة ذاتها ايضا ، قامت الحرب بين الدولة العلية وبريطانيا ، ولما احتلت هذه مدينة الاسكندرية بعث السلطان يأمر حمودة باشا باعلان الحرب عليها • غير ان باى تونس ، خلافا لمشاعر العداء التي اظهرها شعبه ضد الانجليز ، تمسك " بعلاقاته معها تماما كما كانت قبل الحرب وذلك على الرغم من ان الفرنسيين واليهود في تونس هم بصدد افساد نظرته للبريطانيين ...".[٣] ثم يضيف القنصل في رسالة ثانية "... اما فيما يتعلق بأوامر الدولة العثمانية فان الباى هنا قليلا جدا ما يهتم بقضايا تلك الدولة ، خاصة الان وحربه مع الجزائر هي اكبر اهمية بالنسبة اليه حيث انها حرب ترمي لاستقلاله هو...".[٤] وقد اصاب القنصل في تقديره ولم يطع الباى اوامر اسطنبول •[٥]

١- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٣ ماى/ايار ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان/حزيران ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ •

٢- رسالة اوغلاندر المذكورة اعلاه ذاتها •

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٦ جويلية/ تموز ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ •

٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٣ اوت/اب ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ •

٥- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، اوت/اب ، ١٨٠٩ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ •

في شهر جوان/ حزيران ١٨٠٩ لما " ورد البشير لتونس بولاية محمود خان ، واتى بسيف مع الخلعة السلطانية ... " جمع حمودة باشا اعيان دولته لقراءة الفرمان السلطاني " ... وامر بتباشير المدافع سبعة ايام ، من سائر قلاع الحاضرة صباحا ومساء ." (١) في تلك السنة ذاتها كتب الرحالة الانجليزى يقول : " ان تونس دولة مستقلة اكثر من قبل بكثير ولا يربطها مع الباب العالي شيء عملي يدل على التبعية البتة ". (٢) في تلك السنة ايضا طلبت بلدان تونس وطرابلس والجزائر من السلطان محمود الثاني العفو عن داى الجزائر ، الذى كان صدر فيه حكم بالاعدام من لدن السلطان العثماني ، وتعيين وكيله في مكانه وهو المدعو سليم ثابت افندى ، ومقابل ذلك عرضت هذه البلدان ان تقدم كل منها " من ثلاثة الى اربعة سفن لتلتحق بالاسطول العثماني وتحارب معه " . وكذلك اعلم السلطان بأنه تمت المقابلة مع القائد العام للاسطول العثماني " ... حيث تكلم مع تلك البلدان ونظم تسفير تلك السفن وتسليحها من تسليح قرصنة الى تسليح حربي ... ". (٣) وقد وافق السلطان على الطلب وعين سليم ثابت افندى مكان داى الجزائر. (٤) في السنة التالية (١٨١٠) اعان حمودة باشا السلطان محمود بسفن حربية وجنود وذلك اثناء حملة الدولة العثمانية على جزيرة كريت . (٥)

١- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

٢- مجيل ، رحلة ، ص ١١٢ .

٣- تقرير من حكام دول شمال افريقيا الى السلطان محمود الثاني ، ١٢٢٤/ ١٨٠٩ ، خزينة الوثائق العثمانية ، علي اميرى ، سليم الثالث ، رقم ٢٢٥٥٨ . على رأس تلك الوثيقة وردت ملاحظة بخط السلطان محمود ترجمتها : " قائمقام باشا - هذا التقرير وصل الى ورأيت من المناسب ان تعرضوا هذه الكيفية على قيادة جيشنا . التوقيع بادشاهم " .

٤- رسالة من محمود باى تونس الى سليم ثابت داى الجزائر ، تونس ، محرم ، ١٢٣٠/ ديسمبر/ كانون الاول - جانفي/ كانون الثاني ١٨١٤-١٨١٥ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هميون ، رقم E - ٢٢٥٥٨ .

٥- خزينة وثائق الدولة التونسية ، حرب كريت (١٨٠٩-١٨١٠) ، ملف رقم ٣٧٧ ، كرتون رقم ٢٢٢ ، ملف رقم ٣٧٩ ، كرتون رقم ٢٢٢ .

لعل من اكثر الاحداث دلالة على كفاح حمودة باشا من اجل الحد من سلطة الدولة العثمانية على استقلاله هي واقعة سحقه لجند الترك سنة ١٨١١.[١] وهي الواقعة التي اعتبرها العديد من المؤرخين الحد الفاصل والنهائي لتبعيــــة حمودة باشا للسلطنة العثمانية • فقد ذكر الاب رينال بعد ذلك الانجاز" ان تونس اصبحت في الواقع مستقلة تماما حيال الباب العالي ".[٢] ويقول مارســـال " من وقت ذلك الحدث اصبح لا يمكن اعتبار تونس كدولة تابعة للحكومة العثمانية ومنه ايضا اصبح حمودة باشا يسوس بلاده بسلطة مستقلة وحكم مطلق تماماً".[٣] ويكفينا ان نعلم من تلك الواقعة التاريخية الهامة ان ثوار جند الترك" كانوا رافعين علم الدولة العثمانية الاخضر ، داعين بسقوط استقلال تونس، وبعـدم الاعتراف الا بسلطة السلطان العثماني كسلطة عليا مطلقة ومباشرة...".[٤] وان حمودة باشا كان ، في تلك الاثناء بالذات ، يأمر رجال جيشه بســحق جند الترك ، فتكسرت الاعلام العثمانية وفنى معظم ذلك الجند وهم يدعون بحياة السلطان العثماني وحكمه.[٥]

١ــ انظر اعلاه ، ص ٢٠٤ــ٢٠٨ •

٢ــ الاب رينال ، " تقرير " المجلة التونسية ، عدد ٣ــ٤(١٩٤٨) ، ص١٣٥•

٣ــ مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص١٩٩ ، وقد ذهب مذهب هذين المؤرخين في اعتبار القضاء على جند الترك حدا نهائيا لتبعية تونس للدولة العثمانية كل من P. Marty, "Historique de la mission militaire française en Tunisie", R.T., no 23 (1935), p. 309.

٤ــ المصدر ذاته ، ص٢٠٠ •

٥ــ المصدر والصفحة ذاتهما ؛ دي فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص٢٢١ ؛ هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص٥٨ •

بعد وفاة حمودة باشا تقهقر البايات بعض الشيء في المحافظة على استقلال بلادهم عن الدولة العلية كما اورثهم اياه حمودة . وبعد مدة لا تزيد عن الاربعة اشهر من انتقال حمودة الى جوار ربه كتب محمود باى الى قبودان باشا العثماني يقول له :" ... نحن [بايات تونس] ابا عن جد في خدمة السلطان ... وكل عملي هو ان اقوم بتنفيذ اوامره ... وانا ورعيتي الفقراء نقوم بصيانة وجق تونس العثماني ...".(١) وفي مراسلة له الى السلطان ، حيث اكثر من نصف الرسالة تفخيم وتعظيم للسلطان ، طلب محمود باى من السلطان اعانته للسيطرة على " الوضع السائب غير الآمن في تونس بسبب اعمال جماعة اشقياء من تونس والجزائر ضده وضد حكمه ...".(٢) والغالب على الظن ان هؤلاء " الجماعة" هم بقايا جند الترك الذين استغلوا ضعف محمود باى فثاروا بدعوى الاحتجاج على عتق الرقيق وجمعوا الاعيان ورجال الدولة وقالوا لهم : "ان هذه البلاد بلاد السلطان العثماني ، ونحن عسكره ورعيته ، وهذا الباى وابنه [حسين باى (حـ ١٨٢٤ - ١٨٣٥)] اهملا البلاد ، وقدما من لا يستحق التقديم . وعاثوا في الدماء والاموال ، واعطوا اسارى اريقت فيهم دماؤنا ، ولم يكترثوا بنا ... نطلب ولاية اسماعيل باى وابن اخيه مصطفى باى ونرفع في ذلك امرنا بعرض حال لمولانا السلطان ."(٣) بعد ذلك يقول المؤلف " وانما اختاروا اسماعيل باى لاستضعافه وعجزه عن القيام بأعباء الامرة ." وبعد فشل جند الترك في تولية باى جديد على البلاد نهبوا البلاد وسلبوا واهانوا اعيانها ثم استولوا على عدة سفن تونسية حملوها اسلابهم الكثيرة والعظيمة القدر ثم فروا الى الجزائر وبعد ذلك عرضوا على الباى " الحل الوحيد الذى يقبلون به وهو العفو العام ".(٤)

١- تونس ، ١٢٣٠ / ١٨١٤ - ١٨١٥ ، خزينة الوثائق العثمانية ، خطي هيون ، رقم ٢٢٤٩٦ .
٢- رسالة من محمود باى تونس الى السلطان العثماني ، تونس ، ١٠ رجب ١٢٣١ / ٧ جوان / حزيران ١٨١٥ ، المصدر ذاته ، B - ٢٢٥٥٨ .
٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١١٧ .
٤- رسالة محمود باى الى السلطان العثماني المذكورة اعلاه ذاتها .

بعد ذلك زاد نفوذ الدولة العلية على بايات تونس فأصبحت ترسل الرسل للوساطة بين تونس والجزائر فيعمل البايات بامرهم . وتتدخل في شؤونهم السياسية فلا يردون لها طلبا .[1] ولم تمض بضع سنوات على وفاة حمودة باشا حتى امر شيخ رئيس المجلس الشرعي بتونس سنة ١٨٢١ ، وبتحريض من الدولة العلية ، امر ذلك الشيخ "... خوجات الجوامع الحنفية بالدعاء جهرا عقب كل صلاة بما نصه : " اللهم أيد سلطاننا بالنصر والفتح المبين ، وانصر عساكر الاسلام الموحدين ، على اعدائنا القوم الكافرين... " " ويختم المؤرخ التونسي هذا الخبر بقوله : " ... واستمرت هذه العادة من يومئذ الى يومنا هذا .".[2]

١- بيرم ، صفوة ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٥٥ ؛ المؤلف المجهول ، تونس والتمدن ، ص ١٠-١١ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٠٣ حــرب طرابلس الغـــرب

كانت سياسة البايات الحسينية ، قبل حمودة باشا ، قليلا ما تهتم بشؤون البلاد الطرابلسية وذلك لانها بلاد " فقيرة جدا ،ضعيفة جدا ، مقسمة ومضطربة" ، لا تحدث بالنسبة الى تونس اى انشغال حقيقي .(1) وقد كان سكانها يجدون في البــلاد التونسية ملجأ امينا لهم يقيهم الجوع ايام المسبغات ،ويوفر لهم الامن اوقات الفتن ، وهما امران قلما تخلو تلك البلاد منهما .(٢)

عندما تولى حمودة باشا الحكم سنة ١٧٨٢ كان الوضع في طرابلس يزداد سوءا بسبب الحروب التي احدثتها الفتن المشتعلة بين افراد عائلة القرمانلي بسبب الحكم . وتفاقمت هذه الفتن الى درجة جعلت مصطفى خوجة ينصح حمودة باشا بارسال جند لاطفائها " قبل تطاير شررها الى اطراف المملكة التونسية ".(٣) غير ان الباى لم يعمل بتلك النصيحة " لأن همه اذ ذاك الجزائر".(٤) بعد ذلك ، يظهر ان الباى احس بتدخل جزائرى في تلك الفتن(٥) فشعر بخطورة احداث طرابلس على الامن في بلاده ، وبعث " جماعة من العسكر" ،كما تذكر رسالة من السلطان

١- الاب دينال " تقرير " ،المجلة التونسية ،عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ،ص ١٦٨.

٢- المصدر ذاته ،ص ١٦٩.

٣- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢٢.

٤- المصدر والصفحة ذاتهما .

٥- استنتجنا امكانية حصول هذا التدخل من قبل الجزائر اعتمادا على كون رسالة السلطان المذكورة ادناه كانت توجه اللوم بسبب التدخل في شؤون طرابلس الى كل من تونس والجزائر ، وان كان تأكيد اللوم كان موجها لحمودة باشا بالخصوص .

سليم الثالث ، شاركوا في القتال بين المتحاربين هناك . فأثار هذا التدخل غضب السلطان حيث بعث لحمودة باشا وداى الجزائر رسالة يدعوهما فيها الى ايقاف تلك التدخلات ، ويؤكد على باى تونس بالاخص وجوب العمل بأوامر السلطان .[1] غير ان الاحداث التي حصلت فى طرابلس والتي كانت تزداد خطورة كل حين في تلك الفترة التاريخية بالذات ، تطورت بسرعة مفاجئة وأخذت تصطبغ بطابع عدواني سافر على امن تونس واستقلالها . وهو وضع لم يكن في صالح باى تونس بأى وجه من الوجوه ، وهو الباى الذى كرس عهده لتحرير تونس من التسلط الخارجي ، ان يتقبله .

في يوم ٢٦ جويلية / تموز سنة ١٧٩٣ ، لما كان افراد عائلة القرمانلي في عراك مستميت على عرش طرابلس وكانت تلك المدينة محاصرة بسبب تلك الفتن منذ اشهر عديدة ، ظهر فجأة امام ميناء العاصمة اسطول صغير مسلح يحمل العلم العثماني . وما ان القى الاسطول مراسيه حتى نزل منه قابوجي باشي ومعه حوالي اربعمائة رجل مسلح ، وتلا فرمانا سلطانيا [2] ، اعلن فيه خلع علي القرمانلي وتولية علي افندى [3] ، ودعا القرمانلي للخضوع لامر السلطان وهدده

١- رسالة من السلطان سليم الثالث ، اسطنبول ، اوائل ذى القعدة ١٢٠٨/اوائل جوان/ حزيران ١٧٩٤ ، خزينة الوثائق العثمانية ، دفتر مهمات ، رقم ٢٠٠ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ؛ انظر اعلاه ، ص ٣٨٤ .

٢- عزز هذا الفرمان بفرمان آخر بقفطان من السلطان علامة تولية السلطة ؛ فيراند ، حوليات طرابلسية ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٣- علي افندى هذا الملقب بالجزائرلي نظرا لطول مدة اقامته في الجزائر - لقب ايضا باسم بلغر او برغل ، وكلمة برغل تركية معناها القمح المسلوق . وقد اطلق هذا الاسم على علي افندى ، لانه كان يطعم جنودة البرغل بدلا من الارز .

بقرب وصول قبودان باشا على رأس اسطول كبير . اراد الباشا المقاومة ،ولكن الرعب استولى على قلوب جميع من كانوا حوله ،فاضطر للهرب والنجاة بنفسه والتجأ هو ،ثم التحق به ابناه أحمد ويوسف وعديد من الانصار الى تونس، حيث قبلهم حمودة باشا واسكنهم احد قصوره واجرى عليهم جرايات ملكية.(١) هذا ما حدث في طرابلس في تلك الايام.

بالنسبة لحمودة باشا وسياسته الخارجية ، كان الامر لا يقف عند حد عزل وال وتعيين اخر ،بل كان حدثا كبيرا يهدد امن بلاده واستقلالها وحتى عرشه . فقد كان علي برغل في الاصل انكشاريا من بلاد الكرج ،اقام في الجزائر حيث عمل قرصانا تحت امرة دايات الجزائر سنين طويلة ،ثم وصل الى منصب رئيس البحرية في تلك البلاد . وبعد ان فقد مركزه ذاك لجأ الى اسطنبول حيث اقام عند اخيه الذى كان يشغل منصب نائب لقبودان باشا العثماني ، وهو الذى شجعه على القيام " باسترداد " ولاية طرابلس الى حكم الدولة العثمانية المباشر.(٢) زد على هذا انه لما استقر الامر لعلي برغل في العاصمة دخل قلعة تلك المدينة واحل العلم العثماني محل علم القرمانليين.(٣) بالاضافة الى تلك الامور ،وجميعها ينذر بالخطر بالنسبة لباى تونس ،صرح علي برغل بحقده الشديد على حمودة باشا ،سواء من اجل استضافته لآل

١- فيما يتعلق بهذه الاحداث انظر خاصه الوثائق التي نشرها مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغل " ، المجلة التونسية ،عدد ٦٤ (١٩٠٧) ،ص ٢٨ - ٣٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢١-٢٢ ؛ روسو ، حوليات تونسية ،ص ٢٢٨-٢٢٩ ؛ الباجي المسعودى ، الخلاصة النقية ،ص ١٣٥ .

٢- ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢٢ ؛ ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ،ص ١٢٠ .

٣- ميكاكي ، المصدر ذاته ،ص ١٢٢.

القرمانلي ، اولانه كان يخشى تدخله في الشؤون الطرابلسية .[١] ليس هذا فقط بل قرر علي برغل ، كما صرح به علنا ، انه ، نظرا للفقر الذى وجدت عليه ولايته الجديدة ، يريد ان ينتزع من باى تونس صفاقس وسوسة ومونا ستير والحمامات فضلا عن جزيرة جربة .[٢]

وعندما شعر علي قرغل بالقوة بسبب الانتصار الذى احرزه في طرابلس بدأ في تنفيذ اعماله المعادية لتونس . ومن الاعمال التي قام بها اسرة ، في اول شهر سنة ١٧٩٤ ، لاحدى سفن القرصنة التونسية المسلحة بثمانية وعشرين مدفعا وعليها طاقم مؤلف من مائتي رجل ، بعد ان اضطرت بسبب العواصف الى الالتجاء الى ميناء طرابلس .[٣] ومنها دعوته لجند الترك بتونس لترك البلاد والالتحاق به للعمل تحت راية الدولة العثمانية ، وقد استجاب له العديد من جند حمودة باشا الاتراك ، على الرغم من الاجراءات الشديدة التي اتخذها باى تونس لمنع هؤلاء من الهروب .[٤] ولم يكتف بذلك بل تعداه لما فيه جرأة وخطورة فشرع في تنفيذ خطته التوسعية في اراضي تونس حيث احتل جنوده المرتزقة بمعية بعض رجال القبائل البدوية الطرابلسية جزيرة جربة . وقد تم ذلك الاحتلال يوم ٢٤ سبتمبر/ ايلول سنة ١٧٩٤ ، تحت قيادة قرة محمد الذى كان هو الاخر كسيده

١- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١ افريل / نيسان ، ١٧٩٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢- فيراند ، حوليات طرابلسية ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ؛ ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ، ص ١٢٧ .

٣- رسالة من ماجرا المذكورة اعلاه ذاتها .

٣- انظر اعلاه ، ص ١٩٨ .

قد شغل منصبا عاليا في الجزائر .[1] عندئذ تحقق حمودة باشا كما يذكر القنصل البريطاني الخطر الماحق الذى يهدده من وجود تونس بين سلطتين تركيتين تكنان له الحقد والعداء (طرابلس والجزائر) ، واعتبر احتلال علي برغل لجزيرة جربة اعتداء على سيادة بلاده ، واهانة شخصية له . وبعد ان كان حمودة باشا مقتنعا بسلوك سياسة سلبية حيال علي برغل مثل عدم اعترافه بولايته وامتناعه عن التعامل مع تلك الولاية ورفضه لقبول المبعوثين الطرابلسيين من قبل الباشا الجديد وعدم اجابته لعلي برغل على طلباته للامدادات والاعانات التي تحتاجها طرابلس من الحبوب ، وكذلك لم يقبل حتى تسلم رسائل ذلك الوالي[2] بعد ان كان حمودة باشا ملازما لتلك السياسة تحول ، بعد احتلال جربة ، الى اتخاذ سياسة ايجابية هجومية . اذ انــــــــه نهض لازالة الاخطار من جانب طرابلس وللدفاع عن استقلال بلاده وسيادتها وقرر الهجوم برا وبحرا لاسترجاع جزيــرة جربة ولغزو طرابلس ذاتها وطرد واليها العثماني الجديد .

في يوم ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٩٤ بينما كان الاسطول التونسي يقلع تجاه جربة كانت تتحرك ايضا حملة برية الى طرابلس قوامها نحو عشرين الف رجــل بما فيهم احمد ويوسف القرمانلي بقيادة الوزير مصطفى خوجة ،[3] بعد ان كــان حمودة باشا عازما على قيادتها بنفسه واثناه عن عزمه يوسف صاحب الطابــع .[4]

١ـ يذكر ميكاكي الذى اعتمد في جل معلوماته على وثائق أصلية ان قره محمد كان يشغل بالجزائر منصب خزندار ، طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ، ص ١٢٧ ، فيما يتعلق باحتلال جربة انظر ايضا ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

٢ـ رسالة ماجرا المذكورة اعلاه ذاتها .

٣ـ فيراند ، حوليات طرابلسية ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، وانظر اعلاه ، ص ١٠٨ـ١٠٩ .

٤ـ انظر تفاصيل تحضير هذه الحملة وامر قيادتها برسالة د وفواز الى حكومته ، تونس ، ٦ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٣ ، وانظر اعلاه ، ص ١١٧ـ١١٨ .

وبعد استرداد جزيرة جربة التي اخلاها قره محمد عند اقترابهم منها ،[1] وكان احتلاله لها لم يدم اكثر من ثمانية وخمسين يوما ، اخترقت القوات التونسية الحدود وتقدمت في الاراضي الطرابلسية وعسكرت على طول طريق روءساء القبائل الموالين للاسرة القرمانلية المعزولة .[2] وقد وصل الجيش الذى ازداد عدده حتى بلغ ثلاثين الف رجل الى قرب طرابلس في يوم ١٦ جانفي / كانون الثاني سنة ١٧٩٥ ، واحتل المناطق المتاخمة للعاصمة من الجهات البرية الثلاث . وفي صبيحة اليوم الثامن عشر حاولت القوات التي استطاع علي برغل جمعها فك الحصار والقيام بهجوم مضاد ، ولكن بعد مناوشات قصيرة المدى عادت الهجمات الى المدينة ثانية وزحف رجال الجيش وبدأوا هجومهم بقصف العاصمة بالمدفعية وضربها بالقنابل . وعندما رأى علي برغل انه من المستحيل عليه ان يستمر في المقاومة ، وشعر ان الجميع قد تخلوا عنه ، لم يفكر الا في الهرب ، واستعد للرحيل كما اتى مغامرا من المغامرين . وفي ليلة ١٨ـ١٩ جانفي / كانون الثاني ١٧٩٥ ملأ علي برغل سفينتين بما سلبه من قلعة طرابلس ، وبعد ان ارتكب آخر عمل من اعمال القسوة بذبحه الرهائن والاسرى ، ابحر مع رجاله ورفع شراعه نحو مصر .[3]

١ـ انظر بعض تفصيلات الحملة البحرية على جربة بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج٣ ، ص ٢٣ ؛ ٢٧ .

٢ـ فيراند ، حوليات طرابلسية ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

٣ـ المصدر والصفحات ذاتها ، فيما يتعلق باحداث هذه الحرب مفصلة انظر خاصة الوثائق التي نشرها B. Roy, "Documents sur l'expédition de Tripoli...", R.T., no- 58 (1906), pp. 283 - 288 ؛ سنشير الى هذا المصدر فيما بعد ب روى ، " وثائق عن حملة طرابلس" ، وكذلك الوثائق التي نشرها مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغل " ، المجلة التونسية ، عدد ٦٤ (١٩٠٧) ، ص ٢١ـ٣٢ ؛ زمرلي ، " مصطفى صاحب الطابع" ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

عندما رجع الجيش المنتصر الى تونس ، بعد ان اتم المهمة الموكلة اليه بكل نجاح وارجع القرمانليين الى عرشهم ، ذهب الباى بنفسه لاستقبال قائد الحملة مصطفى خوجة تكريما له ، وفتح خزائنه للعطايا التي قدمت لافراد ذلك الجيش للمرة الثانية بعد ان كان اغدق عليهم المال قبل توجههم للحرب . واقيمت الاحتفالات والافراح ، التي شارك في تمويلها القناصل الاجانب ، في كامل البلاد التونسية .(1) وكانت اكثر تلك الاحتفالات غنى وعطاءا هي تلك التي اقامها الباى نفسه ، حيث تصدق بالاموال الواقرة على الفقراء والمحتاجين ابتهاجا بيوم انتصاره الذى سجل خطوات ايجابية الى الامام في حفظ وتأكيد سيادة بلاده بالنسبة لثلاث قوى متسلطة : علي برغل والدولة العلية والجزائر في وقت واحد . ولبلوغ هذا الغرض الهام بالنسبة لسياسته الخارجية انفق حمودة باشا الاموال الكبيرة على تلك الحملة بدون تردد ولا حساب .(2) والوصف ذاته يصدق على كميات الذخيرة الحربية التي استهلكها الجيش التونسي في حملته تلك . وقد ذكر الباى في رسالة منه الى الحكومة الفرنسية امر انتصار جيشه على علي برغل واسباب تلك الحملة ونتائجها ؛ ثم وضح لتلك الحكومة ، تمهيدا لطلب اسلحة منها ، كم كلفته تلك الحملة من اموال وكم استهلكت من ذخائر حربية من جميع انواعها ، وكل ذلك "... يفوق التقدير".(3)

١ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٥ مارس/ اذار ، ١٧٩٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ فيما يتعلق بالهدايا والعطايا قبل سفر الحملة انظر رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٦ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، خزينة الوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٣ .

٢ـ انظر وصف ما أنفقه حمودة باشا على الحملة برسالة دوفواز المذكورة اعلاه ذاتها ؛ وكذلك انظر البيان المفصل لتلك النفقات بخزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٧٩ ، ص ١٠٠ ؛ وكذلك ملف رقم ٣٥٣ ، كرتون رقم ٢٢١ ، المصدر ذاته ؛ وروى ، " وثائق عن حملة طرابلس" ، المجلة التونسية ، عدد ٥٨(١٩٠٦) ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩١ .

٣ـ رسالة من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، اكتوبر/تشرين الاول ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

بالنسبة للجزائر والدولة العثمانية كان انتصار تونس ذاك مصدراً لعدم الرضا . فان تلك الحملة الموفقة ، كما يذكر روسو ، رفعت عاليا شهرة حمودة باشا بين العرب ، واحدثت مزيدا من الغيرة والاغتياظ بين حكام الجزائر من تونس .[١] ويذكر زمرلي ان حكومة الجزائر التي يصعب عليها تأييد اى مظهر من المظاهر ذات الصبغة الاستقلالية بالنسبة لتونس ، بينت عند نجاح الفتح عن قلق وانزعاج وتململ .[٢] غير ان المصادر لم تذكر لنا شيئا عما فعله حمودة باشا في هذا الخصوص ضد الجزائر ، ويغلب على الظن انه لم يحمل نفسه مشقة ارضائها .

اما بالنسبة للدولة العلية فان تصرف حمودة باشا كان مختلفا ، فبعد حوالي شهر واحد من انتصاره كتب دفواز الى حكومته يعلمها عن قلق الباى من الكيفية التي سيحكم بها السلطان على حملته ، ويعلمها ايضا بان الباى كلفه بمكاتبة مبعوث الجمهورية الفرنسية باسطنبول لسبر غور استعدادات السلطان بشأن علي برغل .[٣] لا ندرى ان كان سبر الغور ذاك اوحى بطمأنة الباى مبدئيا ، او ان مساعي علي برغل وقريبه نائب قبطان باشا استلزمت فترة من الزمن لاقناع السلطان ورجال الدولة في اسطنبول بان عمل حمودة باشا ذاك كان اعتداءا مباشرا على السيادة العثمانية وخروجا عن الطاعة ، وهو ما ذهب اليه ابن سلامة ومادينا ،[٤] فالذى نعرفه هو ان السلطان سليم الثالث لم يعبر عن غضبه ولم يعزم على الانتقام من حمودة باشا بسبب تلك الغزوة الا بعد انقضاء اشهر

١- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٩ .

٢- زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٢-٤٤ .

٣- رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٤- العقد المنضد ، ص ٦٨ ؛ مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغل " المجلة التونسية ، عدد ٦٤ (١٩٠٧) ، ص ٣١ .

عديدة ،حين قرر بعث اسطول لغزو تونس .[١] وقد وجد باى تونس الحل المناسب لتلك الازمة الخطيرة بين البلدين في بعث رسول بدعوى تهنئة السلطان على ارتقائه العرش ،ولكن في الواقع كان الرسول لتبرير الحملة .[٢] وبالمناسبة حمل الرسول معه هدية عظيمة للسلطان ولرجال دولته ،[٣] ولم يرجع يوسف صاحب الطابع ،الذى قام بتلك السفارة الا بعد ان انجز ما اوكل اليه بنجاح وكفاءة؛[٤] وجلب معه لحمودة باشا هدية من السلطان وخلعة ،ولباس الولاية لابني علي باشا قرمانلي .وكانت اكبر هدية للوطن هي سكون " الفتنة " بين الدولة العلية وتونس .[٥]

هذا وقد كان حمودة باشا سلم سفيره صاحب الطابع تقريرا قدمه للسلطان[٦] شرح فيه الاسباب والظروف التي جعلته يقوم بحملته على طرابلس. واهم ما ورد فيه تشديده على المظالم التي اوقعها علي برغل " المشرد " ضد تونس بعد سيطرته على ولاية طرابلس" بواسطة ماليته". ومن تلك المظالم التي شرحها حمودة باشا في تقريره تعدى علي برغل على السفن التونسية ،وافتكاكه

١ــ ابن سلامة ، العقد المنضد ،ص ٦٨ .

٢ــ انظر اعلاه ،ص ١١٨ــ ١٢٠ ،وادناه ،ص ٤٥١ ــ٤٥٢ .

٣ــ فيما يتعلق بقيمة تلك الهدية وحجمها انظر البيان المفصل فيها بخزينة وثائق الدولة التونسية ،دفتر رقم ٣٤٨ ،ص ٦ ؛ المصدر ذاته ،ملف رقم ٣٥٣، كرتون رقم ٢٢١ ؛روى ، " وثائق عن حملة طرابلس" ،المجلة التونسية ، عدد ٥٨ (١٩٠٦) ،ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ ؛ابن سلامة ،العقد المنضد ، ص ٦٨ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢٧ ــ ٢٨ .

٤ــ يذكر روى ان سفارتي بريطانيا وفرنسا في اسطنبول ساهما في انجاح سفارة يوسف صاحب الطابع بتدخلهما لدى السلطان ، " وثائق عن حملة طرابلس" ،المجلة التونسية ،عدد ٥٨ (١٩٠٦) ،ص ٢٨٣ .

٥ــ انظر اعلاه ،ص ١١٨ــ ١٢٠ .

٦ــ انظر بعض المناقشات التي دارت بين مبعوث حمودة باشا والمسؤولين في اسطنبول كما اوردها ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢٨ــ٢٩ .

لجزيرة جربة " ... من ايدي حاميتها وعاثوا فيها بالقتل والنهب ... "، وشروعه " في تجهيز محلة والقدوم بها للاستيلاء على الايالة التونسية ". وبعد ان يفصل الباى امر حملته البحرية على الجزيرة ثم فتح مدينة طرابلس ورجوع الجيش التونسي الى بلاده، ينهي رسالته بالدعاء لنصرة السلطان العثماني .[1] هذا وقد كان حمودة باشا، اثناء قيام وزيره بالمهمة الموكلة اليه في اسطنبول، يبعث له برسائل يحثه فيها على انجاز مهمته بنجاح . ومن تلك الرسائل واحدة يقول لوزيره فيها :

" ... يجب بذل العناية والاهتمام بالسعي في اتمام المامورية التي كلفتم بها وتديرونها على نظركم وتجرونها على احسن وجه بصورة تفوق مامولنا واجل ما نتمنى ولتهتموا بذلك ليزداد اشتهاركم ويعلو شانكم ونسال جناب واهب الامال ... ان يسهل عليكم انتم يا ولدنا ويوفقكم للتبصر في المصالح المامورين بها ... ونومل منكم عندما تجدون من هو قادم من الاستانة الى طرفنا ان تحرروا لنا على الترتيب الاستظهارات والحوادث والاخبار التي عندكم ... ".[2]

١ـ خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم ٣٥٣، كرتون رقم ٢٢١ . ورد على راس تلك الوثيقة " الحمد لله خلاصة نازلة علي داغا (المعروف ببرغل) . بمقتضى التقرير الذى وجهه حمودة باشا الى الدولة العثمانية ووجدت نسخته باحد دفاتر دار الباشا ". وقد اورد روى ترجمة نص التقرير كاملا بعد تحقيقه، انظر روى " وثائق عن حملة طرابلس "، المجلة التونسية، عدد ٥٨ (١٩٠٦)، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧ .

٢ـ رسالة من حمودة باشا الى يوسف صاحب الطابع، تونس ٣١ ذو الحجة ١٢٠٩ / ٩ جويلية / تموز ١٧٩٥، خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم ٣٥٣، كرتون رقم ٢٢١ .

هذا وكان نجاح حملة طرابلس نجاحا باهرا لسياسة حمودة باشا الخارجية ،واحدث صدى كبيرا في الداخل حتى ان بعض الشعراء انبروا لمدح الباي ووصف معارك تلك الحرب تخليدا لذلك الانجاز العظيم. وفي ذلك قال احد شعراء ذلك الوقت :

طرابلس لها لب سليم	وفي تدبيرها قد كان خير
فما شدت نزالا في نزال	ولا اشلى لها في الحرب صبر
لقد رضيت برمي السلب لما	آتاها من مليك الارض امر
مبانيها الغواني افتض منها	عذارى ضمها من قبل خدر
فقالت في دفاع العار عنها	وقام بدلها في الناس غدر
رمى حمودة الباشا جناني	كما يرقى على الاطيار صقر
رمى بشباكه فاحتاز صيدي	وقص جناح طيرى منه ظفر
ومن يهتز في الاشراك نذل	ومن لا يستفز فذاك حر

وفي تاريخ رجوع مصطفى خوجة يقول بعض الشعراء :

ليهنك عين دولته رجوع	قرير العين مصحوب الكرامة
وهناك الورى مذ ارخوه	رجوع بالسعود مع السلامة

وقال اخر في المقصد ذاته :

ليهنك مفخر قد ارخوه	بفخر الدين قد طاب الهناء(1)

هذا وقبل ان ننهي حديثنا عن حرب طرابلس يجب ان نشير الى ان عرى الصداقة والمودة قد احكمت منذ ذلك التاريخ بين حكام طرابلس القرمانليين وحمودة باشا ومن تولى بعده من البايات . فقد اقام القرمانليون وكيلا دائما لهم في تونس.(2)

---

١ ـ ابن سلامة ،العقد المنضد ،ص٦٧ ـ ٦٨ .

٢ ـ رسالة من كلارك الى حكومته ،تونس، ٢٩ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٥/ ٧٧ .

كما آقام حمودة باشا وكيلا دائما له في طرابلس .(١) وبالاضافة الى ذلك كان حمودة باشا يستقبل باستمرار العديد من الضيوف الطرابلسيين سواء من عائلة القرمانلي او من رجالات دولتهم ، ويوفر لهم اسباب الراحة من مأكل ومشرب ومسكن وهدايا ، وكل ذلك على نفقته الخاصة .(٢) وفي شهر جمادى الثانية ١٢١١/ ديسمبر / كانون الاول ١٧٩٦ بعث حمودة باشا بهدية ثمينة الى باشا طرابلس، فتلقى باى تونس الشهر التالي (رمضان ١٢١١/جانفي /كانون الثاني ١٧٩٧) هدية مماثلة من الباشا المذكور .(٣) وبعد وفاة حمودة باشا استمر حكام طرابلس في مراسلة بايات تونس . فقد بعث حاكم طرابلس برسالة سنة ١٨١٦ الى محمود باي يخبره فيها باخر التطورات ببلده .(٤) وفي السنة التالية بعث باشا طرابلس لباى تونس برسالة يقول فيها :

"... لان المحبة التي بيننا قديمة ليست حادثة وهي متصلة بالاباء ... ونحن كذلك لا نحول عن هذا الحال ما دامت الايام والليالي وانتم اسيادنا ولنا فيكم محبة صافية ومودة وافية ... والمطلوب من عالي همتكم الوافية وطلعتكم السنية الصافية ان لا تقطعوا علينا جواباتكم فبذلك ننسر غاية السرور ويحصل لنا من عالي همتكم ما تنشرح به الصدور ...".(٥)

١ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، وثيقة مؤرخة بسنة ١٨٠٩ ، ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ .

٢ـ المصدر ذاته ، دفتر رقم ٢٧٥ ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

٣ـ المصدر ذاته ، دتفر رقم ٢٦٩ ، ص ٣٩ ، دفتر رقم ٢٧٥ ، ص ٩ .

٤ـ المصدر ذاته ، ملف رقم ٣٨٣ ، كرتون رقم ٢٢٣ .

٥ـ المصدر ذاته ، ملف رقم ٣٨٣ ، كرتون رقم ٢٢٣ .

ونحن نرى منذ قبيل سنة ١٨٣٠ اشتغلت نار الفتن في طرابلس من جديد بين افراد العائلة القرمانيلة عن الحكم فطلب فريق من هؤلاء سنة ١٨٣٥ الاعانة من باى تونس حسين باشا (ت٠ ١٨٣٥) ،غير ان الدولة التونسية لم ترمن صالحها التدخل عندئذ لعجزها عن ذلك ٠ فما كان من الدولة العلية الا ان بعثت باسطولها الى طرابلس" لاصلاح الامور" وقد تم ذلك باقتلاع علي باى قرمانلي "٠٠٠ من روض منتبه الى اسلامبول " ٠ [(١)] وبذلك انتهى حكم الاسرة القرمانلية واعيد حكم السلطان العثماني المباشر الى طرابلس في شهر ماى/ ايار سنة ١٨٣٥٠ [(٢)] وعلى الرغم من عزله وسفره الى اسطنبول كاتب علي باى القرمانلي سنة ١٢٦٢/ ١٨٤٥ـ ١٨٤٦ احمد باي تونس يرجوه فيها بالعناية بولده الذى تبقى بتونس ، ويضيف في رسالته : "٠٠٠ لطمنا ان فضل سعادتكم متواتر علينا من قديم الزمان ٠٠٠"٠ [(٣)]

١ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣٠

٢ـ انظر تفاصيل هذه الوقائع في ميكاكي ،طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ،خاصة ص ٢٤٨ ـ ٢٦٤ ٠

٣ـ رسالة من علي باى قرمانلي الى احمد باى تونس ،اسطنبول ،١٢٦٢/ ١٨٤٥ـ١٨٤٦ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٣٨٣ ،كرتون رقم ٢٢٣ ، وثيقة رقم ٦٤ ٠ وقد وردت رسالة اخرى من احد افراد القرمانليين باسطنبول الى احمد باى تونس يطلب منه بعث حصان وسرج الى العاصمة العثمانية ،ثم يشكره على ذلك مسبقا ، وكذلك رسالة من الباب العالي الى باى تونس تعلمه بان افراد العائلة القرمانلية عينت لهم جراية سنية من السلطان ، وان هذا الاخير يرجو من باى تونس ارسال ما تبقى من افراد تلك العائلة ومن اتباعهم وخدمهم بتونس الى اسطنبول في اقرب وقت ممكن ، وآخر هذه الرسائل واحدة من احمد باى قرمانلي يشكر فيها الباى ويعلمه بوصول اهله واتباعه بكل خير ، انظر هذه الرسائل بخزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٣٨٣ ،كرتون رقم ٢٢٣ ، الوثائق رقم ٨٢ ، ٨٣ (بدون تاريخ) ، ورقم ٨٤ بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٧٢/ ١ افريل/ نيسان ١٨٥٦٠

٠٤ حروبه ضد الجزائر

اذا القى الباحث نظرة فاحصة على العلاقات بين تونس والجزائر في العهد العثماني وجد العداوات والتحرشات والحروب هي الطابع الغالب على تلك العلاقات ٠ وفي جميع الحالات تقريبا كانت الجزائر هي البادئة بالعداوة والحرب منتهزة فرص الخلاف بين الحكام التونسيين على تولي عرش البلاد ٠ وكم كانت ويلات تونس ومصائبها عظيمة بسبب تدخلات الجزائر وتسلطها عليها ٠[1]

وقبيل عهد حمودة باشا (١٧٥٦ـ١٧٨٢) نجد وضع تونس تجاه الجزائر لا يقل عن وضع الدولة التابعة او المستعمَرة ؛ وزاد في ذلك ان علي باى والد حمودة (حـ٠ ١٧٥٩ ـ ١٧٨٢) كان مبعدا في الجزائر والفضل في ارجاعه الى تونس وطنه كان يرجع كلية الى داي الجزائر الذي سخر في سبيل ذلك جيشا قوامه

١ـ وقعت حروب عديدة بين تونس والجزائر في الفترة العثمانية السابقة للعهد الذى ندرسه ٠ ومن اهم تلك الوقائع ما حدث في السنوات : ١٦٢٨ ، ١٦٢٦ ـ ١٦٧٧ ، ١٦٧٨ ، ١٦٨٤ ، ١٦٨٥ ، ١٦٩٤ ، ١٦٩٥ ، ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ ـ ١٧٠١ ، ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ ، ١٧٠٦ ، ~~١٧٠٦~~ ، ١٧٤٣ ، ١٧٥٢ ، ١٧٥٥ ، ١٧٥٦ ـ ١٧٥٦ ؛ في شأن بعض هذه الاحداث انظر اعلاه ، ص ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٤ ؛
وانظر بالخصوص ابن ابي الضياف ، اتحاف ، خاصة ج ٢ ، ص ٣٣ ، ٤٩ـ ٥٥ ، ٥٨ ـ ٥٩ ، ٦٠ ـ ٦١ ، ٦٣ ـ ٦٤ ، ٦٦ـ٦٧ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٧ـ ٩٠ ، ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ـ ١٤١ ، ١٤٧ ـ ١٥٦ ٠ فيما يتعلق بعرض العلاقات التونسية الجزائرية من الفتح العثماني الى سنة ١٧٥٦ انظر خاصة تقرير دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ ؛ مجيل ، رحلة ص ١ـ ١٢ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ؛ لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ، ٤٠ ـ ٤١ ؛ هيجون ، شعارات بايات تونس ، ص ٥٤ ؛ باسيت ، تعريف بتونس ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ٠

ستة الاف عسكرى احتلوا تونس واطاحوا بالباى سنة ١٧٥٦ .[١] وقد استغل داى الجزائر عمله ذاك فاصطبغ حكم علي باشا هذا بزيادة تسلط الجزائر واستكانة تونس لها اكثر من اى وقت مضى . ونرى تفصيل ذلك في ما يلي :

بعد احتلال سنة ١٧٥٦ اوجب داى الجزائر على باى تونس محمد بن حسين تحطيم حصن مدينة الكاف المنيع الذى كان قائما بالقرب من الحدود بين البلدين ، والزمه دفع اموال كثيرة " تقدر بنصف مدخول الباى من الضرائب وغيرها تقريبا " . وهذان الامران هما " اهم الاسباب التي جعلت تونس تحت رحمة الجزائر دائما " .[٢] بالاضافة الى ذلك اوجب على باى تونس بعث كميات كبيرة من الاقمشة وزيت الزيتون الى الجزائر .[٣] وكذلك تحتم على باى تونس مسايرة واتباع رغبة الجزائر في علاقاته الخارجية مع الدول وخاصة في عقد المعاهدات معها .[٤] ولهذا كانت الجزائر ترفض التعاهد مع دولة ما اذا كانت تلك الدولة تعاقدت مع تونس قبل الاتصال بالجزائر ، وهذا ما حصل مع روسيا سنة

---

١ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ـ ١٥٣ ، ١٧٦ .

٢ ـ تقرير غفل ، ١٧٧٥ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ١٤٩ ؛ انظر ايضا تقريرا من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب ٣ ، ٣٠٤ .

٣ ـ تقرير دوفواز المذكور اعلاه ذاته ؛ الاب رينال " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ ـ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٧٣ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

٤ ـ وثيقة مؤرخة بسنة ١٧٦٥ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٠ ، كرتون رقم ٢٠٥ .

١٧٧٧ ،اعتبارا من الجزائر من أن تونس دولة تابعة لها سياسيا .[١] بجانب كل هذا فُرض على باى تونس بعث هدايا ثمينة في جميع المناسبات الى داى الجزائر ،واستقبال الوفود والضيوف الجزائرية على حساب تونس ،واعتماده لوكيل جزائري يسكن قصر باردو ذاته .[٢] وكذلك اجبر باى تونس على ان تكون راية تونس في الحدود التونسية-الجزائرية " مخفضة الى نصف صاريها او مرفوعة فوق صار قصير ".[٣]

ذلك كان وضع تونس حيال الجزائر منذ سنة ١٧٥٦ ،وقد وجد داى الجزائر في ضعف تونس ذاك وتبعيتها مخرجا لاهانة باى تونس وعدم المبالاة بسلطته ومما يدل على ذلك بكل وضوح ما سجله لنا التاريخ من عدم اكتراث السلطات الجزائرية بالجوازات والرخص التونسية المعطاة الى التجار والسفن الاجانب ،وهو ما كان يؤدي الى حجز قراصنة الجزائر لكل سفينة تحمل مثل تلك الوثائق التونسية الرسمية وسوق اصحابها الى الرق . وقد دعا هذا الوضع قنصل بريطانيا بتونس ان ينبه حكومته الى وجوب تحاشي الاعتماد على جوازات سفر تونسية لتجارها ، وذلك "... لان تونس خاضعة للجزائر وان الداى لا يعتبر تلك المستندات قط ".[٤] ويؤيد ذلك حادثة يذكرها وليد ، وموجزها ان " باش صدر [Bache Sadar] " مدينة قسنطينة حل بتونس يوما ومعه اربعون رجلا من اعيان تلك المدينة . وفي مجلس رسمي ضم

١- روسو ،حوليات تونسية ،ص ١٨٨ .

٢- رسالة من ج. تريل الى حكومته ،تونس ، ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٧٨ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٥/ ٧٧.

٣- هيجون ، شعارات بايات تونس ،ص ٥٤ .

٤- رسالة القنصل ج. تريل المذكورة اعلاه ذاتها .

رجال الدولة التونسية استقبل علي باشا ذلك المسؤول الجزائرى ، وبعد ان جال المبعوث بنظره في مختلف انحاء القاعة الفسيحة وقع بصره على السروال الذى كان يرتديه الباي التونسي فاعجبه ، عندئذ اعلن بصوت عال انه يريد اخذ ذلك السروال الانيق . وما كان من باى تونس الحذر الا ان قام ودخل غرفة مجاورة وغير السروال واتى بالاول ووضعه بين يدي المسؤول الجزائري. وبعد ان يذكر وليد تلك الحادثة يقول " ان الرجل الجزائرى لم يفعل تلك لحاجة حقيقية للحصول على السروال وانما اراد بذلك جدع انف كبرياء باى تونس بشيوع خبر انه اعرى الباى من ثيابه واخذها معه في مجلس رسمي". (١) وقد تولدت عن تسلط الجزائر على تونس كراهية حملها التونسيون في قلوبهم ضد الجزائريين بلغت كما يذكر كانار حد اعانتهم لبعض الاوروبيين خفية اثناء محاربتهم للجزائر". (٢) بعد هذا ليس من المستغرب ان نعلم ان من الاسباب التي جعلت علي باشا يبايع ابنه حمودة ويشركه في حكم البلاد منذ سنة ١٧٧٧ هو نفود صبره من " تعلل اهل الجزائر لعلمهم بانه [علي باشا] في قيد شاخة ومرض ...". (٣)

ولما تولى حمودة باشا العرش سنة ١٧٨٢ وجد نفسه امام رغبتين تتعلقان بسياسته المستقبلة مع الجزائر . الرغبة الاولى وصية ابيه التي تقول ان موارد تونس تشبه الرغيف من الخبز " يقسم على اربعة قطع تؤخذ منها واحدة ، وتعطى للجزائريين القطع الثلاث الاخرى ، وذلك حتى يمكن العيش في تآلف مع اولائك الاقوام [الجزائريين] المضطربين المريعين". (٤) والرغبة الثانية هي رغبة الجزائريين في ان يبدآوا معه

---

١ ـ عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، وقد تفرد وليد بذكرها .

٢ ـ كانار ، " وصف سواحل شمال افريقيا بقلم ضابط روسي " ، المجلة الافريقية ، ج ٩٥ (١٩٥١) ، ص ١٥٠ ، انظر ايضا التعليق رقم ٦٥ بالصفحة ذاتها .

٣ ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

٤ ـ وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤١ .

من حيث انتهوا مع ابيه .[(١)] غير ان حمودة باشا الذى كانت سياسته الخارجية، على ما يبدو لنا ، تجاه الجزائر لا ترضى بغير الاستقلال بديلا وجد من الحكمة ، وهو ما سيتبين لنا واضحا فيما يأتي ، عدم قبول الرغبتين على حالهما وعدم رفضهما رفضا مطلقا . بل ارتأى لنفسه سياسة حذرة تقتضي عدم التصادم في اوقات غير مناسبة ترمي في نهايتها الى تدعيم سيادة تونس واستقلالها عن الجزائر ؛ وذلك متى اتم مخططه التحريري المبني على تعزيز امكانات بلاده في مجالات عديدة. ومن ابرز مظاهر سياسته هذه مسايرته للجزائريين في تسلطهم ، مع العمل في وقت واحد على تحقيق انجازات جريئة تقوى بلده وتعده لنيل استقلاله . وقد تحقق ذلك الهدف عندما تمت المجابهة الفاصلة سنة ١٨٠٧.

قبل ان نبحث تطور العلاقات بين تونس والجزائر وابراز سياسة الحذر والتربص التي سار عليها حمودة باشا ، يجدر بنا ان نشير الى امور . الامر الاول ان الكثير من انجازات حمودة باشا في الميدانين الداخلي والخارجي والتي تعرضنا لها في هذه الدراسة ، كانت -بالاضافة الى كونها تحقق قوة للبلاد ومنعة لها بالنسبة لعلاقاتها مع الدول الخارجية عامة- ترمي الى تعزيز امكانات تونس لضمان النصر عند المصادمة مع الجزائر لنيل الاستقلال .[(٢)] وقد كان باى تونس في اغلب الاحيان يتسبب بأشياء اخرى تبعد عنه شبهة العمل من اجل محاربتهم .[(٣)] الامر الثاني هو ان حمودة باشا للضغط على الجزائر نعى علاقات تونس مع المغرب الاقصى تلك البلاد التي ملوكها لا يقبلون " تغزية تنسيهم مقاطعاتهم

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

٢ـ انظر اعلاه خاصة الصفحات ١٧٠ـ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ٢٢٢ ، ٤٠١ـ٤٠٢ .
انظر ايضا شاتوبريان ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

٣ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٠ .

العديدة والجميلة التي يسيطر عليها الجزائريون منذ امد بعيد ".[1] الامر الثالث هو ان حمودة باشا اعتمد في سياسته مع الجزائر، الى حد ملحوظ، على نشاط الجاسوسية والعيون العاملين داخل الجزائر و على استمالة وكلاء الجزائر[2] بتونس الى جانبه . وقد نجح في الامرين نجاحا ملحوظا رجع عليه بالفائدة فقد اسس حمودة باشا في سانية المرناقية مركزا للتجسس على الجزائر[3]

١- الاب رينال، "تقرير" ، المجلة التونسية، عدد ٣-٤ (١٩٤٨) ، ص ١٦٨،
انظر تقوية حمودة باشا لعلاقات الصداقة مع المغرب بالاتحاف، ج ٣ ، ص ٢١ .

٢- اطلقت عدة تسميات على وكلاء الجزائر بتونس في الفترة التي ندرسها . من هذه التسميات "القنصل الجزائرى بتونس"، رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس ، ٩/ ماى/ ايار، ١٧٩٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ، ومنها " القائم باعمال الجزائر بتونس"، رسالة من داى الجزائر الى الحكومة الفرنسية ، الجزائر ، جوان / حزيران، ١٧٩٨ ، بلانتي ، مراسلات دايات الجزائر ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ . ونفس التسمية السابقة يذكرها د وفواز في رسالة منه الى حكومته ، تونس ، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ، ١٧٩٩ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٦ . ومن هذه التسميات اسم " وكيل الجزائر بتونس agent "، رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣٠ افريل / نيسان ، ١٧٩٩، بلانتي مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ . ومن الملاحظ ان هذه التسمية توافقها التسمية التي تطلق على صاحب تلك الخطة في كل من خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٧٥ ، ص ١٥ - ١٩ ، وفي إتحاف ابن ابي الضياف ج ٣ ، ص ٣٤ . أما ابن سلامة فأطلق على صاحب الخطة اسم " النائب عن اهل الجزائر"، العقد المنضد ، ص ٧٠.

٣- الباجي المسعودى ، الخلاصة النقية ، ص ١٣٦ .

وفي نفس الوقت كان ، كما يذكر زبيس ، مركزا "... للتطلع على احوال رسل الجزائريين واستكشاف اسرار جوسستهم". [1] وفيما يتعلق بوكلاء الجزائر بتونس فقد اهدى لاحدهم جارية حسناء تبين فيما بعد انها كانت جاسوسة لحمودة باشا ، وكانت تقوم بمهمة دقيقة هي اختلاس مراسلات حكومة الجزائر من بيت الوكيل ومدها من ثقبة لرجل يجلس في غرفة مجاورة فينسخها في الحين ويردها للجارية وهي تضعها في محلها ، وبذلك كان حمودة باشا يطلع على اسرار حكومة الجزائر تجاه تونس ، [2] ومن هؤلاء الوكلاء ايضا الحاج محمد البرادعي الذى استماله حمودة باشا الى ان صار نصيرا لتونس لا يخفي شيئا عن الباى من مراسلات وتعليمات داى الجزائر لسنين طويلة . [3]

بعد تلك الاشارات الوجيزة المتعلقة ببعض مظاهر سياسة حمودة باشا العامة تجاه الجزائر يمكننا الان ان نستعرض اهم الوقائع والقضايا التي حدثت بين الدولتين ، وطريقة معالجة حمودة باشا لها ، وهو ما سيوضح لنا السياسة التي اعتمدها الباى بنجاح في الحد من تسلط الجزائر على استقلال تونس .

في اول عهد حمودة باشا ، ولم تمض مدة طويلة على وفاة والده ، وصل رسول من قبل داى الجزائر الى العاصمة التونسية مع حاشية كبيرة . وبعد ان استقبله الباى في قصره استقبالا لائقا اقام له ولحاشيته مأدبة غداء فاخرة . غير ان المبعوث والوفد المصاحب له اظهروا اشمئزازا من اصناف الاكل التي قدمت لهم ، ولما اقترب ماريانو ستنكا ، المكلف بشؤون تلك الضيافة ، سائلا المبعوث الجزائرى عن سبب الاستياء صفعه الرسول صفعة شديدة على وجهه ، ثم واصل الاكل كأن شيئا لم يحدث . سمع حمودة باشا بالحادث وتألم كثيرا منه ثم قرر رد الصاع صاعين دفاعا عن كرامته وسيادته . وبعد ايام قليلة من وقوع

١ـ اثار الدولة الحسينية ، ص ٤٢ .

٢ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٣ـ المصدر ذاته ، ص ٧١ ـ ٧٢ .

الحادث اتخذ الباى قرارا حازما منع بمقتضاه بعث حمولتين بحريتين من الزيت التونسي الى الجزائر.[1] وهي الكميات التي كان والده يبعث بها " لمقامات الصالحين "، والتي كان الداي يأخذ معظمها. وبالرغم من الشكوى التي قدمها الداى للسلطان العثماني ضد حمودة باشا بسبب قطعه للزيت الذي كان - كما يذكر الداى في شكواه - " لاعانة عسكر المسلمين بالجزائر..."، وبالرغم من ان السلطان بعث الى تونس بمبعوث خاص لاقناع الباى بوجوب مواصلة البعث، امتنع الباى عن الرضوخ وقطع الدفع " جملة وتفصيلا ".[2]

لم يخف داى الجزائر استياءه الشديد من اجراء الباى ذاك فنراه في سنة ١٧٨٣، اى بعد حوالي نصف سنة فقط من تولي حمودة باشا العرش، يوعز الى حاكم مقاطعة قسنطينة الجزائرية المتاخمة للحدود التونسية باحداث المشاكل العويصة لباى تونس. وما راع حمودة باشا الا مجيء مبعوث رسمي من باى قسنطينة يطالب حمودة باشا بتعويض على ممتلكات وخسائر واتعاب قبيلة تونسية كان نزح افرادها، منذ خمس عشرة سنة خلت، بكل ما استطاعوا حمله واستقروا بمقاطعة قسنطينة. طالب ذلك المبعوث بتعويض لتلك القبيلة، وبتعويض اخر لحكومة الجزائر مقابل الخسائر الناجمة عن نزوحهم، وكان مقدار تلك التعويضات كما قدمت للباى اربعون الف محبوب وهو مبلغ كبير من المال. فتعجب حمودة باشا من ذلك الطلب الغريب لقضية منسية وكاتب داي الجزائر يعلمه بذلك، ويهدده بقطع جميع العلاقات معه اذا ايد باى قسنطينة في طلبه ذاك. وفي ذات الوقت امر حمودة باشا جميع قواته بان يكونوا على اتم استعداد للقتال حتى لا يؤخذ عن غرة بهجوم جزائرى مفاجيء. ولم يقف الباى عند هذا الاجراء الاحترازى بل قام ،

١- المصدر ذاته، ص ٧٢ - ٧٣، وليد، عهود رئيسية في تاريخ تونس، ص ٤٢.

٢- ابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٣، ص ٧٦، انظر اعلاه، ص ٣٨٢.

على رأس قسم كبير من جيشه مصطحبا معه اكثر اعضاء البيت الحاكم ورجالات دولته،[1] بجولة عسكرية في معظم مقاطعات البلاد التونسية وخاصة منها المتاخمة للجزائر . وقد قام الباى بتلك الحركة لغرضين : الغرض الاول لتهدئة خواطر الاهالي وطمانتهم بعد الاشاعات التي راجت حول امكانية حدوث غزو جزائرى مفاجيء ، وللضرب على يد القبائل التونسية المتاخمة للحدود الجزائرية والتي بدأت تظهر ميلا للثورة والعصيان . والغرض الثاني كان تهديد باى قسنطينة واقناعه بان تونس مصممة على القتال والمجابهة عند حدوث اى تعدى من قبله على البلاد التونسية . وقد نجح حمودة باشا في تحقيق الغرضين معا ، ولم ترجع تلك الجولة التي دامت اربعة اشهر والتي "لم يقم بمثلها اى باى تونسي قبله" ، الا بعد ان اثبت سيادته واكد سلطته سواء بالنسبة للقبائل التونسية او بالنسبة للحكومة الجزائرية .[2] وقد شرح قنصل فرنسا بتونس شعور حمودة باشا نحو الجزائر في تلك الظروف عندما اعلم حكومته بباريس ان باى تونس يتمنى لو ان الخلاف بين الجزائر واسبانيا ، التي كان اسطو لها في طريقه الى محاربة الداى ، ينتهى بنجاح الحملة في تحطيم العاصمة الجزائرية وقواتها المتسلطة على استقلال تونس .[3]

يظهر ان الحملة التي قام بها حمودة باشا في المقاطعات المجاورة للجزائر اعطت النتائج المرجوة منها في التاثير على باى قسنطينة ، غير ان ذلك التأثير كان موقتا . فما ان حمى وطيس الحرب بين تونس والبندقية سنة ١٧٨٧ حتى وجد حاكم قسنطينة الفرصة سانحة لتهديد حمودة باشا بالهجوم على تونس باتفاق مع الداى.[4]

١- انظر اعلاه ، ص ١٠٧-١٠٨ ، ١٦٩ .

٢- روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ؛ وردت ايضا بعض الاشارات عن هذه الواقعة برسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٢ ديسمبر/ كانون الاول ١٧٨٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٤ ؛ وبرسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٣ فيفرى / شباط ، ١٧٨٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

٣- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١ جويلية / تموز ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .

٤- انظر رسالة من دى شاتوناف الى حكومته ، تونس ، ٥ جوان / حزيران ، ١٧٨٧ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ، والتعليق رقم ٢ بالصفحة ذاتها .

وخوفا من حمودة باشا ان تقع بلاده في حربين بحرية وبرية مع عدوين في في وقت واحد أوعز الى اسبانيا بالتدخل في الصلح بين البلدين الشقيقين، وعند نجاح تلك الوساطة بعث بهدية فاخرة الى داى الجزائر[1]، "مضحيا بكرامته من أجل مصالح تونس ".[2]

من تلك السنة (١٧٨٧) الى سنة ١٧٩٤ ـ ١٧٩٥ ، تاريخ حملة حمودة باشا على طرابلس ، وسفارة يوسف صاحب الطابع الى اسطنبول، تميزت سياسة ذلك الباى مع الجزائر بمسايرة ظاهرة ورغبة في عدم استفزاز مشاعر الداى . من ذلك انه سنة ١٧٩١ وصلته رسالة من الحكومة الفرنسية تدعوه الى ابقاء مفعول المعاهدات السابقة جاريا ، فأجابها بانه لا يرى مانعا في ذلك ولكن " افضل ان انتظر موقف داى الجزائر حتى لا يصبح يحارب سفني في البحر المتوسط ".[3] وفي يوم ٢٠ نوفمبر / تشرين الثاني ١٧٩١ ارست سفينة حربية جزائرية امام ميناء العاصمة التونسية ومنعت اى نشاط في الميناء . وقد تحاشى باى تونس استعمال القوة ضد تلك السفينة التي اوقفت تجارة تونس الخارجية لمدة شهرين كاملين ، واكتفى بتوجيه تنبيه الى القناصل المعتمدين لديه رجاهم فيه منع السفن التابعة لبلدانهم من الارساء او الاقلاع من الميناء ، وان كل ضرر يحصل لسفنهم هو غير مسؤول عنه .[4] وبالرغم من ذلك الموقف المسالم من قبل الباى طالب قبطان السفينة الجزائرية الحربية حمونة باشا بدفع ما قدره مائة الف ريال تعويضا لمصاريف المدة التي قضتها السفينة في الميناء .[5]

١ـ فوكون ، تونس عند وقبل الاحتلال الفرنسي ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

٢ـ رسالة دى شاتوناف المذكورة أعلاه ، تعليق رقم ٢ .

٣ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٥ .

٤ـ رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس ، ٢٠ جانفي / كانون الثاني ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧ .

٥ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١ فيفرى / شباط ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ .

في سنة ١٧٩٣ امتنع حمودة باشا عن الدخول في حلف مع بريطانيا والبرتغال ضد فرنسا الا اذا وافق داى الجزائر على ذلك وانضم اليهم • وهو موقف كان حمودة باشا متمسكا به فيما يتعلق بسياسة تونس الخارجية مع الدول الاوروبية يحسب الف حساب للجزائر " اما انها تدخل شريكة معه والا يمتنع ".[١] وقد تكررت هذه السياسة عدة مرات في عهد حمودة باشا نخص بالذكر منها تأثير الجزائر على تونس في الموافقة على اتفاقات مع فرنسا فيما يتعلق بالاعتراف بالعلم المثلث الالوان سنة ١٧٩٤ •[٢] ومنها ضغط الجزائر على تونس سنة ١٧٩٦ لعقد معاهدة صلح مع الولايات المتحدة الامريكية •[٣] ومن سنة ١٧٩٤ الى سنة ١٨٠٥ نجد حمودة باشا يقيم دار ضيافة تحت نظر وكيل الجزائر بتونس لاقامة الضيوف والوفود الجزائريين الذين يحلون بتونس • وكانت جميع نفقات هؤلاء من سكنى ومأكل وهدايا على حساب الباى •[٤] واذا علمنا ان تونس هي على طريق الحجاج الجزائريين ذهابا وايابا ، وطريق الوفود الجزائرية الى اسطنبول ذهابا وايابا ، ومحطة لقرصان وتجار الجزائر علمنا ماذا تعني تلك الضيافة وقدرنا تكاليفها • وقد حفظت خزينة الوثائق التونسية ما يدلنا على بعض هذه التكاليف •[٥]

١ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ •

٢ـ مذكرة من الحكومة الفرنسية الى مبعوثها فوق العادة بتونس Lallement ، باريس ، ٢٤ فيفرى / شباط ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جويلية / تموز ، ١٧٩٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ •

٣ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، الجزائر ، ٢٨ سبتمبر / ايلول ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ نوفمبر / تشرين الثاني ، ١٧٩٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ، وثيقة بتاريخ ١٧٩٨ ، ملف رقم ٧٣ ، كرتون رقم ٢٠٥ •

٤ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر عدد ٢٧٥ ، ص ١٥ •

٥ـ انظر المصدر ذاته ، دفتر عدد ٢٧٥ ، ص ١٥ ـ ١٩ •

بعد محاربة حمودة باشا لطرابلس الغرب وطرده لعلي برغل بنجاح وتوفيق كبيرين ، وهو الامر الذى اغضب السلطان واقلق داى الجزائر ،[١] بعد ذلك الانجاز الجرئ في سياسة حمودة باشا الخارجية يظهر انه شعر بقوته ومكانته فنراه يرفض قبول هدية حكومة الجمهورية الفرنسية البه رفضا باتا بدعوى انها لا تـوازي الهدية التي قدمتها تلك الجمهورية الى داى الجزائر "المساوى له [في المكانة]".[٢] ثم ان سفارة يوسف صاحب الطابع لاسطنبول سنة ١٧٩٥[٣] وما قدمه هذا مـن شكاوى باسم حمودة باشا ضد داى الجزائر وتسلطه على تونس ، كل ذلك اغاظ الداى ونكده الى حد جعله يبحث عن اى سبب لقطع العلاقات مع تونس . وزاد في غضب الداى ، كما يذكر قنصل بريطانيا في رسالة الى حكومته ، عقد حمودة باشا لمعاهدة مع كرسكة في السنة ذاتها (١٧٩٥)[٤] بشروط مماثلة تماما للشروط التي وردت في المعاهدة بينها وبين الجزائر . وهو امر اعتبره الداى اهانـة له لانه يجعل من تونس والجزائر بلدين متساويين . وعندئذ لم يكتف الـداى بتعديات بحريته وقراصنته على سفن تونس وموانئها بل هدد باحتلال تونس والمجيء بنفسه لاذلال حمودة باشا . وقبل ان ينهي القنصل رسالته الهامة هذه يعلـم حكومته ان حمودة باشا لن يتردد في حل النزاع بدفع المال .[٥] يغلب علـى الظن ان قنصل بريطانيا صدق في تقديره ان حمودة باشا سيدفع مالا لحـل

١ـ انظر اعلاه ، ص ٤٠٢ ـ٤٠٣ .

٢ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٥ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

٣ـ انظر اعلاه ، ص ٤٠٣ ـ٤٠٤ .

٤ـ انظر ادناه ، ص ٤٤٣ .

٥ـ رسالة مجهايجريفس الى حكومته ، تونس ، ٩ ماى / ايار ، ١٧٩٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ .

النزاع ،فقد وصلتنا معلومات تفيد ان باى تونس منذ سنة ١٢١١/ ١٧٩٥ـ١٧٩٦ كانت تأتيه اعداد وافرة من المواشي من داى الجزائر يدفع ثمنها باى تونس نقدا ثم يبيعها هو بدوره بالتقسيط للمزارعين والتجار • وكان حمودة باشا يخسر في تلك العملية القهرية اموالا كثيرة •[١]

في السنتين ١٧٩٨ و ١٧٩٩ حصل امران هامان احدثا تغثيرا ملحوظا في الوضع بين تونس والجزائر وخدما القضية التي يعمل من اجلها حمودة باشا • الامر الاول هو وفاة داى الجزائر ألد اعداء باى تونس وتولي ابن اخيه الحكم بعده•[٢] ولم تمض على تولية الداى الجديد مدة طويلة حتى ربط كما يذكر دوفواز علاقات حسنة مع كل من باى تونس وباشا طرابلس•[٣] الامر الثاني الذى حدث في السنة التالية (١٧٩٩) هو قتل حمودة باشا للأمير يونس اخر الامراء التونسيين المسنودين بحكام الجزائر والمطالبين بعرش تونس• وقد تم ذلك بعد ان كان حمودة باشا قد عفا عنه وسمح له بالاقامة في تونس على وعد بعدم التدخل في السياسة ،غير ان حمودة باشا اكتشف لدى ذلك الباى مراسلات وخطابات متداولة بينه وبين داى الجزائر •[٤]

١ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ،وثيقة مؤرخة بسنة ١٢١١/ ١٧٩٥ ـ ١٧٩٦ ،دفتر رقم ٢٩١ ،ص ٤ ،وانظر بعض المعلومات الاخرى عن هذه القضية بابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٤٠•

٢ـ جاء ذكر خبر وفاة الداى وتولية ابن اخيه الحكم بعده برسالة من القنصل دوفواز الى حكومته ،تونس،٢ جوان / حزيران ،١٧٩٨ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ، ص ٣٥٠•

٣ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ،تونس ، ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ،١٧٩٨ ، المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٣٦٩•

٤ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ،تونس، ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ،١٧٩٩ ، بلانتي ،المصدر ذاته ،ج ٣ ،ص ٤٠٠ ،وانظر اعلاه ،ص ١٧٠•

بعد هذين الحدثين يمكننا ان نلاحظ حدوث تغير في سياسة حمودة باشا تجاه الجزائر ، وذلك انه صار يظهر رغبة مكشوفة في الاستقلال عن الجزائر ، مع عمل متواصل في الصناعات الحربية والتحصين لتحقيق ذلك الغرض، لقد اعلمنا دوفواز ، بعد وفاة داى الجزائر بأشهر قليلة ، ان :

" جميع تطلعات باى تونس ترمي الى زعزعة ذلك الضغط المتسلط عليه من الجزائر . وانه استغل بحذق عذر اعلان الحرب الحالية [على فرنسا عند احتلالها لمصر] ليضع تونس في الوضع الدفاعي الاكثر اعتبارا بدون ان يستطيع داى الجزائر تحسس شبهة ما [ضد باى تونس]".[1]

وقد اكد حمودة باشا عدم تبعيته للجزائر في وقائع اخرى في السنة ذاتها .[2] غير ان شعور حمودة باشا بأنه لم يكمل استعداده الحربي لمواجهة الجزائر بنجاح حتم عليه تحمل الضيم والتسلط الجزائرى ست سنوات آخر . ومن اجل ذلك الهدف الاهم عقد صلحا مع دولة الدانمرك سنة ١٨٠١ بعد ان استعد لمحاربتها .[3] ومن اجل ذلك ايضا تحمل عدة اعتداءات من قراصنة الجزائر على السفن الاجنبية الراسية في ميناء تونس ، وهي الاعتداءات التي يصفها قنصل فرنسا بانها

"... أعمال قوة متفوقة تمارس على البلاد التونسية ، وهي اعمال مهينة صارت تعتبر موجهة ضد حمودة باشا شخصيا ، وهو يخفيها ويتصنع تجاهلها لانه لم يجمع بعد كل امكانياته التي تمكنه من قهرها وزعزعة خضوع بلاده للجزائر خضوعا مذلا ، هو الان في عمل متواصل في هذا السبيل لتحقيق [هذا الهدف] .

١ـ رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ .

٢ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٢ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٩ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

٣ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

انه مما يعزز مجد حمودة باشا وفخره بقدر ما هو من مصلحته ان يبلغ هدفه في اقرب وقت ممكن ...".[1]

في صائفة سنة ١٨٠٢ كتب قنصل بريطانيا يقول " ان الجزائريين يحسدون قوة تونس المتزايدة في مختلف الميادين العسكرية ، وانهم باستمرار يقدمون استفهامات للباى حول قوته النامية بسرعة ، غير انه يظهر انه غير مستعد للامتثال والرضوخ ".[2] ولهذا السبب ، كما يذكر القنصل ذاته في رسالة ثانية ، ان باى قسنطينة جهز جيشا بايعاز من داى الجزائر ، ليتجه الى تونس بعد ان امتنع حمودة باشا عن دفع اموال للجزائر . وكانت ردة فعل حمودة باشا على ذلك الاجراء تحضير جيش للدفاع عن بلده ، خاصة وان خبر استعداد باى قسنطينة لغزو تونس احدث فزعا وبلبلة في مدينة تونس .[3]

بعد ذلك التحدي من حمودة باشا هدأ الوضع بين البلدين مدة تزيد عن السنة والنصف ثم تعكرت العلاقات من جديد وبصفة خطيرة هذه المرة حيث ان باى قسنطينة " ادعى فجأة وعلانية حقه في ملكية منطقة بلاد الجريد[4]

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٧ ماى / ايار ، ١٨٠٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٣٥ ؛ يذكر القنصل ذاته اعتداءات اخرى قام بها قراصنة الجزائر على سفن المرجان العاملة في السواحل التونسية في نفس السنة ؛ انظر رسالة منه الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جوان / حزيران ، ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٣٧ ؛ انظر ايضا في الموضوع ذاته رسالة من القنصل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ ماى / ايار ، ١٨٠٣ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ ؛ انظر ايضا فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص ٧٦ـ ٧٧ .

٢ـ رسالة من كلارك الى حكومته ، تونس ، ٣١ جويلية / تموز ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٣ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، ٣١ اكتوبر / تشرين الثاني ، ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

٤ـ انظر موقع هذه المنطقة على خريطة البلاد التونسية بالملحق رقم ١ .

التونسية ـ وهي جهة ذات انتاج كبير من التمر ولها من الضرائب مورد عظيم الباى تونس ـ ووجه في الموضوع رسالة رسمية لحمودة باشا ". [١] في تلك الاثناء نجح حمودة باشا ، بطرق لا نعرفها ، في استمالة باى قسنطينة الحاج مصطفى انقليز الى جانبه على حساب الداى ، ثم ازدادت تلك العلاقة بين البايين توطدا الى حد جعل داى الجزائر يكتشفها ويامر باعدام باى قسنطينة . غير ان هذا الاخير فر الى تونس قبل ان يتمكن رجال الداى من تنفيذ الامر. [٢] يغلب على الظن ان حمودة باشا في ذلك الوقت كان قد تحقق من جدارة قواته واتم تحضيراته للمجابهة ، لذا نراه يثور على رسول الجزائر الذى حل بتونس في تلك السنة ، ولعله كان هو المكلف بتبليغ الرسالة الرسمية في قضية منطقة الجريد الى الباى ـ ويطرده من مجلسه قائلا : " ... لولا انك رسول والرسل لا تقتل لقتلتك ولكن اليوم ان لم تخرج من البلاد لاقتلنك . وامر باخراجه من دار الضياف ... " وبعد ذلك مباشرة عزل وكيل الجزائر . [٣] ثم اطلق لسانه في شتم الجزائريين ودايهم وامر الحكام العاديين وقضاة تونس بالحكم في الجزائريين مثلهم مثل سائر الناس بعد ان كان لهم حكام خاصون بهم . [٤] في ذلك الوقت وصل باى قسنطينة الحاج مصطفى انقليز " طريدا بعد عزله " الى حمودة باشا مستجيرا به فأجاره الباى واكرم نزله و " ... وعده الاعادة لولايته " ، وقد زاد

١ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٢ افريل / نيسان ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ص ٤٠ ، وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٣ يذكر معظم تلك التفاصيل .

٣ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٤ـ تقرير من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ، ص ٣٧ ، ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

ذلك في اغاظة داى الجزائر .[١] وكانت ردة فعل الجزائر على اعمال حمودة باشا تلك ارسال مزيد من البقر والمواشي لتباع في تونس باسعارعينها الداى مسبقا وكان ذلك " ... بصيغة صريحة في الامرة ، على غير الاسلوب الذى اعتيد منهم ... " . فانف حمودة باشا من تلك الاهانة وجمع رجال دولته واستشارهم جميعا ، وتم الاتفاق على امرين : الامر الاول ارجاع الحاج مصطفى انقليز " لمحل ولايته قسنطينة " . والامر الثاني هو بيع البقر الجزائرى في السوق ، بشهادة عدلين وكذلك " ... ان لا يمنع احدا من بيع بقره في خلال المدة ... " وبعد اتمام البيع كتب حمودة باشا لداى الجزائر يقول :

" ان البقر امرنا ببيعه على يد عدلين ، وتجمع من ثمنه كذا وتولى قبضه رسولكم بامرنا ، وان ارسلتم بعده شيئا للبيع فليكن خطابكم في ذلك لوكيلكم ، وحاله في ذلك كعامة اهل البلد من غير فرق ، وقد كنا نرى ان فعلنا معكم سابقا انما هو ثمرة محبة ، وحيث رأيتموه واجبا فلا نسلم هذا الوجوب " .[٢]

بعد ذلك تحققت المجابهة مع الجزائر فامر حمودة باشا بقطع جميع انواع العطايا والهدايا التي كانت تقدم لداى الجزائر ، واوقف النفقات التي كانت تصرف للجزائريين بتونس . ليس هذا فقط بل امر برفع راية تونس عالية فوق قشلة القصبة بالعاصمة ، بعد ان كانت لا ترفع الا منكسة بمنتصف العماد المحمولة عليه .[٣]

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٠ ، وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٣ .

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

٣ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٥٣ ، وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٢ .

وقائـــع الحـــــروب

عندما بلغت العلاقات بين البلدين ذلك الحد من التوتر جمع حمودة باشا رجال دولته ووقع نقاش فيما يجب عمله بشأن الجزائر . واتحدت الكلمة اخيـــرا على وجوب القتال ، فقرر حمودة " القطيعة مع الجزائر " ثم امر جميع الجزائريين بالرجوع الى بلدهم. وكان هدف حمودة باشا من تلك القطيعة " كما هو في مخططه: تثبيت استقلال بلاده وتوطيده ، ووضع تونس في مأمن من غزو جزائري ..." ولهذا السبب اتخذ حمودة باشا موقف الدفاع في البداية لا الهجوم .(١) وقد حافـظ الباى على موقفه ذاك الى حين ضربت ست بوارج حربية جزائرية الحصار علـى ميناء حلق الواد وسدته ، ومنعت بذلك تحرك اسطول تونس التجارى والحربي واوقفت كل نشاط تجارى خارجي .(٢) عند ذلك لم يجد باى تونس بدا من اعلان الحرب ضد الجزائر وعجل ببعث جيش (حوالي ٢٥ ديسمبر/ كانون الاول مـن سنة ١٨٠٦) قوامه اربعون الف مقاتل . زحف هذا الجيش واجتاز الحـدود وبدأ في حصار مدينة قسنطينة الجزائرية حوالي ١١ جانفي / كانون الثاني مـن السنة التالية (١٨٠٧) على الرغم من الثلوج المتراكمة . واستمر الحصار الى اواخـر شهر افريل / نيسان من نفس السنة . وكان وضع الحرب ، في جميع احتمالاتـه ، يدل على حتمية انتصار الجيش التونسي .(٣) ومما يؤكد وضع الحرب ذاك هـو

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٩ مارس/ اذار ١٨٠٧ ، خزينة وثائـق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ . ابن ابـــي الضياف يقول ان حمودة باشا " اعلن بالحرب " ، اتحاف ج ٣ ، ص ٤١ .

٢ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٨ فيفرى / شباط ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ غير ان قنصل فرنسا في رسالة له ان البوارج التي ضربت الحصار اثنتان فقط ؛ رسالة من دوفواز الى حكومتـه ، تونس ، ١٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ . ولعل عدد تلـــك البوارج كان في اول الامر اثنين (وبين الرسالتين انقضت مدة اطول من الشهر) ثم ارتفع عددها الى الستة .

٣ـ المصدر والوثيقة ذاتهما . يذكر ابن ابي الضياف ان الحملة خرجت من تونس يوم ٢٤ جانفي ١٨٠٧ (كما اثبته المحقق) وهو امر لا يتفق مع ما ذكره القناصل في مراسلاتهم ؛ انظر اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤١ .

زج حمودة باشا لاعضاء وفد جزائرى من قسنطينة في السجن وتخزيقه لرسائلهم بدعوى ان الداى لم يبعثهم خصيصا له ٠[١] غير انه فجأة وفي الليل استولى على بعض الاغوات[٢] فزع بدون داع ، اجبروا بسببه القائد العام علي الشاوش[٣] على الانسحاب بدعوى ان الجيش محاط بقوى جزائرية متفوقة جدا ، وان لا مخرج الا الهروب. وكانت النتيجة الهزيمة الساحقة لعساكر الباى حتى انهم لم يأخذوا معهم من كل العتاد الذى قضى حمودة باشا سنوات عديدة في صنعه وتجميعه الا الاعلام فقط ٠[٤]

في ذلك الوقت الحالك وتحت وقع تلك الهزيمة الشنعاء ، وحلول الفزع حتى بأكبر المسؤولين فضلا عن الشعب الذى ما زالت اهوال فظائع جند الجزائر في اسماعهم من وقائع سابقة ، استجمع حمودة باشا قوى دولته المنهوكة وقرر الذهاب بنفسه على راس جيش تونسي جديد في حملة ثانية على الجزائر ٠[٥] غير ان مستشاره رجب بونمرة عارضه في ذلك الامر واقنعه بوجوب البقاء في

١ـ انظر اعلاه ، ص ٨٥ ٠

٢ـ آغوات: ج. آغا ، وهم من جند الترك ٠

٣ـ يذكر بعض المؤرخين ان الجيش التونسي الذى انهزم هزيمة نكراء كان تحت امرة سليمان كاهية الاول (ت ١٨٠٧) الذى يصفه صاحب الاتحاف بالغفلة وقلة الحزم والجرأة ؛ انظر ج ٣ ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، ج ٧ ، ص ٥٦ ؛ انظر ايضا اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ، ص ٤٨ ؛ وليد عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٥ ؛ وانظر ادناه ، ص ١٢٨ تعليق رقم ١ ٠

٤ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ ؛ انظر ايضا رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٣ ماى / ايار ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ٠

٥ـ رسالة دوفواز المذكورة اعلاه ذاتها ٠

تونس.[١] عندئذ انتخب الباى اقدر رجل في دولته وهو يوسف صاحب الطابع ليكون القائد العام لتلك الحملة.[٢] جمع الباى كل من تبقى له من خيـــرة الجند والمتطوعين فكانوا اربعة وعشرين الف مقاتل ؛[٣] جهزهم على التـــو ، بفضل اعانة مالية كبيرة من الوزير صاحب الطابع وغيره ، بأحدث الاســـلحة ، وانتقلوا تحت امرة قائدهم الجديد الى ساحة القتال مرورا بمدينة الكـــاف ،[٤] حيث توجد فلول الجيش المهزوم السابق التي مضى على تشريدها اربعة اشهر.[٥]

يؤكد القنصل الفرنسي في احدى رسائلة ان رصيد تونس من الســلاح والعتاد والعسكر المدرب المتحمس كان رصيدا متوفرا بلد وانها كانت غنيـــة جدا فيه ؛ وذلك هو سر تمكن الباى من تجهيز جيش جديد وبسرعة فائقـة . ثم يشير الى ان الذى كان ينقص تونس فعلا هم الضباط والقواد . ويضيـــف القنصل ان حمونة باشا هو الرجل الوحيد الذى كان يتمتع بأهلية القـــواد العظام الممتازين في تونس ؛ ولكن اعتماده على وزيره صاحب الطابع يعتبــــر

١ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٥٥ .

٢ـ الوثيقة المذكورة اعلاه ذاتها .

٣ـ يتكون هذا الجيش من اربعة عشر الفا من الخيالة العرب ومن عشرة الاف من المشاة الترك وجند الزواف (انظر تعريفهم اعلاه ، ص ٢٠٩ تعليق رقم ١)؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجـــلد رقم ٣٨ .

٤ـ انظر موقع تلك المدينة على خريطة تونس بالملحق رقم ١ .

٥ـ المصدر والوثيقة ذاتهما .

اختيارا موفقا ، وهو رجل ليس بعد الباى من هو اكثر اهلية منه • ثم ينبه حكومته الى ان امن الفرنسيين المقيمين في تونس هو غير مضمون في حال حصول احتلال جزائرى •(١)

في مكان يطلق عليه " سلاطة " يقع بين مدينة الكاف والحدود الجزائرية ، وقع اللقاء ثم القتال بين الجيشين • وهي الواقعة الفاصلة التي انتصر فيها الجيش التونسي على اعدائه •(٢) وفي يوم ١٢ جويلية / تموز ١٨٠٧ ، كما يذكر دوفواز في رسالة منه الى حكومته ، وصل بريد مستعجل جدا للباى يعلمه فيه صاحب الطابع قائد الحملة بالانتصار الحاسم الذى احرزه التونسيون ، ويبين عدد القتلى والاسرى في صفوف الجزائريين •(٣) وكذلك اعلمه، كما يذكر قنصل بريطانيا ، ان جيش الجزائر منهزم ومشرد في الجبال وان الجند التونسي يطارد شتاتهم في كل مكان •(٤) يعلق القنصل ذاته على ذلك الفوز العظيم بقوله : كانت حرب حمودة باشا التي قادها صاحب الطابع للنصر ، اهم قضية كرس حمودة باشا كامل عهده لتحقيقها • وذلك لانها كانت حربا ترمي لاستقلال بلاده ، واستقلاله هو شخصيا من تسلط الجزائريين الذى ورثه عن ابائه واجداده ••(٥)

١ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٤ ماى / ايار ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، مجلد رقم ٣٨ •

٢ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٧ يذكر اسم مكان الواقعة ؛ انظر مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ج ٢ ، ص ١٦٨ •

٣ـ كان عدد القتلى الجزائريين في هذه الحرب بين الست والسبع مائة من الانفس ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، مجلد رقم ٣٨ • اما عدد الاسرى فقد بلغ السبعة الاف رجل ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧١ •

٤ـ رسالة من أوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٣١ اوت/ آب ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ •

٥ـ المصدر والوثيقة ذاتهما ؛ انظر ايضا رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٩ مارس/ اذار ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ • فيما يتعلق بوقائع هاتين الحملتين

من اهم الملاحظات التي يجب ان نشير اليها هنا وتتعلق بهاتين الواقعتين البريتين مع الجزائر هي : اولا : ان العامل الرئيسي في انهزام الجيش التونسي في الحملة الاولى يرجع لخيانة جند الترك وهروبهم من الميدان في احرج ظروف الحرب ، وقد تسبب ذلك في قلب الوضع من انتصار محقق الى هزيمة شنعاء .(١) ثانيا : ان الانتصار الذى احرزه التونسيون في المعركة الثانية والفاصلة يرجع الفضل فيه الى الجنود التونسيين ابناء البلاد ليس لجند الترك ، وهم الذين حاربوا حتى بالسلاح الابيض واستشهدوا من اجل ذلك الانتصار . وهو سبب تخلي الباى بصفة ملحوظة عن جند الترك وتركيز اهتمامه على الجند من ابناء تونس .(٢) ثالثا : ان الاسطول التونسي لم يشارك في الحرب على الرغم من شدة الحاجة الى تدخله . وقد يكون السبب في ذلك هو وجود

= مفصلة اكثر انظر خاصة رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٩ مارس/ اذار ، ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧٠ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٩ مارس/ اذار ، ١٨٠٧ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ ؛ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، مجلد رقم ٣٨ ؛ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٦ جويلية / تموز ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ ؛ تقرير من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ ؛ مجيل ، رحلة ، ص ٣٧ - ٣٩ ، ٧٠ - ٧١ ؛ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٠ - ٧٦ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤١ - ٤٩ .

١- رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٣ ماى / اذار ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢ جوان / حزيران ، ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧١ ؛ الباجي المسعودى ، الخلاصة النقية ، ص ١٣٧ .

٢- انظر اعلاه ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

البواخ الحربية الجزائرية التي كانت ضاربة الحصار على ميناء حلق الواد .[1] والذى يؤكد حاجة تونس لقوات بحرية اثناء تلك الحرب ، ويؤكد ان الاسطول الحربي التونسي كان في حالة من الحصار تمنعه من الحركة ، هو قيام الاسطول البرتغالي ، بطلب من حمودة باشا ، بعد انهزام تونس في المعركة البرية الاولى "... بحماية شواطيء تونس من هجوم الاسطول الجزائرى المتوقع ".[2] وقد حصل فعلا ما توقعه القنصل البريطاني فما انقضت خمسة اسابيع عن تاريخ رسالته حتى هجمت وحدات بحرية جزائرية مسلحة على ميناء مدينة طبرقة القريبة من الحدود الجزائرية وحاصرته بدون ان تحرز انتصارا .[3] هذا مع ملاحظة ان الاسطول التونسي احرز انتصارات على الاسطول العدو في وقائع اتية كما سيلي . رابعا: ان حمودة باشا بعد انتصاره في تلك الحرب على الجزائريين شعر بقوته وتفوقه وصار " غليظا في معاملته مثل حكام الجزائر ...".[4]

بعد تلك الهزيمة القاضية التي حلت بالجيش البرى الجزائرى على الحدود لم يتخل داى الجزائر يوما على العمل لاخذ ثأره من تونس . غير انه اصبح يركز نشاطه الحربي ضد حمودة باشا على قواته البحرية التي لم

---

١ ــ انظر اعلاه ، ص ٤٢٥ .

٢ ــ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٣ ماى / اذار ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٥ .

٣ ــ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١ جويلية / تموز ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧١ ، رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٧ أوت / اب ، ١٨٠٧ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ ، رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٣١ أوت / اب ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧/٥ .

٤ ــ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٣ ديسمبر / كانون الاول ، ١٨٠٨ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٨ .

تتوقف في ملاحقة السفن التونسية التجارية في عرض البحار وحتى في الموانىء موئثرة بذلك تآثيرا كبيرا على تجارة تونس الخارجية ٠[١] وقد بلغت تلك الاعتداءات حدا جعل باى تونس يقرر محاربة الجزائريين في البحر ،وجهز قسما من اسطوله ليقوم بتلك المهمة ٠ في اوائل شهرماى / اذارمن سنة ١٨١١ هجم الجزائريون على جزيرة جربة الغنية بقصد احتلالها ،غيرانه بسبب جهلهم لطبيعة بحار تلك الجزيرة غاصت سفنهم في السباخ المحيطة وتعذر عليهم الخروج منها بسهولة ٠ ولم يتمكن الغزاة من الافلات الا بعد تسع ساعات من العمل المضنى كان خلالها سكان الجزيرة يصوبون عليهم وابلا من الرصاص٠[٢] عند وصول خبر الحملة الجزائرية عجل حمودة ببعث قوة بحرية تونسية التقت مع القوات الجزائرية اثناء رجوعها بالقرب من مدينة الحمامات٠[٣]

١ـ ابن سلامة ،العقد المنضد ،ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ روسو ،حوليات تونسية ، ص ٢٨٦ ٠

٢ـ اوسكار ، ملخص تاريخ تونس ،ص ٥١ ـ ٥٢ ؛ وليد،عهود رئيسية في تاريخ تونس ،ص ٤٤ ـ ٤٥ ٠

٣ـ القوة البحرية الجزائرية التي شاركت في المعركة تحت امرة قائد اسمه حميدو كانت تتآلف من ست سفن كبيرة الحجم واربعة زوارق مدرعة ٠ والقوة التونسية تحت قيادة محمد المورالي وكانت تتالف من اثنتي عشرة سفينة حربية ؛ روسو ،حوليات تونسية ،ص ٢٦٨ ٠ ويذكر ابن ابي الضياف ان القوة التونسية كانت تتكون من اربعة عشر مركبا حربيا اتحاف ،ج ٣ ،ص ٥١ ؛ اما وليد فيذكر ان قوات تونس كانت تعد تسعة سفن حربية من مختلف الاحجام ،عهود رئيسية في تاريخ تونس ، ص ٤٥ ٠

وما ان اشتبك الاسطولان حتى خذل البحارة التونسيون رئيسهم محمد المورالي وانسحبوا من المعركة لانهم انفوا من تقديم ارنووطي عليهم .[1] غير ان المورالي صمد في القتال ببارجته وحدها ست ساعات طوال ولم يستسلم الا بعد ان صارت سفينته محطمة تماما ، فأسر وسيق الى الجزائر حيث اعدم على حطام بارجته . اما بقية وحدات القوة التونسية فقد اتجهت بسرعة الى ميناء مدينة منستير . ومما يجدر ذكره هنا هو ان هذه المعركة البحرية بين الاسطولين كلفت ٤١ قتيلا جزائريا و ٢٣٠ تونسيا .[2]

بعد تلك الواقعة البحرية الهامة ظلت العلاقات مقطوعة بين البلدين وحالة الحرب مستمرة بينهما غير انه لم تحدث معارك ذات بال على الرغم من ان القبائل على الحدود بين البلدين كانت دائمة التحرش ببعضها لبعض ومن ان عسكر البلدين على تلك الحدود كانوا في حالة استعداد دائم للهجوم متى امروا بذلك . وتجدر الاشارة هنا الى ان في تلك الاثناء جرب الجيش الجزائرى الهجوم على الحدود التونسية ، غير ان بعض القبائل التونسية ردت ذلك الهجوم بمفردها . غير انه من الملاحظ انه كانت لدى المسؤولين في تونس والجزائر رغبة في انهاء حالة الحرب القائمة وهي الحالة التي كلفت

---

١ – ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥١ .

٢ – روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٦٨ ، وانظر تفاصيل اخرى عن تلك المعركة ب رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ١٦ ماى / ايار ، ١٨١١ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٣٩ ، وابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ ، وابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٥١ ، ويذكر صاحب العقد المنضد ، ص ٨٣ – ٨٤ ان طريقة معاقبة حمودة باشا للرياس التونسيين الذين خذلوا قائدهم كانت التجوال بهم في الاسواق والباسهم لباس النساء وبعد ذلك نفيهم في القرى .

القطرين اموالا عظيمة جدا .[1] ومما يؤكد وجود تلك الرغبة من الطرفين ، وخاصة من جهة حمودة باشا الذى لا يريد من الجزائر الا رفع يد تسلطها عن تونس، هو ان حكومة الجزائر بعثت يوم ٢٤ جويلية / تموز ١٨١٢ قسما من اسطولها يتالف من تسع عشرة سفينة مكلفا بضرب حصار جديد على ميناء حلق الواد ، والسعي " في فتح مفاوضات سلم مع حمودة باشا وتقديم رسالة من الداى الى باى تونس في ذلك الشأن" . في تلك الرسالة عرض الداى عقد صلح نهائي بشرط ان تتعهد تونس له " ببعض الالتزامات" ، وخاصة منها بعث حمولة سفينة من الزيت سنويا الى الجزائر . رد حمودة باشا على ذلك العرض كان تجسيما صريحا لكل سياسته تجاه الجزائر ، اجاب بأنه " يرفض رفضا باتا كل اقتراح يفضي الى اقامة صبغة ضريبة سياسية" . ولكن ليبرهن على صدق نواياه في عقد الصلح مع الجزائر قبل ببعث حمولة سفينة زيتا كل سنة" "بدون اعتبار ذلك ، في اية حالة من الحالات ، تكريسا لحق تفوق رتبة أو سيادة لصالح الجزائر" . وشرح حمودة باشا بعثه لتلك الحمولة بانه " واجب ديني بحت وشخصي " ما دام ذلك الزيت سيكون بقصد اضاءة جوامع مدينة الجزائر .[2] يظهر ان جواب الباى على عرض الصلح لم يرق لقائد الحملة البحرية الجزائرية فاطلق جنوده نيران مدافعهم على قلعة حلق الواد . عندئذ اركب حمودة باشا وزيره يوسف صاحب الطابع لمقاتلة المعتدين " فاخرج [الوزير] لمدافعتهم الشواني ، وكانت يومئذ مائة وخمسة وسبعين ، على كل واحد منها مدفع ، ومنها ما علية مدفعان ..." وكانت النتيجة ان انعطبت مراكبهم و " اقلعوا بالخيبة" . وعند انهزامهم سطوا على بعض ما قدروا عليه مما كان بمراكب التجار التونسيين .[3]

١ـ روسو ،حوليات تونسية ،ص ٢٨٤ .

٢ـ المصدر ذاته ،ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

٣ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٥٨ .

لم يرعو الجزائريون بهزيمتهم تلك ،بل نراهم بعد انقضاء اشهر قليلة من المعركة البحرية تلك يعزون الى قبائلهم الضاربة على حدود تونس بالتحرش بقبائل تونس المواجهة لهم • وقد قابلت تونس ذلك التحرش باعلان حالة الاستعداد للحرب في عسكرها وفي تحصيناتها للتهيوء للقتال في الربيع المقبل (١٨١٣) ، وكذلك فعلت الجزائر •[١] وما ان حلت صائفة تلك السنة الموعودة حتى وقعت واقعتان هامتان وهما آخر الوقائع بين البلدين في عهد حمودة باشا • وقد احرز سلاح الجيش التونسي سواء منه البرى او البحرى في الواقعتين انتصارا نهائيا وفاصلا توج بهما عهد حمودة باشا وهو في اخر سنواته • المعركة البحرية كانت في شهر اوت / اب سنة ١٨١٣ بميناء حلق الواد بعد ان حاصرته " عمارة كبيرة جدا " جمع فيها الجزائريون " قوتهم كلها "[٢] ؛ منذ ٢٣ جويلية / تموز سنة ١٨١٣ •[٣] فخرجت لهم حوالي ستون سفينة حربية تونسية و " وقع بينهم القتال الغظيم " • وانفرجت المعركة بانتصار الاسطول التونسي اذ رد الجزائريين على اعقابهم بعد ان اعطب العديد من سفنهم •[٤] اما المعركة البرية التي كان الجيشان المتعاديان يحضران لها منذ اواخر شهر ديسمبر / كانون الاول سنة ١٨١٢ فقد عقد الباى قيادة الجيش التونسي الى وزيره المقتدر يوسف صاحب الطابع الذى وصل الى مدينة الكاف يوم ١٢ اكتوبر/

---

١ ـ رسالة من M. Robenson (نائب اوغلاندر) الى حكومته ، تونس ١٧/ ١ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨١٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٧٧ / ٦ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٨٦ •

٢ ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ •

٣ ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ٢٩/ جويلية / تموز ، ١٨١٣ ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق التجارية ، مجلد رقم ٤١ • وفيها ايضا يشير القنصل الى ان الاسطول الجزائرى المهاجم كان يتالف من ٥٤ سفينة حربية كبيرة •

٤ ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ ؛ السنوسي ، مسامرات الظريف ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ •

تشرين الاول سنة ١٨١٣ بعد ان ركز اسماعيل كاهية " جميع افراد الجيش التونسي " في المدينة وحواليها حسب الاوامر الموجهة اليه . اما الجيش الجزائرى فقد اخذ مواقعه في مواجهة مدينة الكاف داخل الاراضي التونسية ذاتها . ولما وصل يوسف صاحب الطابع بدأت المناوشات بين طلائع الجيشين ، وما ان حل الليل حتى احس بعض رجال الجيش التونسي حركة عامة غريبة في الجيش المقابل وما راعهم عند بزوغ الفجر الا ان رأوا جيش الجزائر في حركة فرار وانسحاب كامل . وتبعهم الجيش التونسي بانتظام وحذر الى الحدود بين البلدين حيث توقف وتابع الجزائريون الانسحاب الى قسنطينة ومنها الى عاصمتهم . وعندئذ اصدر حمودة باشا امرا بارجاع الجيش التونسي الى العاصمة بعد ابقاء حامية قوية في مدينة الكاف .(١) وهكذا حطت الحرب أوزارها ولم يكن من الجزائريين حرب بعد ذلك .(٢)

بهذه الحروب البرية والبحرية سجل حمودة باشا ماثرة تحريرية من اهم الماثر في كامل تاريخ تونس منذ الفتح العثماني الى القرن العشرين . ولا توازيها انتصارات استقلالية الا حركة مقاومة الاستعمار الفرنسي والحصول على الاستقلال سنة ١٩٥٦ .

بعد هذا علينا ان نفسح المجال للمؤرخين والكتاب ونستعرض اقوالهم في تقييم ووصف انجازات حمودة باشا التحريرية من تسلط الجزائر على بلاده . يذكر مجيل الذى زار تونس سنة ١٨٠٩ تغلب تونس على الجزائر بقوله : "... انه لم يسبق للبلاد التونسية ان تمتعت بوضع اكثر ازدهارا ونفعا من الوضع الذى هي فيه اليوم . كذلك لم يسبق لسكان تونس ان استمتعوا باستقلال ولا بأمن

---

١ ـ رسالة بيلون المذكورة اعلاه ذاتها .

٢ ـ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٨٤ .

اتم مما هم فيه الان حيال اعداء تونس في الخارج ".[١] اما ابن سلامة فيقول ان ذلك الانتصار كتب لحمودة باشا شيوع الصيت وخلود الاسم . ثم يقول في وصف ذلك الباى : " كان رحمه الله من يشار اليه في زمانه . ويقال فيه وحيد اقرانه ضخم الدولة التونسية واعلى منازلها واخذلها من الجزائر ثارها ...".[٢] وهو الذى مدحه بقوله :

ونازل الاعداء في حصونهم	واستخرج المكنون من مصونهم
وشحن الفلك الى الجهاد	بكل قرم رايح وغادى
فنال ما شاء مغنما ونصرا	وشام من اقصى الاماني مصرا
وجهز الجيش لاهل لغرب الجزائر	بكل بتار حديد الصرب
فكادهم وسامهم ادبارا	ومن لضاه ولوا الادبارا
ونال منهم من نزالهم امنية	بهمة صادقة علية
فهابه من حزمة الملوك	والغض والصغير والصعلوك...[٣]

أما الباجي المسعودى فبعد ان يذكر ذلك الانجاز يصف فرحة الشعب باستقلاله حيث "... زينت الحاضرة ولبست من يومئذ ثياب العز ونضت أطمار المذلة وتحلت بالعز والامان...".[٤] ويصف روسو حمودة باشا بانه كان "... ماهرا شجاعا محيي استقلال تونس...".[٥] اما اوسكار فيقول فيه

١_ رحلة ،ص ١٤ .

٢_ العقد المنضد ،ص ٦٧ ، ٧٥ _ ٧٦.

٣_ الدرة النفيسة ،ص ٣ .

٤_ الخلاصة النقية ،ص ١٣٧.

٥_ حوليات تونسية ،ص ٢٨٨.

"... انه هو [حمودة باشا] ، الذى كان اول من حاز شرف رفع علم تونس عاليا فوق برج قلعة تونس العتيقة ، ذلك العلم المضرج بالدماء من اجل الحرية ".[١]
يذكر السنوسي صاحب مسامرات الظريف ذلك الحدث الهام بقوله : "...فانتصر التونسيون انتصارا هائلا ... وزينت البلاد وتوالت الافراح ومن ذلك اليوم نزعت البلاد اطمار مهانة الجزيريين ولبست ثياب العز واصبحت رافلة في جلابيب آمنها ..." .[٢] وقد اورد ذلك المؤرخ قصيدا رثائيا للمفتي التونسي الشهير ابراهيم الرياحي ، نظم تخليدا لحمودة باشا ولانجازاته . فيما يتعلق بحروبه ضد الجزائر ورد فيها قوله :

لكن ماثرك التي خلدتها ... ابقت سناك وانت تحت رجام

......

حتى أطاعك فيهم النصر الذى ... خضعوا به قسرا خضوع لئام
وبلغت انك ان رآوا لك عسكرا ... هزموا بلا طعن وسل حسام
وغدت بذلك تونس تفتر في ... حلل الهنا عن ثغرها البسام
محسودة كعقاب جو منعة ... بشموخها وكميها الضرغام
والان فهي لفقده محزونة ... تبكي عليه بكل طرف دام
فكأنما عين الحواسد فوقت ... لجمالها عن قوسه بسهام
لما دعا داعي الرضا فأجابه ... مستسلما لله في الاحكام
فافسح له اللهم عندك منزلا ... واسمح له بزيارة الانعام[٣]

هذا واخر ما ننهي به هذا العرض لاقوال المؤرخين في انجاز حمودة باشا قول الزمرلي ان ذلك الانتصار "... كان حاسما على الجزائريين وفي تحرير البلاد التونسية في وقت واحد ".[٤]

---

١ ـ ملخص تاريخ تونس ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
٢ ـ السنوسي ، ج ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
٣ ـ المصدر ذاته ، ج ١ ، ص ٩٣ ـ ٤٠ .
٤ ـ "يوسف صاحب الطابع" ، المجلة التونسية ، عدد ٢١ (١٩٣٥) ، ص ٤٥ .

ب • تنميـــة الصــداقات

الطريق الثاني الذى توخاه حمودة باشا في سياسته الخارجية ، بجانب طريـــق الكفاح والحرب ، لابراز سيادة تونس ، هو طريق تنمية الصداقات مع الدول التـــي تهمه • وقد تمثل ذلك خاصة في المعاهدات التي ابرمها الباى مع تلك الدول ؛ وفي اعتماده سياسة الاتصال المباشر مع معظم تلك الدول بواسطة ســــفرائه ومبعوثيه • وهما الطريقان اللذان سنبحثهما فيما يلي •

١• المعاهدات التي ابرمها مع الدول التي تهمــه

قبل ان نستعرض تلك المعاهدات [1] حري بنا ان نثبت هنا بعـــض الاحكام المفيدة التي تتعلق بهذا القسم من البحث • اولا ان هذه المعاهدات كانت ترمي اولا وقبل كل شيء الى مصالحة الدول " لمصلحة اقتصادية وسياسية" • [2] ثانيا ان حمودة باشا كان في اكثر الاحيان يعمل بمقتضى بنود المعاهـدات المبرمة مع الدول ويحافظ على احترامها • [3] ثالثا ان سياسة حمودة باشـــا تلك افادت التجارة التونسية الخارجية و " اعطت هيبة للدولة في الخـــارج" • [4]

١ـ أطلقنا على هذه المعاهدات لفظ " معاهدات" وذلك ترجمة لكلمـة " traités " الفرنسية التي كان قناصل فرنسا يستعملونها كاطلاق عام على المعاهدات التي كانت تبرمها تونس مع الدول الخارجيـــة ؛ انظرا خاصة بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٨ ـ ٤٢٩ •

٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ١٠ جويلية / تموز ، ١٧٩١ ؛ خزينـــة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

٣ـ رسالة من الحكومة الفرنسية الى هيركولي ، باريس ، ١٥ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ؛ مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ٨٢ •

٤ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينـــة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ •

رابعا ، كما يوضح روسو ، ان " نجاح حمودة باشا التام في سياسته الخارجية مع الدول وعقده لاتفاقيات ومعاهدات في صالحه مع دول عديدة ، زادته اعتدادا بنفسه وثقة في قوته وسلطته " . ويقول هذا المؤرخ ايضا ان سياسة الباى الناجحة تلك جعلته يقرر محاربة الجزائر سنة ١٨٠٧ .[١] خامسا ان عقد تلك المعاهدات مع العديد من الدول الاوروبية افضى في النتيجة الى نقصان في اعمال القراصنة التونسيين ، وقد عوضت تونس ذلك النقصان بنشاط تجارى مزدهر مع الخارج .[٢] ولعل نجاح حمودة باشا في علاقاته الخارجية ، خاصة مع الدول الاوروبية ، هو الذى جعل الكاتب الفيلسوف شاتوبريان " الكثير الاتزان والشديد التمعن في احكامه " يصف حمودة باشا بأنه " ... رجل قدير يتحدث بفكر ويفهم السياسة الاوروبية احسن من معظم الحكام الشرقيين ."[٣]

ومما تجدر ملاحظة هو ان داى الجزائر كان توسط لبعض الدول الاجنبية لدا حمودة باشا لتسهيل عقد بعض تلك المعاهدات خاصة قبل سنة ١٨٠٧ ،[٤] وسنشير الى تلك الوساطة اثناء عرضنا لتلك المعاهدات . وقد كانت كل معاهدة تعرض على مجلس الباى بحضوره ، وبعد ان يقع فيها النظر والمداولة ، يتناقش فيها الباى ذاته مع القنصل المعني بتلك المعاهدة .[٥] اما فيما يتعلق باللغة التي تبرم بها هذه المعاهدات فقد كانت التركية ولغة الدولة الاجنبية المتعاقدة مع تونس .[٦]

---

١ _ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٥٢ ، ٢٦٦ .

٢ _ اميريت ، " تقرير " ، المجلة التونسية ، عدد ٣ _ ٤ (١٩٤٨) ، ص ١٥٠ _ ١٥١ .

٣ _ دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٤ ، تعليق رقم ١ .

٤ _ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ٢٣ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٥ _ رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ مارس/ اذار ، ١٨٠٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٣١ .

٦ _ انظر النصوص الاصلية لما تحفظ من تلك المعاهدات بخزينة وثائق الدولة التونسية بالملفات التي سنشير اليها اثناء تحدثنا عن كل من تلك المعاهدات .

في استعراضنا للمعاهدات التي ابرمت في عهد حمودة باشا ، سنرتبها على اساس التدرج التاريخي بالنسبة لعقدها مع كل دولة .

أ . فرنسا : عقد حمودة باشا مع فرنسا عدة معاهدات

١ . معاهدة ابرمت يوم ٢٤ جوان / حزيران سنة ١٧٨١ تتعلق بتجديد امتياز صيد المرجان بتونس وبيعه . امضى على المعاهدة بقصر باردو كل من علي باى وابنه حمودة وقنصل فرنسا دى روشي .[١]

٢ . معاهدة ابرمت يوم ٨ اكتوبر / تشرين الثاني ١٧٨٢ ، وطدت العلاقات التجارية والسياسية بين البلدين المتعاقدين ونظمت امتياز صيد المرجان في المياه التونسية الى فرنسا . امضى على المعاهدة ، بقصر باردو ، كل من حمودة باشا وقنصل فرنسا دي روشي .[٢]

٣ . معاهدة ابرمت يوم ٢٥ ماي / ايار ١٧٩٥ ، تؤكد التزام البلدين باحترام المعاهدات السابقة ، وتضبط تحديد المياه الاقليمية لكل من البلدين ، وقع عليها حمودة باشا وقنصل فرنسا دوفواز.[٣] وقد نقحت بعض مواد هذه المعاهدة يوم ١٥ اوت / اب من السنة ذاتها .[٤]

١ـ انظر نص المعاهدة ببلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١١٩ـ ١٢١ .
٢ـ انظر نص المعاهدة بالمصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٨ .
٣ـ بشان هذه المعاهدة انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٣ ، كرتون رقم ٢٠٥ ؛ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ؛ مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٧ .
٤ـ مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٧ .

٤٠ معاهدة ابرمت يوم ٢٧ اوت /آب ١٨٠٠ ، تنهي حالة الحرب القائمة بين البلدين بسبب غزو نابليون لمصر ، امضى عليها حمودة باشا وقنصل فرنسا دوفواز .[(١)]

٥٠ معاهدة ابرمت يوم ٢١ شوال ١٢١٦/ ٢٣ فيفرى/ شباط ١٨٠٢ ، امضى عليها حمودة باشا وقنصل فرنسا ، وهي تؤكد انهاء حالة الحرب وترجع العلاقات كما كانت بين البلدين مع تعزيزها .[(٢)]

١ـ بشأن هذه المعاهدة انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٥٩ ، كرتون رقم ٢٠٥ ؛ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤١٠ـ٤١١ ؛ خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٥) ، ص ٢٢٩ ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت/ اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ مارسال ، موجز تاريخ تونس ، ص ١٩٨ .

٢ـ بشأن هذه المعاهدة انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٥٩ ، كرتون رقم ٢٠٥ ؛ بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٨ـ٤٢٩ ؛ مالون ، تأثير فرنسا في تونس قبل الحماية ، ص ٨٢ . بالاضافة الى هذه المعاهدات وقعت اتفاقات بين حمودة باشا وحكومة فرنسا الجمهورية تتعلق باعترافه بفتوحات نابليون في اوروبا . وقد شمل ذلك الاعتراف خاصة : كرسكة سنة ١٧٩٧ ، البندقية السنة ذاتها ، عدة ممالك ايطالية صغيرة اخرى (١٧٩٧ ـ ١٨٠٣) ، مالطة (١٧٩٨) ، سويسرة (١٨٠٣) ، جنوة (١٨٠٦) ، نابلي (١٨٠٦) ، هولندا (١٨١١) ، النمسا (١٨١١) . فيما يتعلق بهذه الاتفاقات انظر خاصة بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٧ ـ ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤ـ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٤٩١ ؛ بالنسبة للممالك الايطالية خاصة انظر ايضا روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٧ .

ب • النمسا : عقد معها حمودة باشا معاهدتين

١ • معاهدة سنة ١٧٨١وامضى عليها حمودة باشا مع والده علي باشا ، ثم وقع تأكيدها وتعيين قنصل للنمسا بتونس بمقتضاها في شهر افريل / نيسان سنة ١٧٨٢ •

٢ • معاهدة صلح في شهر جانفي / كانون الثاني سنة ١٧٨٤، وقعها الباى مع تلك الدولة بعد ان امضت عليها الجزائر قبلا •[(١)]

ت• اسبانيا : عقدت معها معاهدة واحدة بعد ثلاث سنوات ونصف من المفاوضات اجراها ممثل لاسبانيا حل بتونس لذلك الغرض ؛ وقعت في جمادى الاولى ١٢٠٥/ جانفي ١٧٩١ • وقد قبل الاسبان في هذه المعاهدة معظم مطالب حمودة باشا التجارية والسياسية ؛ وعين بمقتضى هذه المعاهدة قنصل لأسبانيا بتونس •[(٢)]

ث • البندقية : عقدت معها معاهدة واحدة انهت الحرب التي دامت سنوات عديدة بين البلدين •[(٣)] وقد امضيت المعاهدة التي كلفت البندقية اموالا عظيمة يوم ٢ ماى / آيار من سنة ١٧٩٢ •[(٤)]

١ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ، ٤٤٧ ؛ انظر مراسلات هذا القنصل مع حمودة باشا بخزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٩٥ ، كرتون رقم ٢٥٣ •

٢ـ بشأن هذه المعاهدة انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٠٥ ، كرتون رقم ٢٥٤ ؛ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٤ جويلية/ تموز ١٧٩٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣ / ٧٧ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ٤٦٨ ـ ٤٧٤ •

٣ـ انظر اعلاه ، ص ٣٧٢ـ٣٧٨ •

٤ـ انظر رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٥ ماى / ايار ، ١٧٩٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢١١ ؛ ابن ابي الضياف اشار اليها فقط ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٢٠ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ، ٥٦٢ ـ ٥٦٨ •

ج • كرسكا : عقدت معاهدة صلح مع كرسكا لمدة اربعة اشهر على يد سفير تونسي ذهب الى كرسكا خصيصا لذلك الامر • وقد تمت هذه المعاهدة في اواخر سنة ١٧٩٥ •[١]

ح • الولايات المتحدة الامريكية : عقدت معها معاهدة وقعت بتونس يوم ٢٤ أوت / اب سنة ١٧٩٧ ، وعين بمقتضاها قنصل للولايات المتحدة الامريكية بتونس •[٢] وقد نقحت هذه المعاهدة بعد خلافات مع امريكا يوم ٢٦ مارس / اذار سنة ١٧٩٩ •[٣] وفي سنة ١٨٠٥ حاولت الولايات المتحدة ، بالضغط المسلح والتهديد ، اجبار تونس على تنقيح تلك المعاهدة ثانية ، غير ان السفير التونسي الذى بعث به الباى الى واشنطن انهى النزاع بين البلدين •[٤]

خ • صقلية : عقد حمودة باشا معها صلحا بوساطة قنصل بريطانيا بتونس في بداية صائفة سنة ١٧٩٩ •[٥] ولان حمودة باشا كان مستاء من المعاهدة بسبب تأثيرها على نشاط القرصنة التونسية بصقلية بدون تعويض على الخسائر،[٦] جددت

---

١ _ بشأن هذه المعاهدة انظر رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٩ ماى / ايار ، ١٧٩٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ رسالة من القنصل ذاته ، ١٠ جوان / حزيران ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ انظر اعلاه ، ص ٤١٩ •

٢ _ بشان هذه المعاهدة انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٨٥ ، كرتون رقم ٢٥٢ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٤٦١ _ ٤٦٤ •

٣ _ انظر رسالة من الحكومة الفرنسية الى دوفواز ، باريس ، ٤ اوت / اب ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٣٦ •

٤ _ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٧ اوت / اب ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ فيما يتعلق بالسفارة ، انظر ادناه ، ص ٤٥٦ _ ٤٥٧ •

٥ _ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٥٣٥ _ ٥٣٦ •

٦ _ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٣١ مارس / اذار ، ١٨١٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ •

تلك المعاهدة سنة ١٨١٢.[١] ثم وقع تنقيح تلك المعاهدة مرة اخرى سنة ١٨١٣.[٢]

د. البرتغال : هذه المعاهدة ايضا تم ابرامها بتدخل من قنصل بريطانيا بتونس . غير ان المحادثات لاتمام هذه المعاهدة دامت من سنة ١٧٩٣[٣] الى سنة ١٧٩٩.[٤] من اهم نتائج هذه المعاهدة كسب حمودة باشا لصداقة البرتغال وتمكن سفن قراصنته من العمل في المحيط الاطلسي.[٥] هذا وقد عقد حمودة باشا معاهدة ثانية مع البرتغال يوم ١٦ اكتوبر/ تشرين الاول سنة ١٨١٣ ، وهذه المعاهدة هي الاخرى كانت بتدخل من بريطانيا.[٦]

ذ. نابلي : عقدت معاهدة صلح مع نابلي في اوائل سنة ١٨٠٠ على الرغم من ان قراصنة تونس كانوا يستولون على اكثر من مائة سفينة نابوليتانية سنويا.[٧] وبعد ذلك التاريخ بما يقارب الاربع عشرة سنة عقد صلح اخر بين البلدين لمدة سنة واحدة (٢٦ مارس/ اذار ١٨١٤ _ ٢٦ من الشهر ذاته ١٨١٥).[٨]

١_ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٧٦ _ ٢٧٧ ، ٥٣٦ _ ٥٣٧.

٢_ تقرير من اوغلاندر الى حكومته ، لندن ، ٢٢ جانفي/كانون الثاني ، ١٨١٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧.

٣_ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٤ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧.

٤_ بشان هذه المعاهدة انظر رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جوان / حزيران ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٥٢٦ _ ٥٢٨.

٥_ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣١ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جانفي كانون الثاني ، ١٨٠٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ _ ٤٤٨.

٦_ بشأن هذه المعاهدة انظر رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٦ اكتوبر / تشرين الاول ، ١٨١٣ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٥١٢ _ ٥١٣ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٥٢٨ _ ٥٢٩.

٧_ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ اوت / اب ، ١٨٠٠ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٤/ ٧٧ ، رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٤/ ٧٧ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٥٣٥ _ ٥٣٦.

٨_ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢٨ مارس/ اذار ، ١٨١٤ ، بلانتي ،

ر٠ سردانية : عقدت معها معاهدة لا ندرى تاريخها بالضبط ولكن يغلب على الظن انها تمت في اواخر سنة ١٧٩٩ او اوائل سنة ١٨٠٠ ٠ اشار الى انجاز هذه المعاهدة القنصل دوفواز في رسالة منه الى حكومته مؤرخة بيوم ١٠ فيفرى / شباط سنة ١٨٠٠ ٠ ويذكر فيها ان سردانية كانت بعثت بسفير الى تونس خصيصا للمفاوضة ولعقد تلك المعاهدة ٠ (١)

ز٠ الدانمرك : في شهر جوان / حزيران ١٨٠٠ تأزمت العلاقات بين تونس والدانمرك لاسباب تجارية وبلغت حد اشعار قنصل تلك الدولة بوجوب ترك تونس واستعداد الطرفين للقتال ٠ غير ان حمودة باشا بسبب تحضيره لحرب الجزائر " وهو الاهم عندئذ " قبل الصلح مع الدانمرك بوساطة صاحب الطابع ٠ (٢) وبعد ذلك انعقد الصلح بمعاهدة في اكتوبر نوفمبر / تشرين الاول ـ تشرين الثاني سنة ١٨٠١ ٠ (٣)

= مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٥١٥ ؛ روسو ،حوليات تونسية ، ص ٢٧٩ ، ٢٨١ ـ ٢٨٣ ٠

١ـ بلانتي ،مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٤٠٤ ٠

٢ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٥ ٠ بشأن هذا الخلاف وقطع العلاقات والاستعداد للحرب من الطرفين انظر: رسالة من قبطان الاسطول الدانمركي بالبحر الابيض المتوسط الى حمودة باشا ، ٢٧ جوان/ حزيران ، ١٨٠٠ ،خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف ،رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ ؛ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٣ جوان / حزيران ، ١٨٠٠ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٤٠٩ ؛ رسالة من ارنولد وسولر الى حكومته الاسبانية ،تونس ، ٢٥ جويلية / تموز ، ١٨٠٠ ؛ لوت ،ارنولد وسولر ، ص ٤١ ؛ رسالة من قبطان الاسطول الدانمركي الى حمودة باشا ، ١٦ اوت / اب ، ١٨٠٠ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ ؛ رسالة من القبطان ذاته الى الباى ذاته ، ١٩ اوت / اب ، ١٨٠٠ ، المصدر ذاته ،ملف رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ ٠

٣ـ رسالة من ملك الدانمرك الى حمودة باشا ، ٢ جويلية / تموز ، ١٨٠١ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٣ ،ص ٣٥ ٠

س • بريطانيا : وقع حمودة باشا معاهدة مع بريطانيا بتاريخ ٢ ماى/ايار سنة ١٨١٢ • وقع عليها كل من حمودة باشا والقائم باعمال القنصلية البريطانية W. Robinson •[١] ويذكر روسو ان معاهدة ثانية عقدت بين البلدين المذكورين في سنة ١٨١٣•[٢]

هذا وقبل ان ننهي حديثنا عن هذه المعاهدات يجدر بنا ان نشير الى معاهدات اخرى عقدها حمودة باشا مع بعض الدول • غير ان هذه المعاهدات انفرد بذكرها فرانك وروسو • فالاول يقول ان الباي عقد معاهدات مع تسكانة وراغوصا ومع ممالك البابا •[٣] والثاني يذكر ان باى تونس عقد معاهدتين مع كل من هولندا والسويد حوالي سنة ١٨٠٧•[٤]

٢ • اعتماد حمودة باشا على سياسة الاتصال المباشر مع الدول بتبادل الممثليـــــــــن

قبل ان نبحث موضوع اعتماد حمودة باشا الاتصال المباشر مع الدول بواسطة سفرائه وبعوثيه ،[٥] من المهم ان نذكر ان في عهد ذلك الباى اتسعت دائرة

١ــ رسالة من روبنسون الى حكومته ، تونس ، ٢٨ افريل / نيسان ، ١٨١٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦ / ٧٧ ، ويوجد نص المعاهدة برسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٢٢ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٦ / ٧٧ ، روسو ، حوليات تونسية ، ص ٤٣٧ •

٢ــ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٤٣٨•

٣ــ وصف البلاد التونسية ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ •

٤ــ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٥٢•

٥ــ الاصول الاجنبية والعربية تسمي هؤلاء الرجال ، الذين كان حمودة باشا يبعثهم للقيام بمهمات معينة الى الخارج ، بـ " سفراء " و " مبعوثين " ، يتفق في ذلك جميع قناصل الدول الاجنبية المعتمدين بتونس • اما الاصول العربية فاذا اخذنا ابن ابي الضياف مثالا نجده يورد التسميتين مع استعمال اكثر لكلمة " سفير " و " سفارة " • انظر مثلا الاتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، ج ٧ ، ص ٩٠ ، ١٣٥ ، ج ٨ ، ص ٤٢ ، ٦٠ •

التمثيل الاجنبي في تونس ،وصار بها قنلطل جدد سبقت الاشارة اليهم اثناء درسنا للمعاهدات التي ابرمها ذلك الباى مع الدول الخارجية.[١] وحري بنا ، وهذا امر لا تخفى اهميته في هذا المجال ،ان نذكر اسماء الدول التي كان لها ممثلون لدى الحكومة التونسية في العهد الذى ندرسه. وهو واقع يعكس لنا نجاح حمودة باشا في سياسته الخارجية من جهة ، ومن جهة ثانية يجسم لنا الاهمية التي كانت تتمتع بها تونس بين الدول الغربية في ذلك العهد . وقد كان حمودة باشا يضمن لهؤلاء الممثلين الامن والحماية ويزيد فيشددهما اوقات الحوادث والاضطرابات.[٢] وكانت ممتلكاتهم الخاصة وحاجياتهم معفاة من الضرائب الجمركية .[٣] ويشير فروجيا الى ان حمودة باشا كان في اتصال دائم ومستمر مع هؤلاء القناصل ويعطف عليهم ويعمل على مصادقة حكام دولهم.[٤] ويذكر الحكيم فرانك الذى قضى مدة طويلة في تونس كطبيب حمودة باشا الخاص ان اهم هؤلاء القناصل المعتمدين لدى الحكومة التونسية هم قناصل " فرنسا واسبانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وهولندا والدانمرك والسويد ".[٥]

---

١ _ ليس في الدراسات ما يعيننا على المقارنة بين عهد حمودة باشا وما سبقه من العهود سواء في تونس او في بلدان شمال افريقيا الاخرى، ولكن المعاهدات التي ابرمها حمودة باشا تبين لنا ان العديد من الممثلين للدول الاجنبية عينوا في بتونس بمقتضى تلك المعاهدات.

٢ _ روسو ، حوليات تونسية ،ملف رقم ٥٩ ، كرتون رقم ٢٠٥.

٣ _ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٥٩ ، كرتون رقم ٢٠٥ .

٤ _ فروجيا ، " العملة الحسينية ، رقم ٣" ، المجلة التونسية ،عدد ١٧ (١٩٣٤) ،ص ٨٢.

٥ _ وصف البلاد التونسية ،ص ٩٠ _ ٩١ .

وان معظم القناصل والممثلين الاخرين كانت نشاطاتهم تكاد تنحصر في حماية مصالح بلدانهم التجارية مع تونس ، مع العمل على ارضاء الباى وتحاشي غضبه.(١)

فيما يلي نذكر القناصل والممثلين الغربيين الذين كانوا في تونس في الفترة التي ندرسها مرتبين ترتيبا ابجديا اعتبارا لاول حرف يبتدئ به اسم بلد كل واحد منهم : وهذه الدول الغربية الممثلة هي : اسبانيا ،(٢) بتافيا (Batave)،(٣) بريطانيا ، البندقية ،(٤) تسكانة ،(٥) الدانمرك ،(٦) راغوصا ،(٧) روسيا ،(٨) سردانية ،(٩) صقلية ،(١٠) السويد ،(١١)

١ـ المصدر والصفحات ذاتها .

٢ـ رسالة من ر. تريل الى حكومته ، تونس ، ١٧ جويلية / تموز ، ١٧٨٨ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ ؛ روسو ، حوليات تونسية (سنة ١٧٨٨) ، ص ٢٦٦ .

٣ـ روسو ، حوليات تونسية (سنة ١٧٨٤) ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ١٩ فيفرى / شباط ، ١٧٩٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .

٤ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، الجزائر ، ٢٩ جوان / حزيران ، ١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

٥ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٩٣ .

٦ـ المصدر ذاته (سنة ١٧٨٣) ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ رسالة من ملك الدانمرك الى حمودة باشا ، ٢ جويلية / تموز ، ١٨٠١ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٤١ ، كرتون رقم ٢٥٧ .

٧ـ رسالة من هيركولي الى حكومته ، تونس ، ١٩ فيفرى/ شباط ، ١٧٩٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣١٥ ؛ روسو ، حوليات تونسية ، ص ١٨٥ .

٨ـ رسالة هيركولي المذكورة اعلاه ذاتها .

٩ـ رسالة من حاكم سردانية الى الوزير مصطفى خوجة ، سردانية ، ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦١٢ ، كرتون رقم ٢٤٦ .

١٠ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ٦ جانفي / كانون الثاني ، ١٨١٣ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٦/ ٧٧ .

١١ـ روسو ، حوليات تونسية (سنة ١٧٨٤) ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ رسالة من قنصل السويد الى الحكومة التونسية ، تونس ، ١٧ جانفي / كانون الثاني ، ١٨٠١ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٦٥ ، كرتون رقم ٢٥٨ .

فرنســا ، ليغورنــة ،[١] نابلــي ،[٢] النمســا ،[٣] هولانــدا ،[٤] الولايات المتحدة الامريكية .[٥]

هذا وانه لمن المهم ان نشير هنا الى ان حمودة باشا استضاف العديد من الامراء الغربيين والمسلمين في بلده . من هؤلاء ما سبق ذكرهم مثل علي قرمانلي واولاده ، وباى قسنطينة مصطفى انقليز وابنه ، وقد اجزل عليهم العطاء وبالغ في تكريمهم ونصرهم .[٦] ثم المولى يزيد ابن سلطان المغرب وبعده ابوه السلطان ذاته اثناء اجتيازه الى الحج . وكذلك

١ـ رسالة من ر. تريل الى حكومته ، تونس ، ١ فيفرى / شباط ، ١٧٨٩ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

٢ـ قدم قنصلها هدية لحمودة باشا بتاريخ ٦ رمضان ١٢١٥/ ٢٢ جانفي / كانون الثاني ١٨٠١ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، دفتر رقم ٢٦٩ ، ص ٣٤ ؛ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢٨ مارس/ اذار ، ١٨١٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٥١٥ .

٣ـ روسو ، حوليات تونسية (سنة ١٧٨١) ، ص ١٩٣ ؛ رسالة من قنصل النمسا بتونس الى حمودة باشا ، تونس ، ٢٢ افريل/ نيسان ، ١٨١٤ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٦٩٥ ، كرتون رقم ٢٥٣ .

٤ـ رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٢٣ فيفرى / شباط ، ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ؛ شاتوبريان ، رحلة (سنة ١٨٠٧) ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

٥ـ رسالة من دوفواز الى حكومته يذكر فيها ان قنصل امريكا استقر بتونس منذ سنة ١٧٩٧ ، تونس ، ٢٠ افريل / نيسان ، ١٧٩٩ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ .

٦ـ الباجي المسعودى ، الخلاصة النقية ، ص ١٣٨ ؛ انظر اعلاه ، ص ٤٢٣ .

" المولى المسلمة وافاه حمودة باشا شريدا اثر خلعه من مملكة فاس فانزله أسنى منزلة واجرى عليه جراية سلطانية وبالغ في بره".[١] وكذلك اميرة من سيدات العائلة البريطانية المالكة زارت تونس في صائفة سنة ١٨١٣ وقد احتفى بها الباى غاية الحفاوة وبالغ في اكرامها .[٢] وحول هذه الاستضافات يصف محمد السنوسي حمودة باشا بقوله : " وكان الامير ولوعا باكرام الوافدين عليه من ملوك الجهات بحيث انه خلف للبلاد ماثر ومفاخر لا يحصيها عدد بسبب ما عنده من الغيرة والحمية الوطنية ."[٣]

وقبل ان ننتقل الى ذكر سفارات حمودة باشا الى الخارج حرى بنا ان نشير الى ان ذلك الباى كان له " وكلاء " " représentants " قارين في كل من جبل طارق[٤] وجنوة[٥] ومرسيليا ،[٦] وقد خطط حمودة باشا ،كما يذكر هيجون ، لاقامة قنصل دائم لتونس بمرسيليا في اخريات ايامه .[٧] وكذلك كان لتونس وكيل بمصر مقيم بالاسكندرية .[٨]

كان سفراء حمودة باشا الى الدول الخارجية من اغنياء واعيان تونس، وجميعهم من المقربين للباى . يوجههم لقضاء مهمات سياسية وتجارية على حد السواء ،وعند رجوعهم يستقبلهم الباى بحفاوة .[٩] واهم هذه السفارات هي ما تلي ، مرتبة حسب اسبقيتها تاريخيا بالنسبة للعهد الذى ندرسه .

١ـ المصدر والصفحة ذاتهما .

٢ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ،تونس ، ٩ جويلية / تموز ، ١٨١٣ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٦/ ٧٧.

٣ـ مسامرات الظريف،ج ١ ،ص ٣٧ ـ ٣٨.

٤ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٧ ،ص ٧٧.

٥ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ،تونس ، ١٠ جوان / حزيران ، ١٧٩٦ ،خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٤/ ٧٧.

٦ـ رسالة من بيلون الى حكومته،تونس ، ٦ مارس/ اذار، ١٨١٠ ،بلانتي ، مراسلات بايات تونس،ج ٣ ،ص ٤٨٧.

٧ـ شعارات بايات تونس،ص ٥ـ٦ .

٨ـ خزينة وثائق الدولة التونسية ،ملف رقم ٤٣١ ،كرتون رقم ٢٣١.

٩ـ فرانك ،وصف البلاد التونسية،ص ٦٧ .

١• سليمان اغا الى فرنسا (جانفي - ماى / كانون الثاني - ايار ١٧٧٧) :
توجهت هذه السفارة الى ملك فرنسا وحكومته لا علامه بتولي حمودة باشا ولاية العهد ومشاركته لوالده في الحكم • وقد استقبلت هذه السفارة بحفاوة بالغة من الحكومة الفرنسية ورجع سليمان اغا بهدايا ثمينة الى كل من الباى وولي العهد ورجال الحكومة التونسية ،ومن اهم نتائج هذه السفارة انها وطدت العلاقات بين البلدين •[١]

٢• سفارة الى اسبانيا سنة ١٧٩١ : هذه السفارة انفرد بذكرها قنصل بريطانيا ،وهو لا يذكر السفير الذى قام بها • غيرانه يعلمنا ان الهدف منها كان الحث على عقد المعاهدة ،[٢] وهي التي تمت فعلا في السنة ذاتها •[٣]

٣• يوسف صاحب الطابع الى الدولة العلية سنة ١٧٩٥ : بعثه حمودة باشا لتحسين العلاقات مع تلك الدولة وتقديم هدية ثمينة للسلطان بمناسبة توليه العرش ولشرح اسباب الحملة التونسية على طرابلس الغرب وظروفها وطرد علي برغل • وقد نجحت السفارة في المهمة التي اوكلت اليها •[٤]

٤• محمد خوجة[٥] الى فرنسا وكرسكة وبريطانيا (بدات بماى / ايار سنة ١٧٩٦) : كانت المهمة الاساسية لهذه السفارة هي ارجاع سفن فرنسية ثلاث

١- بشأن هذه السفارة انظر خاصة رسالة من E. De Saizieu قنصل فرنسا بتونس السنوات ١٧٦٣ - ١٧٧٧ الى حكومته ، تونس ٢٤ مارس/ اذار ، ١٧٧٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٦١ ؛ كونور غرانشان ، سفارة سليمان اغا ؛ رسالة من ج• تريل الى حكومته ، تونس ، ١١ سبتمبر/ ايلول ، ١٧٧٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٢/ ٧٧ ؛
E. Cardon, Etudes sur les progrés de la civilisation dans la régence de Tunis, Paris, 1861, p.19.

٢- رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ افريل / نيسان ، ١٧٩١ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ •

٣- انظر اعلاه ، ص ٤٤٢ •

٤- انظر اعلاه ، ص ١١٨ - ١٢١ ، ٤٠٣ - ٤٠٤ •

٥- انظر ترجمته بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٨ ، ص ٦٠ •

كانت بعض وحدات الاسطول البريطاني اعطبتها واحتجزتها من ميناء حلق الواد التونسي ،وهي مهمة اقتضت اجراء مفاوضات بكرسكة . اما مروره بباريس فما كان الا لتوطيد العلاقات مع فرنسا ثم الانتقال منها الى لندن .(١)

غير ان الاقتبال الذى حصل لتلك السفارة بلندن لم يكن على المستوى المطلوب من الحفاوة والتكريم ،وذلك على الرغم من التاكيدات الملحة من ماجرا الى حكومته بوجوب المبالغة في تكريم السفير التونسي كما فعلت فرنسا معه.(٢) ولهذا السبب فشل السفير في بلوغ ما كان يرمي اليه من سفارته في حل المسائل المالية المعلقة بين البلدين ومنها أن بريطانيا تلكأت في دفع ما ترتب عليها سنوات عديدة وتأزمت العلاقات بين البلدين حتى افضت الى هروب القنصل البريطاني ماجرا الى خارج تونس مدة شهور عديدة.(٣)

٥. محمد خوجة الى فرنسا ثانية (جانفي / كانون الثاني ١٧٩٧) :

اهم ما كانت ترمي اليه هذه السفارة امرين : الامر الاول تقوية العلاقات الحسنة بعد تنقيح المعاهدة بين البلدين التي حصلت يوم ١٥ اوت / اب ١٧٩٥ . الامر الثاني تسليم رسائل من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية يعبر فيها عن استيائه لسحب القنصل دوفواز من مركز عمله بتونس، ويطلب

١ـ رسالة من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية ،تونس ،جوان / حزيران ،١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ،رسالة من هيركولي الى حكومته ،الجزائر ،٢٩ جوان ،١٧٩٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ،ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ،روسو، حوليات تونسية ،ص ٢٣٦.

٢ـ رسالة من القنصل الى حكومته ،تونس،٩ ماى/ ايار ،١٧٩٦ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٧٧/٤ ،رسالة من القنصل ذاته ، ١٠ جوان / حزيران ، ١٧٩٦ ، المصدر ذاته ،ملف ٧٧/٤ . وبالخزينة المذكورة عدة مراسلات تمت بين السفير والحكومة البريطانية .

٣ـ بشأن اسباب عدم نجاح هذه السفارة بلندن وما ترتب عنها من احداث انظر : رسالة من الحكومة البريطانية الى حمودة باشا ،لندن ، ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ،١٧٩٦ ،خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٤٠٧ ، خزانة رقم ٢٢٥ ،رسالة من ماجرا الى حكومته ، نابلي ، ١٣ جوان / حزيران ،١٧٩٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٧٧/٤ .

اعادته مبينا ان كل ما اثير حول تصرفات ذلك القنصل ما هي الا بسبب خلافات شخصية بينه وبين مبعوث الحكومة الفرنسية هيركولي .[١] وقد نجحت تلك السفارة في مهمتها ورجع السفير التونسي مكرما ،حاملا لهدايا فاخرة من الحكومة الفرنسية الى حمودة باشا ورجال دولته .[٢]

٦. سليمان ململي[٣] الى نابلي (فيفرى / شباط ١٧٩٧) : لا توفر لنا الوثائق التي رجعنا اليها معرفة اسباب توجيه حمودة باشا لهذه السفارة. غير ان الوثائق التونسية تحوى لائحة مفصلة لكل ما تألفت منها الهدية التي حملها ذلك السفير الى حاكم نابلي وجميعها من صنع او انتاج تونسي .[٤]

٧. سفارة الى صقلية (ربيع سنة ١٧٩٧) : ينفرد القنصل ماجرا بذكر هذه السفارة ولم يشر الى اسم السفير الذى قام بها . غيرانه يذكر، وهو في صقلية عندئذ ، ان ملك تلك الجزيرة امر بارجاء رجوع ذلك السفير بسبب ظهور وباء جارف بتونس . ثم يذكر ان السفير التونسي مقيم بصقلية مع الهدايا الكثيرة التي سيقدمها لحمودة باشا من ملك صقلية .[٥]

١ـ رسالة من حمودة باشا الى الحكومة الفرنسية ،تونس،ديسمبر/ كانون الاول، ١٧٩٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ،ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

٢ـ مارسال ،موجز تاريخ تونس ،ص ١٩٧ .

٣ـ له ترجمة بابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٧ ،ص ١٣٥.

٤ـ انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ،دفتر رقم ٢٦٩ ، ص ٣٤ ،٣٨ ؛ ورسالة من ماجرا الى حكومته ،لندن ، ١٩ افريل / نيسان ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٥/ ٧٧.

٥ـ رسالة من القنصل الى حكومته ،صقلية ، ٣١ ماي / ايار، ١٧٩٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ،ملف ٤/ ٧٧.

٨ • مصطفى اغا[1] الى فرنسا (خريف سنة ١٧٩٧) : يقول حمودة باشا في رسالة بعث بها الى وزير خارجية فرنسا في شأن هذه السفارة "••• انه منذ مدة وهو يرغب في فرصة لتجديد روابط المودة القائمة بين الدولتين بطريقة متينة • وانه لتحقيق هذه الرغبة ابعث لكم السفير مصطفى آغا الملحق بشؤون الدولة والحامل لهذه الرسالة • والذى سيكون له شرف تقديم الهدايا التي وجهتها لكم ، كعربون صداقة ومحبة ، ويتحادث معكم في عدد من الشؤون التي تهمني •••"•[2] ويذكر دى فلو ان هذه السفارة وجهت الى باريس لتهنئة ال Directoire على تسلم حكم فرنسا •[3]

٩ • محمد رايس الى اسطنبول اواخر سنة ١٨٠٠ : ارسل حمودة باشا هذا المبعوث فوق العادة " Envoyé extraordinaire " الى الدولة العلية لتحسين العلاقات معها ولتقديم هدية قيمة للسلطان العثماني • والهدف الحقيقي الذى كان باى تونس يرمي اليه من وراء هذه السفارة هو شرح الاسباب والظروف التي جعلته يربط علاقات جديدة مع فرنسا بعقد معاهدة صلح معها تنهي حالة الحرب التي كانت قائمة بين البلدين بسبب غزوة نابليون لمصر، وقد وفقت السفارة في الغرض الذى ذهبت من اجله الى اسطنبول، ورجع محمد رايس الى تونس ، بعد ان امضى مدة مكرما ومبجلا في كل من العاصمة وبعض المدن العثمانية الاخرى •[4]

١ـ يطلق عليه دى فلو اسم مصطفى خوجة ، تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٨ •

٢ـ رسالة من حمودة باشا الى وزير خارجية فرنسا ، باردو ، تونس ، اكتوبر/ تشرين الاول ١٧٩٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ •

٣ـ تونس في القرن التاسع عشر ، ص ٢١٨ •

٤ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ٢٩ جانفي / كانون الثاني ، ١٨٠١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤١٩ • بشأن معاهدة الصلح هذه انظر اعلاه ، ص ٤٤١ •

١٠ • مصطفى الارنووط [١] الى فرنسا (بباريس من ١٨ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٠٣ الى ٣٠ افريل / نيسان ١٨٠٤) : وجه حمودة باشا هذا السفير الى باريس لاغراض عديدة اهمها : تهنئة نابليون بونابرت بمناسبة تولية منصب " القنصل الاول [لفرنسا] " على مدى الحياة ، وتقديم الهدايا الفاخرة له من باى تونس • [٢] وكذلك لزيادة توطيد العلاقات الحسنة " التي لا يمكن ان يعتريها ضعف " بين البلدين ؛ [٣] ولشراء العديد من الاسلحة الثقيلة والذخائر الحربية من فرنسا • [٤] وقد استقبل نابليون السفير التونسي يوم ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٠٣ ، وتسلم هدايا تونس وبدوره سلمه رسائل ود وهدايا عظيمة الى باى تونس ورجال دولته • وقد نجحت السفارة في انجاز ما اوكلت به واعتبرت حتى ذلك التاريخ انجح سفارة تونسية الى فرنسا على الاطلاق • [٥]

١ـ له ترجمة بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٨٤ •

٢ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ سبتمبر / ايلول ، ١٨٠٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ •

٣ـ رسالة من حمودة باشا الى بونابرت ، تونس ، اكتوبر / تشرين الاول ، ١٨٠٢ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٤١ •

٤ـ رسالة من مصطفى الارنووط الى وزير خارجية فرنسا ، باريس ، ٢٤ فيفرى / شباط ، ١٨٠٣ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ •

٥ـ بشأن تفاصيل هذه الرحلة والرسائل المتبادلة بين السفير والمسؤولين الفرنسيين ، وكذلك الرسائل المتبادلة بين حاكمي البلدين انظر خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٧٤ ، كرتون رقم ٢٠٥ ؛ والوثائق ببلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٥١ ؛ بشأن الهدية التونسية الى نابليون انظر : رسالة من كلارك الى حكومته ، تونس ، ٢٩ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ؛ تقرير من الضابط المكلف بمصاحبة السفير التونسي وحاشيته بالاراضي الفرنسية ، خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجموعة الوثائق السياسية (افريقيا ٩) ، ص ٢١٧ ـ ٢٢٠ ، وبه كشف بالمصاريف التي صرفتها فرنسا على تلك السفارة ؛ انظر ايضا روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، ٢٤٥ •

١١• الشيخ العلامة ابراهيم الرياحي الى المغرب الاقصى (١٨٠٣ _ ١٨٠٤) : وجهت هذه السفارة الى سلطان المغرب بقصد زيادة ربط المودة بين البلدين ولطلب الميرة والسماح لتونس بشراء المؤن بعد الجائحة التي اجتاحت تونس • وقد نجحت السفارة في مهمتها حيث سمح السلطان المغربي لحمودة باشا بشراء ما يحتاجه من المملكة ، بالاضافة الى الهدايا الثمينة التي وجهت الى الباى على يد ذلك السفير • وحمل كل ذلك على مراكب ترفع السنجق المغربي الى تونس [1] بسبب انعدام الامن في البحر المتوسط عندئذ •[2]

١٢• سليمان ململي الى الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٥ _ ١٨٠٦): كان الهدف من هذه السفارة تأكيد المودة القائمة بين البلدين ، وحل المشاكل التي "هي موضوع تنازع بينهما" • غير ان تلك السفارة التي قضت في مهمتها اكثر من سبعة عشر شهرا خارج تونس لم تستطع اقناع الحكومة الامريكية بقبول مطالب حمودة باشا كاملة • لكنها استطاعت ان تنهي النزاع الذى نشب بين البلدين بسبب مطالبة امريكا بوجوب تنقيح معاهدة ١٧٩٩ باستخدام القوة وكانت النتيجة التي تحصلت عليها السفارة : الغاء الرسم المالي السنوى التي كانت تدفعه واشنطن لتونس ، مقابل تخلي امريكا عن طلبها المتعلق بتنقيح المعاهدة المبرمة بين البلدين • وبعد ذلك رجع سليمان ململي الى

١_ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ ؛ انظر اعلاه ، ص ٢٧٢ ؛ فيما يتعلق بنشاط اعضاء تلك السفارة في المغرب ومراسلات حمودة باشا مع السلطان وكذلك مراسلات علماء تونس مع المسوءولين في المغرب انظر محمد المناعي ، كنش ، ص ٢٩٥ _ ٢٩٨ ؛ ابن سلامة ، العقد المنضد ، ص ٧٠ ؛ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٧ ، ص ٥٣ •

٢_ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٣٩ •

تونس مثقلا بالهدايا الامريكية لحمودة باشا والتي منها السفينة الحربية " Franklin " التي حملت وفد السفارة من امريكا الى تونس .[١]

١٣ . محمود الجلولي [٢] الى مالطة وبريطانيا (١٨١٠ ــ ١٨١٣) : بعث حمودة باشا بهذه السفارة الى مالطة ، التابعة للممالك البريطانية في تلك الاثناء والى بريطانيا لعدة اغراض . اهمها " ... انشاء سفن حربية والات حرب ... " في مالطة وقد " احسن السفارة ، وقضى الوطر ... " [٣] ووجه حمودة مكتوبا الى حاكم مالطة اذ ذاك يثنى عليه صنيعه مع سفيره محمود الجلولي .[٤] الامر الثاني الذي كلف السفير بالبت فيه هو اجراء مفاوضات مع حكام لندن فيما يتعلق بالتعويض على السفن الفرنسية التي هاجمتها سفن بريطانية في المياه الاقليمية التونسية ، وقد كان حمودة باشا عوض للفرنسيين على خسائرهم بعد وقوع الحادث مباشرة .[٥] الامر الثالث هو " الحصول على تصريح من الحكومة البريطانية يجيز للسفن التونسية التردد على الموانيء الفرنسية بحرية " .[٦] وقد نجح السفير التونسي في مهمته بلندن نجاحا يماثل نجاحه في مالطة .[٧]

---

١ ــ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٨ فيفرى / شباط ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ، بشأن نشاط السفير بواشنطن والهدايا المتبادلة بين البلدين انظر رسالة من القنصل البريطاني ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٤ اوت / آب ، ١٨٠٥ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ، رسالة من القنصل ذاته الى حكومة ، تونس ، ٦ ديسمبر / كانون الاول ، ١٨٠٦ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ .

٢ ــ له ترجمة بابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٨ ، ص ٤٢ .

٣ ــ المصدر والصفحة ذاتهما ، انظر اعلاه ، ص ٢٢٠ .

٤ ــ رسالة من حمودة باشا الى حاكم مالطة باللغة الايطالية ، باردو ، ١٨١٣ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٤٠٥ ــ ٤٠٦ ، خزانة ٢٢٤ ، رسالة رقم ٢١ .

٥ ــ المصدر ذاته ، رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ .

٦ ــ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ٢٤ فيفرى / شباط ، ١٨٠١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

٧ ــ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٦٧ .

١٤ • حسونه المورالي [(١)] الى فرنسا سنة ١٨١٢ • بعثه حمودة باشا في مهمة تتعلق خاصة بانجاز صفقات اسلحة فرنسية كانت ابتاعتها تونس منذ سنوات عديدة • وقد وفق هذا المبعوث في مهمته • [(٢)] وهو/الذي كانت له معرفة تامة باللغات " التركية والايطالية والرومية والفرانساوية والانكليزية • " [(٣)]

هذا وقبل ان ننهي بحثنا عن سفراء حمودة باشا ومبعوثيه الى الخارج يجدر بنا ان نشير الى ان ابن ابي الضياف في ترجمته لسليمان ململي يذكر انه قام بسفارة الى كل من روما وبريطانيا لحمودة باشا • [(٤)] في وقت لم تتوفر لنا معلومات تتعلق بقيام ذلك السفير بسفارات الا الى نابلي والى واشنطن • [(٥)]

١ـ له ترجمة بابن ابي الضياف ، اتحاف ،ج ٨ ،ص ٦٦ ـ ٦٨ •

٢ـ انظر رسالة من le Duc de Bassano الى بيلون ، Wilna ، ٢٤ اوت / اب ، ١٨١٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ،ج ٣ ، ص ٥٠٣ ، خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ •

٣ـ ابن ابي الضياف ،اتحاف ،ج ٨ ،ص ٦٦ •

٤ـ المصدر ذاته ،ج ٧ ،ص ١٣٥ •

٥ـ انظر اعلاه ،ص ٤٥٣ ،٤٥٦ ـ٤٥٧ •

خاتمـــــــــــة

ان فصول هذه الرسالة التي حاولت فيها البحث في سياسة حمودة باشا وايضاح فترة من اكثر فترات تاريخ تونس غموضا وابهاما ، يجعلني أخلص الى أن عهد حمودة باشا كان ذا اهمية أساسية في تاريخ تونس الحديث ، بل كان يمثل في أوجه عديدة ، العهد الذى بنيت فيه ركائز الدولة التونسية الحديثة . ولعلي لا أغالي اذا قلت ان من أوائل المجددين في تونس في العصر الحديث كان حمودة باشا الحسيني ، وان المشير الاول احمد باي تأثر به في سياسته الاصلاحية ، وذلك بالاضافة الى ان سياسة حمودة وتدابيره كانت تمهيدا لاصلاحات ذلك المشير . وقولنا بان حمودة باشا كان مجددا ينطبق على انجازاته سواء في سياسته الداخلية أو الخارجيـــــة .

يبدو لنا من المصادر والمراجع التي اعتمدناها في هذه الدراسة ان عهد حمودة باشا كان يمثل أوج ازدهار البلاد التونسية وقوتها في العهد الحسيني . ولا يخفى أن ذلك الازدهار والقوة نتجا عن سياسة ذلك الباى واصلاحاته في مختلف الميادين . وقد نجحت محاولات ذلك الباى ، الى حد كبير ، في تحقيق الاهداف التي كان يسعى اليها بايمان وثبات . وهي محاولاته للنهوض بالبلاد من ناحية ، وتكوين دولة ذات سيادة ومنعة من ناحية أخرى . وتوفير الأسـباب لذلك داخليا وخارجيا .

لقد أفاد حمودة باشا من مختلف الامكانات ، واستغل مختلف الظـروف التي يمكن ان تساهم ايجابيا في بلوغ اهدافه . ولم يكن بوسعه ان يفعل ذلك لولا أنه كان متحليا بشخصية فذة ذات أهلية وصفات وثقافة جعلت من ذلك الحاكم الرجل الذى كان له هذا الأثر البين . وفي مقدمة الامكانات التي استغلها الرجـال الأقوياء الذين أحاط نفسه بهم والذين أخلصوا في خدمته وتفانوا في طاعته بكيفيـة قل ما توفرت لغيره من البايات سواء قبله أو بعده . هذا من الناحية الداخليه، أما من الناحية الخارجية فقد افاد من الأوضاع الدولية كضعف الدولة العثمانيـة وتقهقرهـا في الداخل والخارج ، وانشغال الدول الأوروبيـة في الحـروب

الطاحنة التي اجتاحتها بعد الثورة الفرنسية ، وخاصة منها حروب نابليون بونابرت. كل هذه العوامل والظروف مجتمعة ومتفاعلة أثرت في تكوين سياسة حمودة باشا ، وبالتالي في انجازاته ، اذ وفرت له الاسباب ومنحته الفرص للقيام بهذه الانجازات.

في المجال الادارى أنهى حمودة باشا خلافاته مع أفراد عائلته بالحسنى حينا وبالشدة حينا آخر ، وفي الحالتين كان الحزم والحذر هما أبرز صفات معاملته لهم . بعد ذلك عمل على الحد من نظرة الاتراك العثمانيين من ذوي السلطة للاهالي بأنهم عاجزون عن تحمل المهمات والمسوءوليات في ادارة بلادهم أوحكمها . واقتضت سياسته ، نظرا لماضي الاتراك السيء ولجرائمهم وفوضاهم ، الشروع في ازاحة هوءلاء عن المراكز الادارية والعسكرية الهامة . واتخذ في تحقيق ذلك طريقين هما توحيد السلطة في يده من جهة ، ومن جهة ثانية استبدال العديد من الاتراك باشخاص تونسيين ، مسلمين أو يهود ، أو أوروبيين في بعض الاحوال . وقد كان حمودة باشا يعتبر هوءلاء الاشخاص أكثر تفانيا في خدمته وأصدق عملا في سبيل مصلحة البلاد ، ولم يتم له انجازه ذاك بدون صعوبات . غيرأن مبادئه هذه مع الاهالي المسلمين خاصة لم يكتب لها النجاح الذى كان ينتظره . فعدل الباى عن تمكينهم من المناصب العليا في الدولة ، وارتأى جلب مماليك صغار من تركيا وتربيتهم تربية خاصة ثم تدريبهم وتسليمهم أهم خطط الادارة والحكم في تونس . وهي سنة جرى عليها معظم البايات بعده الى سنة ١٨٧٧ لما تخلى المصلح الكبير خيرالدين باشا عن منصب رئاسة الوزراء بتونس والتحق بخدمة الحكومة العثمانية حيث عين صدرا اعظما هنالك (١٨٧٨ـ١٨٧٩) . وفي المجال الادارى أيضا غير حمودة باشا نظام انتخاب الولاة ، وجعل عليهم عيونا تخبره بكل تصرفاتهم مع الرعية ، وجعل الكلمة الاخيرة في الحكم على صلاحية الوالي أو عدمها لاهالي تلك الولاية الذين كان معظمهم ، ان لم يكونوا جميعا ، تونسيين .(١)

١ـ انظرأعلاه ، ص ١٨٧ .

في المجال العسكرى اقتضت سياسة حمودة باشا تقوية امكانات البلاد العسكرية بطرق عديدة • منها جلب أعداد وافرة من جند الترك الى تونس، وقد بز في هذا المجال البايات الحسينيين جميعا • وبعد أن اختص هذا الجند بقدر كبير من الامتيازات والتبجيل لكسب ولائهم التام استعدادا لحرب الجزائر خاصة ، وجد حمودة باشا منذ سنة ١٧٩٤ تقريبا ان سياسة الاعتماد على ذلك الجند كلية أمر خطير ،بل سلاح ذو حدين يهدد نظام الحكم وامن البلاد ،خاصة وان العديد من هؤلاء ظلوا يحافظون على ولائهم الاول للسلطان العثماني ولمن كان تابعا له مباشرة من الحكام الاتراك • ومن ذلك التاريخ تقريبا اتجهت سياسة الباى نحو الاهتمام بتقوية بعض تشكيلات الجيش التي كان أفرادها تونسيين ، وبانشاء فرق جديدة من هؤلاء ومن غيرهم أيضا ،وكل هذا تم بكل حذر وتؤدة •[١] وفي سنة ١٨٠٧ ،عندما تسبب جند الترك في احلال الهزيمة والاندحار للجيش التونسي في معركته الاولى ضد الجزائر ،أخذت سياسة الضرب على آيدي جند الترك صفة العلانية والبت • فكانت ردة فعل ذلك الجند القيام بثورتهم المسلحة سنة ١٨١١ •[٢] وبالرغم من قوة تلك الثورة وخطورتها دارت الدائرة عليهم فاغتنم حمودة باشا الفرصة ومحقهم بدون شفقة ولا رحمة • وقد اعتبر عمله ذلك من أهم الانجازات الداخلية التي جرت في البلاد في كامل العهد العثماني بتونس[٣]

بل ذهب بعض المؤرخين الى ان ضرب محمد علي باشا مصر على يد جند الترك في مصر سنة ١٨١١ ،وضرب السلطان محمود الثاني على يد جند الانكشارية سنة ١٨٢٦، كانا عملين متأثرين بانجاز حمودة باشا في هذا المجال •

١ـ انظر اعلاه ،ص ١٩٣ ـ ٢٠٠ ، ٢٠٦ - ٢١٣ .
٢ـ انظر اعلاه ،ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦ •
٣ـ انظر اعلاه ،ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦ •

قلنا أن حمودة باشا عزز جيشه بعناصر معظم أفرادها تونسيون ، وقد اتبع في ذلك طريقين : طريق تقوية التشكيلات التي كانت موجودة من قبل ، وطريق احداث تشكيلات جديدة من تونسيين في معظمها ·(١) وقد كان لهذه العناصر التونسية الفضل الاكبر في احراز انتصارات عسكرية ذات أهمية رئيسية في الفترة المتأخرة من العهد الذى ندرسه · من تلك الانتصارات الفوز الذى تم على الجيش الجزائرى في الكرة الثانية سنة ١٨٠٧ ·(٢) وكذلك في الدفاع عن العاصمة واخماد ثورة جند الترك ثم تقتيلهم سنة ١٨١١ ·(٣) لم يكتف حمودة باشا بهذا القدر من تونسة عناصر الدفاع عن الوطن بل التفت الى الهيئات الشعبية والقبلية من متطوعة الجيش واهتم بهم ونظمهم وسلحهم خاصة أوقات الحرب · وقد كان لهؤلاء أيضا جولات مشرفة في الحروب ضد الجزائر وفي اخماد ثورة جند الترك ·(٤) وحتى تخلي الجند التونسي عن رئيسهم في واقعة بحرية ضد الجزائر لم يكن راجعا الى تقاعس عن القيام بواجبهم الوطني أو عن خذلان منهم ، بقدر ما كان ناتجا عن انفتهم من القتال تحت امرة أرنووطي ·(٥) وبهذه السياسة يكون حمودة باشا وضع حدا نهائيا للسياسة التي كانت جارية والتي تهدف الى ابعاد العنصر التونسي عن الجيش لتفوق الجندى التركي في القتال والولاء ·(٦)

في المجال الاقتصادى أيضا أخذت سياسة حمودة باشا ، بالاضافة الى النهوض بالحياة الاقتصادية في مختلف الميادين ، طريق تونسة بعض أهم مظاهر ذلك المجال · وقد نجحت سياسته في تأمين أسعار مربحة وأسواق

---

١ _ انظر اعلاه ، ص ٢٠٦ _ ٢١٥ ·

٢ _ انظر اعلاه ، ص ٢٠٨ ، ٤٢٦ _ ٤٢٩ ·

٣ _ انظر اعلاه ، ص ٢١٠ ·

٤ _ انظر اعلاه ، ص ٢١١ ، ٢١٣ _ ٢١٥ ·

٥ _ انظر اعلاه ، ص ٤٣١ _ ٤٣٢ ·

٦ _ انظر اعلاه ، ص ٢٠٦ _ ٢٠٧ ·

خارجية للانتاج الزراعي التونسي وبخاصة بعد سنة ١٧٨٧ . وحمى حمودة باشا مدخول المزارع التونسي بمنعه التجار الاجانب من ابتياع الحبوب من المزارعين قبل نضوج المحصول وذلك للغبن الشديد الذى كان يصيب هؤلاء في تسعير ثمن حبوبهم . وزاد حمودة باشا فسمح ، لأول مرة في عهد الحكم العثماني ، بتصدير المنتوج الزراعي التونسي الى أوروبا بصفة مباشرة وعلنية . هذا بالاضافة الى مصالحته للدول وترويج تصدير منتوجات البلاد . وقد أدخلت تلك السياسة نشاطا وروحا جديدين في المجال الزراعي ، وترفهت حالة المواطنين بالرغم من الأوبئة والقحوط التي اجتاحت تونس في ذلك العهد .[1] وفي ميداني الصناعة والتجارة أدت سياسته بالتدريج الى تقوية امكانات الدولة . فقد حرص الباى على تشجيع الصناعات المحلية ، وعمل على ابطال عادة لباس المصنوعات الاجنبية المستوردة من الخارج ، بعد أن بدأ بنفسه وتبعه الاعيان والاهالي . وكذلك سن سياسة مهاداة الدول الخارجية بما تنتجه بلاده . ونتج عن ذلك ازدهار بعض الصناعات المحلية التي كان معظم القائمين بها تونسيين .[2]

أما بالنسبة للتجارة فقد اهتم حمودة باشا بتنشيط التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء . وفي كلا المجالين حاولت سياسته تحقيق التونسة بالتدريج كما سبق في المجالات الأخرى . فقد اتخذ الباى اجراء منع به التجار الاجانب من ابتياع المحصولات الزراعية من المزارعين مباشرة ، وأصبح ذلك لا يتم الا بواسطة تجار تونسيين . وقد اتخذ هذا الاجراء لسببين هما ضمان ربح للتجار المحليين على كل صفقة ، وحماية الفلاح من الغبن الذى كان يحصل له .[3] اما في التجارة

---

١ _ انظر اعلاه ، ص ٢٦٨ _ ٢٧٣ ، ٢٧٦ _ ٢٧٨ ، ٣٠١ _ ٣٠٤ .

٢ _ انظر اعلاه ، ص ٢٨٢ _ ٢٩١ .

٣ _ انظر اعلاه ، ص ٢٩٢ _ ٢٩٣ .

الخارجية فقد شجع حمودة باشا التونسيين على تولي شؤونها • واستطاع ذلك الباى أن يجعل من التونسيين ، الذين كان همهم منصبا على الزراعة فقط ، تجارا يعنون بالتجارة الخارجية ، بل يسيطرون على معظم سبلها بدلا من الاجانب •[1] وليس غريبا بعد هذا ان نرى التجار التونسيين ، بما فيهم اليهود ، يوسعون تجارتهم مع مختلف البلدان الاسلامية والاوروبية •[2] وقد نوه الكتاب والمؤرخون بنتائج سياسة حمودة باشا الاقتصادية وأطالوا في وصف الازدهار واليسر الذى حل بتونس في ذلك العهد •[3]

الى جانب كل ذلك اهتم حمودة باشا بنواحي اخرى هامة في الداخل ، بعضها يدعم مقدرات البلاد العسكرية ويخدم تحقيق سيادة البلاد ومنعتها في الخاج ، من ذلك اهتمامه بالجيش، وحده من سلطة جند الترك ونفوذهم ، وتعزيزه للجيش بالعنصر التونسي ، وتسليحه لذلك الجيش بأحدث العتاد الحربي الاوروبي ، وانشاؤه للمصانع الحربية العصرية ، واصلاحه للموانيء وبناؤها على أسس حديثة ، واقامته للابراج والاسوار والقشل على الأسس ذاتها ••• ومن هذا القبيل ايضا سياسته الناجحة في اسدال الامن داخل بلاده ، وتعزيز اقتصادياتها وثروتها •

ولم تقف تدابير حمودة باشا عند هذا الحد بل تصدت الى احداث تغييرات في مجالات أخرى اجتماعية وصحية ودينية وفكرية بقصد محاولة النهوض بمجتمعه الى مصاف المجتمعات المتقدمة في ذلك التاريخ •

واذا انتقلنا الى سياسة حمودة باشا الخارجية رأينا انها اقيمت على تحرير تونس من التسلط الاجنبي ، وابراز سيادة البلاد واستقلالها • وقد

---

١ ـ انظر اعلاه ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ •

٢ ـ انظر اعلاه ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ •

٣ ـ انظر اعلاه ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٧ •

نجح ذلك الباى الى حد كبير في بلوغ اهدافه تلك بفضل تصميمه وحزمه من جهة ، وبفضل تنسيقه بين معطيات سياسته الخارجية وانجازاتها ومعطيات سياسته الداخلية وانجازاتها . وبذلك ضمن خدمة الميدانين بتكامل يضمن النجاح في التخطيط والتنفيذ . وظهر ذلك جليا خاصة في تهيئة أسباب القوة والكفاءة الحربية لجعل تونس دولة ذات سيادة ومنعة . فقد كان يعمل على مصالحة الدول الخارجية وعقد معاهدات معها ، وفي نفس الوقت يدعم امكاناته الحربية بكل حزم وعزم .

ولقد بلغت سياسة حمودة باشا الخارجية نجاحا في الانجاز لم يحظ به اى من البايات في تاريخ تونس الحديث . ويتضح هذا خاصة في الحد من سلطة الدولة العلية على تونس حدا حقيقيا ، أحرز به على استقلال بلاده سياسيا عن اسطنبول . ويتضح كذلك في نيل استقلاله بالقوة من التسلط الجزائرى الذى رزحت تحته تونس سنين طويلة . وهذا الانجاز بمفرده لا يوازيه بالأهمية في كامل تاريخ تونس الحديث الا استقلال تونس عن الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٥٦ .

هذا ومن المهم ، اعتبارا لما سبق ذكره ، أن نلاحظ ان سياسة حمودة باشا بما انجزته في المجالين الداخلي والخارجي ، وجله مبادءات ، أسهمت بالنتيجة في تغيير نظرة الأهالي للدولة التونسية . فبعد ان كان الاهالي يحسون ان حكامهم العثمانيون هم اجانب عنهم لا تربطهم بهم الا الطاعة الناتجة عن القهر والاستبداد ، أصبحوا يشعرون ، في عهد حمودة باشا ، بأنهم ينتمون الى حكم ساهر على مصلحتهم وأمنهم . وقد نتج هذا التغير في نظرتهم الى الحكم من اصلاحات حمودة باشا وانجازاته ، التي شملت اهتماما جديا ومتواصلا بأهالي البلاد الأصليين . وبعد أن لمسوا فوائد تلك السياسة سواء في اعمالهم ومصالحهم أو في زيادة الاعتبار في بلدهم بعد أن كانوا محرومين من هذا كله منذ بداية عهد الحكم العثماني في تونس، أصبحوا يشعرون أنهم ينتمون الى بلد هولهم يستحق التضحية والفداء . وهذا الحس يمكن ان نعتبره بداية شعور وطني لم يظهر عمليا الا في عهد حمودة باشا بعد انقضاء مدة تزيد عن القرنين على الفتح العثماني (١٥٧٤ _ ١٧٨٢) .

فان كانت الحرب بين تونس والبندقية بدأت سنة ١٧٨٤ بصبغة دينية في نظر الاهالي ، فانها انتهت سنة ١٧٩٢ بشعور شعبي الى كونها حربا استهدفت الدفاع عن مصالح البلاد التونسية وسيادتها • وقد شارك الاهالي خاصة منهم سكان المدن الساحلية التونسية ذوي المصالح التجارية مع الخارج ، بحماسة شعبية ملحوظة في قتال البنادقة • هذا الشعور ذاته نلاحظه في الحرب التونسية ـ الطرابلسية التي خاضها حمودة باشا بنجاح لضمان استقلال بلاده من التبعية العثمانية •[1] فقد اثبتت احوال تلك الحرب انضباط الجندي التونسي وصدق دفاعه عن بلاده ، الامر الذي جعل حمودة باشا سنة ١٧٩٤ يعتمدهم دون غيرهم في حراسة الحدود التونسية ـ الليبية والحدود التونسية ـ الجزائرية • وكذلك ظهر ذلك الشعور في عدم قيام القبائل التونسية الضاربة بالجنوب التونسي بأية حركة عصيان لمّا كان الجيش خارج البلاد • وهي القبائل التي كانت قليلة الولاء لحكام العاصمة • وقد أظهرت هذه القبائل وغيرها نفس الموقف في أيام الحرب التونسية ـ الجزائرية • وحتى جزيرة جربة التي استسلمت لرجال علي برغل بسرعة مذهلة وبدون مقاومة تذكر سنة ١٧٩٤ ، نجدها سنة ١٨١١ تقاوم ببسالة وشجاعة حملة بحرية جزائرية وتثنيها على اعقابها خائبة •

في بداية القرن التاسع عشر (١٨٠٧) أظهرت الحرب التونسية ـ الجزائرية (خاصة الواقعة الثانية) شعورا وطنيا كبيرا في صفوف المحاربين التونسيين • وبلغ ذلك الشعور حدا يمكّننا من ان نطلق على تلك الحرب المقاومة التونسية الوطنية ضد هيمنة اجنبية جزائرية • وقد سعى صاحب الطابع ، قائد تلك الحملة ، في جعل الاهالي يشعرون ان ذلك الجيش هو جيشهم وان تلك الحملة التحريرية هي لصالحهم وللدفاع عنهم • ويمكننا ان نقول ان تلك الحرب بالذات كانت حرب بلاد ضد عدو مغتصب ، وليست حرب حاكم أو أمير فقط كما كان الامر قبل حمودة باشا • ولعل من أبين الادلة على صحة هذا هو أنه منذ زمن بعيد جدا لم يتمكن جيش تونسي من التغلب على جيش جزائري • بعد حرب سنة ١٨٠٧

---

١ ـ انظر اعلاه ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ، ٣٩٥ ـ ٤٠٠ •

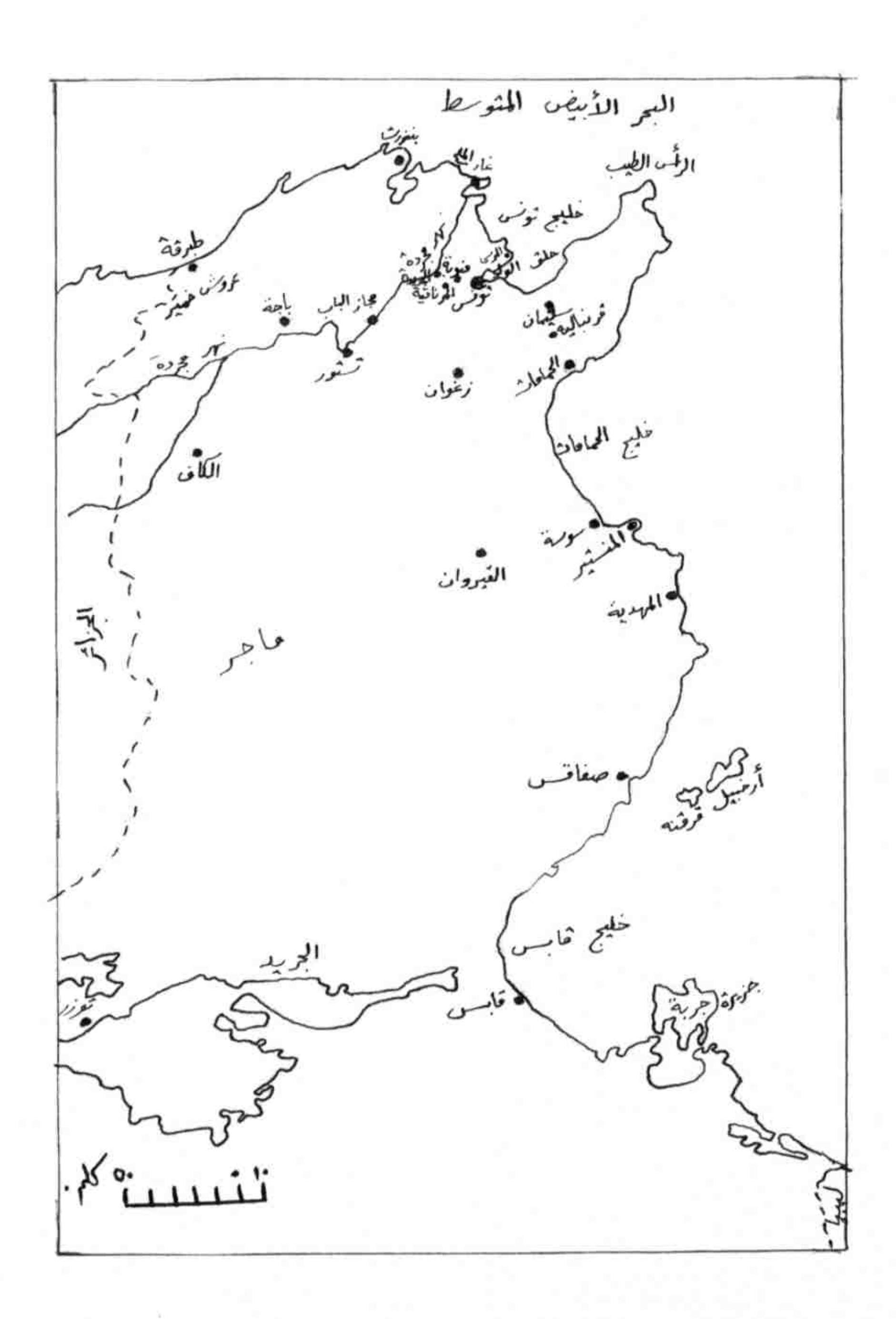
الفاصلة بسنة واحدة حاول الجزائريون اعادة الكرة على تونس ولكنهم فروا أمام الجيش التونسي قبل ان ينشب القتال • وفي سنة ١٨١٢ تمكنت قبائل الحدود التونسية من ان ترجع محاولة أخرى للجيش الجزائرى بمفردها دون اعانة الجيش •

بالاضافة الى كل هذا يمكننا ان نلاحظ ايضا ان في عهد حمودة باشا ، وبفضل سياسة ذلك الباي ، تفتحت تونس والتونسيون على بعض مظاهر الحضارة الغربية وانجازاتها المتقدمة • وقد تم ذلك عن طرق عديدة ومختلفة منها جلب حمودة باشا للخبراء والاختصاصيين والاطباء والمهندسين وغيرهم للخدمة بتونس ، وعن طريق سفرائه ومبعوثيه المتعددين ، وعن طريق التجار سواء منهم الاجانب أو التونسيون، وخاصة بعد أن ازدهرت تجارة تونس الخارجية وفتح باب الاتصال بين تونس وأوروبا على مصراعيه •

تلك كانت سياسة حمودة باشا وانجازاته في بعض المجالات الداخلية والخارجية • وهي السياسة التي اعتبرها حمودة باشا كفيلة بالنهوض ببلاده ، وبتكوين دولة ذات سيادة ومنعة • غير أنه يظهر ، اعتمادا على ما توفر من معلومات ، ان حمودة باشا لم يقدر التقدم العلمي في أوروبا حق قدره ، أو على الاقل لم يسع سعيا جديا في الاهتمام به وبالتالي في ادخاله الى بلاده ، على غرار ما فعل معاصره باشا مصر محمد علي • فلم نجد ما يشير الى ارسال بعثات طلابية الى أوروبا ولا الى جلب اساتذة وخبراء معلّمين الى تونس • وهو أمر لم يتحقق الا في عهد احمد باى • ولعل هذا الامّر وغيره ، مثل الكشف عن مقدار تدخل الدولة وتدخل حمودة باشا نفسه وكبار رجالاته وضباطه ، في احتكار تجارة تونس الخارجية خاصة ، انما يتوقف تقريره على ما يمكن ان تكشف عنه المصادر التي لم تكشف بعد •

ملحــــق رقــــم ١

خريطـــــة البـــــلا د التونســـية



ملحق رقم ٢

عينات من كتابات حمودة باشا

مكتوب بخط المرحوم المنعم سيدي حمودة باشا باي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

حفظ الله تعالى ورعاه وصانه وتولاه المكرم الاجل الارضى الابجل الاكرم السيد ... بر اسماعيل ارمه الله تعالى سلاما عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد فانا اخينا كنت قبل هذا اخبرتنا وانك احتجت في بعض دراهم ربنا تبارك وتعالى ايجوه لي ولكن اخينا انت اعلم بما لنا من كل احد والله لم نجد في الايام الماضيه ما نرسل لك واليوم تبارك وتعالى يسر لنا بعض دراهم ها نحن وجهنا لك بحيث كبير الحامل تبقى تقبلهم على وجه البركه وربنا سبحانه وتعالى يرزقنا واياكم والسلام

من الفقير الى ربه حموده باشا باي وفقه الله تعالى

٢٧ ربيع ١١٩٧ سنة

١١٩٧ / ١٢

ملحق رقم ٢ (تابع)

[illegible] de S.A. Hamouda Pacha

ARCHIVES GENERALES

مكتوب بخط يد حمودة باشا باي
رحمه الله

الحليله

اما بعد انا يا خويي ما قلتش اجاني انتي وبنتك قلت انا الجاني انت وحدك
واما اذا جات بنتك لدارك هاك الساعة نجي انا واما انا والله نفطن
ونكبر راسي عليك وانت اخويي وانا خوك وذكرتني موش من توا واما قولك
وان راجل بنتك ما يجيش بالكل خويا اذا كان هو ما يجيش اما كيف
تحمل يوجب نمشيو وأما قولك بنتك ما تجيش والله العظيم هاذا ما يصير
كان نجيبها من كل بد واما قولك على الحرو انه ما يجيك جواب كتبتي
عليه ان شاء الله نقضي حاجتك كيف نحب و...

ملحـــق رقـــم ٣

نسـخة مصـــورة لعقـــد زواج حمودة باشا

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي بيده افتتاح الكائنات وتمامها وبالثناء على مجده اتصال السعادات
وانقضاؤها وبالشكر لوجهه الممنوح اكمال البركات وانسجامها الذي خلق بحر قدرته
سورة صورة الوجود في جهات الفضل والجود وأنزل الكتاب بها وأنسابها والخلع
آيات الاعتبار وتلاليه الانوار على منصات نصوص البدايات اللائحة دلائلها واعلامها
واودع الانس من سر أحديته وربوبيته وبراهين وحدانيته بدائع شؤون من الجلال
والجمال افصل بها احمده سبحانه وتعالى اذ انعم على عباده بانتظام الشمل وخصهم
بجزيل النعم وجسيم الفضل ووسع لهم في الجود والطول وعمرهم بالخير والاحسان
ويسر لهم اسباب الموافقة والاسعاد والحل لهم النعمة والمراد وأرادهم سبيل
الرشاد لابحة البيان الذي بلغ الاشياء فتدفقة الابراع بربيعة الاتقان وحرب
حكمته في انشاء ترتيبها وترتيب انشائها في الحوان الحوار والهواء الحوان والطير
اياته في تصوير انواعها وتنويع صورها وفي اختلاف الالسنة والالوان ونشهد
أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الحبيب العتاح السابق في المكارم والمفاخر
واتاه من الفضائل سببا يتلوه سببا اختار له البطون الطاهرة والاصلاب الفاخرة
اماتا وابا بابا ألبسه من الملابس الرائقة اشرف لباس وجعل امته خير أمة اخرجت
للناس شرع لامته النكاح ذريعة الى النماء وحفظ الانساب ومالية لحفظ فات
الاهواء ووصلة لتباعدات الاسباب فلم يزل عليه الصلاة والسلام يحث على النكاح
بإيضاحه وتبيينه فقال من تزوج فقد ملك نصف دينه وقال وهو الصادق بالنعمة
ومن بالحق به ورفاء المرء تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الامم يوم القيامة ورضي
الله تعالى عن آله وقرابته وأوليائه وصحابته المستوجبين من الله الجنة بنصرته
واجابته اما بعد هذه الفاتحة التي فتحت من الخير كل باب وحثت على التقوى
في وسائل اسباب فهذا عقد نكاح تباشرت به البريا وسرت بكونه الاجناد والرعايا
وفاح السعد زاهدا بالتمني وتلالا اليمن والبركة بالرفاء والبنين عقده مولانا
وسيدنا الباي الاسعد الانجب الارجح الاصعد الاشرف الافخر والجناب الاوالي الامجد
الخير الارضا والسيد الملاذ الاحظى نخبة الملوك والسلاطين وواسطة عقد سلالة
الاكرمين الطيبين المتوكل على فضل مولانا بيحايا بيد وبيشا مولانا الباي أبو عبد
الله حمودة باشا جعله الله ممن كرم من حياض الافضال جاقتنسا ابن مولانا السلطان
الفاضل والملك الكامل من اشرف بنور ايالته الاسلام وشرفت بوجوده الليالي
والايام بدر الملك وشمسه وصدر الزمان الذي قصر عن هو فيه امسه المشهور
عدله الظاهر نبله وفضله مولانا امير المومنين وناصر الدين المجاهد في سبيل
رب العالمين قامع الطغاة المعتدين كهف الفقراء والمساكين المحفوظ بسر
السور والآي مولانا وسيدنا ابو الحسن علي باي ادام الله دولته مشيدة الاركان موسسة
القواعد والبنيان ابن مولانا ذاكر السلطان الاكبر والملك الانجح الاشهر الاظهر المنعم المرحوم

عن بشهادة العلماء الاجلاء الشيخ محمد المحجوب الشريف والشيخ محمد سوسي والشيخ منصور المنزلي والشيخ احمد

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... على مخلوقات ... المصطفى ... ورضي الله

ملحق رقم ٢ (تابع)

برعة المنعم المولى المرحوم ابي عبد الله حسين باي سقى الله ثراه وجعل الجنة ماواه ورحم السلف وبارك في الخلف الابن ... على الدوحة السامية المتشعبات الفاطمية
الميمونة المحجبات الجلالات بكسوة نعم ديم مولانا المعظمات البكر العذراء المسماة امنه
وتدعى منانة بنت عبد الله الحنفية وصل الله بجنه سعدها وحرس بعيون عنايته
مجدها على صداق اوجبت السنة تعيين حدة وتبيين كالية وتقدره مبلغه مابينا
نقد مجلته بر الاحضار وكالي اجلته مكارم الاختيار الهان اثنان سكة الوقت
والصحو ورطلان اثنان جوهرا يناسب الحال والقدر واربع جوار بيض مسلمات
ومثلهن كذلك نصرانيات وثمان اماء من وصيف السودان واربعة قباطي مذهب مختلفة
الالوان ومثلها براميل منه كذلك واربعة قباطي موبر ومثلها منه براميل واربعة
قباطي كحف ومثلها منه براميل كذلك واثنى عشر حزاما منقلة بالفضة متبعا وته
فيما بينهما والجميع مما بنا سبب ذلك المقام العلي المؤجل من ذلك خمسماية دينار
من النقد وما عدى ذلك كله مقبوض لها منه حفظه الله تعلى ودعاه عقد
له عليها هذا العقد الكريم والمبارك الجسيم مولانا الباشا المذكور بتوكيلها له
عليه توكيلا صحيحا شهد به الرعي المحترم الحاج جوهر اخو الدار الكريمة والمبجل المحترم
الحاج بشتاح اغتها كذلك ووكل مولانا الزوج المذكور الزوج المذكور على قبول هذا
النكاح المبارك له الحكم الاجل المرعي المبجل المعظم المحترم الفاخر الا كتب هو
ابا النخبة مصطفى خوجه توكيلا سمعه منه حفظه الله في تاريخه اول شهيرية
ومعه فيه الشيخ الاجل المدرس الاجل الخير الارفع الاجل البارع الكتب الاعدل
ابو عبد الله حموده بن الفقيه الشيخ محمد بن عبد العزيز الشريف بحضر لذلك المعظم
مصطفى خوجه المذكور وقبل لسيدنا حموده باشا المذكور هذا النكاح المبارك
الميمون قبولا تاما وانعقد بينهما على كلمة الله التي علت الكلمات وقامت
وبهرت الانظار ورافقتها وتقدمتها الاعمال الصالحة بما صدرتها المواقع واعانتها
وعلى سنة سيدنا ومولانا محمد التي انتخبت الراشد وانتفعتها بالله سبحانه
وتعلى يجعل هذا العقد سهل عقدة صغرت لدعاه الجلة وسرت بتلقي ملته
الحلة وان يسبغ على مولانا جزيل نعمايه ويجمد به العافية في جميع انحايه ويهيئ
اسباب مطالبه ويبلغه من سعادة الزوجين ما يرتضيه وان يخصهما من السعادة
باوفر القسم ويعمهما بالخيرات والنعم ويبقيهما في العيشة والرغد واتصال السعد
تحت ظل مقام مولانا متصلا بالشرف والمجد وان يجعلهما من اهل السعادة دنيا
ودينا ويسلك بهما من التوفيق سبيله مبينا وان يجعله مباركا على سيدنا
الباشا باليمن والاقبال والعافية الدايمة والخير المتوال بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم
والصحب والال شهد على اشهادهم بذلك بحالة كمال بناديهم مقدرم سماحه منتصف
شعبان المكرم من العام المنصرم من عام تاريخه وتاريخ الكتب ووضع عقد الاشهاد هنا اواخر اشهر
الربيعين بمولوده عليه الصلاة والسلام عام واحد وتسعين ومائة والف وشاهدا حفظهم الله
الجميل — منعقد بشهادة العلماء الجلة الشيخ محمد المحجوب المفتي — والشيخ محمد سويسي
والشيخ منصور المنزلي — والشيخ احمد ——————

ملحق رقم ٤

جدول مبين للاسلحة التي حصل عليها حمودة باشا

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
ستة سفن كبيرة وحديثه			١٧٨٠	الدولة العثمانية	عطاء	لتقوية اسطول القرصنة التونسي (١)
	كميات كبيرة من البارود		١٧٨٤	الدانمرك	هدية	(٢)
	مدافع ، قذائف ، اقمشة ، حبال ، سلاسل معدنية	مسدسان مطعمان بالالماس وبندقيتا صيد مطعمتان بالالماس	١٧٨٤	السويد	هدية	حمولة سفينة (٢)
	عتاد حربي منوع		١٧٨٤	السويد	هدية	(٣)
	خمسون الف قذيفة مدفعية ، ستمائة برميل من البارود		١٧٨٤	الدانمرك	هدية	(٤)
	ستة وخمسون مدفعا مختلفة الاحجام وعتاد حربي للسفن		١٧٨٤	السويد	هدية	السفينة الناقلة لهذا العتاد غرقت على ساحل تونس (٥)
	عتاد حربي كثير		١٧٨٦	هولندا		حمولة سفينتين حربيتين (٦)
	أربعة وعشرون مدفعا مختلفة الاحجام ، خمسمائة برميل من البارود يزن كل برميل قنطارا واحدا . ثلاثمائة خشبة كبيرة لبناء السفن ، خمسون الف قذيفة مدفعية و اقمشة للاشرعة وحبال وغيرها .		١٧٨٦	الدانمرك	هدية	حمولة سفينة (٧)
	ستمائة برميل من البارود ، اربعمائة قطعة قماش لصناعة الاشرعة للسفن		١٧٨٦	هولندا	هدية	حمولة سفينتين حربيتين (٨)
	عشرة الاف قذيفة مدفعية ثقيلة		١٧٨٦	فرنسا	هدية	(٩)

١ـ خزينة الوثائق العثمانية ، دفتر مهمات ، رقم ١٨٠ ، ص ١٥١ . ٢ـ رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ جانفي / كانون الثاني ، ١٧٨٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ . ٣ـ رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٤ جوان/حزيران ، ١٧٨٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١٣٩ .
٤ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، اول اوت / آب ، ١٧٨٤ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٤١ . ٥ـ ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس ، ص ٢٩ .
٦ـ رسالة من ديسبارون الى حكومته ، تونس ، ٩ ماى / ايار ، ١٧٨٦ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ١١٥ . ٧ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣ اوت / آب ، ١٧٨٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥٧ . ٨ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٨ اوت / آب ، ١٧٨٦ ، المصدر ذاته ، ج ٣ ، ص ١٥٨ . ٩ـ رسالة من ج. تريل الى حكومته ، تونس ، ٢٣ سبتمبر/ ايلول ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ .

ملحق رقم ٤

جدول مبين للاسلحة التي حصل عليها حمودة باشا

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
ستة سفن كبيرة وحديثه			١٧٨٠	الدولة العثمانية	عطاء	لتقوية اسطول القرصنة التونسي (١)
	كميات كبيرة من البارود		١٧٨٤	الدانمرك	هدية	(٢)
	مدافع، وقذائف، اقمشة، حبال، سلاسل معدنية	مسدسان مطعمان بالالماس وبندقيتا صيد مطعمتان بالالماس	١٧٨٤	السويد	هدية	حمولة سفينة (٢)
	عتاد حربي منوع		١٧٨٤	السويد	هدية	(٣)
	خمسون الف قذيفة مدفعية، ستمائة برميل من البارود		١٧٨٤	الدانمرك	هدية	(٤)
	ستة وخمسون مدفعا مختلفة الاحجام وعتاد حربي للسفن		١٧٨٤	السويد	هدية	السفينة الناقلة لهذا العتاد غرقت على ساحل تونس (٥)
	عتاد حربي كثير		١٧٨٦	هولندا		حمولة سفينتين حربيتين (٦)
	أربعة وعشرون مدفعا مختلفة الاحجام، خمسمائة برميل من البارود يزن كل برميل قنطارا واحدا . ثلاثمائة خشبة كبيرة لبناء السفن، خمسون الف قذيفة مدفعية و اقمشة للاشرعة وحبال وغيرها .		١٧٨٦	الدانمرك	هدية	حمولة سفينة (٧)
	ستمائة برميل من البارود، اربعمائة قطعة قماش لصناعة الاشرعة للسفن		١٧٨٦	هولندا	هدية	حمولة سفينتين حربيتين (٨)
	عشرة الاف قذيفة مدفعية ثقيلة		١٧٨٦	فرنسا	هدية	(٩)

١- خزينة الوثائق العثمانية، دفتر مهمات، رقم ١٨٠، ص ١٥١ . ٢- رسالة من ج. تريل الى حكومته، تونس، ٢٣ جانفي / كانون الثاني ١٧٨٤، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧ . ٣- رسالة من ديسبارون الى حكومته، تونس، ٢٤ جوان/حزيران، ١٧٨٤، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ١٣٩ . ٤- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته، تونس، اول اوت / آب، ١٧٨٤، المصدر ذاته، ج ٣، ص ١٤١ . ٥- ستانلي، مشاهدات في مدينة تونس، ص ٢٩ . ٦- رسالة من ديسبارون الى حكومته، تونس، ٩ ماي / ايار، ١٧٨٦، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ١١٥ . ٧- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته، تونس، ٣ اوت / آب، ١٧٨٦، المصدر ذاته، ج ٣، ص ١٥٧ . ٨- رسالة من القنصل ذاته الى حكومته، تونس، ٢٨ اوت / آب ١٧٨٦، المصدر ذاته، ج ٣، ص ١٥٨ . ٩- رسالة من ج. تريل الى حكومته، تونس، ٢٣ سبتمبر/ ايلول، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧ .

ملحق رقم ٤ (تابع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
	ثمانية واربعون مدفعا مختلفة الاحجام ، خمسمائة برميل من البارود للمدافع ، مائتي لوح خشب Planks ، مائة خشبة كبيرة لبناء السفن ، واحد وثلاثون حبلا من حديد ، اربعة وثلاثون حبلا سميكا ، سبعون قنطارا من الحبال ، سبعة وستون قطعة من قماش لصنع الاشرعة ، قذائف مدفعية مختلفة الاحجام وغير ذلك .		١٧٨٦	الدانمرك	هدية	قيم قنصل بريطانيا تكاليف هذه الهدية باربعة الاف جنيه استرليني . حمود باشا اهدى البلاط الدانمركي بالمقابل ثمانية خيول عربية ممتازة . (١٠)
	تونس تستورد كميات كبيرة من البارود		١٧٩٠	الدولة العثمانية		(١١)
	عتاد حربي منوع واسلحة تستعمل في السفن الحربية	كميات كبيرة من البنادق	١٧٩١	السويد	هدية	(١٢)
مركب			١٧٩١	فرنسا	شراء	(١٣)
	اسلحة وعتاد حربي		١٧٩١	فرنسا	هدية	بمناسبة قبول تونس لحكم فرنسا الجديد .(١٤)
مركبان حربيان مسلحان			١٧٩١	اسبانيا	هدية	بمناسبة عقد المعاهدة بين البلدين .(١٥)
	ثمانمائة قنبلة "bombes" .		١٧٩٢	فرنسا	عطاء بعدان اختلفت الحكومتان عن صفة المعاملة	(١٦)

١٠ـ المصدر والوثيقة ذاتهما . ١١ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٨ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٠ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٠٧٧ . ١٢ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٣٠ جانفي /كانون الثاني ، ١٧٩١ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٠٧٧ . ١٣ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جوان/ حزيران ، ١٧٧٢ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٠٧٧ . ١٤ـ رسالة من مصطفى خوجه الى الحكومة الفرنسية ، تونس ، ٧ جوان/حزيران ، ١٧٩١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . ١٥ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٥ . ١٦ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جويلية/تموز ، ١٧٩١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج٣ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ؛ رسالة من الحكومة الفرنسية الى دوفواز ، باريس ، ٢٤ سبتمبر /ايلول ، ١٧٩٢ ، المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٢١٧ .

ملحـــــق رقـم ٤ (تابـع)

سفن حربيـة	مدافع وبارود و "عتـــــاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبـــر وصولها لتونس	المصـدر	صفة المعاملة	ملاحظـــــات
	ثمانية واربعون مدفعا مختلفة الاحجام ، خمسمائة برميل من البارود للمدافع ، مائتي لوح خشب Planks ، مائة خشبة كبيرة لبنـاء السفن ، واحد وثلاثون حبلا من حديد ، اربعة وثلاثون حبلا سميكا ، سبعون قنطارا من الحبال ، ستون وستون قطعة من قمـاش لصنع الاشرعة ، قذائف مدفعية مختلفـــة الاحجام وغير ذلك .		١٧٨٦	الدانمرك	هديـــة	قيم قنصل بريطانيا تكاليف هذه الهدية باربعة الاف جنيه استرليني ... باشا اهدى البلاد الدانمركي بالمقابل ثمانية خيول عربيـة ممتازة . (١٠)
	تونس تستورد كميات كبيرة من البارود		١٧٩٠	الدولـة العثمانية		(١١)
	عتاد حربي منوع واسلحة تستعمل في السـفن الحربية	كميات كبيرة من البنادق	١٧٩١	السويـد	هديـة	(١٢)
مركـب			١٧٩١	فرنسـا	شـــراء	(١٣)
	اسلحة وعتاد حربي		١٧٩١	فرنسـا	هديـة	بمناسبة قبول تونس لحكم فرنسا الجديد . (١٤)
مركبان حربيان مسلحان			١٧٩١	اسبانيا	هدية	بمناسبة عقد المعاهدة بين البلدين . (١٥)
	ثمانمائة قنبلة "bombes" .		١٧٩٢	فرنسـا	عطاء بعدان اختلفت الحكومتان عن صفة المعاملة	(١٦)

١٠ـ المصدر والوثيقة ذاتهما . ١١ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس، ٨ ديسمبر / كانون الاول ، ١٧٩٠، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ . ١٢ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس، ٣٠ جانفي /كانون الثاني ، ١٧٩١، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ . ١٣ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جوان/ حزيران ، ١٧٧٢، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ . ١٤ـ رسالة من مصطفى خوجه الى الحكومة الفرنسية ، تونس، ٧ جوان/حزيران، ١٧٩١ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . ١٥ـ روسو ، حوليات تونسية ، ص ٢٢٥ . ١٦ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جويلية/ تموز ، ١٧٩١، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج٣، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ؛ رسالة من الحكومة الفرنسية الى دوفواز ، باريس، ٢٤ سبتمبر /ايلول ، ١٧٩٢، المصدر ذاته ، ج٣ ، ص ٢١٧ .

ملحـــق رقم ٤ (تابـع)

سفن حربيـة	مدافع وبارود و "عتـاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها التونس	المصدر	صفقةالمعاملة	ملاحظـات
أسرع سفينةامريكية باوروبا			١٧٩٢		شـراء	البنادقة استولوا عليها عندما كانت راجعة من فرنسا الى غار الملح (١٧)
مركب حربي ذو اثني عشر مدفعا	بارود مدافع، حبال، زفت، خشب لبناء السفن		١٧٩٢	الدانمرك		(١٧)
	عتـاد حربـي		١٧٩٢	السـويد		(١٧)
	ثلاثون مدفعا، ستة الاف قذيفة، ٤٢ حبلا كبيرا، مائة برميل بارود، عشرون بالة قماش لصنع الاشرعة، ستمائة قنطار من الحبال		١٧٩٢	الدانمرك	هديـة	(١٨)
	"كميات كبيرة من العتاد الحربي"		١٧٩٢	فرنسـا		(١٩)
	"كميات كبيرة جدا من الاسلحة"		١٧٩٣	السـويد والدانمرك	هديـة	(٢٠)
سفينة حربية بكامل اسلحتها			١٧٩٤	فرنسـا	هديـة	اسم السفينة "le Jacobin" (٢١)

١٧ ـ رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس، ٢٦ جوان / حزيران، ١٧٩٢، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧. ١٨ ـ رسالة من دوفواز الى حكومته، تونس، ١٢ جويلية / تموز، ١٧٩٢، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥. ١٩ ـ رسالة من ماجرا الى حكومته، تونس ١٣ سبتمبر/ ايلول، ١٧٩٢، خزينة الوثائق البريطانية، ملف ٣/ ٧٧. ٢٠ ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته، تونس، ١٦ جانفي / كانون الثاني، ١٧٩٣، المصدر ذاته، ملف ٣/ ٧٧.

٢١ ـ انظر اعلاه، ص ٢١٨، تعليق رقم ١؛ انظر ايضا رسالة من الحكومة الفرنسية الى قنصلها بتونس، باريس، ٧ سبتمبر/ ايلول، ١٧٩٤، بلانتي، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

ملحق رقم ٤ (تابع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها التونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
أسرع سفينة امريكية باوروبا			١٧٩٢		شراء	البنادقة استولوا عليها عند ما كانت راجعة من فرنسا الى غار الملح (١٧)
مركب حربي ذو اثني عشر مدفعا	بارود مدافع ، حبال ، زفت ، خشب لبناء السفن		١٧٩٢	الدانمرك		(١٧)
	عتاد حربي		١٧٩٢	السويد		(١٧)
	ثلاثون مدفعا ، ستة الاف قذيفة ، ٤٢ حبلا كبيرا ، مائة برميل بارود ، عشرون بالة قماش لصنع الاشرعة ، ستمائة قنطار من الحبال		١٧٩٢	الدانمرك	هدية	(١٨)
	"كميات كبيرة من العتاد الحربي"		١٧٩٢	فرنسا		(١٩)
	"كميات كبيرة جدا من الاسلحة"		١٧٩٣	السويد والدانمرك	هدية	(٢٠)
سفينة حربية بكامل اسلحتها			١٧٩٤	فرنسا	هدية	اسم السفينة 'le Jacobin' (٢١)

١٧ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٢٦ جوان / حزيران ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ . ١٨ـ رسالة من دوفواز الى حكومته ، تونس ، ١٢ جويلية / تموز ، ١٧٩٢ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ . ١٩ـ رسالة من ماجرا الى حكومته ، تونس ١٣ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٣/ ٧٧ . ٢٠ـ رسالة من القنصل ذاته الى حكومته ، تونس ، ١٦ جانفي /كانون الثاني ، ١٧٩٣ ، المصدر ذاته ، ملف ٣/ ٧٧ . ٢١ـ انظر اعلاه ، ص ٢١٨ ، تعليق رقم ١ ، انظر ايضا رسالة من الحكومة الفرنسية الى قنصلها بتونس ، باريس ٧ سبتمبر/ايلول ، ١٧٩٤ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

ملحق رقم ٤ (تابع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
	" ثلاثون الف صندوق من البارود (كل الف صندوق تزن ثلاثة الاف رطل)، عشرون الف قذيفة مختلفة الاحجام ".		١٧٩٥	فرنسا	نصفها شراء ونصفها هدية من الحكومة الفرنسية	اشتكى الباي من ارتفاع هذه اسعار ذلك العتاد (٢٢)
مركب حربي مزود بجميع لوازمه سميت "الاسلامبولية"	مدد حربي من الترسخانة العثمانية الى تونس اثنا عشر مدفعا من النحاس، كميات كبيرة من الخشب لصنع المراكب، الفا قنطار من البارود، كور وقلاع وحبال وغير ذلك من آلات السفن "		١٧٩٥	الدولة العثمانية	هدية	جلب الوزير صاحب الطابع هذه الهدية معه عند رجوعه من سفارته الى اسطنبول سنة ١٧٩٥. (٢٣)
	ثمانية وعشرون مدفعا، عشرة الاف قذيفة، ثلاثمائة قنطار من البارود، اربعمائة قنطار من الحبال .		١٧٩٩	الولايات المتحدة الاميركية	ضريبة لتونس	(٢٤)
	عتاد حربي، خشب لصنع المراكب		١٨٠٠	الولايات المتحدة الاميركية	هدية	(٢٥)

٢٢ـ رسالة من الحكومة الفرنسية الى حمودة باشا، باريس، ١٢ اكتوبر/ تشرين الاول ، ١٧٩٥، ج ٣، ص ٦٨، ٦٩؛ رسالة من هيركولي الى حكومته، تونس، ٦ ديسمبر/ كانون الاول ، ١٧٩٥، المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٧٤ . ٢٣ـ ابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٣، ص ٣؛ وانظر اعلاه، ص ٤٠٣-٤٠٤، ٤٥١.

٢٤ـ Secriteriat d'Etat aux Affaires Etrangeres, Etudes et Documents: les relations Tunis U.S.A., serie no 1, pp. 30 - 31.
سنشير الى هذا المرجع بـ كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس، العلاقات بين تونس والولايات المتحدة الامريكية .

٢٥ـ رسالة من دوفواز الى حكومته، تونس، ٢١ افريل / نيسان ، ١٨٠٠، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

ملحق رقم ٤ (تابع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
	"ثلاثون الف صندوق من البارود (كل الف صندوق تزن ثلاثة الاف رطل)، عشرون الف قذيفة مختلفة الاحجام".		١٧٩٥	فرنسا	نصفها شراء ونصفها هدية من الحكومة الفرنسية	اشتكى الباي من ارتفاع هذه اسعار ذلك العتاد (٢٢)
مركب حربي مزود بجميع لوازمه سميت "الاسلامبولية"	مدد حربي من الترسخانة العثمانية الى تونس اثنا عشر مدفعا من النحاس، كميات كبيرة من الخشب لصنع المراكب، الفا قنطار من البارود، كور وقلاع وحبال "وغير ذلك من آلات السفن"		١٧٩٥	الدولة العثمانية	هدية	جلب الوزير صاحب الطابع هذه الهدية معه عند رجوعه من سفارته الى اسطنبول سنة ١٧٩٥. (٢٣)
	ثمانية وعشرون مدفعا، عشرة الاف قذيفة، ثلاثمائة قنطار من البارود، اربعمائة قنطار من الحبال.		١٧٩٩	الولايات المتحدة الاميركية	ضريبة لتونس	(٢٤)
	عتاد حربي، خشب لصنع المراكب		١٨٠٠	الولايات المتحدة الاميركية	هدية	(٢٥)

٢٢- رسالة من الحكومة الفرنسية الى حمودة باشا، باريس، ١٢ اكتوبر/ تشرين الاول، ١٧٩٥، ج ٣، ص ٦٨، ٦٩؛ رسالة من هيركولي الى حكومته، تونس، ٦ ديسمبر/ كانون الاول، ١٧٩٥، المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٧٤. ٢٣- ابن ابي الضياف، اتحاف، ج ٣، ص ٣١، وانظر اعلاه، ص ٤٠٣-٤٠٤، ٤٥١.

٢٤- Secriteriat d'Etat aux Affaires Etrangeres, <u>Etudes et Documents: les relations Tunis U.S.A.</u>, serie no 1, pp. 30 - 31.
سنشير الى هذا المرجع بـ كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس، <u>العلاقات بين تونس والولايات المتحدة الامريكية</u>.

٢٥- رسالة من دوفواز الى حكومته، تونس، ٢١ افريل / نيسان، ١٨٠٠، بلانتي، <u>مراسلات بايات تونس</u>، ج ٣، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

ملحـــــق رقم ٤ (تابـــع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
		الفابندقية بحرابها	١٨٠١			يقول التقرير ان تلك البنادق تحصل عليها حمودة باشا منذ اوائل عهده ، (٢٦)
اثنا عشر زورقا كبيرا مزودا بالمدافع وبعض المراكـــب			١٨٠١			(٢٦)
	بعض المدافع المختلفة الاحجام		١٨٠١	بريطانيا	شـــراء	لتوضع على اسوار مدينة تونس ، وفي نفس هذه السنة وقع حريق في ترسخانة حمودة باشا احترقت فيه كميات كبيرة من الاسلحة (٢٧)
	براميل من البارود	مسدسات ايطالية	١٨٠٢			(٢٨)
	"اســـلحة"		١٨٠٢	البندقية		(٢٩)
	"حمولة سفينة من الاســـلحة"		١٨٠٢	الولايات المتحدة الامريكية	ضريبة لتونس	اسم السفينة الناقلة Le Grand Turc (٣٠)
	حمولة مركب خشبا لبناء الســـفن		١٨٠٤	الســـويد	هديـــة	(٣١)
مركـــب حربي	حمولة اربع سفن : عتاد حربي متنوع منه مدافع من حديد		١٨٠٤	الســـويد	هديـــة	(٣٢)

٢٦ـ تقرير غفل ، تونس ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ ٠ ٢٧ـ ارنولد و سولر ، مراسلات ، ص ٠٣٣ ٢٨ـ تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس ، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٠٧٧ ٢٩ـ الوثيقة والمصدر ذاتهما ٠ ٣٠ـ كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس ، العلاقات بين تونس والولايات المتحدة الامريكية ، ص ٣٠ ٠ ٣١ـ رسالة من كلارك الى حكومته ، تونس ١٣ جوان/حزيران ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٠٧٧ ٣٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته تونس ، ٦ اوت/ اب ، ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ ٠

ملحـــــق رقم ٤ (تابـــع)

سفن حربية	مدافع وبارود و"عتاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
		الفابندقية بحرابها	١٨٠١			يقول التقرير ان تلك البنادق تحصل عليها حمودة باشا منذ اوائل عهده (٢٦)
اثنا عشر زورقا كبيرا مزودا بالمدافع وبعض المراكب			١٨٠١			(٢٦)
	بعض المدافع المختلفة الاحجام		١٨٠١	بريطانيا	شراء	لتوضع على اسوار مدينة تونس، وفي نفس هذه السنة وقع حريق في ترسخانة حمودة باشا احترقت فيه كميات كبيرة من الاسلحة (٢٧)
	براميل من البارود	مسدسات ايطالية	١٨٠٢			(٢٨)
	"اسلحة"		١٨٠٢	البندقية		(٢٩)
	"حمولة سفينة من الاسلحة"		١٨٠٢	الولايات المتحدة الامريكية	ضريبة لتونس	اسم السفينة الناقلة (٣٠) Le Grand Turc
	حمولة مركب خشبا لبناء السفن		١٨٠٤	السويد	هدية	(٣١)
مركب حربي	حمولة اربع سفن : عتاد حربي متنوع منه مدافع من حديد		١٨٠٤	السويد	هدية	(٣٢)

٢٦ـ تقرير غفل ، تونس ٢٦ ماى / ايار ، ١٨٠١ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب٣ ، ٣٠٤ • ٢٧ـ ارنولد و سولر ، مراسلات ، ص ٣٣ • ٢٨ـ تقرير من ماجرا الى حكومته ، تونس، ٣٠ سبتمبر/ ايلول ، ١٨٠٢ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ • ٢٩ـ الوثيقة والمصدر ذاتهما • ٣٠ـ كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس ، العلاقات بين تونس والولايات المتحدة الامريكية ، ص ٣٠ • ٣١ـ رسالة من كلارك الى حكومته تونس ١٣ جوان/حزيران ١٨٠٤ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ • ٣٢ـ رسالة من ماجرا الى حكومته تونس ، ٦ اوت/ اب ، ١٨٠٤ ، المصدر ذاته ، ملف ٥/ ٧٧ •

ملـــــق رقم ٤ (تابـــــع)

سفن حربية	مدافع وبارود و "عتـــاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبر وصولها لتونس	المصدر	صفة المعاملة	ملاحظات
	مدافع ضخمة جدا من ليغورنة ، احدها تزن قذيفته ثمانين رطلا .		١٨٠٤	ليغورنة	شراء	المدفع الكبير جدا كان يحطم زجاج النوافذ عند القصف (٣٣)
	"مائة وخمسون مدفعا مع ذخيرتها"		١٨٠٤	السويد		(٣٤)
سفينة حربية			١٨٠٦	الولايات المتحدة الامريكية	هدية	اسم هذه السفينة "Franklin" (٣٥)
	"حمولة سفن بريطانية اعتدة حربية"		١٨٠٧	بريطانيا		(٣٦)
	استولى الجيش التونسي تحت امرة الوزير يوسف صاحب الطابع على "اثقال المحلة الجزائرية من مدافع وسلاح ... وغير ذلك من الالات".		١٨٠٧	الجزائر	اسلاب	كان ذلك اثناء الحرب التونسية ـ الجزائرية (٣٧)
عدد من المراكب القليلة السلاح			حو ١٨١٠	نابلي	استيلاء عن طريق القرصنة	(٣٨)
عدد من السفن الحربية			١٨١٠ـ١٨١١	بريطانيا	شراء	تم تسليم تلك السفن في مالطة (٣٩)
		ستة الاف بندقية	١٨١٣	فرنسا	شراء	وافقت فرنسا عن هذه الصفقة منذ سنة ١٨٠٦ غير انها لم تنجزها الا سنة ١٨١٣ (٤٠)

٣٣ـ كانور وغرانشان ، "رحلة الاب كاروني" ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص٥١ . ٣٤ـ تقرير غفل ، تونس، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس، ب٣ ، ٣٠٤ . ٣٥ـ رسالة من اغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٨ فيفري/ شباط ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧، انظر اعلاه ، ص457 . ٣٦ـ رسالة من دونواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ، ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص ٤٧١، انظر اعلاه ، ص٢٩..

٣٧ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٩ . ٣٨ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص٧٥ـ٧٦ . ٣٩ـ انظر اعلاه ، ص٤٠ .

٤٠ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس، ١٧ افريل/ نيسان ، ١٨١٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس، ج ٣ ، ص٥٠٧ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية، ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ .

ملحـــق رقم ٤ (تابـــع)

ســفن حربيـة	مدافع وبارود و"عتـــاد"	بنادق ومسدسات	تاريخ خبــر وصولها لتونس	المصد ر	صفة المعاملة	ملاحظـــات
	مدافع ضخمة جدا من ليغورنة ، احدها يزن قذيفته ثمانين رطلا .		١٨٠٤	ليغورنـة	شـــراء	المدفع الكبير جدا كان يحطم زجاج النوافـذ عند القصف (٣٣)
	"مائة وخمسون مدفعا مع ذخيرتها"		١٨٠٤	السـويد		(٣٤)
سـفينة حربية			١٨٠٦	الولايات المتحدة الامريكية	هديـة	اسم هذه السـفينة "Franklin" (٣٥)
	"حمولة سفن بريطانية اعتدة حربية"		١٨٠٧	بريطانيـا		(٣٦)
	استولى الجيش التونسي تحت امرة الوزير يوسف صاحب الطابع على "اثقال المحلـة الجزائرية من مدافع وسلاح ... وغيـر ذلك من الالات".		١٨٠٧	الجزائـر	اسـلاب	كان ذلك اثناء الحـرب التونسية ـ الجزائرية (٣٧)
عدد من المراكـب القليلة السـلاح			نحو ١٨١٠	نابلـي	استيلاء عن طريق القرصنة	(٣٨)
عدد من السفن الحربية			١٨١٠ـ١٨١١	بريطانيا	شـــراء	تم تسليم تلك السفن في مالطة (٣٩)
		ستة الاف بندقيـة	١٨١٣	فرنســا	شـــراء	وافقت فرنسا عن هـذه الصفقة منذ سنة ١٨٠٦ غير انها لم تنجزها الا سنة ١٨١٣ (٤٠)

٣٣ـ كانور وغرانشان ، "رحلة الاب كاروني" ، المجلة التونسية ، عدد ١٢٠ (١٩١٧) ، ص٥١ . ٣٤ـ تقرير غفل ، تونس ، ١٨٠٥ ، خزينة الوثائق الفرنسية بباريس ، ب٣ ، ٣٠٤ . ٣٥ـ رسالة من اوغلاندر الى حكومته ، تونس ، ١٨ فيفرى/ شباط ، ١٨٠٧ ، خزينة الوثائق البريطانية ، ملف ٥/ ٧٧ ، انظر اعلاه ، ص٤٥٧ . ٣٦ـ رسالة من دفواز الى حكومته ، تونس ، ١٥ جويلية / تموز ، ١٨٠٧ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص ٤٧١ ، انظر اعلاه ، ص٢٩ – ٢٢ .
٣٧ـ ابن ابي الضياف ، اتحاف ، ج ٣ ، ص ٤٩ . ٣٨ـ فرانك ، وصف البلاد التونسية ، ص٧٥ـ٧٦ . ٣٩ـ انظر اعلاه ، ص٢٠ .
٤٠ـ رسالة من بيلون الى حكومته ، تونس ، ١٧ افريل/ نيسان ، ١٨١٣ ، بلانتي ، مراسلات بايات تونس ، ج ٣ ، ص٥٠٧ ؛ خزينة وثائق الدولة التونسية ، ملف رقم ٨١ ، كرتون رقم ٢٠٦ .

ثبت بالمصادر والمراجـــــع

المصـــــادر

أ٠ المصادر الاجنبية [١]

١٠ الوثائـــــق

(١) خزائن الوثائـــق

1- Les archives nationales tunisiennes

(خزينة وثائق الدولة التونسية)

2- Les archives nationales francaises

(خزينة الوثائق الفرنسية بباريس)

3- Les archives du Quai d'Orsay

(خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية)

4- Les archives de la Residence genérale à Tunis

(خزينة وثائق القنصلية الفرنسية بتونس)

5- The Public Record Office (London)

(خزينة الوثائق البريطانية)

6- خزينة وثائق رئاســة الحكومة التركيـــــــــــة

(خزينة الوثائق العثمانية)

(٢) مجموعات وثائقية منشـــــورة

7- Loth, G., Arnoldo Soler chargé d'affaires d'Espagne

١- سأشير الى ترجمة اسماء المؤلفين والكتّاب الاجانب وترجمة اسماء مؤلفاتهــم وأضعها بين قوسين مباشرة بعد ذكر المصدر او المرجع، وذلك على الشكل الذى وردت به في هذه الدراسة ٠ في ما يتعلق بذكر عناوين المصادر والمراجع الاجنبية اعتمدت الطريقة التي اتبعت في الطبعات الاصلية التـــي رجعت اليها ٠

à Tunis et sa correspondance (1808 - 1810), Tunis, 1905.
(أرنولد وسولر ، مراســــــلات ٠)

8- Plantet, E. Correspondance des deys d'alger avec la Cour de France 1579 - 1833, recueillie dans les dépots d'archives des Affaires Etrangères, de la Marine, des Colonies et de la Chambre de Commerce de Marseille, 2 vols., Paris, Librairie Ballière, 1889.
(بــلانتي ، مراسلات دايات الجزائر ٠)

9- ________, Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la Cour 1577 - 1830, 3 vols., Paris, Alcan, 1893 - 1899. (بلانتي ،مراسلات بايات تونس ٠)

٢٠ كتب ودراسات أولية

(١) الكتب والدراسات مرتبة حسب التسلسل الابجدي لاسماء مؤلفيها او ناشريــــها ٠

10- Anonyme, Memoire concernant le systême de paix et de guerre que les puissances europeennes pratiquent à l'égard des regences barbaresques, traduit de l'italien par le Chevalier d'Henin (secretaire d'Ambassade de France à Venise), seconde édition, Venize, Formaleoni, 1788.

11- Anonyme, Précis historique sur les nations barbaresques, suivi d'un tableau des crimes, des horreurs et des brigandages des pirates africains..., 2 vols., Paris, Tiger, (s.d.).
(موجز تاريخي لبلدان شمال افريقيا)

12- Canard, M., "Une description de la côte barbaresque au XVIII^{e} siècle, par un officier de la marine russe", R. A., vol. 95 (1951), pp. 121 - 186.
(كانار ، "وصف سواحل شمال افريقيا بقلم ضابط روسي " ٠)

13- Emerit, M., "Un mémoire inédit de l'abbé Raynal sur la Tunisie au XVIII^{e} siècle", R. T., no 3 - 4 (1948), pp. 131 - 183.
(الاب رينال " تقرير " ٠)

14- Gondolphe, M., "La tragique aventure d'Andrea Poggi 1809", R. T., no 167 (1927), pp. 41 - 58. (بوغجي ، "سـيرة " ٠)

15- Grandchamp, P., et Conor, M., Journal de l'ambassade de Suleiman Aga à la Cour de France: Janvier - Mai 1777, Tunis, Imprimerie Rapide, 1917. (غرانشان ، سفارة سليمان آغا ٠)

16- ______________, La mission de Pléville - Le - Pelley à Tunis (1793 - 1794), (documents inédits publiés sous les auspices de la Residence generale de France à Tunis), Tunis, Imprimerie Rapide, 1921. (غرانشان ، مهمة بللي في تونس)

17- ______________, Documents relatif aux corsaires tunisiens (2 Octobre 1777 - 4 Mai 1824), Tunis, Imprimerie Génerale, 1925. (غرانشان ، وثائق تتعلق بالقرصنة التونسية ٠)

18- Mantran, R., "Documents turcs relatifs à l'armée tunisienne", C.T., tome 4 (1956), pp. 359 - 372.

19- __________, "La titulature des beys de Tunis au XIX^{e} siècle, d'après les documents d'archives turcs du Dar el-Bey", C.T., tome 5 (1957), pp. 341 - 348.

20- Medina, G., "Les Karamanli de la Tripolitaine et l'occupation temporaire de Tripoli par Ali Bourgour", R.T., no 64 (1907), pp. 21 - 32.
(مادينا ، " قرمانليو طرابلس وعلي برغـل " ٠)

21- Pignon, J., Un document inédit sur la Tunisie au XVII^{e} siècle, Paris, Presse Universitaire de France, (s.d.).
(بينيون ، وثيقة تتعلق بتاريخ تونس في القرن السابع عشر ٠)

22- Roy, B., "Documents sur l'éxpédition de Tripoli en 1209 de l'hégire (1795)", R.T., no 58 (1906), pp. 283 - 291.
(روى ، " وثائق عن حملة طرابلـــس " ٠)

23- Serres, V., et Lasram, M. (translators), Mechra el Melki: chronique tunisienne (1705 - 1771): pour servir à l'histoire des quatres premiers Beys de la famille Husseinite par Mohammed Seghir Ben Youssef de Beja, Tunis, Imprimerie Rapide, 1909. (ابن يوسف ، المشروع الملكي ٠)

24- Tassy (de), L., Histoire des états barbaresques qui exercent la piraterie, contenant l'origine, les revolutions et l'état présent des royaumes d'Alger, de Tunis, de Tripoli et de Maroc, avec leurs forces, leurs revenus, leur politique, et leur commerce, 2 vols., Paris, Chaubert et Herissant, 1757. (دي ساسي ، تاريخ بلدان البربر ٠)

٣ ٠ الرحلات مرتبة حسب التسلسل التاريخي لسني زيارة مؤلفيها لتونس ٠

25- Shaw, T., (visited Tunisia in 1735), Travels; or, Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant, Oxford, the Theatre, 1738. (شــو ، رحلات ٠)

26- La Malle (de), D., Peyssonnel (visited North Africa from 1724 to 1725) et Desfontaines (visited Tunisia from 1783 to 1786), Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, 2 vols., Paris, Librairie de Gide, 1838.
(بيســونال ، رحلة ٠)
(ديفونتان ، رحلة ٠)

27- Anonyme (in Tunisia in 1784), Voyage dans les Etats Barbaresques de Maroc, Alger, Tunis et Tripoli; ou Lettres d'un des captifs qui viennent d'etre rachetés par MM. les Chanoines réguliers de la Sainte Trinité. Suivies d'une notice sur leur rachat, et du catalogue de leurs noms,

Paris, Guillot, 1785.
(الرحالة المجهول ، رحلة عبر بلدان شمال افريقيا)

28- Stanley, E., (in Tunisia from 1784 to 1786), Observations on the city of Tunis and the adjacent country, with a view of Cape Carthage, Tunis bay, and the Goletta, taken on the spot, London, Edward's, 1786.
(ستانلي ، مشاهدات في مدينة تونس .)

29- L'abbé Poiret, Voyage en Barbarie; ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786, sur la religion, les coutumes et les moeurs des Maures et des Arabes - Bédouins; avec un Essai sur l'Histoire Naturelle de ce pays, Paris, Nee de la Rochelle, 1789. (بـــواري ، رحلـــة .)

30- Conor, M., et Grandchamp, P., "Relation du court voyage d'un antiquaire amateur (F. Caroni) surpris par les corsaires, conduit en Barbarie et heureusement rapatrié (1804)", R. T., no 117 (1916), pp. 287 - 294; nos 118 - 119 (1916), pp. 293 - 403; no 120 (1917), pp. 30 - 54; no 121 (1917), pp. 96 - 122. (كانور وغرانشان ، " رحلة الاب كاروني " .)

31- Humbert, J. E., (in Tunisia from 1806 to 1817), Notice sur Quatre Cippes sépulcraux et deux fragments, la Haye, Imprimerie De Lyon, 1821.

32- Marcel, J. J., *Histoire de Tunis, précédee d'une description de cette régence par le docteur Louis Frank* (in Tunisia from 1806 - 1812?), Paris, Didot Frères, 1851.
(فرانـــك ، *رحلـــة* ٠)

33- Chateaubriand, F., (visited Tunisia in 1807), *Itinéraire de Paris à Jerusalem,* 2 vols., Paris, Imprimerie de Lagny, 1881. (شاتوبريـــان ، *رحلـــة* ٠)

34- Hugon, H., "Une Mission topographique à Tunis en 1808", *R.T.,* no 53 (1905), pp. 369 - 376. (هيجون ،"مهمة بوتان" ٠)

35- Maggill, T., *Nouveau voyage à Tunis*, publié en 1811 par M. Thomas Maggill, et traduit de l'anglais avec des notes par M. ... [Ragueneau de la Chesnaye] , Paris, 1815.
(مجـــيل ، *رحلـــة* ٠)

36- Grandchamp, P., "A propos du séjour à Tunis de Caroline de Brunswick, Princesse de Galles (4 - 22 Avril 1816)", *R.T.*, no 17 (1934), pp. 59 - 72.
(غرانشان ، " ريارة كارولين دى برانشفيك ٠)

ب ٠ المصادر العربيـــة

١ ٠ المخطوطات ، مرتبة على حسب وفيات مؤلفيها ، وعند افتقارنا لتاريخ الوفاة نوردها حسب تقدير تقريبي لسنة الوفاة ٠

٣٧ - خوجــة ، حسين (ت: ١٧٥٥) ، بشائر اهل الايمان في فتوحات آل عثمان ، نسخ عن الاصل سنة ١٧٦٥ ، يوجد بدار الكتــب الوطنية بتونس تحت رقم ٢٠٣ مخطوطات .

٣٨ - ابن عبد العزيز ، حمودة (ت. ١٧٨٧) ، التاريخ الباشي ، يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٧٩٤ مخطوطات .

٣٩ - بيــرم ، ابو عبد الله محمد بن حسين (ت. ١٨٠٠) ، رسالة فــي السياسات الشرعية ، مخطوط ملك احد الخواص في تونس .

٤٠ - التنبكتاوى ، احمد بن ابي بكر (ت. بعد سنة ١٨٠٠) ، هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر ، مخطوط ملك احد الخواص في تونس .

٤١ - مقديش ، محمود بن سعيد الصفاقسي (ت. ١٨١٣) ، نزهة الانظار فــي عجائب التواريخ والاخبار ، ٢ج ، يوجد بدار الكتب الوطنيــة بتونس تحت رقم ٢٢٠ مخطوطات .

٤٢ - المؤلف مجهول ، الفخرية في فضل الدولة الحسينية ، يوجد بدار الكتــب الوطنية بتونس تحت رقم ١٧٨٨٦ مخطوطات .

٤٣ - المناعي ، محمد بن سليمان (ت. ١٨٣١) ، كنش ، يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٦٥٨٩ مخطوطات .

٤٤- ابن سلامة ، محمد بن الطيب (ت· ١٨٤٩) ، العقد المنضد في اخبار مولانا المشير احمد ، يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٨٦١٨ مخطوطات ·

٤٥- ________ ، الدرة النفيسة في امراء تونس الانيسة : ارجوزة في تاريخ امراء الدولة الحسينية ، مخطوط ملك المغفور له المرحوم الفاضل ابن عاشور ·

٢· كتب تاريخ عامة منشورة

٤٦- ابن ابي دينار ، محمد الرعيني (ت· ١٦٩٨) ، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، الطبعة الثالثة ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، ١٩٦٧ ·

٤٧- الجبرتي ، عبد الرحمان (ت· ١٨٢٥) ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٧ج ، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وغيره ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ - ١٩٦٧ ·

٤٨- ابن ابي الضياف ، احمد (ت· ١٨٧٤) ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ٨ج ، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والارشاد ، تونس ، المطبعة الرسمية ، ١٩٦٣ - ١٩٦٤ ·

الدراسات والمراجع الثانوية

أ · الدراسات والمراجع الاجنبية مرتبة حسب التسلسل الابجدي لاسماء مؤلفيها او محققيها ·

49- Anonyme, Une promenade à Tunis en 1842, Paris, 1844.
(الضابط السويسرى ، جولة في تونس ٠)

50- ________, La Tunisie et la civilisation, Paris, Imprimerie de Poitevin, 1867. (المؤلف المجهول ، تونس والتمدن ٠)

51- ________, ("Par un engenieur qui a voyageé et habité dans le pays [la Tunisie] pendant plus de vingtcinq années"), Tunis et la Tunisie, Paris, Paul Schmidt, 1881.
(المهندس المجهول ، تونس والبلاد التونسية ٠)

52- Arnoulet, F.,"Les Exportations Tunisiennes de 1802 à 1881", I.B.L.A., vol. 10 (1947), pp. 167 - 179.
(ارنولي ، " صادرات تونس، ١٨٠٢ ـ ١٨٨١" ٠)

53- Atger, A., Les corporations tunisiennes, Paris, Arthur Rousseau, 1909.

54- Basset, A., Bercher, L., Brunschwig, R., Calvet, M., Cardoso, A., Despois, J., Gobert, E., Idris, H., Marcais, G., Marcais, W., Picard, G., Pignon, J., et Saumage, ch., Initiation à la Tunisie, Paris, Librairie d'Amerique et d'Orient, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1950. (باسيت ، تعريف بتونس ٠)

55- Bernard, P., Les anciens impots de l'Afrique du Nord, Paris, Saint - Raphael et Paris, 1925.

56- Billey, L., "Medecins francais en Barbarie 1816 - 1817", R.T., no 45 (1941), pp. 195 - 215.

57- Brockelmann, C., History of the Islamic Peoples, Translated by Joel Carmichael and Moshe Perlmann, New York, Putnam's Sons, 1960. (بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية .)

58- Candia (de), F., "Monnaies husseinites. -III. Monnaies frappées de l'année 1196 à l'année 1262 hég. (1782 à 1846)", R.T., no 17 (1934), pp. 73 - 92. (فروجيا ، " العملة الحسينية ، رقم ٣ " .)

59- Cardon, E., Etudes sur les progrés de la civilisation dans la régence de Tunis, Paris, 1861.

60- Creasy, E. S., History of the Ottoman Turks, Beirut, Khayats, 1961. (كريسي ، تاريخ الاتراك العثمانيين .)

61- Dauma, Ph., Quatre ans à Tunis, Alger, Tissier, 1857. (فليب دوما ، اربع سنوات في تونـــس .)

62- Direction du Commerce et du Travail (Tunisie), Poids et mesures en Tunisie, Tunis, Imprimerie Centrale, 1931.

63- Dumas, A., Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, 4 vols., Paris, A. Cadot, 1848 - 1851. (الكسندر دوما ، رحلـــة ٠)

64- Emerit, M., "L'essai d'une marine marchande barbaresque au XVIII^{e} siècle", C.T., tome 3 (1955), pp. 363 - 370.
(اميريت ، " اسطول تجارى شمال افريقي " ٠)

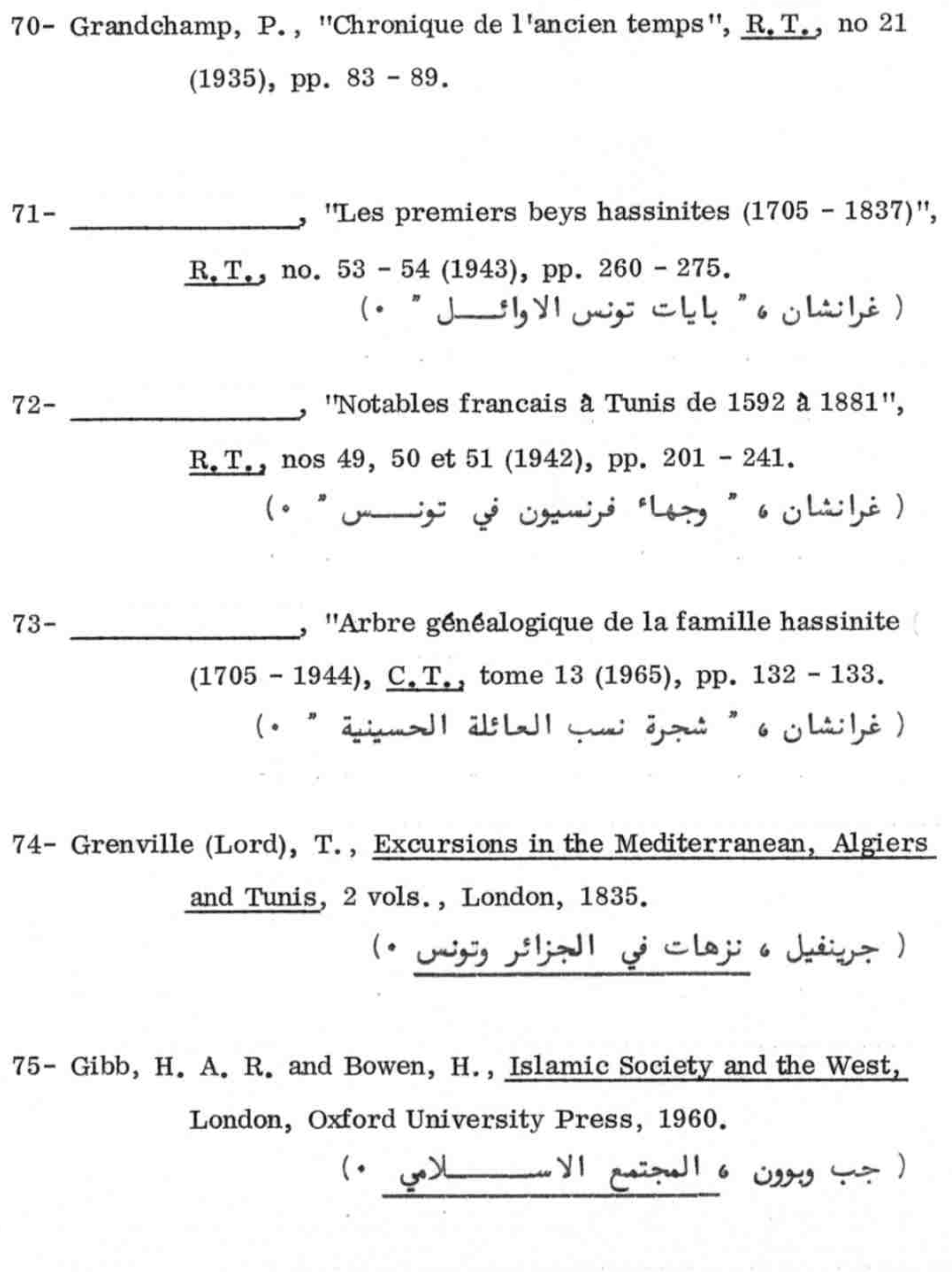
65- Faucon, N., La Tunisie depuis et avant l'occupation francaise, 2 vols., Paris, Plon, 1893.
(فوكون ، تونس منذ وقبل الاحتلال الفرنسي ٠)

66- Feraud, L. Ch., Annales tripolitaines, Paris, Vuibert, 1927.
(فيراند ، حوليات طرابلســـــية ٠)

67- Fisher, S. N., The Middle East, A History, London, Humphries, 1960. (فشـــر ، الشـــرق الاوســـط ٠)

68- Flaux (de), A., La Régence de Tunis au dix-neuvième siècle, Alger, Bastide, 1865. (دى فلو ، تونس في القرن التاسع عشر)

69- Fleury, M. V., "Les industries indigènes de la Régence", R.T., no 10 (1896), pp. 160 - 185.



70- Grandchamp, P., "Chronique de l'ancien temps", R.T., no 21 (1935), pp. 83 - 89.

71- ________________, "Les premiers beys hassinites (1705 - 1837)", R.T., no. 53 - 54 (1943), pp. 260 - 275.
(غرانشان ، " بايات تونس الاوائـــل " ٠)

72- ________________, "Notables francais à Tunis de 1592 à 1881", R.T., nos 49, 50 et 51 (1942), pp. 201 - 241.
(غرانشان ، " وجهاء فرنسيون في تونـــس " ٠)

73- ________________, "Arbre généalogique de la famille hassinite (1705 - 1944), C.T., tome 13 (1965), pp. 132 - 133.
(غرانشان ، " شجرة نسب العائلة الحسينية " ٠)

74- Grenville (Lord), T., Excursions in the Mediterranean, Algiers and Tunis, 2 vols., London, 1835.
(جرينفيل ، نزهات في الجزائر وتونس ٠)

75- Gibb, H. A. R. and Bowen, H., Islamic Society and the West, London, Oxford University Press, 1960.
(جب وبوون ، المجتمع الاســــلامي ٠)

76- Grosjean, G., La maitrise de la Méditerranée et la Tunisie pendant la Révolution francaise (1789 - 1802), Paris, 1914.

77- Hugon, H., Les emblèmes des Beys de Tunis, études sur les signes de l'autonomie husseinite: Monnaies, Sceaux, Etendards, Armoiries, Marques de dignités et de grades, Décorations, Médailles commémoratives militaires, Paris, E. Leroux, 1913. (هيجون ، شعارات بايات تونس ٠)

78- Julien, Ch. A., Histoire de l'Afrique du Nord: Tunisie - Algérie - Maroc de la conquête arabe à 1830, 2 vols., 2eme édition, Paris, Payot, 1966. (جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ٠)

79- Lamasse, M., "La station navale française de Tunis au milieux du XIX siècle", C.T., tome 4 (1956), pp. 351 - 357.
(لاماس ، " المحطة البحرية الفرنسـية " ٠)

80- Legendre, M., Survivance des mesures traditionnelles en Tunisie, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.

81- Legrand, A. D., La Tunisie: étude historique, Paris, Imprimerie J. Claye, 1873. (لوغران ، دراسة تاريخية لتونس ٠)

82- Lewis, B., The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, London New York Toronto, 1962.

83- Mallon, J., L'influence française dans la régence de Tunis avant l'établissement du protectorat, Publications Coloniales, 1931. (مالون ، تاثير فرنسا في تونس قبل الحماية ٠)

84- Mantran, R., "L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottoman du XVI^{e} au XIX^{e} siècle", C. T., tome 7 (1959), pp. 319 - 333.
(مانتران ، " العلاقات التونسية العثمانية " ٠)

85- Marcel, J. J., Histoire de Tunis ..., Paris, Didot Frères, 1851. (مارسال ، موجز تاريخ تونس ٠)

86- Martel, M., "L'armée d'Ahmed Bey", C.T., tome 4 (1956), pp. 350 - 387. (مارتال ، " جيش احمد بـــاى " ٠)

87- Marty, P., "Historique de la mission militaire francaise en Tunisie ...", R.T., no 23 (1935), pp. 171 - 207, 309 - 346.

88- Martz, E., "L'industrie Europeenne en Tunisie", R. T., no 13 (1897), pp. 19 - 26. (مارتز ، " الصناعة الاوروبية بتونس " ٠)

89- Mzali, M. S., "Une dissertation de Sidi Brahim Er Riahi sur une question de physique", R.T., no 126 (1918), pp. 124-127.

90- Oscar, G., La Tunisie, notice historique, Paris, 1861.
(أوسكار ، ملخص تاريخ تونس ٠)

91- Oualid, A., Principales époques de la Tunisie, documents pour servir à l'histoire de ce pays, Alger, Imprimerie Ailland, 1874. (وليد ، عهود رئيسية في تاريخ تونس ٠)

92- Pellegrin, A., Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, etymologie, signification, Tunis, S.A.P.I., 1949.

93- Rambaud, A., Histoire de la Russie, 7ème édition, Paris, Hachette, 1918.

94- Raymond, A., "Tunisiens et Maghrébins au Caire au dix-huitième siècle", C.T., tome 7 (1959), pp. 335 - 371.
(رايموند ، " تونسيون ومغاربة في القاهرة " ٠)

95- Rousseau, A., Annales tunisiennes, ou apercu historique sur la régence de Tunis, Alger, Bastide, 1864.
(روســـو ، حوليات تونســية ٠)

96- Sebag, P., "La peste dans la Régence de Tunis XVIIe et XVIIIe siècles", I.B.L.A., vol. 28 (1965), pp. 35 - 48.

97- Secreteriat d'Etat aux Affaires Etrangères (Tunisia), Etudes et Documents: les relations, Tunis U.S.A., serie no 1, (n.d.). (كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس ، العلاقات بين تونس والولايات المتحدة الامريكية .)

98- Valensi, L., "Les relations commerciales entre la Régence de Tunis et Malte au XVIII^{e} siècle", C.T., tome 11 (1963), pp. 71 - 83. (فالينزى ، " العلاقات التجارية بين تونس ومالطة " .)

99- Zmerli, S., "Une figure oublieé: Youssef Saheb Et-Tabaâ", R.T., no 21 (1935), pp. 37 - 50. (زمرلي ، " يوسف صاحب الطابع " .)

القواميس

100- Belot, J. B., Dictionnaire francais - arabe, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1952.

101- Dozy, R. P. A., Supplement aux dictionnaires arabes, Leyde, E. J. Brill, 1881. (دوزى ، قاموس .)

102- ____________, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes, Amsterdam, Jean Muller, 1845. (دوزى ، قاموس اللباس .)

103- Redhouse, J. W., English and Turkish Dictionnary, London, Bernard quaritch, 1856. (رادهاوس ، قامـوس ٠)

ب ٠ الدراسات والمراجع العربية مرتبة حسب التسلسل الابجدي لاسماء مـؤلفيهـا ٠

١٠٤ـ ابن الخوجة ، محمد ، " الوزراء الصدور بالمملكة التونسية " ، الرزنامـة التونسية ، ج ٢ (١٩٠٢) ، ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

١٠٥ـ ــــــــــــ ، " مقدمة تاريخية للمملكة التونسية " ، الرزنامـة التونسية ، ج٢ (١٩٠٢) ، ص ٨٢ ٠

١٠٦ـ الامـام ، رشـاد ، " تجارة تونس مع جنوب اوروبا في الفترة ١٥٧٣ ـ ١٧٠٢ " ، دراسة قدمـت للجامعة الامريكية في بيروت بالفصل الثاني من السنة الدراسية ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ، (مخطـوط) ٠

١٠٧ـ بيـرم ، محمد (ت٠ ١٩١٠) ، كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ، ٥ج ، القاهرة ، المطبعة الاعلامية ، ١٨٨٤ ٠

١٠٨ـ السـنوسي ، محمد (ت٠ ١٨٩٩) ، مسامرات الظريف بحسن التعريـف ، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية ، ٢ج ٠ (لا ط ٠) ، (لا ت ٠) ٠

١٠٩ـ زبيـس ، سليمان مصطفى ، آثـار الدولة الحسينية بالقطر التونسي ، تونس ، مطبعة سابي ، ١٩٥٥ ٠

١١٠ـ عبد الوهاب، حسن حسنين (ت. ١٩٦٨) ، خلاصة تاريخ تونس: مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من اقدم العصور الى الزمان الحاضر، الطبعة الثالثة ، تونس، مطبعة دار الفنون ، ١٩٥٣ .

١١١ـ ـــــــــــــ ، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، ٢ج ، تونس ، مكتبة المنار ، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ .

١١٢ـ الغــزي ، الهادي حمودة ، الشعر العربي في تونس على عهد الحسينيين ١٧٠٥ ـ ١٨٨١ ، رسالة دكتوراه تمت تحت اشراف الدكتور شوقي ضيف بجامعة القاهرة ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، ١٩٦٩ ، (مخطـــوط) .

١١٣ـ كامــل ، مــراد ، محقق كتاب تشريف الايام والعصور في سيرة الملــك المنصور ، لمحي الدين ابن عبد الظاهر (ت. ١٢٩٢) ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ .

١١٤ـ الكعاك ، عثمان ، محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب: من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، جامعة الدول العربية ، معهــد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، المطبعة الكمالية ، ١٩٥٨ .

١١٥ـ مخلــوف ، محمد (ت . حو. ١٩٤٥) ، شجرة النور الزكية في طبقــات المالكية ، ٢ج ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٩ .

١١٦ـ ميكاكــي ، رودلفو ، طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ، ترجمة طه فوزى ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ .